قصة
الأدب في اليمن

بسم الله الرحمن الرحیم

قصة الأدب في اليمن

أحمد محمد الشامي

مكتبة الإرشاد
صنعاء

حُقُوقُ الطَّبعِ مَحفُوظَةٌ

الطَّبْعَة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

أودع بدار الكتب ـ وزارة الثقافة والسياحة ـ صنعاء
برقم ٨٢٩ لسنة ٢٠٠٦ م

مكتبة الإرشاد

شارع ٢٦ سبتمبر - صنعاء - ص.ب: ٣٠١٩٠
هاتف: ٢٧٢١٩٠ - ٢٧١٦٧٧ - ٢٧٩٢٨٩
الجمهورية اليمنية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾
يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾

[قرآن كريم]

المقدّمة

لعل الأدب اليمني هو الأدب الوحيد ـ بين آداب اللغة العربية ـ الذي لم يُعْنَ به الأدباء.. لا أقول العناية التامة بل حتى ولا القليل منها... لا من قبل أدباء اليمن ولا من قبل أدباء العربية ومؤرخي آدابها في الأقطار الأخرى... على السواء. النثر منه والشعر، والمحكم والحُميني[1] والقديم منه والحديث.

ونظرة فاحصة إلى ما بين أيدينا من دراسات وكتب عن الأدب العربي وتأريخه العام لكبار الأدباء ترينا كم هو مجهول هذا الأدب، وكم هو مغمور... ولا أريد أن أتجنى، ولا أريد أن أتهم أحداً بالقصور أو التقصير.. لكنه فقط تسجيل لظاهرة، واعتراف بواقع.

أما أسباب ذلك فجمة، وإذا كان في وسع أي باحث يودّ أن يعرف شيئاً عن أدب اليمن، وأن يلاحظ أن اليمانيين لم يعنوا بنشر تراثهم وكتبهم، ودواوين شعرائهم، وآثار أدبائهم، ولم ينفقوا ما يجب في سبيل بثها ليسهل على الأدباء في الأقطار العربية الشقيقة قراءتها ودراستها والاطلاع عليها، فيحتفون بها ويقدرونها حق قدرها.. فإنه يستطيع في نفس الوقت أن يلاحظ أيضاً أن معظم أساتذة الأدب العربي في العصر الحديث لم يكلفوا أنفسهم

(١) الشعر الحميني نوع من شعر الموشحات خاص بأهل اليمن لا يلتزمون فيه قواعد الإعراب وحركاته وله أوزان معروفة وأشكال متوارثة كثيرة، ومميزات سنتعرض لذكرها عند الحديث عنه وعن مبدأ نشأته وأشهر أقطابه.

مشقة البحث، ولا جشَّموها صعوبة الدرس، ولا حاولوا حتى ولا بيسير جهد أن يكشفوا النقاب عن ذلك الكنز الدفين... ومن جهة أخرى لا بد للباحث أن يلاحظ - ثالثاً - إذا نقب وتعب، أن مخطوطات جمَّة من تراث الفكر اليمني النفيس تحفل بها دار الكتب المصرية وغيرها من المكاتب الشهيرة في العالم، وأن بعض فضلاء اليمن وعدداً من المستشرقين قد عنوا بطبع عدد قليل من تلك الآثار الفكرية، وأن كل ذلك كان يستحق أن يشار إليه، وأن يقتبس منه بل ويصلح أن يكون مصدراً غنياً لبحث ودرس وتأريخ.

كان لا بد من مدخل إلى البحث ولم أجد بداً من أن أسجل هذه الملاحظات في مطلع بحثي.. لا لكي أثبت أني أول من تحدث في هذا الموضوع من أبناء اليمن. ولا لكي أسجل تظلم الأدب اليمني من أساتذة ومؤرخي الأدب العربي.. ولكن لأعترف مقدماً أني مهما بَذَلتُ من جُهد فلن أستطيع أن أُشبع رغبة الأدب والفن، ولا أروي ظمأ المتعطشين إلى معرفة ذلك الأدب النفيس المغمور.

وليس في طاقتي أن أوفي الموضوع حقه فدون ذلك خرط القَتاد، وخصوصاً والبحث بكر، ومصادره متنافرة، وما من كتاب من كتب الأدب والتاريخ والتراجم، سواء منها القديمة أو الحديثة إلاّ وفيه حادثة تذكر من موضوعنا، وسأحاول أن أجمع الأجزاء المتناثرة، والقطع المبعثرة، والحوادث المتفرقة، وأؤلف منها شيئاً إن لم يَفِ بالغرض المرجو فلا بد أن يضع لبنة في بنائه. وإذا كان التاريخ اليمني عموماً لا يزال مُبهماً غامضاً عند الكثير من الناطقين بالضاد سواء من الناحية السياسية، أو الاجتماعية، أو من الناحية الفكرية أو الأدبية.. فإن الأدب اليمني أكثر غموضاً وإبهاماً، فلا يكاد يفهم الناس عنه شيئاً صحيحاً أو فاسداً.

ولكي ألتمس العذر لأدباء اليمن، ولأساتذة تاريخ آداب العرب، وأجنبهم تبعات نصف قرن أخرس... لا بد أن أشير إلى الظروف القاسية التي كانت تكتنف اليمن وتحيط بها.. وأقصد ما كان في اليمن وما كان يحدق بها من جهل وتأخر، وأخطار، وخوف، وأسباب ومسببات عَزلتها

عن العالم، وبعّدت بينها وبين الأقطار العربية التي كانت حينئذ تخضع لحكم المستعمر الدخيل بما يحمل معه من قوة باطشة، وثقافة موسومة بطابع استعماري كان لا بد أن يؤثر على ثقافة وأساليب زمرة من الباحثين والمؤلفين والمؤرخين للأمة العربية وآدابها في أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن... أولئك الذين فصّلوا الأدب العربي ووزعوه وقسموه إلى أطوار متخذين لهم من المستشرقين وأدباء الغرب أئمة في مناهجهم في النقد والبحث والتأليف، مستعيرين مقاييس ومعايير أجنبية إن عثروا على قوالب لها في آدابنا حيناً فقد جانبهم التوفيق أحياناً.

ونشب صراع فكري هائل في مطلع قرننا بين من وسموهم بالمحافظين ومن نبزوهم بالمجددين.. ولكن سرعان ما استسيغتْ هذه المناهج الحديثة وقطع المتأدبون فيها أشواطاً بعيدة، وكان من الصعب أن يعود القهقرى من يفكر أن يبدأ من جديد فيقلب تاريخ الأدب رأساً على عقب، أو من يريد أن يصلح أو يغيّر «على قلّة من فكّر أو أراد»، واستسهل المتأدبون ذلك المنهج واستساغوه وآمنوا بأحكامه ومعاييره... وظل هنالك بعيداً قلبٌ للعربية أبكم جامداً بدمه لا ينبض، ولسان بيانها أخرس، شارقاً بريقه لا يبين... وأهملوا أدباً كان لا يستحق الإهمال، ونسوه ولم يذكروه حتى بدمعة أسى ينزفونها على قبره المجهول، أو كلمة رثاء يسكبونها على ضريحه المفقود، وأبناؤه صامتون حيارى لا يكادون يملكون من أمر أدبهم ولا من أمر أنفسهم شيئاً، وتيار الحياة يَعُبُّ ويجري من حولهم. وهم لما لا يدرون منتظرون.

القاهرة - يناير ١٩٦١ -

أحمد الشامي

حضَارة اليَمن

سنطوي القرون القهقرى، ونتوغل في أعماق التاريخ البعيد حيث نضرب في مجاهله، ونخترق يهماءه، يحدونا حب المعرفة، والبحث عن الحقيقة، واستكناه حياة شعب عاش دهراً حافلاً بالحضارة والمدنية. وكان بما شيَّد من عمران، ونشر من حضارة، وأسهم من فن، مصدر نور، ومنبع حياة في هذا العالم..

في اليمن.. في تلك الأصقاع الشاسعة من جنوب جزيرة العرب بما تحتوي عليه من جبال، وسهول وصحارى.. ومنذ بضعة آلاف من السنين قامت مدنية تعدّ من أعظم مدنيات العالم القديم.

ورغم ما حدثنا به مؤرخونا العرب القدامى وما رووه عن تلك الممالك والمعالم في كتبهم وأشعارهم، بل وأساطيرهم. ورغم عناية الباحثين المحدثين من غربيين وشرقيين في التنقيب عن آثارها، واستنطاق نقوشها وتاريخ دولها عبر القرون، وما نقلوه إلينا في اكتشافاتهم من معالم الآثار وما صوروه من نقوش وعرفوه من أخبار ـ رغم ذلك كله ـ فما زلنا وما زال طلاب المعرفة في العالم أجمع في شغف شديد وتوقٌ طاغ إلى أن نعلم عنها الكثير ونعرف المزيد؛ فمع الأسف الشديد لا تزال معارفنا العربية في أمسِّ حاجة إلى أن تطبع وتنشر المخطوطات اليمنية القديمة التي اهتم مؤلفوها فيها بحفظ ما وعوه وما عرفوه وما رووه عن تاريخ اليمن القديمة ودولها وأنسابها ونقوشها وآدابها، وإلى أن يُعْنَى أبناء اليمن أنفسهم بتراثهم التاريخي العظيم المعرّض للضياع والدمار، والذي ما يزال مغموراً مطموراً،

مستعينين بالعلماء العارفين، المخلصين للعلم والفن، من العرب وغيرهم.

كما أن مكاتبنا العربية أيضاً في أمس حاجة إلى أن تترجم إلى اللغة العربية أبحاث المستشرقين الخاصة باليمن.

وجدير بنا قبل أن نتحدث عن هذه الحضارة وتلك المدنية وآدابها أن نحدد أولاً جغرافية اليمن، معتمدين الحدود الطبيعية التي ذكرها وأقرها العلماء والمؤرخون لا الحدود السياسية المعروفة في زماننا هذا.

يقول الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه «صفة جزيرة العرب»:

«سُميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزرعها، والبحر يطيف بها من المشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى المغرب يفصل بينها وبين باقي جزيرة العرب خط يأخذ من حدود عُمان ويبرِين إلى حد ما بين اليمن واليمامة، فإلى حدود الهجيرة وتثليث وأنهار جرش وكتبة، ومنحدراً في السراة إلى شعف عنز، إلى تهامة، إلى أم جحدم، إلى البحر حداً، وحذاء جبل يقال له كدُمّل بالقرب من حمضة وذلك حدّ ما بين كنانة واليمن من بطن تهامة»[1].

فأنت ترى أن هذا الوصف قد حدد اليمن الطبيعية، جاعلاً البحر محيطاً بها من الغرب وهو البحر الأحمر، ومن الجنوب وهو خليج عدن والمحيط الهندي، ومن الشرق وهو خليج عمان فاصلاً بعد ذلك البلاد اليمنية عما يجاورها من البلاد الشمالية، وهي نجد واليمامة والحجاز، معتبراً ما يسمى اليوم بعمان وحضرموت، والمحميات، زائداً المملكة اليمنية، وطناً واحداً لشعب واحد هو الشعب اليمني.

والمطلع على كتب التاريخ والأنساب يرى أن القبائل اليمنية القديمة قد عاشت مستوطنة ومتنقلة في هذه الأصقاع يجمعها أصل واحد، وعصبية واحدة ومتناسلة على حد ما تعرف أو كما زعم الرواة ـ من أب واحد هو

(١) صفحة ٥١ «صفة جزيرة العرب» وهو يوافق أيضاً ما قاله الأصمعي وغيره، وانظر «معجم البلدان» صفحة ٤٤٧ المجلد الخامس.

«قحطان»[1]، وأن الحضارة اليمنية قد ازدهرت في مختلف الظروف والأحوال في كل تلك الأقطار، ونشأ في كل منها دولة أو دول تمثل حلقة في تاريخ المدنية اليمنية القديمة.

وتأريخ دول هذه الحقبة محاط بالغموض والإبهام فلا نستطيع بالضبط أن نحدد مبدأ نشأتها إذ لا تزال الأبحاث ناقصة وكل يوم يظهر شيء جديد ينسخ شيئاً قديماً؛ فلا مناص لنا من انتظار ما ستكشفه الأبحاث عن نشأة تلك الحضارة وحدودها الزمنية. أما أهم ما نعرفه حتى الآن من تلك الممالك والدول فهي معين، وسبأ، وقتبان، وحضرموت، وحمير، والدولة المعينية من أقدمها. أما مبدأ ومكان نشأتها الأولى فلا يزال مجهولاً «وجلازر» يرى أن الأبجدية التي استعملها المعينيون في كتاباتهم ترجع إلى الألف الثانية أو الألف الثالثة قبل الميلاد.

وآخر عهد لمجد واستقلال الدول اليمنية القديمة كان سنة **٥٢٥م**، عندما غزا الأحباش أرض اليمن وقد استمر حكمهم حتى عام **٥٧٠م**، حينما ثار اليمانيون بقيادة «سيف بن ذي يزن الحميري» وطرد الأحباش من اليمن بمساعدة «الفرس» وبعده ظلت اليمن تحت وصاية «فارس» حتى اعتنق «باذان» ـ عامل كسرى على اليمن حينذاك ـ الإسلام؛ ودخلت القبائل اليمنية ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ وهذه الفترة الغابرة من هذا العهد القديم تعد بحق «العصر الذهبي» في تاريخ اليمن بل في تاريخ العرب القديم، إذ نرى فيه القبائل العربية في الجنوب قد بلغت الأوج من التقدم والعمران والمجد والسؤدد، وكانت آية في المدنية بكل معالمها ومتطلباتها، وهَيْمَنتْ تجارياً واقتصادياً وسياسياً على سائر الجزيرة العربية وكانت لدولها المتعاقبة أنظمتها الإدارية، وتشريعاتها الدستورية ومجالسها النيابية، وهيئاتها التشريعية بما يتفق ومتطلبات ذلك العصر. ثم تقادم بها الزمن، ودبت فيها عناصر الشيخوخة والفناء فَتآكلَ مجدها، وتلاشى جمالها، وفني جلالها، وانهار بنيانها، وأصابها ما يصيب كل الحضارات في كل زمان ومكان؛ فإذا بها آية في

(١) لنا في هذا الموضوع رأي خاص سنفصله بعد حين في هذا الكتاب.

الخراب والاضمحلال، وآية في الهوان والتأخر، وأصبحت عبرة للمعتبرين. ومهما بالغنا في وصف نموها وازدهارها، أو في تصوير تقهقرها وانهيارها، فلن نجد أبلغ تصويراً ولا أبدع تعبيراً، ولا أكمل ولا أوفى من وصف القرآن الكريم لكلتي الحالتين في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٥ ـ ١٩].

وقد افتن الرواة والقصاصون وأصحاب السير ونحلوا ملوك وأقيال وحكماء اليمنيين القدماء، وكهانهم أشعاراً وحكماً ووصايا، وحبروا الأقاصيص الغريبة وزوّقوها بالأشعار، ونوادر الأخبار، وجلها مما يصح أن يلحق بباب الخرافات الفاسدة والأساطير الباطلة لِمُجانفتها العقل والذوق. وكتب ـ «وهب بن منبه» و «عبيد بن شريه» و «ابن الكلبي» و «ابن إسحٰق» بل ـ والهمداني و «نشوان الحميري» فيها كثير من ذلك، غير أننا لا نستطيع أن نجزم بأن الحسن الهمداني وهو الناقد الحاذق قد أورد ما أورده وهو لا يفهم أنها موضوعة، إذ قد خصص جزءاً من كتابه «الإكليل» وهو الجزء السابع «في ذكر السيرة القديمة والأخبار الباطلة المستحيلة» وهذا الجزء لا يزال مفقوداً وحين يُعْثر عليه سيُعرف رأي الهمداني في تلك الأشعار والأخبار وما أثبتَ منها وما نفى.

وأكثر هذه الأشعار ركيكة سخيفة ظاهرة التكلف والوضع وجلّها كما قال «ابن سلام»: «ليس بشعر وإنما هو كلام مؤلف معقود بقواف».. ونحن حين نورد شيئاً من هذه الأشعار فليس لأننا نؤمن بصحتها وصدق روايتها ولكن لأنها أحياناً تكون معبرة عما قد حدث فعلاً ثم نسي وتلاشى بعوامل

الإهمال، أو القدم، أو كوارث الزمن، وبقي صداه في بعض الأفكار مدوياً، ولم تبخل ألسنة الآباء المسِنّين أن تزخرفه للأبناء الناشئين. ثم زيد فيه ونقص، وتطور إلى أسطورة مدبجة بقصيد وشعر لكي يكون من السهل تلقيه بالقبول، فما غزيت قلوب العرب ـ واليمنيين خاصة ـ بأقوى ولا أملك لها، ولا أشد تأثيراً عليها من الشعر والقصيد.

ورقعة اليمن عرفت قبائل ودولاً شيدت فيها صروحاً للحضارة والمدنية وظلت أخبارها معروفة متناقلة، وفي القرآن الكريم آيات بينات تصف ما كانوا فيه من سطوة وقوة ورفاهة عيش، فقد ورد في «سورة الشعراء»، حين أرسل الله سبحانه هوداً عليه السلام إلى مجتمعه المفتون بطيبات الحياة ورذائلها قوله تعالى:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾. فلا شك أنه قد كان لمثل هذه الأمة في مثل ذلك المجتمع أدب يُواكِبُ تطورات حياتها ويصور عواطفها وخوالجها البشرية، ومباهجها، ومفاتنها، وخيرها وشرها، كما أن نَزْراً من أنباء أعلام تلك الأمة قد تناقلته الألسن وسجلته العرب في أشعارها، وقد قال الجاحظ في «البيان والتبيين»: «إن العرب كانت تعظم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر ولُقَيم بن لقمان في النباهة والقدر، وفي العلم والحكم، وفي اللسان والحلم وهذا غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقول المفسرون». وأورد أبياتاً لابنةِ وَثيمة ترثي أباها «وثيمة بن عثمان» جاء فيها:

والدافع الخصم الألد إذا تُفُوضِحَ في الخصومَة
بلسان لُقمان بن عاد وَفصلِ خطبته الحكيمة

وساق الجاحظ أشعاراً كثيرة لشعراء الجاهلية والإسلام في ذكر أولئك العرب الأقدمين. وإذن فنحن حين ننكر جلّ الأشعار المنسوبة إلى هود ولقمان وتبَّع وأضرابهم فليس لأننا ننكر وجودهم أو أنهم قد قالوا شعراً أو

أنه قد كان لهم أدب وبيان وإنما طريقتنا في ذلك هي طريقة «ابن سلاّم» مؤكدين بأن أدبهم قد ضاع وأخنت عليه الليالي متمثلين في آثارهم الصامتة شعراً ناطقاً وبياناً ساحراً. ولا نعتقد أننا نُغربُ في الرأي حين نستنتج أن تلك الأمم البائدة قد كان لها أدب رفيع يواكب مدنيتها الرفيعة؛ فلم ينكر ذلك أحد من أئمة الأدب الأولين، بل إن أكثرهم قد أشاد بذكراه كما سبق عن إمام البيان الجاحظ، كما أن الأديب الشاعر العالم أبا بكر بن دريد قد قال:

ألم تر ما أدَّت إلينا وسيرت ... على قدم الأيام عادٌ وجرهم
هم اقتضبوا الأمثال صعباً قيادُها ... فذل لهم منها الشريس الغشمشم
وقالوا: الهوى يقظان، والعقل راقد، ... وذو العقل مذكور، وذو الصمت أسلم
ومما جرى كالوسم في الدهر قولهم: ... على نفسه يجني الجهول ويجرم
وكالنار في يبس الهشيم مقالهم: ... ألا إن أصل العود من حيث يقطم
فقد سيروا ما لا يُسيِّر مثلَه ... فصيح على وجه الزمان وأعجم

أما من وضع ذلك الشعر اليمني، ففي كتاب الأغاني عن الأصمعي أنه سُئِل عن شعر «تُبَّع» وقصته ومن وضعهما فقال: «ابن مفرغ.. وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيَّره إلى الشام وتخلصه من عباد بن زياد أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين وزعم أنه من حمير وصنع سيرة تبع وأشعاره»، وقد يكون هذا القول غريباً لمن يعرف شعر «ابن مفرغ» ويقارن بينه وبين ذلك الشعر الموضوع الذي يصفه ابن سلام بأنه ليس بشعر بل كلام مؤلف معقود بقوافٍ، وشعر «ابن مفرغ» من النفيس العالي وقد عده ابن سلام من فحول الشعراء في طبقاته. ولكننا على كلٍ قد عرفنا أثراً يُستدل به على أن نقاد الأدب العربي قد عرفوا أن تلك الأشعار أشعار موضوعة وعرفنا واحداً مِمّن اتُّهِمُوا بوضعها وصنعتها.

الأشعار القديمة والوصايا التي تنسب إلى هود عليه السلام وقحطان ويعرب ولقمان الحكيم وأسعد الكامل والتبابعة الأولين وهي ـ كما قلنا وقال غيرنا من قبل بأن تقادم العهد بها لا يخول لنا تصديقها ـ أكثرها مواعظ

وحكم وتذكير وعبر تتفق مع ما ورد في الكتب المقدسة عنهم. أو تبشيرات بنبوة محمد ﷺ وحث على نصرته واتباعه، أو افتخار بغزو قطر من الأقطار وفتح بلد من البلدان.

فقحطان بن هود يرى جزع أبيه على «عادٍ» بعد أن هلكت على غير دينه فينشده هذا الشعر «ليسَلّي عنه بعض ما كان به من القلق والارتماض والحزن»، قائلاً:

إنـي رأيـت أبـي هـوداً يـؤرقـه ... حـزنٌ دخـيـل، وبـلـبـال وتـسـهـاد
لا يـحـزنـنّـكَ أن خـصـت بـداهـيـة ... عاد بن عوصٍ فعادٌ بئس ما عادوا
عاد عصوا ربهم واستكبروا وعتوا ... عمّا نهوا عنه لا سادوا ولا قادوا
بُعداً لعاد فما أوهى حلومهم ... في كل ما ابتدأُوا، أو كل ما اعتادوا
قاموا يردون عنهم من سفاهتهم ... ريحاً بها أُهلِكوا أيان ما بادوا
ألا يـظـنـون أن الله غـالـبـهـم ... وأن كـلاً لأمـر الله مـنـقـاد
يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ... أسـالـمٌ لـي لـقـمـان وشـدّاد

ولما احتضره الموت قال قحطان أيضاً يوصي بنيه وأهل بيته:

أبا يشجب أنت المرجّى وأنت لي ... أمين على سري وجهري حافظ
عليك بدين لست تنكر فضله ... فقد سبقت فيه إليك المواعظ
وواصلْ ذوي القربى وحطهم فإنّهم ... ملاذك إن حامت عليك البواهظ
ولفظك فاعربه بأحسن منطق ... فإنك مرهون بما أنت لافظ
وكن كاظماً للغيظ في كل بدرة ... إذا شخصت تلك العيون اللواحظ
تغيظ به الأعداء سراً وجهرة ... بحكمك هاتيك النفوس الغوائظ
وما ساد من قد ساد إلا بحلمه ... إذا لم يلاحظه من البخل لاحظ
وكن راكباً محض الشمائل ماجداً ... تقياً نقياً إنني لك واعظ

والتكلف والوضعُ واضح في كليهما. وهكذا نحلوا إلى كل قيل أو مَلِكٍ أو زعيم وصايا شعراً ونثراً، وجلها مروي عن عَبِيد بن شِرَيْه الذي

يقولون إنه عاش ثلاثمائة سنة وأدرك الإسلام فأسلم، ودخل على معاوية بن أبي سفيان وسامره وأتحفه بأخبار اليمن وأشعارها وأنسابها.

وقَدْ رَوَوْا أيضاً أن أول مرثية قالتها العرب قول «حمير» يرثي أباه عبد شمس ومطلعها:

عجبت ليومك ماذا فعل ... وسلطان عزك كيف انتقل
فأسلمت ملكك لا طائعاً ... وسلّمت للأمر لما نزل
فلا تبعدنّ فكل امرىء ... سيدركه بالمنون الأجل

إلى آخرها.

وفيها إشادة بمجده وتقاه وإيمانه بهود عليه السلام وإحرامه بالبيت المعمور، ووفائه بالنذور. ومما يروى «لأسْعَد تبّع» يفتخر في شعره:

ولدتني من الملوك ملوك ... كل قيل متوّج صنديد
ملكتهم «بلقيس» تسعين عاماً ... بأولي قوة وبأس شديد
ولو أن الخلود كان لحيّ ... باحتيال أو قوّة أو عديد
أو بملك لما هلكنا وكنا ... من جميع الأنام أهل الخلود

على أننا نجد بين أخبار أولئك الملوك والأقيال أساطير رائعة، وقصصاً طريفة تذهب بالخيال مذاهب شتى كقصة «أسعد الكامل» عند خروجه من قصر خَمِر وذهابه إلى جبل «هُنُوم» وما جرى له مع الجنيات الثلاث واحتسائه للدم يحسبه خمراً، وامتطائه مركباً من مراكب الجن، ونومه على سرير مطرز بالإبر وما بَشّرْنَهُ به من أنه سيقتل أعداءه ويبلغ أينما نواه، وليس هذا فحسب بل إن الحارث الرائش قبله بزمن قد أتاه هاتف وأخبره بما سيكون من أمر أسعد الكامل في شعرٍ قصصيٍ محكم جاء فيه:

الدهر يأتيك بالعجائب ... والأيام والدهر فيه مُعْتَبَرُ
بَيْنَا ترى الشمل فيه مجتمعاً ... فرّقه في صروفه القدر
لا تنفع المرء فيه حيلته ... مما سيلقى يوماً ولا الحذر

إني زَعِيمٌ بقصة عجب عندي لمن يستزيدها الخبر
تأتي بتصديقها الليالي والأيام؛ إن المقدور يُنتظر
يكون في الأمر مرة رجل ليس له في ملوكهم خطر
مولده في قرى «ظواهر همدان» بتلك التي اسمها خَمِر
يقهر أصحابه على حدث السن ويخفى فيهم ويُحتقر
حتى إذا أمكنته صولته وليس يدري بشأنه البشر
أصبح في «هُنُومٍ» على وجل وأهله غافلون ما شعروا
رأوا غلاماً بالأمس عندهم أزرى لديهم جهلاً به الصغر

إلى أن يصف قصته مع الجنيات الثلاث بقوله:

جاءت إليه الكبرى بأَسْقية شتى وفي بعضها دم كدر
فقال: هاتي إليّ أشربه. قالت له: ذر، فقال: لا أذر
فناولته فما تورع عن أقصاه حتى أماده السكر
فنهنهته الوسطى فنازلها كأنه اللَّيْث هاجه الذعر
قالت له: هذه مراكبنا فاركب، فشرُّ المراكب الحُمر

وهي قصيدة طويلة تجدها في «ملوك حمير» لنشوان، وأسعد هذا هو الذي يروون أنه كان مؤمناً بالله وبشر برسالة محمد عليه الصلاة والسلام وكسى البيت الحرام وأنه قال:

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النَّسَمْ
فلو مُدّ عمري إلى عمره لكنت وزيراً لهُ وابْنَ عم

ويَرْوُونَ أيضاً أن النبي ﷺ نهى عن سبه.

وله أشعار كثيرة وأخبار غريبة وفتوحات كبيرة، وقالوا: إنه كان له تابعة من الجنّ تسكن في «ينور» وأنه حين حضرته الوفاة أرسل ابنه حساناً إليها وقال له: إذا أتيت «ينور» فاقرع الجبل فإنه سيفتح لك باب فادخل

حتى إذا أتيت إلى المرأة فأخبرها أني مثقل بالمرض فانظر ماذا تقول لك وما تأمرك به ولا تَعْصها في شيء؛ فأقبل حسان حتى انتهى إلى المكان فقرعه ففتح له باب فدخل فلما انتهى إلى المرأة فأخبرها الخبر، أشارت إليه أن يقعد على كرسي فيه حيات وعقارب ودود، فأبى وقعد على الأرض، ثم قدمت بين يديه طبقاً فيه رؤوس ناس، فقالت: كل هؤلاء؛ فأبى أن يفعل ذلك، فدعت بقدح فيه دم، فقالت: اشربه؛ فأبى أن يشربه، فقالت له: ما أبعد هِمَّتك عن همة أبيك، وقالت له: قد أمرتك فلم تفعل، فأما إذا عصيتني، فانظر إذا رجعت إلى أبيك ودخلت باب «غيمان» فاقتل أول من يلقاك من الناس، وأدرك أباك فهو في آخر رمق. فخرج مسرعاً حتى إذا أتى غيمان فلقيه على بابها أخوه «معدي كرب» أبى أن يقتله ثم دخل على أبيه فأخبره الخبر وما قالت له المرأة من قتل أول من لقيه، فقال له «تبع» ـ أسعد ـ ما أراك إلا مخطئاً، إن هذه أمثال ضربتها لك، أما الكرسي الذي أقعدتك عليه فإنه لا يملك حمير إلا من صبر على مثل لدغ الحيَّات والعقارب والدود، وأما الذي سقتك فإنه لا يملك حمير إلا من أهرق دمها وأما الرؤوس والعظام التي أمرتك أن تأكلها وتمسها فإنه لا يملك حمير إلا من أكل أموالها، وأما أخوك فسيقتلك إن لم تقتله، إلى آخر القصة...

وحسَّان هو صاحب الحروب مع جديس وزرقاء اليمامة. وحين.. أرهق قَوْمه بالغزو والترحال حرضوا أخاه على قتله وملكوه وتبرأ من ذلك ذو رُعَينْ الأصغر بالبيتين المشهورين:

ألا من يشتري سَهَراً بنوم ... سعيداً من يَبيتُ قرير عين
فإن تك حمير غدرت وخانت ... فمعذرة الإله لذي «رعين»

وكانت سبب نجاته حين استيقظ ضمير أخي حسان وندم على فعلته وذهب يبطش ذات اليمين وذات الشمال بكل من أشار عليه بقتل أخيه لأن «ذا رعَينْ» كان قد نصح لعمرو بن أسعد ألاَّ يفعل ما أرادت حمير وقال له: ما قتل رجل أخاه أو ابن عمه أو خاله إلا ندم فلما أبى، قال البيتين المذكورين فذكره بهما في قصة طريفة. ولا أريد أن أؤكد بأننا لا نعبأ بهذه

الأشعار والوصايا من ناحية صحة الرواية وصدق نسبتها إلى أصحابها القدامى، وأننا نشك فيها لتقادم عهدها، ولا نصدق الأساطير والأقاصيص دون تحكيم المنطق والعقل؛ ولكن هذا الشعر، وهذه النصوص الأدبية التي نسبت إلى الفترة الجاهلية الأخيرة قبيل ظهور الإسلام بقرن أو قرنين هو الذي يعنينا ويهمنا ويهم الأدب والأدباء.. هذا الشعر الجاهلي اليمني الذي نلمس فيه سمات الشعر الجاهلي العربي في بقية أصقاع الجزيرة موضوعاً وشكلاً، هو الذي يعنينا وسنتعرض للحديث عنه ونقف مع شعرائه على أطلال مجد بكوها، وقصور عزّ وصفوها، وأشلاء حياة وحضارة ناحوا بين آثارها وصبُّوا من أجلها الدمع غزيراً والشعر باكياً.

مع علماء التَّاريخ والآثار

قلنا إنَّ تاريخ الحضارة اليمنية ودُوَلِها وأُسَرِها، وحدودها الزَّمنية لا يزال مجهولاً ومضطرباً، وما نقله إلينا مؤرخو الإسلام والعرب ـ وخصوصاً من غير أبناء اليمن الذين كانوا يتناوشون الحقائق من مكان بعيد، ويَستندون في الغالب إلى الأساطير والإسرائيليات ـ مُفْعَم بالغموض والاضطراب والمبالغات، وجلّهم أو كلهم كانوا لا يقدّرون ما يتصل بالجاهلية الأولى من معارف، بل ينظرون دائماً إلى تاريخ العرب قبل الإسلام بمنظار أسود مقتنعين أنه تاريخ فوضى وهمجية وجهل وكُفر، مُقَررين أن المجتمع العربي قبل الإسلام ـ على الإطلاق ـ كان يعيش في جهالة جهلاء وطخْية عَمْياء، لا من الناحية العقائدية فحسب، بل من كل النواحي، وأنه كان لا يعرف مدنية، ولا يتذوق ثقافة، ولا يفقه معرفة.

وإذا استثنينا مؤلفات علماء اليمن ـ التي ما يزال أكثرها مخطوطاً ومفقوداً ومجهولاً ـ أولئك الذين عنوا بوصف مدنية اليمن القديمة وآثارها ومعالمها ونقوشها وأنسابها وفي مقدمتهم أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني المتوفى **٣٣٢هـ (٩٤٤م)** ومؤلف الإكليل وصفة جزيرة العرب وغيرهما ـ نجد أن تاريخ اليمن القديم ظل لدى الكثرة الغَالبَة مهملاً غير معروف وكأن اليمن لم تكن شيئاً مذكوراً. وابتداء من منتصف القرن الثامن عشر الميلادي نشطت البعثات العلمية الاستشراقية، واهتمت باليمن وحضارتها، وتتابعت الإرساليات العلمية وغامر أفراد منهم في فترات متقطعة، فجنى العالم ثمرات طيبة من نتاج رحلاتهم الباهرة، واستطاعوا أن

يلقوا ضوءاً على معالم حضارة العرب وتاريخهم القديم، وأن يلفتوا انتباه الجيل الحاضر إلى أهمية تلك الحضارة التي بلغت شأواً رفيعاً في نظام الحياة الاجتماعية والمدنية والفنية. وأشهر هؤلاء ثلاثة تفتقت معرفة العالم بفضل أبحاثهم ورحلاتهم وما بذلوه في سبيل بلاد العرب السعيدة وهم (نيبور) و (هليفي) و (جلازر).

وجاء على أثرهم من علماء العرب المحدثين أفراد أفاضل رحل بعضهم إلى اليمن وجاس خلال ديارها الأثرية، وكشف النقاب عن كثير مما لم يسبق اكتشافه من نقوش ومعابد ومدن وآثار، وكان من أوائلهم نزيه مؤيد العظم الصحفي السوري الذي زار اليمن عام ١٩٣٦م، وألف كتاباً أسماه «رحلة في بلاد العربية السعيدة» وطبعه سنة ١٩٣٨م في جزئين. ثم أوفدت جامعة القاهرة بعثة علمية برئاسة الدكتور سليمان حزين سنة ١٩٣٦م وعني الدكتور خليل يحيى نامي أحد أعضاء البعثة بنشر النقوش التي جاء بها وشرحها سنة ١٩٤٣ وظل وما يزال يتابع النشر والكتابة عنها. وما بين عامي ١٩٤٤، ١٩٤٥، تيّسر للأستاذ محمد توفيق أن يزور اليمن مرتين لأجل دراسة هجرات الجراد في الجزيرة العربية فانتهز فرصة وجوده فزار الجوف وخرائبها الأثرية ونقل كثيراً من النقوش[1]. ولعل ما تيسر للدكتور أحمد فخري لم يتيسر لأحد قبله، فقد رحل إلى اليمن عدة رحلات كانت أُولاها سنة ١٩٤٧، زار خلالها أهمّ المناطق الأثرية في الجوف ومأرب وصرواح، وطاف معالمها القديمة واكتشف مجموعات جديدة من النقوش والآثار وكتب عنها عدة كتب وألقى عدة محاضرات وكان آخر ما أتحفنا به كتابه «اليمن ماضيها وحاضرها» وهو بحق من الكتب القيمة تعمقاً في البحث واستقصاءً في الدراسة إلى أسلوب نفيس ونقد نزيه.

وكانت رحلته الأخيرة في سنة ١٩٥٩م طاف أثناءها مناطق أثرية أخرى واكتشف نقوشاً جديدة ورجع بمعلومات قيمة لم تنشر بعد. كما اهتم

---

(١) انظر تفاصيل هذه الرحلات في كتاب «تاريخ العرب القديم» ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي، وكتاب «اليمن ماضيها وحاضرها» تأليف الدكتور أحمد فخري.

آخرون بنقل وترجمة ما كتبه علماء الغرب عن تاريخ العرب القديم وقبائلها ودولها وآثارها ولغاتها وآدابها ودياناتها، وكان لليمن طبعاً الحظ الأوفى والنصيب الأوفر من تلك الأبحاث والدراسات.

وقد نهض الدكتور «جواد علي» بعمل عظيم جليل الفائدة حين نقل إلينا جل دراسات المستشرقين وآرائهم واكتشافاتهم في كتابه «تاريخ العرب قبل الإسلام»، دارساً ممحصاً وناقداً مؤرخاً، متوسعاً قدر طاقته في جمع ما أثر عن تاريخ الجاهلية وقسمه إلى ثلاثة أقسام تناول القسم الأول منه الحالة السياسية للعرب قبل الإسلام ويقع في أجزاء وطبع الجزء الأول ببغداد سنة ١٩٥٠م. ويجد طالب الفائدة في هذا الكتاب القيّم كثيراً مما ينشده من تاريخ بلاد العرب الجنوبية، «اليمن»، وحياتها العامة وآثارها ودياناتها.

ومن قبل ومن بعد، ألّف وكتب علماء أفاضل عن اليمن وحضارتها، وكلهم متفقون على أنها من أقدم الحضارات وأرقاها وأنها قدّمت خيراً جماً للإنسانية منذ عرف الإنسان نفسه إنساناً.

ولكن هل ما بين أيدينا ـ نحن قراء العربية ـ مما ألّفه علماؤنا أو مما نقلوه وترجموه من أبحاث الغربيين يُسْمِن أو يغني. كلاّ. كلاّ، فلا يزال الجم الكثير من المعرفة محجوباً عنا، وما زالنا محرومين من فيض علم غزير، ونحن نفهم بأنه لو نقل إلى العربي كل ما جادَتْ به أبحاث ودراسات المستشرقين وحبَّرته أقلامهم لكان خليقاً فقط أن نشرف به على معالم الطريق فإذا ما أضفنا إليه نشر المخطوطات اليمنية القديمة وتيسَّر للباحثين العثور على المفقود منها يحق لنا حينئذ أن نقول بأننا قد بدأنا السير واجتزنا مرحلة موفقة في طريق شاق طويل.

وستظل الأنظار متجهة إلى هناك.. إلى ما تحت الأنقاض وبين طبقات التراب من تاريخ مطمور وأفكار مدفونة وأدب موؤود وعلم مغمور.

وإنَّ عالم الآثار حين يتطلع بلهفة وشوق عظيمين إلى اليوم الذي تتجلى فيه آثار اليمن القديمة، ليشاركه أيضاً الأديب واللغوي ومؤرخ الأدب واللغة في التطلع والترقّب بنفس اللهفة وبنفس الشوق.

إن بقاء آثار اليمن مدفونة تحت التراب قد جنى على الحضارة العربية القديمة وترك الباب مفتوحاً أمام شكوك وأوهام وافتراضات ذوي الأغراض والشعوبية، والثقافة التي تكيد بطبعها للعرب والإسلام، فلا نستطيع حين نراهم يقللون من قيمة الحضارة العربية في اليمن ويصفون عهدها بالحداثة، ويقولون إنها وليدة حضارة طارئة، أن نسد أفواههم بالحجة القاطعة، وهم لا يؤمنون إلا بالحجة المادية المنبعثة من أعماق الثرى، من نقش على حجر، أو استكشافات لأثر، أما الرواية عن زيد العربي، وعمرو المسلم وحتى عن محمد الرسول العربي الكريم، أو حتى عن الله سبحانه في قرآنه المنزل، فإن ذلك عندهم مجرد رواية أو خبر ديني لا يصح أن يُحشر في باب العلم.. وإذن فلا مناص لنا لنؤكد ما صح لنا من أخبار الرواة، وروايات الثقات، وقصص الكتاب الكريم، والأحاديث الشريفة، من أن نزيح الستار عن تاريخنا الأول، ونبعثه من بين الأنقاض أسوةً بما فعلته سائر الأمم الناهضة، وفي ذلك الحين لن يجد من له غرضٌ أو هوى في التقليل من شأن العرب، والحضارة العربية، مجالاً يصول فيه ويجول، وفي الوقت نفسه نضع حداً لهذه الأساطير والخرافات التي يكثر منها القصاصون ويعرضونها كمعالم لتاريخنا لا كأقاصيص استلهموها وأغرقوا في تصورها ما شاءت لهم خيالاتهم الهائمة المحلقة في أبعد الأجواء، ونبني تاريخنا القديم على أساس علمي، ونحفظ تراثنا، ونقدم للإنسانية وللمدنية يداً كبرى... بل ربما يكون ذلك فتحاً مبيناً ندخل به على حياة أفضل.

لا شك أن كثيراً من المؤرخين اليمنيين قد أغرقوا وبالغوا في تمجيد وتعظيم تاريخهم القديم مدفوعين بشتى الدوافع، فمنهم المفاخر والمتباهي، ومنهم القصاص الحالم، ومنهم، وخاصة المحدثون، من يجعل ذلك وسيلة لتحفيز الهمم وإهابة «بالأبناء إلى متابعة الآباء وشوارد الأنفس إلى سواء السبيل ليقرنوا شرفهم التليد بمجدهم الطريف» معتقدين «أن حفظ مناقب الآباء والاعتداد بآثارهم الصالحة من أكبر العوامل المثيرة لعزة النفس ويقظة الوجدان وسمو الغاية «كما جاء في مجلة الحكمة اليمانية يرحمها الله ويرحم صاحبها».

فالسيد أحمد المطاع قد بالغ حين قال عن هؤلاء الآباء: «فأخلق بأبناء من ملكوا الخافقين، وبسطوا سلطانهم على العالمين، أن يعتزوا بتاريخهم، ويفاخروا بماضيهم، ويكاثروا بنوابغهم، وأبطالهم، الذين تساقطت تحت أقدامهم عروش الفاتحين، وملكوا الأمور على من كان يملكها عليهم في أطراف الأرضين». إلى أن يقول: «كانت اليمن وعُرِف وجودها، قبل أن تشاد بيوت النيران، ومعاقل الأوثان، وبِيَع الصّلبان، وأديار الكهان، قبل أن يبني «خوفو» هرمه العظيم، ويؤسس «سرجون الأول» دعائم ملكه بالبحر المتوسط وجزر اليونان، ويخرج موسى ببني إسرائيل من أرض الفراعنة، كانت شريعة «حمورابي» أول شريعة عرفها البشر، ونظام سنه الإنسان، واليمن تنظر إليه بعين الإعجاب لأنه فرع من دوحتها العظيمة، وغصن من شجرتها الباسقة، وذلك قبل أن ينشر «بوذا» تعاليمه على ضفاف «الكانج» بقرون». ثم يسترسل فيقول: «عرفت اليمن، وعرفت حضارتها الرائعة، وعمرانها الزاخر، وعلومها المنتجة، وفنونها الجميلة قبل أن تعرف أي مدنية على وجه الكرة الأرضية، ثم كانت مَدَنيّات موغلة في القدم كالمدنية الكلدانية والآشورية والكنعانية والفرعونية والفينيقية وفي بعض بقاع المعمورة كالهند والصين، وما تلك إلا قبسات نور انبثق من هذه البلاد». فهذا الإطراء المغرق وهذه المبالغة المسترسلة بأسلوبها الناصع الخلاب لا شك أن الحب الأعمى والرغبة في تحفيز الهمم وحثها على المضي قُدُماً، هو حافز الكاتب والشاعر. غير أن ثمة من يريد أن يتخذ من نقده لأساليب المؤرخين اليمنيين ومبالغاتهم في تمجيد وتعظيم آبائهم وسيلة لغرض سياسي عاجل؛ فلا يبالي أن يزعم بأن واقع هؤلاء المؤرخين الكئيب وحالتهم التعسة وما يقاسونه من عناء ـ على حد تعبيره ـ هو الذي يحلق بخيالاتهم، ويطير بأوهامهم، ويزيدهم تشبثاً بالأحلام وابتعاداً عن الحقائق.. فيذهبون يختلقون لآبائهم المجد والسؤدد، وينعتونهم بالسمو والتفوق، ويجعلونهم الملوك والفاتحين وأن «إرث المأساة، وأحاسيس المجد الكامنة في عروقهم» (على حد تعبيره) هو سبب الإغراق والمبالغة، فيجدون في الكذب ما ينسيهم حاضرهم على حد تعبير الشاعر «فزعت منه بآمالي إلى الكذب» «ولا

يصنعون إلا صنيع النائم الحالم تكدست في تلافيف مخه أخلاط الحياة الذاهبة، والبحث في دنيا أحلامه كرموز وإشارات صاغتها الطاقات اللاشعورية»[1] هذا الأسلوب من أساليب النقد التاريخي المنحرف عن الجادة خطرٌ كل الخطر على العلم، يخنق الحقيقة، ويشوه معالمها، فلا يجوز لذي غرض ما، أو هدف ما، أن يقلل من شأن حضارته القديمة، ويحقر من مجد آبائه وينعت روايات المؤرخين ومبالغاتهم «بأنها وليدة أحلام ليل كئيب وعصارة خيالات تريد أن تفر من حياة ذليلة...»[2] لكي يشوه وضعاً معيناً، أو لينتقد وضعاً معيناً، ولا يبالي أن يظلم تاريخ أمة؛ ويتجنّى على ماضي شعب عريق، وينعت اعتزاز أبنائه بآثار حضارته بأنها «رموز شاعرة بالغربة والكربة وسط خضم من الغباء والجهالة، والانحراف، والعجز، والعقوق»[3]. لا. لا. إن في هذا شيئاً من الظلم؛ وليس المؤرخون اليمنيون وحدهم الذين أغرقوا وبالغوا في تمجيد حضارة اليمن. والافتخار بالماضي - إن كان مجيداً مثل ماضينا - ما كان يوماً من الأيام وسيلة من وسائل الهروب. والأساطير والخرافات ضرورة من ضرورات المجتمع البشري وأسلوب من أساليب سعادته وفنه ولم تخل أمة من الأمم قديماً وحديثاً من العناية بأساطيرها بل إن بعض الأمم قد ألّهوا آباءهم، ومنهم من لا يزال إلى يوم الناس هذا يعتقد بأنهم من سلالة الشمس وهم في بحبوحة من العيش ورفاهية من الحياة وجلال من القوة.. وأما إكبار الحضارة اليمنية والإعجاب بآثارها، ونظم دولها، وقوانين شرائعها، فقد أخذ بعقول الكثير من المستشرقين وعلماء الآثار والنقوش وحسبي - إلى ما ذكرته سابقاً من أقوال بعضهم - أن أسجل هذه الكلمة للدكتور «فيليب حتي»:

«وهناك بضع وثائق شرعية هامة تنم عن تطور ورقي الحياة الدستورية، فشريعة حمورابي وشريعة موسى نزلتا من فوق، وليست شريعة الحثيين إلا

---

(١) (٢) ص٥٢ العدد ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٦٠ مجلة العربي من مقال للأستاذ محمد محمود الزبيري.

(٣) المصدر السابق.

مراسيم أصدرها ملوك مسيطرون، أما شرائع عرب الجنوب «اليمن» فتمتاز بصفات النضج الشرعي، والبلوغ السياسي، وتدل على نظام دولة تلوح من خلاله أوضاع الحكم النيابي، وربما لم يكن من آثار القدم السحيقة ما يدانيها رقياً. (انظر تاريخ العربِ المطولِ الجزء الأول) تأمل قوله ـ وهو البحاثة العالم بآثار الشرق كله ـ «وربما لم يكن في آثار القدم السحيقة ما يدانيها رقياً» أظن أنها تكفي لأن تخفف غضب المتحاملين على المؤرخين اليمنيين ـ الذين بدافع ما قد أغرقوا وبالغوا في وصف مجد آبائهم ـ إن كان قد دفعهم إلى الغضب ضآلة معلوماتهم.. أما إذا كان الأمر حقاً.. تأييداً لفكرة سياسية فإننا لم نرض بعد أن نجعل التهريج من وسائل تأييد الرأي فكيف نرضى بمغالطة التاريخ والافتئات على الحضارات وانتقاص أولي الفضل لقصد دنيوي عاجل.. إننا نكبر العلم والتاريخ والأدب ومعذرة إلى الشاعر الزبيري.

وهذا النوع من النقاد يعتقدون أن «المستشرقين الأوروبيين من عشاق التاريخ القديم» قد تنبهوا بمطالعاتهم التاريخية إلى خرائب اليمن فغامروا وضحوا وثابروا وكشفوا «بعيونهم الثاقبة» عالم العرب القديم ويومئذٍ فقط عرف العالم تاريخ العروبة ومجدها إلى آخر ما يظنون ويقدرون (راجع في العدد ٢٤ من مجلة العربي سنة ١٩٦٠ مقال الأستاذ محمد محمود الزبيري).

غير أننا نريد أن ننبه هؤلاء أن المؤرخين العرب القدامى من اليمنيين وغيرهم قد كانت لهم ـ أيضاً ـ عيون ثاقبة، وأنهم قد غامروا وضحّوا وسجّلوا «شيئاً جليلاً من الحق والواقع، وشيئاً كثيراً من الحقائق التاريخية ذات الشأن الكبير». ولكن ما إن غفا العالم الإسلامي، حتى تكالبت عليه الأمم تكالب الذئاب الضارية، والسباع العاوية، واستسلم لعوامل التأخر والجمود فترة طويلة.. ثم استيقظ والعلم والمجد ووسائل العزة في يد غيره.. فذهب يستجديها من كف ظالمه، ويستمنح رحمتها من يد قاتله، والظنون والشكوك بماضيه العتيد تعتوره، وقد تبدّدت أمجاده، وتلاشت معالمه، وتضافرت عليه المؤامرات والأهواء، وآثام الجهل، والتأخر والعقوق.

إننا لا ننكر ما بذله المستشرقون من جهود في سبيل الكشف عن حضارة اليمن القديمة، وما كان لهم من فضل في التنقيب عن آثارها وإبراز معالمها وما أسهموا به من دراسات وأبحاث قيمة عن النقوش وحروف المسند، ومحاولاتهم استكناه اللغات الجنوبية القديمة، واستخراج نحوها وصرفها وقواعدها، وقد أشدنا بذلك في مطلع بحثنا وسوف نتعرض له أيضاً، ولكنَّ كثيراً من النقاد يؤكدون، أن الأسس والقواعد التي وضعها الاستشراق لمبعوثيه لم تكن خالصة لوجه العلم، وأن الأهداف والغايات التي رسمها لرُوَّاده في بلادنا كانت منذ اليوم الأول مُجانِفَةً لمظهره العلمي، وأن روحاً لا تمت إلى العلم بصلة كان الاستعمار يغذيها تكمن وراء كل فكرة يبثونها أو عمل يبرزونه، وكثيراً ما تحدث المتحدثون حول هذا المعنى، ولا أريد أن أكرر جدلاً أو أثير نقاشاً لكن أمانة العلم والأدب تحتم عليَّ أن لا أُهمل أي وجهة من وجهات النظر، وانظر ما قاله الأستاذ محمود محمد شاكر في تقديمه لكتاب «الظاهرة القرآنية».

ويقول الدكتور بدوي طبانة في كتابه السرقات الأدبية:

«خذ مثلاً لذلك، ما يكتبه المستشرقون من دراسات في آدابنا العربية أو في الآداب الشرقية وما ينشرونه من الكتب العلمية أو الأدبية التي ألفها أسلافنا وفيما يقومون به من جهود جديرة بالتقدير لا شك في ذلك، ولاسيما أن أولئك المستشرقين غرباء عن تلك الديار، وعن عقليات ساكنيها، فالقليل منهم كثير إن كان خالصاً لوجه العلم والمعرفة، وإن كان هدفهم تعريف الأمم التي ينتسبون إليها بشيء عن حضارتنا وثقافتنا وتفكيرنا».

«ولكن أن تؤخذ آراؤهم في حضارتنا وثقافتنا وتفكيرنا قضايا مسلماً بها، أو أن تكون القاعدة الأولى في الفهم والتقدير لتلك الأمور، فذلك ما ينبغي أن نعيد النظر فيه، فنحن نملك من أسباب الفهم والتقدير أكثر مما يملك أولئك المستشرقون، والأدلة على ذلك كثيرة من الأخطاء التي يقعون فيها، والتي يكون منشؤها سوء الفهم الذي مصدره عدم الإحاطة بتلك

اللغات الغريبة عنهم، وعدم الوقوف على أسرار التعبير بها».

ولا أنكر أن ريباً يخالجني كلما قرأت تلك الأبحاث عن لغات ولهجات العرب الأولين في الجنوب، والأساليب التي تتخذ في الغالب لمعرفتها وتحقيق أصولها واشتقاقاتها وفهم معانيها، وجعلهم اللغة العبرية أو السريانية أو نحوهما من اللغات السامية السند الذي يتكئون عليه والمصدر الذي منه يستمدون النور، دون أن يحسبوا لِلُغَةِ العرب ـ لغة القرآن ـ أي حساب، كأنها قد اعتُبطت اعتباطاً في عصر سيدنا محمد ﷺ، وليس لها أي جذور في الجزيرة العربية وفي حياة سكانها، ويجعلون من العبرية لغة اليهودية والمسيحية وكل طقوسها المنبع والمصدر والمورد(١)، وهذه الجزيرة العربية الواسعة الأرجاء كأنها لم تكن آهلة بأبنائها، ولا تنبض فيها حياة، ولا ينطق فيها لسان، قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام و ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

وأعتقد أن تلك القواعد والأساليب، قد أوقعت بعض المستشرقين في كثير من الأخطاء وكانت سبباً في تناقض أقوالهم واضطرابها وتعرضها للنقض على اختلاف الأيام ولو أنهم اتخذوا من المنطقة العربية، والمنطق العربي أصلاً ومنبعاً، وجعلوا القواميس وكتب التفسير والحديث مصدراً ومرجعاً، ثم اتجهوا إلى ما تبقى في الألسنة من لهجات من غَبَرَ واستناروا باللغة المتداولة، وخاصة بين الأعراب والبدو الذين لا يزالون يعيشون في نفس

(١) لم يقتصر ذلك على اللهجات القديمة بل تجاوزها إلى لغة القرآن الكريم نفسها ولنضرب مثلاً قول بروكلمان في تاريخ الأدب العربي جزء ١ صفحة ١٣٨. أما كلمة «سورة» فقد رفض «لاجارد» اشتقاقها من الكلمة العبرية الحديثة «شورا» (ترتيب، صف) ودافع عن ذلك «تولدكه»، وتشكك فيه «شفلي» و«بول» ولكن محاولة «بول» نفسه فهم اللفظة على أنها عربية أصيلة ـ وإن لم يكن قد تشكك في ذلك ـ لم يصادفها التوفيق وعلى خلاف ذلك كان جديراً بالنظر حقاً ما اقترحه «بل» برغم الصعوبة الصوتية وهو القول باشتقاق لفظ سورة من الكلمة السريانية: صورتا «نص» وذلك لوضوح التأثير النصراني (هكذا) في لغة النبي ﷺ باطراد إلى آخر هذا التغليط والتضليل وهو كثير.

الظروف التي كان يعيش فيها آباؤهم منذ عهد بعيد في الجوف، ومأرب، وظفار، وأرض معين، وسبأ وحمير في بلاد اليمن، لكانت أبحاثهم ونظرياتهم أقرب إلى الصواب من ذلك الإِعناتِ في القول، والتفكير، وقد ألمح إلى جدوى ذلك الأستاذ الكبير الدكتور جواد علي بقوله: «هذا ولا بد لي هنا من لفت نظر الباحثين إلى أهمية دراسة كتب التفسير والقراءات والحديث واللغة دراسة تحليلية علمية دقيقة، لتسجيل ما ورد فيها من ألفاظ ومن غريب ومن شواهد أرجعها العلماء إلى أصحابها، ونصوا على مكانها وعلى القبيلة التي وردت منها في بعض الأحيان. وفي معجمات اللغة القديمة، خاصةً، كنز ثمين حوى ألفاظاً كثيرة بالمعنى الوارد في لهجات القبائل، ذكروها بمناسبة كلامهم على المعاني الواردة عن اللَّفْظةِ التي بحث المؤلف فيها، غير أن في هذه المعجمات عيباً، هو أنها تذكر هذه المعاني دون أن تشير في الغالب إلى اللهجة التي وردت فيها تلك اللَّفظَة بالمعنى المذكور. وإغفالها الإشارة إلى اسم القبيلة، أضاع علينا الوقوف على لهجات القبائل، وعلى مقدار قرب تلك اللهجات أو بعدها من لهجة القرآن الكريم.

«وقد رأيت أثناء كلامي عن الكتابات الجاهلية أن المعجمات العربية هي أكثر الموارد المساعدة للباحث فائدة في هذه اللهجات. وقد أشرت مراراً إلى خطأ غالبية المستشرقين المتجلي في عدم استفادتهم في الغالب منها، وإلى ركونهم إلى العبرانية والسريانية في ترجمة تلك النصوص إلى لغتهم. واللغتان المذكورتان، مادتان مساعدتان، ما في ذلك شك، في دراسة اللهجات العربية الجاهلية. وقد أشرت إلى أهميتهما، ولاسيما أنهما اللغتان الساميتان الكاملتان الباقيتان إلى اليوم والمعروفتان معرفة تامة، غير أن اللهجات المذكورة هي لهجات عربية، وهي وإن اندثرت فإن الكثير من ألفاظها وارد في اللهجات العربية الأخرى وقد دوّنها علماء اللغة في كتبهم وبعضه ما زال حياً يتكلم به سكان المناطق التي ظهرت فيها تلك اللهجات ولهذا فالعربية أقدم وأولى في مراجعة كتابات الجاهليين من المورِدَينِ المذكورين». انتهى.

وكثيراً ما ندّد علماء وأدباء العرب والمسلمين وتشككوا وحذّروا من المستشرقين وأساليبهم ولا أريد أن أجاري أحداً أو أؤكد ما قالوا؛ وخُصُوصاً وقد كان لهؤلاء المستشرقين ـ كما قلنا ـ فضل كبير في اكتشاف كثير من آثار ونقوش اليمن وإحياء تراثها، وقد أنصف بعضهم حضارتها وأشاد بها؛ وما تعرضنا لهم إلا حين وجدنا من يظن أنهم وحدهم[١] «بالعُيون الثّاقبة»، والتضحية والمغامرة، قد أوجدوا تلك الحضارة وكشفوا عنها النّقاب وذلك ما لم يدّعوه لأنفسهم، وضعاً للأمور في مواضعها وإنصافاً لمؤرخينا وعلمائنا.

كما أني لا بدَّ أن أشير إلى أن خيراً كثيراً قد حُجب عنها عمداً وعدواناً؛ فكثير من المؤرخين قد أعماهم التعصب أو التحيز لفئة ما، أو مذهبٍ ما، ولجّوا فيه، وأغرقوا ولذلك، فعلى من يريد أن يدرس تاريخ اليمن وآداب اليمن أن لا يقتصر على كتب فئةٍ من الفئات، أو مؤرخي دولةٍ من الدول؛ بل عليه أن يتحرّى ويتتبع آثار كل فئة من كُتب مؤرخيها وأدبائها؛ وإنه لمن دواعي الأسف الشديد أن نذكر أن أغلبية مؤرخينا ـ قدامى ومحدثين ـ هم من المتعصبين والمتحيّزين، ومعظمهم تأثروا بما يحيط بهم، وتضج به مجتمعاتهم من تعصّبات مذهبية أو دعوات سلاليّة؛ وقلّ أن نجد من يستطيع أن يتحرر من قيود بيئته، أو ينصف غير أبناء طائفته؛ ويتفاوتون؛ بين مُغْرِق متعسّف، وخائف يتعثر، وعالم يتجاهل، وجاهل يتعالم، وقد يبلغ بالبعض التطاول إلى التفسيق والتكفير، وبآخرين الهبوط إلى مستوى التضليل والتدجيل وبقوم الانسياق وراء الخرافات والسخافات؛ ويستوي في ذلك المحدثون والأقدَمون ونحن لا نَعبأ بالتافهين الذين ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾ كالمهرّج محمد علي الأكوع، والمفتري حمزه علي لقمان من المتأخرين، وإنما نقصد المؤرخين وأصحاب السير ونخصّ أفذاذاً من أعلام الأدب أفادوا وأجادوا ولنضرب لذلك مثلاً:

---

(١) وذلك ما أراد القاضي الشاعر محمد محمود الزبيري أن يثبته في مقالة في مجلة «العربي» المشار إليه سابقاً.

فالهمداني صاحب «الإكليل» نراه عندما يتعرّض لذكر الإمام الهادي يشير إليه عَرَضاً وباسم «العلوي» وإذا تعرّض للذين عارضوه وقاتلوه أطنب في مدحهم. . نعم «الهمداني» ذلك العلم الشامخ من أعلام الفكر العربي والأدب اليمني، شاعراً ومؤرخاً وفيلسوفاً. كان أيضاً يمثل عصره المتناقض المضطرب الخاوي المتعطش إلى عقيدة متينة تجمع شمل أبنائه التوّاق إلى رابطة اجتماعية تضم كيانه المبعثر، الحائر بين ذكريات مجدٍ ذاهب، وحقائق واقعٍ مرير، وتيارات أطماع سياسية، وروافد مذاهب فكرية، وعوامل فناء طبيعِية، تزحف صمّاء وَتطوي تحت أقدامها، وبين مخالبها وأنيابها بقايا الماضي العتيق، وتحفزات الحاضر المجهود، والطاقة العقلية الكبرى التي وهبه الله إياها تَطرحُ أمتَه بين يديه في رقعةٍ صغيرةٍ؛ عاريةً مشاكلها، واضحةً مخاوفها، مكشرةً عن دواهيها، ولكن أطماعه الكبيرة تزّين له افتراع المشاكل، واعتناق المخاوف، ومقارعة الدواهي، ويكافح، ويعادي، ويجادل، ويبحث عن الطريق. . ولكن دون جدوى، فسُنَّةُ الطبيعة أقوى من مواهبه، وإرادة الله فوق مطامعه.

قد يكون من الغريب حقاً أن ذلك العالم الشاعر الفيلسوف لم يعرف زمنه وما ينوء به من تركة ثقيلة أعباؤها لا يطيق شعبه الموهونُ لها حملاً، أو أن هواه قد أفسد رأيه، وطمعه قد حدّ من معرفته، فلم يكن حين يكتب أو ينظم أو حتى حين يفكر في أي موضوع يتعلق «بالإمام الهادي» وأولاده أو «العلويين» عامة مخلصاً للكتابة والشعر والتفكير ولم يكن الأول ولن يكون الأخير؛ ولكنه على كل أحواله، منصفاً كان أم متحيّزاً، مخلصاً أم مغرضاً كان يمثل العبقرية والكمال؛ أحبّ بلده وقومه، وتعمَّق في دراسة تاريخ وطنه وأهله وورث علومهم وآدابهم وأعطى من نفسه كثيراً، باحثاً متجوّلاً، وكاتباً ساهراً ومجادلاً صائلاً، ومناوياً وثائراً، ولا تزال كتبه مصدراً كريماً للباحثين والعلماء وينبوعاً ثرّاً يستقي منه رواد المعرفة والمؤرخون والنقاد.

اللغَة

والآن لعله قد آن لنا أن نتساءل، هل كان لذلك الشعب العريق المتحضر أدب وبيان بمعناهما المفهوم لدينا اليوم؟ وهل كان لهم حقاً حضارة فكرية ولسانية إلى جانب تلك الحضارة المادية؟ وهل كانت لغتهم عربية لها صلة بلغة القرآن الكريم والأدب العربي.. هذا الأدب الذي بين أيدينا وتوارثناه عن آبائنا؟.

قد يثير تساؤلي الاستغراب والدهشة.. إذ ليس من المعقول أن يكون شعب بلغ المستوى الحضاري العالي الذي بلغه الشعب العربي في اليمن أيام معين وسبأ وحمير ثم لا يكون له أدب ولا فنٌ ولا بيان. ثم لماذا هذا التساؤل: «هل يعتبر أدبهم عربياً أم لا؟ وهل كانت لغتهم عربية أم لا؟» وكيف لا وهم كانوا أصل العرب، ومن أرضهم انتشرت العروبة في سائر آفاق الجزيرة وغيرها؟ ولكن الذي حَدا بي إلى أن أتساءل وأفترض هذه الاحتمالات هو أن الدكتور «طه حسين» يقرر في كتابه «في الأدب الجاهلي» أن اليمن لم يكن لها أدب في الجاهلية، وأن لغتها لم تكن لغة عربية، بل ويقرر أيضاً أن نصيبها من الأدب العربي حتى في القرنين الأول والثاني للهجرة لم يكن ذا بال، إذ كانوا لا يزالون يجهلون اللغة العربية ولا يجيدون النطق بها!.

كرر الدكتور «طه حسين» ذلك في كتابه «في الأدب الجاهلي» وأشار إليه أكثر من مرّة، وتحدث عنه في عدة مواضع، وكرّره أشكالاً وألواناً من التكرير، ونستطيع أن نلخص مزاعم الدكتور طه في شيئين، فقد ادّعى أولاً:

أن لغة أهل اليمن لم تكن لغة عربية..، وزعم ثانياً: أنه لم يكن لليمنيين شعر ولا أدب، لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام، وأوضح وأكد دعواه الأولى بقوله: «وفي الحقِّ أن البحث الحديث قد أثبت خلافاً جوهرياً بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد، ولدينا الآن نقوش ونصوص تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ وفي قواعد النحو والتصريف أيضاً».

وَيسْتمِر الدكتور مدللاً على رأيه يكرر من الجمل والألفاظ والمعاني ما يحاول أن يثبت به الفرَق الجوهري بين لغة حمير ولغة عدنان، ويناقش من سمَّاهم بالمُمَارين الذين يأبون دائماً إلا أن يطالبوا بالحجّة ممن يخالفونه الرأي.. نقاش المتثبت مما يقول، الذي يسوق الدليل ويُفضي بالقول وهو ضيّق بالجهد المراق، ضنين بالوقت المضاع قائلاً:

«وهم يجهلون أنا لو نضع بين أيديهم هذه النصوص «الحميرية» كما تركها أصحابها مكتوبة بخطها الحميري فلن يجدوا سبيلاً إلى أن يتقدموا في قراءتها خطوة، ولو نضعها بين أيديهم منقولة إلى الخط العربي فقد يقرأون من غير فهم فضلاً عن استنباط الفروق المتصلة بالنحو والصرف، وهم يجهلون أنا لو نترجم لهم ونضع أيديهم على هذه الفروق فقد نضيع كثيراً من الزمان والمكان في غير حاجة ولا غناء».

ثم يورد نصاً بخط «المسند» أورده الأستاذ «جويدي» لتلاميذه في «الجامعة القديمة» ويقول الدكتور إن الأستاذ «جويدي» قد أورد النصّ المذكور كنموذج لما بين اللغة العربية والحميرية من القرب..، ويذكر أيضاً تفسير الأستاذ «جويدي» لكلمات النص، ونصاً آخر مفسَّرة كلماته، ثم يقرر بعد ذلك أنه «إزاء لغتين مختلفتين لا لغة واحدة، وأن القحطانية شيء والعدنانية شيء آخر والحميرية شيء والعربية شيء آخر، وأننا إزاء لغتين إحداهما كانت قائمة في الشمال وهي التي نريد أن نؤرخ آدابها، والأخرى كانت قائمة في الجنوب وهي التي تمثلها النصوص الحميرية والسبئية والمعينية، ونحن لا نسرف ولا نشتط حين ننكر ما يضاف إلى أهل الجنوب

من شعر وسجع ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الإسلام».

ترى هل كان هذا الحكم القاسي الذي أصدره «الدكتور طه» وليد تفكير وبحث ودراسة، أم هو مجرد خاطر عابر وجد فيه تفسيراً للغامض، واكتناهاً للمجهول، وتخلص به من عناء البحث والتحقيق والتنقيب؟ وكان أسهل عليه أن يشطب بجرة قلم أو على الأصح «بنفثة لسان» تاريخ شعب ومعالم حضارة عريقة من أن يجهد نفسه ووقته وتفكيره ليصل إلى عين الصواب، أم هو حقاً كما يقول بعض ناقديه قد نقل ذلك دون تمحيص عن بعض أساتذته من المستشرقين، وأنه كثيراً ما ينقل عنهم ما يقولونه عن العرب والأدب العربي مهما كانت أقوالهم مجانفة للصواب؟

ولكن، هلا علم الدكتور أن الثلاثين عاماً الأخيرة شهدت تقدماً في دراسة اللغة المعينية والسبئية جعلها معروفة لنا أضعاف ما كانت عليه من قبل، فإذا كان قد اعتمد على ما قاله بعض الباحثين من الأجانب قبل ثلاثين عاماً أو تزيد، فإن ذلك قد تغير تماماً بعد أن تمّت دراسة آلاف النقوش الأخرى، وجمعت النصوص، وقورنت ببعضها، ولا شك أنه لو قدر لأي باحث أن يكتب اليوم لوجد في نتائج دراسات المستشرقين المحدثين أنفسهم غير ما كتبه أساتذتهم القدامى، وإذن فيكون من الإسراف والشطط إرسال الكلام على عواهنه دون تقدير لما قد تتكشف عنه الأيام.

ولكي ننصف الدكتور طه نرى أنه قد استند أيضاً إلى عبارة «لأبي عمرو بن العلاء» المتوفى سنة **١٥٤هـ (٧٧١م)** يقول فيها كما رواها الدكتور في كتابه: «ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا» واسْتَنْتج من ذلك أن الأوائل أنفسهم قد فطنوا إلى الفرق الجوهري بين لغة أهل الشمال ولغة أهل اليمن، وقد جنَت هذه العبارة جناية كبرى على الأدب اليمني وكانت عند الدكتور أصدق مما رواه الثقات من شعر ونثر لأبناء اليمن في الجاهلية ثم في القرن الأول والثاني للهجرة، وكل ما روي «لعلقمة بن ذي جدن»، و «عمرو بن براقة»، و «مالك بن حريم»، و «عمرو ابن يزيد العوفي»، و «عمرو بن معديكرب الزبيدي»، ثم عن أدباء وشعراء اليمن في صدر

الإسلام، ولا بد لنا قبل أن نقف مع تلك الأشعار ونتساءل كيف كان يتفاهم أبناء العرب في الشمال والجنوب عندما يلتقون في أسواق العرب المشهورة، وفي الحيرة بالعراق، وعلى ضفاف بردى بالشام؟ وبأي لغة خاطب وفد قريش الملك «سيف بن ذي يزن» حين قصدوه للتهنئة إلى قصر «غمدان» بصنعاء أثر انتصاره على الحبشة واسترداده ملك أجداده؟ وكيف كان يتفاهم النبي عليه الصلاة والسلام مع المهاجرين الوافدين من اليمن وشتى قبائلها لو لم يكونوا عرباً أقحاحاً يجيدون العربية الفصحى ويصطَنِعُونها لهم لغة؟ وبأي تفسير نفسّر الخطب والقصائد التي كان ينشدها شعراؤهم ويرتجلها خطباؤهم عندما يقفون بين يدي الرسول الكريم وتلك الكتب التي كان يتبادلها ﷺ مع ملوك حمير وأقيالها وزعماء القبائل اليمنية والكثير من ذلك رواه الثقات ومذكور في الصحاح.

قبل هذا وذاك لا بد أن نقف قليلاً عند كلمة «أبي عمرو بن العلاء» لنعرف ما هو القصد الصحيح منها وهل تصلح أن تكون متكأ لإنكار عروبة اليمن؟.

نعود إلى «طبقات فحول الشعراء» لنراجع المصدر الذي استقى منه الدكتور هذه العبارة فنرى أن النص قد حُرّف وحُذف منه وأخرج في قالب جديد.

أما النص الذي رواه ابن سلام في طبقاته عن أبي عمرو بن العلاء فهو كما يلي: «قال أبو عمرو بن العلاء في ذلك: ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليومَ بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا» فالذي حَذَفَ قوله «وأقاصي اليمن اليوم» في النص الذي نقل عنه الدكتور قد حذفه حتى لا تنصرف الأذهان إلى أن هناك فرقاً بين لسان من يقطنون في أقاصي اليمن ومن يجاورون القبائل المُضَريَّة فتنصرف بالتالي إلى قصد أبي عمرو بن العلاء وغرضه، وهو التعبير عن اختلاف اللهجات وتباينها في زمنه وليؤكد هذا الانصراف غيّر عبارة «ولا عربيتهم بعربيتنا» وأبدلها بقوله «ولا لغتهم بلغتنا» وهي صريحة واضحة تحمل نفس الدليل على أن أبا عمرو لم يرد إلا الكلام عن اختلاف

اللهجات عند كل قبيلة من القبائل العربية كما هو معروف.

ويؤكد ذلك بل ويجعله يقيناً ما رواه عبدالله بن مسلم بن قتيبة عن أبي حاتم عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء نفسه أنه قال: «تسع قبائل قديمة، طسم وجديس، وجهينة، وحجم، والخثعم، والعماليق، وقحطان، وجرهم، وثمود، فهؤلاء قدماء العرب الذين فتق الله ألسنتهم بهذا اللسان وكانت أنبياؤهم عرباً، هود وصالح وشعيب عليهم السلام»[1]. فليس من المعقول أن يقول أبو عمرو بن العلاء أن قدماء العرب هؤلاء قد تفتقت ألسنتهم بالعربية ثم يأتي مرة أخرى فينفي عنهم التكلم بالعربية، كما أراد الدكتور طه أن يفهم من كلمة أبي عمرو بن العلاء المحرفة.

وقد سبقنا إلى مناقشة الدكتور في هذا الموضوع بعض من تصدى لنقد كتابه، غير أن الكثير منهم قد جاروه في القول باختلاف اللغتين وتباينهما أو على الأقل لم يهمهم الدفاع عن عروبة اليمن وعربية آدابها، بقدر ما احتموا بنواح أدبية ودينية وتاريخية أخرى.

فالسيد محمد الخضر حسين بعد أن يؤكد أن الدكتور طه قد تابع في رأيه الأستاذ مرجوليوث، يرى أن الاختلاف بين اللغتين قد خف وأن التقارب بينهما قد تمّ في عهد يتقدم ظهور الإسلام، ويسرد أدلة وبراهين تؤيد ما ذهب إليه[2]، وحين يتطرق إلى كلمة أبي عمرو بن العلاء يؤكد ما ذهبنا إليه ويستغرب تحريفها ويقول: إنه قصد بذلك المبالغة في الفصل بين اللغتين وليصرف ذهن القارىء عن أن يفهم من قول أبي عمرو بن العلاء أن تلك اللغة عربية وإنما تختلف عن العدنانية في اللهجة وما هو من قبلها، وأكد وجود لغة أدبية واحدة كان يحتذيها الشعراء على اختلاف قبائلهم منذ عهد الجاهلية.

وأما الأستاذ محمد لطفي جمعة فقد ناقشه من ناحية منطقية صرفة،

---

(١) انظر صفحة ١٤٢ من كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي المتوفي سنة ٣٢٢هـ، جزء أول تحقيق الدكتور حسين الهمداني.

(٢) من صفحة ٧٠ إلى ٣٦٢ من كتاب نقض كتاب «في الشعر الجاهلي».

فقال: «اعتمد المؤلف على أقوال الرواة، ثم يؤكد لنا أن الرواة يضيفون شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي إلى قوم ينتسبون إلى عرب اليمن... ويؤيد مخالفة اللغة القحطانية للغة العرب برواية أحد الرواة وهو أبو عمرو بن العلاء، فكأن الرواة الذين كانوا يعلمون اختلاف اللغتين من أقدم الأزمنة رووا على الرغم من علمهم هذا شعراً كثيراً بالعربية العدنانية وحملوه على شعراء اليمن... وهذا كلام ظاهر البطلان والتلفيق لا يحتاج إلى برهان لأن الراوية الذي يعرف اختلاف الأمتين واختلاف اللغتين، إذا أراد الوضع والاختلاق، لا يقع في مثل هذا الخطأ المفضوح».

ثم يقول الأستاذ جمعة: إن أبا عمرو بن العلاء قد قصد أن اللهجة العربية الحميرية التي كانت شائعة في زمنه في بقايا حمير في بلاد اليمن تخالف اللهجة العربية الفصحى.

ولم يتعد غير هذين الناقدين من الذين نقضوا أو نقدوا كتاب الدكتور طه حسين عند تعرضهم لمناقشة موضوعنا، هذه المعاني إيجازاً أو إسهاباً. وحقاً إن تاريخ الأدب الحديث لم يشهد معركة أحفل ولا أمجد من المعركة الكلامية التي أثارها كتاب الدكتور طه حسين سواء كان اسمه «في الشعر الجاهلي» أو بعد أن حذف منه فصلاً وأثبت مكانه فصلاً وأضاف إليه فصولاً وسماه «في الأدب الجاهلي».

لقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة وانبرى له العلماء والأدباء ورجال الدين فحللوه وشرحوه وناقضوه، وجادلوا مؤلفه جدالاً عنيفاً تارة، وهادئاً تارة أخرى؛ ناقشوا أحكامه وافتراضاته وأساليبه، ونقضوا أدلته وبراهينه بالأسلوب العلمي تارة، وبالنقد التحليلي طوراً، وبالتهجم والتجريح، والسخرية اللاذعة، مرات، وفي مقدمتهم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي[١] والأستاذ محمد فريد وجدي[٢] والأستاذ محمد الخضر حسين[٣] والأستاذ

---

(١) في كتابه تحت راية القرآن.
(٢) صاحب كتاب «نقد كتاب الشعر الجاهلي».
(٣) نقض كتاب في الشعر الجاهلي.

محمد أحمد الغمراوي[١] والأستاذ محمد لطفي جمعة[٢] وغيرهم كثيرون، بيد أن واحداً من أولئك الأساتذة الكبار لم يَذُدْ عن الأدب اليمني في الجاهلية أو الإسلام، ولم يحاول أن يرفع عنه الحيف الكبير والظلم الشديد اللذين كَالَهُما له كتاب الدكتور طه حسين دون رحمة ولا إشفاق، وحتى أدباء اليمن لم نسمع حتى الآن أن واحداً منهم قد نشر أو كتب شيئاً في هذا الموضوع اللهم إلا حكايات يتناقلونها في مجالسهم أو أحاديث يتبادلونها في أسمارهم.

ورغم أن الكتاب باستثنائه كموضوع إنشائي رائع البيان، أخاذ التعبير، يأخذ بمجامع قلوب الناشئين وينسيهم أنهم يتيهون في مفازات من الأخطاء التاريخية والأدبية، فإنه قد أصبح في نظري غير ذات أهمية لأن العلماء والنقاد من شرقيين وغربيين قد خطأوه ونقضوه أدبياً وعلمياً وتاريخياً.. فإن الأدب اليمني ما زال ينتظر دوره ليرفع عقيرته صارخاً في وجه ظالمه محتجاً على من تجنى عليه وهي اليمن الخالدة بحضارتها، الخالدة بآدابها، وكثيرون يعلمون أنها كانت المنبع الدافق للعروبة وأمجادها وللعربية وآدابها.

وهذه المشكلة العويصة التي جعلت الدكتور طه يظن أن لغة اليمن لم تكن في الجاهلية وصدر الإسلام لغة عربية قد وقف عندها غيره ممن لم يتعمقوا في الدراسات اليمنية ولا في معرفة أسرار اللغة العربية واختلاف لهجاتها، وممن يلجأون دائماً إلى الحدس والتخمين والافتراض لكي يقال إنهم قد اكتشفوا سراً وأتوا بجديد..، ولكن الذين بحثوا ونقبوا وتأملوا ودرسوا كثيراً والذين جاسوا خلال القبائل اليمنية والشعوب العربية في كل أقطارها لا يعجزهم معرفة القول الفصل فَيَفْرُوْنَ قلب المشكلة، ويعلمون علم اليقين أن كل ما ورد من مثل كلمة أبي عمرو بن العلاء إنما ينصب على اللهجات وتباينها واختلافها في اللغة الواحدة. ثم يعرفون أيضاً أن إطلاق «اللغة الحميرية» على أنها لغة أو «لهجة» اليمنيين جميعاً، أو أنها لغة

---

(١) النقد التحليلي.

(٢) الشهاب الراصد.

أو لهجة القبائل اليمنية جمعاء.. فيه شيء من التجاوز ويشبه إطلاق الجزء على الكل.. إذ لم يكن «الحميريون» هم أول من كتب بهذا القلم المعروف «بالمسند» بل سبقهم إلى استعماله السبئيون والمعينيون وغيرهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن من يعرف أنساب القبائل اليمنية يرى أن «حمير» تطلق عند اليمنيين على ثلاثة: «حمير الأكبر» و «حمير سبأ» و «حمير بن الغوث» وأن الأخيرة هي المشهورة عند العرب وعند أبناء اليمن باللُكْنة والغُتْمة، وقد ذكر ذلك الهمداني في الجزء الثاني من الإكليل قال: «حمير بن الغوث وهو حمير الأدنى ومنزلهم باليمن بموضع يقال له حمير من غربي صنعاء وهم أهل غتمة ولكنة في الكلام الحميري، قال أبو محمد: ولذلك تقول أهل صنعاء إذا رأوا غتمياً من أغتام بادية صنعاء: هو «حميري»، يريدون «حمير بن الغوث» لا أنهم يريدون «حمير الأكبر» ولا حمير «سبأ» الأصغر وهم يعلمون أن فيهم الفصاحة والشعر، وإلى «حمير بن الغوث» تنسب أكثر هذه اللغة الحميرية».

فالهمداني ـ كما ترى ـ لا يكاد يصدق أن أهل صنعاء يقصدون بلفظة حميري كل من يمكن أن ينتمي إلى حمير، ويؤكد أن أهل «صنعاء» يعلمون أن في قبائل «حمير سبأ» و «حمير الأكبر» الفصاحة والشعر وتأمل قوله: «وهم أهل غتمة ولكنه في الكلام الحميري» لتعرف أن اللغة الحميرية هذه من العربية الفصحى كما نجد اليوم أغتاماً ولكناء يلوون ألسنتهم بالعربية ويحرّفون في نطقهم مخارج حروفها ونبراتها وفصاحتها وذلك مألوف معروف وخاصة في مصر وإفريقيا.

وقد ذكر العلماء أن اللغات السامية وهي العربية، والسريانية، والعبرية، والفينيقية، والآشورية، والبابلية، وغيرها قد تفرعت عن لغة أصلية واحدة، وسواء تفرعت عن بعضها البعض أو من لغة طوتها يد الأيام، وذكروا أيضاً أن اختلافها وتباينها، وتنوعها قد تطور شيئاً فشيئاً بعد تشتت شمل القبائل وتبعثرها في جهات آسيا.. كل قوم حسب بيئتهم وطرق معايشهم.

وتنوّع اللغات وتباين اللهجات أمر ضروري وحيوي نشاهده في كل أمة وفي كل لغة من أمم ولغات العالم في كل العصور وكثيراً ما نرى أمة واحدة تختلف لهجات قبائلها وشعوبها اختلافاً كثيراً أو قليلاً، ثم يبقى لهم في الوقت نفسه لغة أدبية واحدة لا يختلف في فهمها اثنان كما هو الحال مع أبناء الأمة العربية في العهد الحاضر، فالبون الشاسع بين لهجات أبناء اليمن ومصر وسوريا والعراق والحجاز وليبيا والمغرب العربي والسودان والجزائر كل ذلك لم يمنع أن يكون هنالك لغة أدبية واحدة يجمعهم فهمُها وتذوّقها والكتابة بها.

ولا شك أنه لولا القرآن لظلت هذه اللهجات تزداد مع الزمن بُعداً واختلافاً حتى يضطر أبناء كل لهجة إلى تدوينها وتقييدها، وبذلك تستقل لهجة كل شعب وتصير لغة أخرى. ولكن محافظة الناطقين بالضاد على لغة القرآن والرجوع إليها فيما يكتبونه ويخطبون فيه ساعد ولا شك مساعدة كبيرة على حفظ لغتنا العربية واستمرار النطق بها كما كان ينطق بها العرب الأولون يوم أنزل بها القرآن الكريم.

ومن المعلوم قطعاً أن العرب في العصر الذي أنزل فيه القرآن كانت لهجاتهم المحلية مختلفة ومتباينة، وكان لكل قبيلة لغتها ـ أي لهجتها الخاصة ـ وتتباين هذه اللهجات قوة وضعفاً وفصاحة، ولكنه وقد وصف الهمداني لهجات قبائل العرب وصفاً دقيقاً رائعاً وحصر ما كان يعد منها فصيحاً عند العرب وما كان يُحْسَب غير فصيح بين القبائل العربية، وفي ذلك دليل واضح على أن اللغة الأدبية لغة الشعر والخطابة كانت لغة الجميع. قال أبو محمد الهمداني في صفة جزيرة العرب:

«أهل الشِحر والأسْعَاء ليسوا بفصحاء، مهرة غُتمٌ يشاكلون العجم، حضرموت ليسوا بفصحاء وربما كان فيهم الفصيح وأفصحهم كندة وهمدان وبعض الصدف، سرو مذحج ومأرب، وبيحان، وحريب فصحاء، ورديء اللغة منهم قليل، سرو حمير وجعدة ليسوا بفصحاء وفي كلامهم شيء من التَحْمِير، ويجرون في كلامهم ويحذفون فيقولون «يَابْنَ مْعَمْ» في يَا ابن العَمِّ

و «سمع» في اسمع، لحج وأبين ودثينة أفصح، والعامريون من كندة والأوديون أفصحهم، عدن لغتهم مولدة رديئة وفي بعضهم نَوْكٌ وحماقة إلا من تأدّب، بنو مجيد وبنو واقد والأشعر لا بأس بلغتهم، سافِلة «المعافر» غُتْم وعاليتها أمثل، والسكاسك وسط، بلد الكلاع نجْديُّهُ مَثِيلٌ مع عسرة من اللسان الحميري سراتهم فيهم تعقد، سحلان وجيشان وَوَرَاخ وخَضِر والصُهَيْب، وبدر قريب من لغة سرو حمير، ويحصب وَرُعَين أفصح من جُبْلان، وجُبْلان في لغتهم تعقد، حقل قتاب فإلى ذمار الحميرية القحة المتعقدة، سراة مذحج مثل ردمان وقرن ونجدها مثل رداع وإسْبِيل وكومان والحدا وقَائِفة ودِقْرَار فصحاء، خولان العالية قريب من ذلك، سحمر وقرد والجبلة وملح ولحج وحمض وعُتُمة ووتيح وسمح وآنس والهن وسط وإلى اللكنة أقرب، حراز والأخروج وشم وما طِرح والأحبوب والجحادب وشرف أقيان، والطرف وواضع والمعلل خليطي من متوسطٍ بين الفصَاحة واللكنة، وبينها ما هو أدخل في الحميرية المتعقدة لاسيما الحضورية من هذه القبائل، بلدة الأشعر وبلدعك وحكم بن سعد من بطن تهامة وحوازها لا بأس بلغتهم إلا من سكن منهم القرى، همدان من كان في سراتها من حاشد خليطي من فصيح مثل عذر وهِنْوَم وحجور، وغتم مثل بعض قدم وبعض الجَبَر، نجدي بلد همدان البون منهم المشرق والخشب عربي يخلط حميرية ظاهر همدان النجدي من فصيح ودون ذلك، خيوان فصحاء وفيهم حميرية كثيرة إلى صعدة وبلد سفيان بن أرحب فصحاء إلا في مثل قولهم «إمْرَجُل» و «قيد بعيراك» و «رأيت أخواك» ويشركهم في إبدال الميم من اللام من الرجل والبعير وما أشبهه الأشعر وعك وبعض حكم من أهل تهامة وعذر عَطِرةْ ونهم ومرهبة وديبان، وسكن الرحبة من بلحارث فصحاء، سفيان بالجوف الأعلى دون ذلك خِرْفان وأتافث لا بأس بفصاحتهم، سكن الجوف فصحاء إلا من خلطهم من جيرة لهم تهاميين، قابل نهم الشمالي ونعمان مرهبة فظاهر بني عليان وظاهر سفيان وشاكر فصحاء، بلد وادعة بنو حرب أهل إمالة في جميع كلامهم، وبنو سعد أفصح. من ذمار إلى صنعاء متوسط وهو بلد ذي جرة، صنعاء في أهلها بقايا من العربية المحضة ونبذ من كلام

حمير، ومدينة صنعاء مختلفة اللغات واللهجات لكل بقعة منها لغة، ومن يصاقب شعوب يخالف الجميع، شبام أتيان والمصانع، وتُخْلى حميرية محضة، خولان صعدة نجديُّها فصحاء وأهل قَدِّها وغورها غُتْمٌ، ثم الفصاحة من العَرض في وادعة فجنب فيام فزُبَيْد فبني الحارث فما اتصل ببلد شاكر في نجران إلى أرض يام فأرض سنحان فأرض نهد وبني أسامة فعنز فخشعم فهلال فعامر بن ربيعة فسراة الحجر فدوس فغامد فَيَشْكُر ففهم فثقيف فبَجِيله فبنو علي، غيران أسافل سروات هذه القبائل ما بين سراة خولان والطايف دون أعاليها في الفصاحة، أمّا العروض ففيه الفصاحة ما خلا قراها وكذلك الحجاز ونجد السفلى فإلى الشام فإلى ديار مُضَر وديار ربيعة فيها الفصاحة إلا في قراها، فهذه لغاة الجزيرة على الجملة دون التبعيض والتفنين».

هذا الوصف الدقيق الذي يحدثنا عن لغات ولهجات القبائل اليمنية وغيرها ووجود الفصيح منها والأفصح والأغْتَم منها والمستعجم لاشك أنه كان وليد تجربة شخصية، ومعرفة عملية، وأن الهمداني ما قال ذلك وسجله في كتابه إلا بعد ما طاف أرجاء الجزيرة العربية، وخالط أهلها، وأخذ عن علمائها، وروى عن شعرائها. وأنت تراه دائماً حين يروي شعراً فصيحاً أو نثراً بليغاً لشاعرٍ أو خطيب ينتمي إلى إحدى هذه القبائل التي وصفها باللّكنة أو الغتمة لا يتشكك ولا يحتاط ولا يرى ذلك مناقضاً لما حكاه وسجله، لأنه كان يعرف جيداً أن اختلاف اللهجات، وتباين اللغات القبلية، لا يؤثر بحال من الأحوال تأثيراً جوهرياً على لغة الشعر والنثر الفني.

ولعل تلك الصفات والسّمات التي وصفها الهمداني لا تزال متوارثة حتى يومنا، مع أن لغة الشعر التقليدية بأوزانها وبحورها وعروضها وقوافيها هيَ هيَ لم تتغير ولم تتحوّر ولم يطرأ عليها من التطور إلا ما يستلزم الحياة وتطورها من شدة ورخاء، وسعادة وشقاء، وبداوة وحضارة، دون مساس جوهري بالرّس واللباب وكيان الشعر العربي الخالد.

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

ومما يلحق بقبيل بحثنا ويؤكدُ أنَّ المقصود باللسانِ واللغةِ، اللهجةَ ما ذكره الهمداني أيضاً في سياق قصة «الصَّدَف» والتحاقهم بحضرموت وإقامتهم بشبوة وفيهم امرأة «مَرْتَع» ومعها ابنها مالك، صغير فنشأ في أخواله وتزوّج فيهم فلما انقطع عن أبيهِ قال لابنه «ثور» إنّي أظُنّ أخاك مالكاً قد صدف عنّا أي مال، فسمى الصدف من يومئذ قال الهمداني وهذا كان سبب دخول الصدف في حضرموت حتى تكلّموا بلسانهم وتسموا بأسمائهم... الخ.

وقال شاعر الصدف في ذلك:

وآلفتُ ما بيني وبين بني أبي وقد خولفت منا شَمَالٌ وألسن
إلى مرتع نَسْمُو ويسمو عَدِيدُنَا ونحن إليها نستنيم ونذعن

وكثيراً ما نرى الهمداني يشير في ثنايا كتبه إلى كلمات يقول إنها حميرية ويُنَبّه إلى اللهجة أو النبرة الفارقة بينها وبين الفصحى مثل قوله:

«وحدثني الأوساني أنه قرأ في مسندٍ، «عمران هشوع بن أفرع وبينهما مروة بصيحم»... مروة منزل في القصر واسم القصر صيح وحمير تزيد الميم.

وقوله:

«وأولد أيضاً أفرع بن الهميسع هشوع باني عمران والأصل أشوع لأن حمير تبدل الهاء من الهمزة».

وقال في مكان آخر:

«إن حمير تطرح الألف من كلامها فتقول إذا أرادت أن تقول اسمع واذهب سْمَعْ وذْهَب».

وقال أيضاً:

«بعض حمير تبدل الألف إذا كان في ذوات الواو ـ واواً فتقول في ملهو ملها ومسنو مسنا ـ وهو النَّضّاحَة، إلى غير ذلك مما تجده منشوراً في كل كتبه مما لو ذهبنا في تتبعه لطال البيان وخرجنا عن الموضوع.

والآن وقد كدنا أن نفرغ من مناقشة الدكتور «طه» حول اللغة واختلاف اللهجات أرى لزاماً علينا أن نتساءل: هل تعبر دائماً «لغة النقوش» عن لغة التفاهم عند من تؤثر عنهم هذه النقوش؟

لنفترض أن ما قاله الدكتور طه ومن قبله الأستاذ «مرجليوث» عين الحق ونفس الصواب، وأن النقوش اليمنية القديمة قد دُونت بلغة لا صلة لها بالعربية لا اشتقاقاً ولا إعراباً... فهلا يجوز لنا أن نفترض في نفس الوقت أن لغة هذه النقوش لم تكن لغة تخاطب القوم، ولا لسان آدابهم وأشعارهم إن كانت لهم آداب وأشعار؟

الذي يبدو بعد التأمل والبحث وبعد أن رجعت إلى أهل العلم.. أن لغة النقوش والآثار لا يمكن في كل حال أن تمثل لغة التخاطب والتفاهم عند الشعوب، وأنها كثيراً - إن لم تكن دائماً - ما تكون مغايرة لما يتداوله الناس من مصطلحات وقواعد لسانية في لغتهم التي يتفاهمون بها ويعبرون عن مشاعرهم وأحاسيسهم إزاء الحياة.

وإذن فلو افترضنا وهو افتراض مُغْرِقٌ أن لغة «المسند» كانت خاصة بالحميريين، وأنها تباين وتغاير اللغة العربية، بل لغة أخرى لا تتفق مع العربية إلا بالأخوة السامية كما يريد الدكتور «طه» أن نفهم.

وإذن فما ورد في نقوش «المسند» لا يمكن أن يصور لغة التفاهم التي كانت متداولة بين القبائل اليمنية، وفي نفس الوقت لا يمكن أن تمثل لغة الشعر والقصيد التي كانت توحد بين القبائل العربية جمعاء في الشمال والجنوب رغم اختلاف لهجاتهم وتباين ألسنتهم، وخصوصاً في القرنين السابقين لظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم بعد أن تقاربت وتآلفت تلك اللهجات وأصبح ما نسميه الآن العربية الفصحى أو لغة القرآن... لغة أشعارهم وخطبهم في أسواقهم وحروبهم ومنتدياتهم.

وعلماء الآثار يعرفون هذه الحقيقة ويقررونها وقد أشار إليها الدكتور مراد كامل فقال:

«من الغريب أن هذه النقوش اليمنية دوّنت لهجاتها المختلفة بأسلوب

واحد في الفترة ما بين القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد وبين القرن الرابع أو الثالث الميلادي، وهذا يوضح أن اللغة التي استخدمت في النقوش كانت لا تعبر عن لغة التخاطب.

وقد سألت الدكتور أحمد «فخري» مستأنساً برأيه في الموضوع، فأكد لي ذلك وضرب له الأمثلة قائلاً:

«إننا في مصر القديمة مثلاً نرى نقوشاً تكتب في المقابر والمعابد ولا تكاد هذه النقوش تتغير في أشكالها أو في نحوها وأجروميتها إلا قليلاً، بينما نعرف من دراسة هذه النقوش المصرية أنه كانت للشعب لغة أخرى، ولها صيغ نحوية أخرى، بل واختلفت كتابتها اختلافاً كبيراً جداً عن لغة النقوش التي كانت تكتب في العصر ذاته على واجهات المعابد، وجدران المقابر».

«فالدِيمُوطيقيَّة» التي كان يتكلم بها الشعب ويتحادث بها الناس في حياتهم اليومية، بل وينظمون بها الأشعار أيضاً بعيدة كل البعد عن اللغة التي كانت تدون في الوقت نفسه على المعابد».

وأكد لنا الدكتور أحمد فخري أيضاً أن «الديموطيقية» التي كانت مستخدمة بين الشعب لا يمكن أن يفهمها إلا من تخصص فيها، بل إن لها معاجمها الخاصة وأجرُوميّتها الخاصة، وأن أي شخص متخصص في اللغة «الهيروغليفية» القديمة وهي لغة النقوش لا يستطيع أن يفهم أو يقرأ اللغة أو الكتابة «الديموطيقية» إلا إذا درسها دراسة خاصة مستقلة.

هذا إذا سلمنا جدلاً لمن يزعم أن لغة نقوش المسند لم تكن عربية وأنها مغايرة للغة الشمال، ولا نجد دليلاً يسوغ للدكتور طه أن يقرر ذلك، أو يجعله يتبع رأي «مارجليوث» دون تَؤُدة أو تبصر، مع أننا نعلم جميعاً أن لغة هذه النقوش التي نقلت إلينا خالية من كل علامة تشير إلى كيفية نطق الكلمات والإعراب، وأن ذلك يجعلنا غير عارفين بكيفية النطق التي كانت تلهج بها ألسنة من نقشوا تلك النقوش وسجّلوها، ولا كيف كانوا ينطقون بمفْرَدَاتها وتراكيبها، ولا كيف كانوا يُعْربُون كلامهم. لذلك فمن التسرع ولا

شك الجَزمُ بأنَّهم كانوا لا ينطقون بألفاظ النقوش المأثورة ـ وهي في أصل اشتقاقها ومادتها عربية ـ كما كان ينطق العرب في شمال جزيرة العرب وأواسطها، ولقد أصبح لدينا ما يشبه اليقين بعد أن تأملنا الأمثلة التي أوردها الدكتور طه ليؤكد لنا هذا الخلاف المزعوم بين لغة قحطان وعدنان وبعد أن درسنا الكثير من النصوص المنقولة عن النقوش الحميرية وخاصةً نقوش خَرِبَة «براقش» التي نقلها إلى العربية الدكتور خليل يحيى نامي، أن هذا الخلاف المزعوم لا يتعدى التباين في المصطلحات الكتابية وقواعدها وأشكالها بين تلك الكتابة القديمة «المُسْنَدْ» وبين ما صارت إليه الكتابة العربية بعد تطورها على مر القرون.

فقط مجرد قواعد كتابية ومصطلحات في الإعراب، إلى ألفاظ غريبة مهملة خَوَّلَتْ لمن يريد أن يتخيل الخلاف ويبالغ فيه ويغرق في تصوره... ما أراده من وهم، وما تصوره من صعاب، ونحن لو تخيلنا أن الدعوة التي ندب إليها بعض الأدباء والمجددين في مستهل هذا القرن ولا يزال يجهر بها البعض، من ضرورة تغيير الأحرف العربية الحاضرة وإبدالها بحروف وأشكال أخرى، قد لاقت نجاحاً ثم مضى جيلٌ أو جيلان عليها فسيوجد حينذاك من أحفادنا الذين لم يَتَعلَّموا الإشارات والعلامات التي تبين كيفية النطق وضبط الكلمات وإعرابها كما نَتَعلَّمه اليوم... سيوجد حينذاك من تُخَوّلُ لهم تقديراتهم وتخميناتهم الدعوى بأن لغتنا الحالية بعيدة عن لغتهم العربية وسيجدون من المشقة والجهد في ترجمة ما نكتبه الآن إلى عربيتهم مثلما وجد الدكتور طه حسين حين قرأ ترجمة النصوص والنقوش العربية القديمة، وهناك يحكمون أو على الأقل سيوجد من يقول إن عربيتنا لا تمت إلى اللغة العربية إلا بصلة الأخوة السامية لأنهم سيقرؤنها دون أن يعرفوا مصطلحاتها التي نمضي وقتاً طويلاً ونصرف جهداً غير يسير في دراستها وتعلمها، فلا يكادون ينطقون بأي لفظة نطقاً صحيحاً ويكونون قد جهلوا كل ما يتصل بعربيتنا من نحو وصرف وإشارات وسكنات وحركات وقواعد إعراب، ولو ذَهَبْتُ أُدَلِّلُ على هذا وأضرب الأمثال، لاستغرقت وقتاً طويلاً في تبْيينِ ما هو واضح وجلي ومعقول.

فالأمرُ إذنْ لا يتعدى الاختلاف في رسم الكلمة لا في النطق بها، ولا يستطيع أحد أن يجزم بأن ما ورد في نقش المسند من كلمات كان عَرَبُ اليمن ينطقون بها كما هو مرسوم بقواعدنا الحاضرة، وأنهم قد تلفظوا بكلمة «وَهْبُمْ» كما ترجمت إلى قاعدة كتابتنا الحديثة دون أن ينطقوها ـ كما ننطقها الآن «وَهّابٌ» وكذلك بقية ما ورد في النقش من كلمات ونحن أنفسنا نجد في لغتنا وبقواعدها الكتابية الحاضرة كثيراً من الكلمات نتلفظها بطريقة لا تتفق ورسمها لما فيها من زيادة أو حذف مثل «طه» و «يس» و «الرحمٰن» وغيرها.

وليس معنى هذا أنني أنكر أن هناك ألفاظاً غريبة وغير معروفة، بَلَى ولكن ليس لأنها غير عربية أصلاً واشْتِقَاقاً؛ بل لأنها مما قد بعد عنه العهد فأصبح غريباً ونافراً ومهملاً تفتقر معرفته إلى قواميس اللغة وهو كثير يوجد حتى في اللهجة المكتوبة بحروفنا، وكثير من كلمات الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام والقرآن الكريم، لا نعرفها إلا بعد الرجوع إلى كتب اللغة وقواميسها فهي من قبيلِهِ، وهو أمر بديهي لا يعوزه الدليل أو الاستشهاد.

فاختلاف لهجات القبائل العربية واختصاص كلٍ منها بألفاظ أو بمعنى من المعاني المشتركة للفظٍ واحدٍ لا يعني أنه لم تكن لهم جميعاً لغة فنية قائمة فوق اللهجات وتغذيها جميع اللهجات[1].

ولم نعثر حتى الآن على نصوص يمنية قديمة تثبت أن شعراء اليمن القدامى كانوا يستعملون في شعرهم ونثرهم الفنّي ألفاظاً خاصة بهم لم يكن يستعملها شعراء الشمال، ونظن أنه قد وجد ذلك، وسوف نرى حين نَتَحدث عن الشعر «الحميني» «الشعر الشّعْبي اليمني» بأن أصله متوارث من قبل أن تَفْسُدَ العربية، ومن قبل الحدود الزمنية التي وضعها المتأخرون زاعمين أنها مبدأ نشأته. ثم إننا نؤمن بأن اختلاف اللهجات، وتباين البيئات يستدعي دائماً أن يكون لكل بيئة ولهجة فنٌ مستقل الملامح به يتميزون عن

(١) وانظر في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان.

سواهم ضمن إطار ملامح الشخصية العامة للجنس أو القومية أو العقيدة الكبرى، ويظل ذلك الفن خاصاً بهم يتوارثونه مع الأجيال وإن تشكل بشتى الأشكال بمرور الزمن وتطور الأحداث. وهذا ما نشاهده الآن في الأقطار العربية وتباين آدابها الخاصة شكلاً وموضوعاً وأداءً، واختلافاً، في الأوزان والأنغام والأساليب رغم أنها كلها مطبوعة بالصبغة العربية الخالدة... بل إن ذلك لَيَظْهَر بين قبائل القطر الواحد؛ وعلى الأقل هذا ما أعرفه وأفهمه وأنا على يقين منه بالنسبة لليمن وقبائلها وأشعارهم وفنونهم وأساليب ممارستهم لها، وذلك ما نرجو أن يلقى حَظَّهُ من الدراسة والاهتمام في المستقبل. ولعله من المفيد أن نذكر بعض ما نقله إلينا الرواة والمؤرخون من شواهد على اختلاف اللهجات ومدلولات الألفاظ، فقد ذكروا أنه وفد بعض بني دارم إلى ملك اليمن في عصره فقصده بظفار فصادفه دونها في تصيّد له وهو مُشفٍ على عرفةِ جَبلٍ، فلما واجهه علم أنه وافد فقال له: ثِبْ على الفِنَاء، أي اقعد على الأرض ـ والأرض الفناء ـ فظن أنه يقول له ثب في الحيد، فوثب فتردى فمات، فقال الملك، من دخل ظفار حمر، أي لا يقصد ظفار إلا من عرف لغة أهلها.

ورووا أيضاً أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر لقي النبي ﷺ وقد وقعت من يده السكين فقال له: «**ناولني السكين**»، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ولم يفهم ما المراد بهذا اللفظ، فكرر له القول ثانية وثالثة وهو يفعل كذلك، ثم قال: المُدْيَة تريد؟ وأشار إليها، فقيل له نعم، فقال، أو تسمى عندكم سكيناً؟ ثم قال: والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ.

كما أن العلماء قد عدوا عيوباً في النطق نسبوها إلى بعض القبائل أمثلة عن اختلاف اللغات ونسبوا إلى القبائل اليمنية أشياء من ذلك، وقالوا في صفة قريش: ليس فيهم طمطمانية حمير، وليس فيهم غمغمة قضاعة، الغَمْغة والتغمغم: كلام غير بَيّنٍ، قاله رجل من العرب لمعاوية قال: من هم؟ قال: قومك من قريش. والطمطمانية إبدال لام التعريف ميماً وعليها جاء الحديث في مخاطبة بعضهم «ليس من امْبَر امْصِيَام في امْسَفَر»: أي ليس من البر الصيام في السفر.

وعدّوا أيضاً من لغات اليمن المخالفة لغيرها: الشنشنة وهي أن يجعلوا الكاف شيناً مطلقاً فيقول في لبيك اللهم لبيك، لبيشْ اللهم لبيشْ، والوَتمُ يجعلون السين تاءً، فيقولون في الناس النات وهكذا.

واللّخْلَخَانِية، وهي حذف بعض الحروف اللينة، فيقولون في نحو ما شاء الله: مشا الله، وقالوا إن في لغة خثعم وزُبَيد يحذفون نون «من» الجارَّة إذا وليها ساكن قال شاعرهم:

لـقـد ظـفـر الـزوار أقـفـيـة الـعـدا　　　بـمـا جـاوزا الآمـال م الأسْرِ والقَتْلِ

وفي لغة بلحرث وخشعم يقلبون الياء بعد الفتحة ألفاً، فيقولون في إليك وعليك، ولديه إلاكَ وعلاكَ، ولدَاه ومنه قول الشاعر:

طـــاروا عـــلاهـــنَّ فـــطِـــرْ عَـــلاَهَـــا

وعدوا من لغتهم أيضاً إعراب المثنى بالألف مطلقاً رفعاً ونصباً وجراً. ولم تَنْفَرِدْ القبائل اليمنية بذلك، فقد نسبوا لمختلف قبائل نجد والحجاز وغيرهما أشياء كثيرة من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ، وقد استخرج الأستاذ مصطفى صادق الرافعي من كتب العربية والأدب أمثلة كثيرة، وذكر معنى اختلاف اللغات واللهجات وقسم أنواع الاختلاف في الجزء الأول من تاريخ آداب العرب.

ولما كان علماء اللغة وأهل العربية كما قال الأستاذ الرافعي: قد طرحوا أمثلة اختلاف اللغات في كتبهم فلا قيمة لها عندهم إلا حيث يطلبها الشاهد وتقتضيها النادرة في عرض كلامهم، لأنهم لم يَعتَبرِوها اعتباراً تاريخياً، فقد عاصروا أهلها، واستغنوا بهذه المعاصرة عن توريث تاريخهم لمن بعدهم، الخ. فلا يُنتَظَر منا أن نتحدَّث عن آداب اللهجات اليمنية القديمة إذ لم يصل إلينا نصوص يمكن أن نجعل منها بحثاً له فصول وذيول، وإنما هي شذرات وردت لتفسير لفظ أو لإثبات قصة أو كشاهد على اختلاف اللهجات، فصاحب الأمالي يروي لخُنَافر بن التّوم الحميري في قصة إسلامه هذه الأبيات:

ألـم تـر أن الله عـاد بـفـضـلـه | فأنقذ من لفح الزَّخيخ خنافرا
وكشف لي عن جحمَتيَّ عماها | وأوضح لي نهجي وقد كان داثرا
دعاني شَصارٌ للتي لو رفضتها | لأصليت جمراً من لظى الهَوْب واهرا
فأصبحت والإسلام حشو جوانحي | وجانبت مَنْ أمسى عن الحق ثائرا
وكان مضلى من هديت برشده | فلِلّهِ مغو عاد بالرشد آمرا
نَجوتُ بحمد الله من كل قُحمة | تُؤرِثُ هُلكاً يوم شايعت شاصرا
وقد أمنتني بعد ذاك يُحابر | بما كنت أغشى المُنديات يحابرا
فمن مبلغ فتيان قومي ألوكةً | بأني من أقتال من كان كافرا
عليكم سواء القصد لا فلّ حدكم | فقد أصبح الإسلام للكفر قاهرا

ثم فسّر «الزخيخ» بأنه النار بلغة أهل اليمن. والجَحمتان: العينان بلغتهم، والهوب: النار بلغتهم، والواهر: الساكن من شدة الحر وكل هذه الأحرف من لغتهم.

ومما أستطيع أن أؤكده أن هذه الألفاظ التي قد يعتبرها كثير من المتأدبين من الغريب... لا تزال مستعملة عند بعض اليمنيين لِنَفْس المعاني أو لما يقاربها.

«فالزخيخ» اسم لصوت لهب النّار المضطرمة. «والجَحْمة» اسم لوعاء صغير مكون من طوب تُجْحَم به النار إذا ما أريد غرفها من التنور إلى «الموقد» لحفظها تحت الرماد، والهوب حر النار، وفي الأمالي أيضاً عند شرح هذا البيت:

ثم زادوني عذاباً | نزعوا عني طساسي

قال أبو علي: قال أبو العبّاس. قال لي أبو المَيَّاس: الطِساس: الأظفار ولم أر أحداً من أصحابنا يعرفه ثم أخبرني رجل من أهل اليمن قال: يقال عندنا طَسَّهُ إذا تناوله بأطراف أصابعه. وحتى الآن لا يزالون يستعملون نفس المعنى لِتَحَسُّسِ الأعمى أي شيء بأطراف أصَابِعِه.

«ولا بد من التنبيه على أن الرواة لم يدونوا اللهجات على مناطق العرب على أنها أصل من أصول الدلالة التاريخية في اللغة، وذلك لأن أكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يرجع إلى علوم القرآن والحديث، ولكنهم تناقلوا أشياءاً كانت لعهد الإسلام وأشياء أصابوها في أشعار العرب مما صحت روايته».

ولو أن منهم من نصب نفسه لجمع هذه الاختلافات وإفرادها بالتدوين بعد استقصائها من لهجات العرب وتمييز أنواعها بحسب المقارنة والمباعدة والنظر في أنساب القبائل التي تتقارب في لهجتها والتي تتباعد، وتعيين منازل كل طائفة من جزيرة العرب والرجوع مع تاريخها إلى عهدها الأول الذي يتوارث علمه شيوخ القبيلة وأهل أنسابها، لخرج من ذلك علم صحيح في تاريخ اللغة وأدوار نشأتها الاجتماعية يُرجع إليه على تطاول الأيام وتقادم الأزمنة، ولكان هذا يعد أصلاً فيما يمكن أن يسمى تاريخ آداب العرب يفرّعون منه ويحتذون مثاله في الشعر وغيره من ضروب الأدب» كما قال مصطفى الرافعي.

ولا نستطيع إلا أن نترقب اليوم الذي يتم فيه الكشف عن مقابر وآثار اليمن القديمة فعسى أن نعثر على ثروات لغوية إن كان اليمانون القدامى قد دوَّنوا أشعارهم وآدابهم. أما ما نقله الرواة من آدابهم وأشعارهم فهو لا يغاير ما نقلوه من آداب وأشعار إخوانهم في سائر أصقاع الجزيرة لغةً وموضوعاً وقوة وضعفاً.

فقد رووا مثلاً أنه «مات أخ لذي رعين ـ أحد ملوك اليمن ـ فعزّاه بعض أهل اليمن فقال: إن الخلقَ لِلْخَالق، والشكر لِلْمُنْعِم، والتسليم للقادر، ولا بدّ مما هو كائن، وقد حلّ ما لا يدفع، ولا سبيل إلى رجوع ما قد فات، وقد أقام معك ما سيذهب عنك وستتركه، فما الجَزع مما لا بد منه؟ وما الطمع فيما لا يرجى؟ وما الحيلة فيما سينقل عنك أو تنقل عنه؟ وقد مضت لنا أصول نحن فروعها، فما بقاء الفرع بعد الأصل! فأفضل الأشياء عند المصائب الصبر، وإنما أهل الدنيا سَفْرٌ لا يحلّون عن الرّكاب

إلا في غيرها فما أحسن الشكر عند النعم، والتسليم عند الغيَر، فاعتبر بمن قد رأيت من أهل الجزع، هل ردَّ أحداً منهم إلى ثقةٍ من دَرْك؟، واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخَلَف، فأفق والمرجع قريب، واعلم إنما ابتلاك المنعم، وأخذ منك المعطي، وما ترك أكثر، فإن نسيت الصبّر فلا تغفل عن الشكر».

ويروي أيضاً أبو علي القالي قطعة أدبية أخرى عن أبي عمرو بن العلاء الذي يزعمون أنه أنكر عربية اليمن وعروبتها! قال: كان لرجل من مقاول حمير ابنان يقال لأحدهما: عمرو، وللآخر ربيعة وكانا قد برعا في الأدب والعلم، فلما بلغ الشيخ أقصى عمره، وأشفى على الفناء، دعاهما ليبلو عقولهما ويعرف مبلغ علمهما، فلما حضرا قال لعمرو ـ وكان الأكبر ـ أخبرني عن أحب الرجال إليك، وأكرمهم عليك.

قال: السيد الجوّاد، القليل الأنداد، الماجد الأجداد، الراسي الأوتاد، الرفيع العماد، العظيم الرماد، الكثير الحُسَّاد، الباسل الذوّاد، الصادر الورّاد. قال: ما تقوله يا ربيعة؟ قال: ما أحسن ما وصف! وغيره أحب إليّ منه، قال: ومن يكون بعد هذا؟ قال: السيد الكريم، المانع للحريم، المفضال الحليم، القمقام الزعيم، الذي إن هم فعل، وإن سئل بذل.

قال أخبرني يا عمرو بأبغض الرجال إليك.

قال: الْبَرِم اللئيم، المستخذي للخصيم، المبطان النهيم، الْعَيِيّ البكيم، الذي إن سُئل منع وإن هُدِّد خضع، وإن طلب جشع.

قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال غيره أبغض إلي منه، قال ومن هو؟ قال النؤم الكذوب، الفاحش الغضوب، الرغيب عند الطعام، الجبان عند الصدام. قال أخبرني يا عمرو أي النساء أحب إليك؟ قال الْهِرْكُولة اللفاء، الممكورة الجيداء، التي يشفي السقيم كلامها ويبري الْوَصِب إلمامها، التي إن أحسنتَ إليها شكرتْ، وإن أسأت إليها صبرتْ، وإن استعتبتها أعتبتِ، الفاترة الطرف، الطفلة الكف، العميمة الردف.

قال ما تقوله يا ربيعة؟ قال نعت فأحسن! وغيرها أحب إلي منها، قال

ومن هي؟ قال الفتانة العينين، الأسيلة الخدين، الكاعب الثديين، الرَّدَاح الوَرِكَيْن، الشاكرة للقليل، المساعدة للحليل، الرخيمة الكلام، الجماء العظام، الكريمة الأخوال والأعمام، العذبة اللِّثَام.

قال فأي النساء إليك أبغض يا عمرو؟ قال الفتانة الكذوب، الظاهرة العيوب، الطوّافة الهبوب، العابسة القطوب، السبابة الوثوب، التي إن ائتمنها زوجها خانته، وإن لان لها أهانته، وإن أرضاها أغضبته، وإن أطاعها عصته. قال: ما تقوله يا ربيعة؟ قال: بئس والله المرأة التي ذكر! وغيرها أبغض إلي منها، قال: وأيَّتُهُنَّ التي هي أبغض إليك من هذه؟ قال: السليطة اللسان، المؤذية للجيران، الناطقة بالبهتان، التي وجهها عابس، وزوجها من خيرها آيس، التي إن عاتبها زوجها وَتَرَتْهُ، وإن ناطقها انتهرته، قال ربيعة: وغيرها أبغض إليّ منها، قال: ومن هي؟ قال: التي شَقِيَ صاحبها، وخَزِيَ خاطبها، وافتضح أقاربها. قال: ومن صاحبها؟ قال: مثلها في خصالها كلها، لا تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها. قال: فصفه لي. قال: الكفور غير الشكور، اللئيم الفجور، العبوس الكالح، الحرون الجامح، الراضي بالهوان، المختال المنان، الضعيف الجنان، الجعد البنان، القؤول غير العَقُول، الملول غير الوصول، الذي لا يَرِعُ عن المحارم، ولا يرتدع عن المظالم.

قال: أخبرني يا عمرو أي الخيل أحب إليك عند الشدائد، إذا التقى الأقران للتجالد؟ قال: الجواد الأنيق، الحصان العتيق، الكفيت العريق، الشديد الوثيق، الذي يفوت إذا هرب، ويلحق إذا طلب. قال: نعم الفرس والله نَعَتَّ! قال: فما تقول يا ربيعة؟ قال: غيره أحب إلي منه، قال: وما هو؟ قال: الحصان الجواد، السلس القياد، الشهم الفؤاد، الصبور إذا سرى، السابق إذا جرى.

قال: فأي الخيل أبغض إليك يا عمرو؟ قال: الجموح الطموح، النكول الأنوح، الصؤول الضعيف، الملول العنيف، الذي إن جاريته سبقته، وإن طلبته أدركته، قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: غيره أبغض إليّ منه، قال:

وما هو؟ قال: البطيء الثقيل، الحرون الكليل، الذي إن ضربته قَمَص، وإن دنوت منه شَمَس، يدركه الطالب، ويفوته الهارب، ويقطع بالصاحب قال ربيعة: وغيره أبغض إليَّ منه، قال: وما هو؟ قال: الجمُوح، الخبُوط، الركوض الخروط، الشَّمُوس الضَّرُوط، القطُوف في الصُّعُود والهبوط، الذي يُسلِّم الصاحب، ولا ينجو من الطالب. ثم قال لهم أبوهم: أخبرني يا عمرو، أي العيش ألذ؟ قال: عيش في كرامة، ونعيم وسلامة، واغتباق مُدامة. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: نعم العيش والله وصف! وغيره أحب إلي منه، قال: وما هو؟ قال: عيش في أمن ونعيم، وعزّ وغنى عميم، في ظل نجاح، وسلامة مساء وصباح، وغيره أحب إليّ منه، قال: وما هو؟ قال: غنى دائم، وعيش سالم، وظل ناعم إلى آخر المحاورة في الجزء الأول من الأمالي.

وروى صاحب الأمالي أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء وصف غلام من اليمن لعنز كان ينشدها في بيان عربي صاف من الأوشاب فكيف يمكن أن يناقض نفسه لو أنه قد أراد بكلمته عن لغة اليمن ما أراد أن يفهمه الدكتور طه حسين من أنهم كانوا يصطنعون لغة غير لغة العرب.

وذكر في الأمالي أيضاً عن العتبي قال: أقام معاوية الخطباء لبيعة يزيد، فقامت المعدّية فشقّقوا الكلام. ثم قام رجل من حمير فقال: لسنا إلى رغاء هذه الجمال، عليهم تشقيق المقال، وعلينا صدق الصّيَال، أما والله إنا لصبر تحت البوارق، مراقيل في ظل الخوافق، لا نسأم الضراس، ولا نشمئز من المراس وإن واحدنا لألف، وألفنا كهف، فمن أبدى لنا صفحته، حططنا عِلاوته، ثم قام رجل من ذي الكلاع فأشار إلى معاوية فقال: هذا أمير المؤمنين، فإن مات فهذا ـ وأشار إلى يزيد ـ فمن أبى فهذا ـ وأشار إلى السيف ـ ثم قال:

معاوية، الخليفة لا تماري ... فإن تهلكْ فسَائِسنَا «يزيد»
فمن غلب الشقاء عليه جهلا ... تحكم في مفارقه الحديد

وروى الهمداني في الإكليل عن أبي الغطريف سلمة بن يوسف

الخيواني أنه قرأ على قبرين جاهليين بالجنَدِ عليهما هذه الأبيات بالمسند:

هـذان قـبـرا سـيـدي حـمـيـر قـد بـلـيـا فـي الـتـرب كـل الـبـلـى
أفـنـاهـمـا الـمـوت بـكـرّاتِـه والـموتُ مفـنـي كـل سـفـح الـذرى
كـانـا مـن الـتـرب بَـدِيّـا، فـقـد عَـادَا إلـى الـتـرب، وسـكـنـى الـثـرى

وروى صاحب الأمالي عن أبي عبيدة حديثاً طويلاً شيقاً دار بين عامر بن الظرب العدواني وابن رافع الدوسي بين يدي ملك من ملوك حمير الأقدمين، ولو ذهبنا نتقصى الأخبار ونستكثر منها لأطلنا وأمْلَلْنَا وأرى أننا قد أسهبنا في نقاش الشطر الأول من مزاعم الدكتور طه حسين وهو دعواه أن اليمنيين كانوا لا يعرفون العربية ولا يتكلمونها. وأنه قد أصبح واضحاً أنه لم يستند إلى دليل منطقي ولا برهان تاريخي، وقد اتخذنا المناقشة وسيلة للكلام عن كل ما يجب أن نبحثه ونتحدث عنه في موضوعنا. . وإلا فقد كان يكفي أن نسوق هذا الدليل القاطع والبرهان الساطع في مطلع الفصل «وتقطع جهيزة قول كل خطيب».

ومن هذا البرهان التاريخي اللغوي يعرف من يُحِبَّ أن يعرف أن لغة القبائل اليمنية في الجاهلية وصدر الإسلام كانت هي العربية الفصحى وأنه لا يُماري في ذلك ذو علم.

جاء في تاريخ اليمن للشاعر عماره اليمني ما يلي:

«ومن أخبار السلطان علي بن محمد الصليحي أنه في سنة خمسين وأربعمائة بلغه أن ابن طرف قد اجتمع إليه ملوك الحبشة وأخلاط السودان «يعني من كانوا يحكمون زبيد من الموالي والعبيد» فسار إليهم الصليحي في ألفي فارس فالتقوا بالزرائب من أعمال بن طرف ـ وهو الوطن الذي ولدتُ فيه وبها أهلي إلى اليوم فاستحرّ القتال أوَّل يوم بالعرب ثم كانت الدوائر على السودان فلم يبق منهم إلا ألف احتازهم جدّي أحمد بن محمد في حصنيْه بعكّوةَ. والعكوتان جبلان منيعانْ لا يطمع أحد في حصارهما وفيهما يقول راجز الحاج إذا نفروا يُخَاطب عينه:

إذا رأيــتِ جَــبَــلَــيْ عَــكَــاد وعَــكْــوَتَــيْــنِ مــن مــكــانٍ بــادِ
فــأبــشــري يــا عــيــن بــالــرقــاد

وجبلا عَكاد فوق مدينة الزرائب وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا قط بأحد من أهل الحاضرة في مناكحتهم ولا مساكنهم وهم أُولُو قرار لا يظعنون ولا يخرجون منه.. ولقد أذكر أني دخلت زبيد في سنة **٥٣٠هـ** أطلب الفقه دون العشرين فكان الفقهاء في جميع المدارس يتعجبون من كوني لا ألحن في شيء من الكلام، فأقسم الفقيه نصر الله بن سالم الحضرمي... بالله تعالى لقد قرأ هذا الصبي في النحو قراءة كثيرة، فلما طالت المدة والخلطة بيني وبينه صرت إذا لقيته يقول، مرحباً بمن حنثت في يميني لأجله. ولما زارني والدي وسبعة من إخواني إلى زبيد أحضرت الفقهاء فتحدثوا معهم فلا والله ما لحن أحد منهم إلاّ لحنة واحدة نقموها عليه[(١)].

(١) وانظر أيضاً القاموس المحيط فقد قال عكاد كسحاب جبل قرب زبيد أهلها باقية على اللغة الفصيحة. وانظر أيضاً «معجم البلدان» لياقوت و«تاريخ آداب العرب» للرافعي.

الشِعْر والشعَراء

يلاحظ ناقد الأدب ومؤرخه حين يقرأ في أمهات كتب الأدب المعروفة هذه الأسماء اللامعة في تاريخ الأدب العربي من شعراء اليمن، أن كلهم أو جلهم ممن غادر اليمن مهاجراً إلى الحجاز أو إلى الشام أو العراق في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، وعهد الخلفاء، وملوك بني أمية (ومن بعدهم) أو هم ممن نزحوا أو نزح آباؤهم في تلك الهجرات الجماعية التي يحدثنا عنها تاريخ العرب. كاللخميين، وآل غسان، والأوس والخزرج وقضاعة والأزد وغيرهم. ومن القسم الأول عمرو بن معديكرب، وفَروة بن مسيك، والأشتر النّخعي، والنَّجاشي ووضاح اليمن، وعمارة اليمني وغيرهم.

ومن القسم الثاني امرؤ القيس، وحسان بن ثابت والطرماح بن حكيم ويزيد بن مُفُرّغ والسيد الحميري وعدي بن الرّقاع وأضرابهم.

وهؤلاء جميعاً معروفة أخبارهم، وأشعارهم تزخر بها كتب الأدب والتاريخ، ولمعرفة الرواة والمحدثين بهم فقد حفلوا بأخبارهم وأشعارهم في أمهات السيرِ وأصول كتب الأدب العربي ولن نُطْرِفَ بشيء جديد عنهم.

ولكن أولئك الذين لم يتسن لهم أن يغادروا اليمن الخضراء، سواء في الجاهلية أو في صدر الإسلام، ولم يأت لهم ذكر في كتب الأدب المشهورة من أمثال الأغاني والأمالي، والبيان والتبيين، والعقد الفريد، ولا في مصادر الشعر العربي التي عُنِيَ بجمعها وترتيبها أئمة الأدب من أمثال الأصمعي، والمفضَّل، وابن سلام، والقرشي، وأبي تمام، وأضرابهم. هؤلاء لا يزالون

مجهولين وأخبارهم وآثارهم ما تزال مدفونة بين صفحات الكتب اليمنية المهملة والمبعثرة هنا وهناك. ومما يؤسف له ـ بقدر ما بين أيدينا من كتب ومصادر ـ أن المؤلفين اليمنيين أنفسهم لم يذكروا أخبارهم وأشعارهم إلا استطراداً أو ضمن إشادتهم بحادثة، أو إشارتهم إلى كارثة، أو ليؤكدوا نسباً أو مذهباً.

وبين أيدينا عدد جَمّ من الشعراء والخطباء والعلماء تلقينا أسماءهم، وتلَقَّفنَا نتفاً من أخبارهم، ولكنّها لا تُغْنِي ولا تُقْنِي، وخاصة من عاش منهم في القرن الأول والثاني والثالث للهجرة، حيث كانت اليمن تسبح في خضم من الفتن والحروب الداخلية.

ولقد كان يهمنا كثيراً أن نستوضح معالم حياة كل أديب وشاعر ونحن نتحدث عن الأدب اليمني ونؤرخ لشخصياته، واقفين عند كل شاردة من شوارد أفكارهم وعلى كل لون من ألوان حياتهم، لولا أن ما بين أيدينا من كتب ومصادر لا تزال قليلة مما يجعلنا نعتقد بأن بحثنا هذا ليس إلا دليلاً وهادياً إلى مواطن كنز ثمين من كنوز الأدب العربي. ومن جهة أخرى يهمنا أن نعرف أن هذه الفترة كانت مهمة في تاريخ اليمن بما كان لها من أثر فعال في حياة أبنائها وفي ذلك الصراع الفِكري الذي نشب بين مختلف الدعوات المذهبية والعقائدية في مطلع القرن الثالث الهجري فما بعد، وأن حوادث القرن الأول قبل الإسلام قد مهدت لذلك الصراع وهيأت التربة الخصبة لنشُوء الحركات الفكرية كالزيدية، والقرمطة والاعتزال وغيرها من الملل والنحل.

ومن المعلوم أن «المائة عام» التي مرت على الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول ﷺ كانت كلها إرهاصات لمولد عهد جديد، وبزوغ فجر وضاء يكون نهاية لعهد تناحر وتنازع وحروب وغزو أجنبي، وتيارات عقائدية مختلفة تتجاوب بها أصقاع الجزيرة في الشمال والجنوب، وبداية لعصر توحيد تكون فيه العرب خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله.

وكانت الحضارة اليمنية بين أكفّ الفناء وفي أحضان الشيخوخة، تلفظ أنفاسها الأخيرة، ويشهد انقراضها رهبان اليهودية، وقسس النصرانية، وبقايا أوثان تترنح على مرأى ومسمع من عبادها المشركين.

وفرض الأحباش سلطانهم على اليمن، وفرضوا أيضاً دينهم، وأعملوا أيديهم وسيوفهم ومعاولهم، عبثاً، وتقتيلاً، وتهديماً. وثار من ثار من اليمنيين واستنجدوا بالفرس الذين جاءوا معاونين وأنصاراً، ثم تحولوا حكاماً وعمالاً. ونشبتْ حروب داخلية طاحنة بين الأسر والعشائر، وكَثُرَ الأقيال والملوك، وما ظهر الإسلام إلا واليمن ممزقة شر تمزيق.

وأمّل اليمنيون بادىء ذي بدء أنهم سيجدون في الإسلام وتعاليمه الخلاص، فدخلوا فيه أفواجاً؛ وخاصة وقد كان أبناء عمومتهم بيثرب هم الذين آووا، وهم الذين نصروا وأراد بعض أقيالهم أن يسجل بمبادرته امتيازاً يستغله ضد خصومه ومنافسيه من قومه؛ ولم يلق رسل النبي عليه الصلاة والسلام كبير عناء في بث دعوة التوحيد وتعاليم الإسلام بين اليمنيين ودخلوا في دين الله أفواجاً، وتتابعت وفودهم إلى يثرب أرسالاً. غير أن عوامل الخلافات القبلية والعشائرية كانت قد رسخت في النفوس وورثوها في دمائهم، وكان الذين لم يطمئنوا إلى الإسلام من يهود، ونصارى، وفرس، وأحباش يبثون مخاوفهم، وينفثون سمومهم، ويهيجون مشاعر الحمية والحقد والعصبية. فكانت فتنة الأسود العنسي؛ ورأى فيها بعض الضلاَّل من اليمنيين الحلَّ الحقيقي، فالداعي يماني وإذا انتصر فإنه استمرار للمجد القديم، وإحياء للعز الرميم، فآزروه ونصروه، وانتشرت فِتنتُهُ انتشار النار في الهشيم، وارتد عن الإسلام كثيرون، واحتل صنعاء وفرض عليها سلطته، ودخلت تحت طاعته معظم قبائل اليمن، وقلق الرسول عليه الصلاة والسلام قلقاً عظيماً لولا أن حليلة «الأسود» وبعض من أسلم من منافسيه دبّروا قتله واغتياله، وكادت الفتنة أن تخمد، وإذا بأنباء وفاة الرسول الأعظم تصك المسامع، فيعود اليمنيون مرة أخرى إلى كفرهم، وتنشب حروب الردة، ويقتل من قتل، وعاد إلى الإسلام من جديد من كان قد ارتد وبأيةِ نُفوس!؟ وتفاصيل ذلك معروفة في كتب التاريخ، لكن دوافعها النفسية لم تنته عند

هذا الحد، بل إن المتعمق يجعل لها أثراً كبيراً في تحزب اليمنيين وتشتتهم في حروب صفين والجَملْ وقَتْلِ بعضهم بعضاً بذلك الاستهتار الفظيع.

واستمرت الخلافات واستشرت وكانت دوافعها بما تحمل من عصبية العرق، وتمرد الدم، ولوثة العنجهية، وعرامة الكرامة، أقوى وأشد من دوافع الدين وتسامحه ورحمته، وحسبنا مثلاً أن عمرو بن زيد الغالي ظل دهراً يحذر ابن عمه عمرو بن يزيد بن عبدالله من البغي وإثارة الفتن، ويصور نهاية البغي ومصارع العدوان أبلغ تصوير. ولكن ما إن قتل عمرو بن يزيد هذا حتى حمل عمرو بن زيد نفسه لواء الفتنة من جديد، وكان أشد صولة وأرهب عدواناً، وأورد قومه موارد التلف حتى شردهم ومزقهم كل ممزق، وحين واتته الفرصة ليعود إلى وطنه ما لبث فترة حتى أعاد الكرة، ولقي منه قومه وأبناء عمه ما يكرهون إلى أن لقي مصرعه، وخلفه نجل سلفه عمرو بن يزيد، يَعْلَىٰ الذي كان من أسباب مجزرة إبراهيم بن موسى سنة **٢٠٠هـ (٨١٦م)** فقد كان هو الذي حرضه على بني عمه وذويه انتقاماً، وفي ذلك يقول الشاعر الفحل أحمد بن يزيد القشيبي، وقد نجا من الموت بأعجوبة:

فمن مبلغ يعلى بن زيد رسالة ... تخب بها نوق مخيسة صهب
بأنَّ دَمانا طوقتها رقابكم ... وأن لنا نجماً يلوحُ، ولا يخبو
هنيئاً بما طوقت من دم ثائر ... جسور على الغارات ما سيفه ينبو
سألقاكَ يوماً، إن سلمتُ بعارضٍ ... تُصمُّ له أذناك، مَيَّاحةٌ لجبُ
ولولا «ابن موسى» ما ظفرت بطائل ... ولا نيل منهم وَيكْ هضم ولا عصب
ولكن إبراهيم ملنا لعدله ... وقد نَيربَتْ منه الخيانة والكذب

ومثلاً آخر نضربه يصور سلطان العصبية القوي على النفوس وكيف أنها كانت تغلب على وازع الدين والعقل، فهذا محمد بن عباد زعيم اكيل «من قبائل خولان» في عصره «القرن الثاني الهجري» يغزو غيلان لإدبارهم عنه، وينال منهم حتى يقبلوا إلى طاعته، ويقبض من «رازح» رهناء من وجوههم ورجالهم لسجنهم بصعدة، وفي طريق عودته يدركه المبيت في

بعض الطريق، فيدفع الرهناء إلى رجال من بني مالك من أصحابه وجنده، كل رجل منهم إلى رجل، ويحذر كل واحد بقوله: إياي أن يفلت منهم رجل واحد فأضرب رقبة صاحبه، ويخلو الحراس ويتشاورون، ويخاف كل واحد أن تأخذه غفلة أو غفوة، فيفر أسيرُه.

وخافوا وعيد محمد بن عباد، وهم يعلمونه غشوماً، فيقول رجل منهم: يقتل كل رجل صاحبه ونأمن، فما عسى أن ابن عباد يفعل بكم؟ ويجدون في ذلك حلاً لمشكلتهم، وسبيلاً لسلامتهم، فعمد كل رجل منهم في محله فذبح أسيره وجعل رأسه تحت حجفته وناموا. فلما أصبحوا أمر ابن عباد بالسير، وأمر بإحضار الرهناء، وإذا بكل رجل يأتيه، يَتِلّ رأساً بشعره فيذهل، ويغضب أشد الغضب، ويقدر المسؤولية والصدى في نفوس ذويهم وقبائلهم، والنتائج الوخيمة لهذه الفعلة الشنعاء، وقد كانوا من الوجهاء وخيرة القوم، فيقول للجناة: ويلكم ما فعلتم بي؟ فيجيبون: خاف كل رجل منا على نفسه.

فقال ابن عباد: فما وقعت أنا وأنتم في الخوف بمثلها.

وشاع النبأ في خولان فرمته عن قوس واحدة، وقصدوه إلى «صعدة» في جموع كثيرة فاحتربوا حرباً شحيحة «كما يقول الهمداني» حتى أصابه سهم، فجرَّه مواليه قتيلاً.

وكان لمحمد بن عباد أخ اسمه المسلم، كان زاهداً ورعاً معتزلاً دنيا الناس وحطامهم، لا يرضى عن سيرة أخيه، وسائر زعماء عصره، بلْ بنى له مسجداً في إحدى جبال صعدة، وابتعد عن الناس، وأخلص نفسه وعمله لله وعبادته... هذا المسلم التقي العابد ما إن يبلغه مقتل أخيه حتى يتحول إلى رجل آخر.

يقول الهمداني: وخرج بعضهم إلى المسلم فقالوا له: إن أخاك محمداً قد قتل، وإن حريمك على هتك، وجيرانك على شفا هلكة، فاسترجع وقال: يا محمد لقد أدخلتني النار. وقام إلى منزل أخيه فنظره ولبس جبته وخرج مع عصابة من مواليه وبني عمه، وفتح له درب القرية، ووضع السيف وذل له القوم ورتع فيهم السيف، فأفرَتْ «أكيل» فيهم وقام

برياسة أخيه وأذل خولان، وبعد أن مات المسلم ملك بنو سعد صعدة حتى شب عبدالله بن محمد بن عباد وكان آل المنهال من بني عبد المدان بنجران هم الذين كفلوه حتى أدرك ولحق من جديد بثأر أبيه في بني سعد فأفرى فيهم.

وعبدالله هذا هو الذي تنازع مع يعفر بن عبدالرحمٰن الحوالي فخرج حتى أناخ بباب الواثق العباسي ببغداد سنة **٢٢٩** مستنجداً وله أيام وأشعار.

ومحمد بن يعفر الحوالي مال ميلة عنيفة على «التَّراخم» وقتل أشرافها، وعفّر وجوهها، وشرّد أهلها، لأن رجلاً منهم قتل غلامه طريف بن ثابت «والتراخم» ـ كما يقول المؤرخون والنسّابون ـ من أشراف اليمن، وبعزتهم وتعاظمهم تضرب الأمثال عند اليمنين ويقول الشاعر:

الناس حمير، والتراخم رأسها وأبوك مقلتها، وأنت الناظر

ولا يزال اليمانيون حتى اليوم يقولون فلان «مترخم» أي متعاظم، بهي المنظر يتعاظم على الناس.

وفي رسالة كتبها زعيم ـ التراخم ـ وسيدها عيسى أبو العباس إلى الأمير محمد بن يُعفِر يعاتبه على ما ارتكب معهم وهو شارد في زبيد: بسم الله الرحمٰن الرحيم. كتاب من اعترف بذنبه، واستلاذ بربه وعلم أن لا ملجأ منه إلا إليه، فجعله إلى النجاة ذريعة ودون بادرتك دريئة، وعلى أنه قد فارق ما جمع، ولم يكن فيه عن أمر الله ما امتنع، وأصبح ما كان فيه بالأمس كسراب بقيعة، يسكع إليه في دهناء نائية المدى وما ذاك بملكي، ولكن ما قدّر نفذ، وما حتّم فلا مرتجع له، وقد بان الحق لمتبعه، والباطل لمرتكبه، وقد كانت هناتٌ كُذِبَ فيها وصدق، وزيد فيها ونُقِّصْ، فاستمعت فيها لأقاويل، وآثرت فيها الأباطيل، ولم تقف عن الزّلل، ولم تجاوز الخطأ، ولم تَقِلْ لِعاثِرٍ. لَعًا، حتى قتلت الحر بالعبد، واستحللت العظيم بالنزر، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل. رويدك قد بلغت حيث أبلغت، وحمِلتَ مثلما حملتَ، ولكل أجلٍ كتاب، وإذا أُترع الإناء فاض، ومن ير

يوماً يُر به؛ كل حاصد مما زرع، وجانٍ مما اغترس، والسلام». هذا الخطاب الرائع الذي يفيض عبرة وحكمة، ويثير كوامن الأسى، لم يهيج في نفس الأمير اليعفري إلا شعوراً مشوها، وعزة آثمة، وأجاب على هذا الكبير الذي هان، والعزيز الذي ذل، المعترف بذنبه، الصادق في قوله، بقوله: «بسم الله الرحمٰن الرحيم وذكرت أني لَكَ ظالم فإن يك ذلك كذلك فقد قال الله عز وجل، في كتابه المنزل، على نبيه المرسل، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ والسلام. وإنه لدرك مظلم، يَندُرُ من يَتقحَّمه بغروره وهواه من طغاةِ البشر دون مبالاة ولا حياء. ولا يخاف أن يكون ظالماً ـ وإنه ليعلم من نفسه ذلك ـ ثم لا يستحي أن يقول بأنَّ ما يقترفه سنة من سنن الله لا يستطيع لها تحويلاً.

ومات أبو العباس في زبيد وقد فقد إمْرَته، وجاور قومه فيها أكثر من عشرين عاماً كما في الإكليل للهمداني، وإياه عنى ابن أبي الطلح الشاعر بقوله:

رام عيسى ما لا يرام فأمسى ثاوياً بالحصيب نائي المزار

وعند أن أرسل معاوية بن أبي سفيان بسر بن أرطاة ليطرد أنصار أمير المؤمنين علي وشيعته من اليمن طمها بموجة من التَّقْتيل والسلب والتخريب، وحين ثار الأعور الخارجي عبدالله بن يحيى جعل من اليمن مسرحاً دامياً ونائبه أبو حمزة الشاري هو الذي فتح باليمنيين «مكة» والمدينة وقتل «أهل قديد» في مذبحة تشمئز منها النفوس، ولما بلغ من قَتَلَهمْ معن ابن زائدة عامل المنصور العباسي ألفي شخص من قرية الجند انتقاماً لأخيه.

قال:

إذا تمت الألفان كادت حرارة على القلب من ذكرى سليمان تبرد

أما في حضرموت فقد قتل منهم خمسة عشر ألف رجل، وحين استبشع أحد القرشيين ذلك في حضرة المنصور تذكر قتلى «قديد» قائلاً: لقد أخذ معن بثأرهم من أهل اليمن، أما حماد البربري الذي ولاه سيده الرشيد

سنة ١٨٤ على اليمن وقال له: «أسمعني أصوات أهل اليمن» فلم يدع منكراً إلا أتاه، ولا هولاً إلا اقترفه ليرضي مولاه الرشيد ويسمعه أصوات المنكوبين وأنات الثكالى، وعويل اليتامى. وهكذا سلسلة دامية لحوادث رهيبة، معظمها مسجل بقصائد باكية وشعر رائع، وأهل اليمن دائماً يودعون كل ما يأملونه أو يخافونه أو يحبونه أو يكرهونه في قوالب من الشعر تتفاوت قوة وضعفاً، وأيامهم، وأخبارهم، وحوادثهم مصبوغة دائماً بصبغة شعرية فيها الكثير من المتعة والعبرة والجمال والجلال، والواقع أننا إذا أردنا أن نعرف تاريخ العرب على حقيقته سواء من الناحية السياسية أو الأدبية أو العقلية، أو الاجتماعية، فإن الشعر وحده هو السبيل القويم الهادي إلى اكتناه تاريخ تلك الأمة العجيبة، ولا عجب فقد كان الشعر ديوانها، ولباب حياتها الفردية والاجتماعية، يثلجون به صدر المحرور، ويكفكفون دمع العاني، ويهدهدون أحلام الشباب، ويباركون أنفاس الشيخوخة، وإذا غضب العربي فالشعر متنفس غضبه، وإذا ثار فالشعر لسان ثورته، وإن أعجب بشيء فالقصيد وسيلة تعبيره، وإن استاء لأمر فالقصيد أيضاً برهان استيائه، وهو رسوله إلى القلوب، وقربانه إلى الأرواح، وتملقه إلى من يخشاه، وتلطفه إلى من يهواه، ونديمه إذا سكر، وسميره إذا سهر، وحاديه إذا ضرب في مناكب الأرض، وهو في يوم الروع نعم النصير. ثم ما قارف العربي أمراً ذا بال، ولا اكتنفته نازلة، ولا احتضنته نعمة، ولا أتى حدثاً صغيراً أو كبيراً إلا سجله ببيان منغم يرفع به صوته إما فخوراً متعجرفاً، أو ذليلاً متوسلاً، أو ثائراً هائجاً، أو شارداً منتجعاً، أو باكياً حزيناً، أو فرحاً ماجناً.

ذلك ما نراه واضحاً في حياة عرب اليمن، وإخوانهم في قلب الجزيرة وشمالها وغربها وشرقها. وكلما تعمقنا في دراسة الشعر العربي، وازدادت معرفتنا به، وعنايتنا بنصوصه، تجلت لنا معالم حياة الأمة العربية، وسرائر تاريخها وحضارتها ورقيها وانحطاطها، وأسباب ومسببات ما جدّ عليها من حركات فكرية، وتقلبات سياسية، وتغيرات اجتماعية، طيلة تاريخها الطويل.

أيام العرب كلها مسجلة في أشعارهم، حروبهم العقائدية مسجلة في قصائدهم، صراعهم على الخلافة والملك مدون في الشعر. وفي بطون

الدفاتر، وكتب الأدب ما نشر منها وما لم ينشر ما يبين هذا ويجعله حقاً لا مرية فيه، وما غاب عنا أكثر مما علمنا، ولنا أمل أن نجد الوقت والوسائل لنتمكن من إبراز المدفون من آثار اليمن، ونشر المخطوط من تراثها الأدبي والفكري، الذي تكتظُّ به خزائنها ويتآكل بين حيطان معابدها ومخابيها، إنَّ أذاناً بفجر صادق يتحفز ليملأ الأسماع دوياً فيوقظ النائمين.

وحين نتحدث عن شعر وشعراء اليمن لا بد أن نقف أيضاً وقفة قصيرة مع الدكتور طه حسين، فقد زعم أنه لم يكن لليمن شعر ولا شعراء في الجاهلية ولم يكن لها أيضاً لا شعر ولا شعراء في صدر الإسلام. وعقد لهذه الدعوى الغريبة فصلاً طويلاً تحت عنوان «شعراء اليمن» استهله بقوله:

«وهل لليمن في الجاهلية شعراء؟ أما القدماء فلا يشكون في ذلك، وهم يحصون شعراء يمنيين يروون لبعضهم قصائد ويروون لهم أخباراً تختلف طولاً وقصراً، وتتفاوت قوة وضعفاً، ولكنا نقف من هؤلاء الشعراء جميعاً، لا نقول موقف الحيطة والشك بل موقف الرفض والإنكار.. فأمر هؤلاء الشعراء قائم كله على خطأ أساسي أو قائم كله على تكلف قصد به التضليل، ذلك لأن القدماء زعموا أو خيل إليهم أن أهل اليمن عرب كغيرهم من العرب فيجب أن يكون حظهم من الشعر والشعراء كحظ غيرهم من أهل الحجاز ونجد، إلى آخر هذا الكلام المكرر المعاد الذي نعرف منه أنه لم يكن لليمن في الجاهلية شعراء وما كان ينبغي أن يكون لها شعراء وليس لها في الإسلام شاعر فحل، وإنما شعراء اليمانية في الإسلام مخترعون اختراعاً كوضاح اليمن أو هم ضعاف في الطبقة»، ثم يقول مدللاً «وذلك ملائم لطبيعة الأشياء فلم تكن اللغة العربية لغة اليمن في الجاهلية فلما جاء الإسلام أخذ بعض اليمنيين يتعلم العربية ويتكلف الشعر بها، فكان حظهم في هذا كحظ الموالي من الفرس الذين تعلموا العربية وتكلفوا الشعر بها».

ترى هل سيكون رحباً صدر الدكتور طه حسين فيسمح لنا بمناقشة كلامه بمزيد من الحرية وكثير من التمحيص..؟ أما صدر الأدب فرحب جداً وكما سمح للدكتور أن يقول عن اليمن وأدبها ولغتها بل وجنسها ما لا

يتفق مع منطق ولا علم ولا تاريخ.؟. فأظنّ أدب الدكتور سيبيح لنا ولا شك أن نخالفه الرأي وأن نجادله، وأن نقف من آرائه، لا موقف الحيطة والشك فحسب، بل موقف الاستغراب والإنكار أيضاً مجيزين لأنفسنا ما أجازه لنفسه من قبل، وهو أننا لا نسرف ولا نشتط حين ننكر هذا الكلام الذي كان مسرفاً وكان مشتطاً حين أنكر ما يضاف أو ينسب إلى أهل اليمن من شعر ونثر في الجاهلية وصدر الإسلام.

للدكتور طه ولغيره من الباحثين والأدباء أن يتشكك في الكثير مما نسب إلى الأقدمين، وأن ينكر بعضه ويفنده وله مجال ومندوحه. ولن يأتي ببدْعٍ من القول فكثيراً ما سمعنا وقرأنا للعلماء والرواة من القدامى والمحدثين تفنيد الروايات وتزييفها وتوثيق الرواة وتضعيفهم، وكثيرة هي تلك الأحاديث التي أسندت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو منها براء، وكثير من الخطب والوصايا قد نسبت إلى الصحابة والتابعين وهم لم يقولوها وإنما وضعها الرواة والمتزيدون، والقصاص، وكثيراً ما نحلوا ما لزيد منها عمراً وما لعمرو منها بكراً حسب الميول والأهواء والمواقف... وكثيراً أيضاً ما نحلوا لشعراء الجاهلية ما لم يقولوه ونسبوا إليهم ما لا يصلح أن ينسب إليهم ولا يجوز على ذي الذوق السليم والناقد الخبير. وكتب الأدب العربي القديم منها والحديث تذكر هذا وَتُعلّل أسبابه وقد ذكر الدكتور طه بعض هذه الأسباب في كتابه «في الشعر الجاهلي» وفصل معظمها قبله الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في تاريخ آداب العرب.

فنحن إذن لا ننكر أن الأدب اليمني قد دسّ فيه ما ليس منه وأن المحدثين من أبناء اليمن قد تزيدوا في الأخبار والأشعار عن آبائهم القدامى لأغراض قومية وسياسية، وأن كثيراً من غير أبناء اليمن من الرواة قد اتخذوا من أمجاد الماضي في حياة التبابعة والأقيال وقبائلهم مرتعاً خصباً لخيالاتهم ليتوسعوا في رواياتهم بما لا يفهمه غيرهم، وليدللوا على تفردهم وسعة علمهم وتفوقهم على منافسيهم من أبناء زمنهم. وقد سبق أن أعلنا إنكارنا لكثير من القصائد والأشعار المنسوبة إلى الأنبياء هود وشعيب وصالح عليهم

السلام والقصائد والوصايا التي تنسب إلى ملوك وأقيال معين وسبأ وحِمْيَر الأقدمين وألحقناها بالأخبار الباطلة.

ونحن نشك أيضاً في كثير مما ينسب إلى شعراء اليمن في الجاهلية الأخيرة وفي صدر الإسلام مما يَمتُّ إلى العصبية بوشيجةٍ ما، ولكننا لا ننكر كل ما قيل في هذا الباب، فقد كانت هناك نعرات تثار بين الحين والآخر، وتهيج أسباب التفاخر والتناحر بالألفاظ والمعاني، فتنشب معارك كلامية ويضطرم صراع بياني رهيب يعد من ذخائر الأدب العربي وعلى الناقد البصير بالأدب، الخبير بالأنساب، العارف بالتاريخ أن يسبر كل ذلك بمقاييسه الفنية والبيانية حتى يستطيع أن يميز بين الجيد والرديء، والصحيح والفاسد، والحقيقة والخيال. وشأن الأدب اليمني في ذلك شأن الأدب العربي في سائر البلدان وفي كل زمان.

وأظن أننا لن نطيل الكلام في تفنيد دعوى الدكتور طه وأفكاره ورفضه لشعر اليمني إذ قد بناها على أساس واحد، وهو أن اليمنيين لم يكونوا عرباً يصطنعون اللغة العربية في أشعارهم، وقد بيّنا بطلان ذلك وفصلناه في الفصول السابقة، ولسنا في حاجة إلى التكرار وإلى التأكيد من جديد أن أهل اليمن كانوا عرباً منذ خلقهم الله وسيظلون عرباً حتى تطوي صفحة الوجود، وأن أهل اليمن كانوا يصطنعون العربية بل هم أصلها، ومنهم تعلمها غيرهم كما قال الشاعر حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يخاطب عرب الشمال:

تعلمتم من منطق الشّيْخ يعرب أبينا فصرتم معربين ذوي نفر

لسنا في حاجة إلى تأكيد هذا... فقد نريد أن ندلل بأن الشعر اليمني في الجاهلية وصدر الإسلام وفي كل أطواره لم يكن متأخر الطبقة ولا ضعيفاً ولا ضئيلاً. وأن حظهم منه لم يكن «كحظ الموالي من الفرس الذين تعلموا العربية وتكلفوا الشعر فيها» كما يقول الدكتور طه ولكنه كان كسائر الشعر العربي يتفاوت ضعفاً وقوة وجزالة وركاكة وفخامة ورونقاً.

فعمرو بن معديكرب الزُّبيدي حين يقول:

ولما رأيت الخيل زوراً كأنها | جداول زرع خليت فاسْبَطَرَّتِ[1]
فجاشت إليَّ النفس أول مرة | وردّت على مكروهها فاستعرت
علام تقول الرمح يثقل ساعدي | إذا أنا لم أطعن إذا الخيل كرَّت
لحا الله جرماً كلما ذر شارق | وجوه كلاب هارشت فازبَأرت[2]
ظللت كأني للرماح دريئة | أقاتل عن أبناء جرم، وفرت[3]
فلو أن قومي أنطقتني رماحهم | نطقت ولكن الرماح أجرت[4]

فإننا نستمع إلى:

شعر رصين عليه طابع الشعر الجاهلي العميق المعنى، الصادق التصوير إلى ما ينبض به من مرارة بالغة وحرقة شديدة حين يذكر الشاعر كيف أن ـ جرما ـ وقد قصدوه واستجاروا بقومه بني «زُبَيْد» بعد رحيلهم عن ديار بني الحارث بن كعب بسبب قتلهم رجلاً منهم، وحين جاء بنو الحارث يطالبون بدم صاحبهم، ووقف عمرو وقومه ينافحون عن جرم، ويقاتلون معها، فرّت من المعركة وتركت عمرو في موقفه العصيب يواجه الهزيمة، إنها حقاً لصورة فذة والبيت الأخير منها قد ذهب مذهب الأمثال السائرة[5].

ومن جيد شعر عمرو بن معديكرب قوله:

ليس الجَمَال بميزر | فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن | ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سابغَة | وعداءا علندى[6]

---

(١) الزور جمع ازور وهو المعوج، اسبطرت امتدت.
(٢) جرم اسم قبيلة. وازبأر بمعنى انتفش.
(٣) الدريئة: الدرقة.
(٤) الأجرار أن يشق لسان الفصيل ويجعل فيه عود حتى لا يرضع أمه.
(٥) انظر شرح ديوان الحماسة لأبي تمام جزء أول ص١٥٧ والأغاني.
(٦) العلندي: الغليظ الشديد في كل شيء.

نهدا، وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا[١]

وعلمت أني يوم ذاك منازل كعبا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقاً وقدا[٢]
كل أمري يجري إلى يوم الهياج بما استعدا
لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا[٣]
وبدت «لميس» كأنها بدر السماء إذا تبدّى
نازلت كبشهم ولم أرَ من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دمي وأنذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لي صالح بوّاته بيدي لحدا
ما أن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاي - ردا -
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا
أغنى غناء الذاهبين أعد للأعداء عدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

وله أبيات رائعة تصور شجاعته وحذره من الموت ومعرفته بمواقف الرّوع.

ولقد أجمع رجلي بها حذر الموت، وإني لغرور
ولقد أعطفها كارهة حين للنفس من الموت هرير
كل ما ذلك مني خلق وبكلٍّ أنا في الروع جدير
وابْنُ صبح سادرا يُوعِدني ما له في الناس ما عشت مجير

ويقول «عمرو بن براقة» فارس همدان وشاعرها في عصره، وكان أغار عليه قوم من مراد في رجب فاستاقوا إبله فأراد الغارة عليهم فنهته همدان

---

(١) ذو شطب أي سيف ذو طرائق.
(٢) الحلق: الدروع، والقد: اليلب.
(٣) الأمعز والمعزاء: الأرض الخرنة ذات الحجارة.

عن انتهاك حرمة رجب واستشار في الغارة عليهم امرأة من مراد يقال لها سلمى كانت متزوجة في نهم فقالت:

إني أنهاك عن تلغات جريم - تعني الذي أغار عليه من مراد فلج وأغار عليهم ونال منهم حاجته واسترجع ما كان أخذ له وقتل منهم وأسر ثم قال كلمته المشهورة:

إذا اللَّيل أدجى واستقلت نجومه ... وصاح من الأفراط هام جواثم
ومال بأصحاب الكرى غلباته ... فإني على مر الوثيقة حازم
تقول سليمى لا تعرض لتلفه ... وليلك من ليل الصعاليك نائم
تقول سليمى لي: من القوم إذ رأت ... وجوه كرام لوحتها السمائم
وكيف ينام الليل من جل ماله ... حسام كَلَوْن الملح أبيض صارم
جراز إذا مس الضريبة لم يدع ... بها طمعاً، طوع اليدين، مكارم
وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم ... فهل أنا في ذايا لهمدان ظالم
تحالف أقوام عليَّ سفاهةً ... وجروا على الحرب إذ أنا سالم
فلا أنا أدعى للهوادة بعدما ... تُمَالُ على الحي المذاكي الصلادم
متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
ومن يطلب المال الممنَّع بالقنا ... يعش ماجداً أو تخترمه المخارم
كان «جريما» إذا أبا أن يردها ... ويذهب مالي، ميت العقل حالم
كذبتم وبيت الله لا تأخذونها ... مراغمة ما دام للسيف قائم
ولا صلح حتى تقدع الخيل بالقنا ... وتضرب بالبيض الخفاف الجماجم
إذا جر مولانا علينا جريرة ... صبرنا لها إنا كرام دعائم
ونمنع مولانا ونعلم أنه ... كما الناس مجروم عليه وجارم

ومن شعر الشاعر الفارس «مالك بن حريم بن مالك» الهمداني:

وانبئت والأيام ذات تجارب ... وتبدي لك الأيام ما لست تعلم
بأن ثراء المال ينفع ربه ... ويُثْنى عليه الحمد وهو مُذَمَّمُ

وأن قليل المال للمرء مفسد ... يحزكما حز القطيع المجرسم
يرى درجات المجد لا يستطيعها ... ويقعد وسط القوم لا يتكلَّم

وهو القائل:

بذلك أوصاني حريم بن مالك ... بأن قليل الذم غير قليل

وتروعني جداً هذه الأبيات التي ينسبها الهمداني إلى شاعر أجنبي يصف فيها شعوره، وقد أجنه الليل وهو بعيد عن أهله قد حال بينه وبين من يهواه جبل المعيل وما وراءه من بطاح:

نظرت وقد أمسى المعيل دوننا ... فعيان أمست دوننا فطمامها
إلى ضوء نار بالكبيبة أوقدت ... إذا ما خَبت عادت فشب ضرامها
توقدها كحل العيون خرائد ... حبيب إلينا رأيُها وكلامُها[1]
غدا بيننا عرض البلاد وطولها ... فداري يمانيها ودارك شامها

رقيقة المعنى صادقة اللوعة، جيدة السبك. ولنستمع لشاعر آخر من جنب أيضاً وهو ابن الأشعب الجنبي يصف مفازة صيهد ويصور ما كان يداعب خيالاته من أوهام وظنون عنها حتى إذا ما رآها كانت فوق تصوراته وأوهامه، وإذا الرياح تَضِلُّ في متاهاتها والكُدْر من قطاها تتوله هائمة، تروح دون مياهها وتغدو:

حَزأت حوازي في حياتي أن أرى ... ما كنت أوعد من مفازة صيهد[2]
فإذا مفازة صيهد بِتنوَقةٍ ... تيه تظل رياحها لا تهتدي
وتظل كدر[3] من قطاها ولها ... وتروح من دون المياه وتَغْتدي
بلد تخال به الغراب إذا بدا ... ملكاً يسربل في الرياط ويرتدي

---

(١) رأيها أي رؤيتها تقول العرب حيى الله رأيك أي شخصك.
(٢) التحزي: التكهن.
(٣) الكدر في القطا ضرب منها.

فسألت حين تغيبت أعلامنا ... من حضرموت أي نجم نقتدي
قالوا المجرة أو سهيلاً بادياً ... ثم اهتدوا بقفولهم بالفرقد

و «مالك بن الحارث النخعي» الذي عاش الجاهلية وعاش الإسلام وكان من قواد أمير المؤمنين علي في حرب صفين والجمل من جيد شعره ومختاره قوله:

بقَّيْت وفري وانحرفت عن العلى ... ولقيت أضيافي بوجهٍ عبوس
إن لَمْ أشنَّ على بن حرب غارة ... لم تخل يوماً من نهاب نفوس
خيلاً كأمثال السعالى شزَّبا ... تَغْدُو بِبيْضٍ في الكريهة شوس
حمى الحديد عليهم فكأنه ... وَمضان برق أو شعاع شموس

ووقعت حرب بين حِمْيَر وصحار، فظهرت عليهم صحار وقتلوا ملكاً من ملوكهم فجمعت حِمْيَر لصحار فارتحلت صحار البيداء فلحقت ببلاد معد فثارت حِمْيَر إلى كلب إخوة صحار تطلبهم بدم ملكهم فاستنجدت كلب بتيم الرباب فأنجدتهم على حِمْيَر وقتلت علقمة بن ذي يزن في الحروب التي نشبت بينهم فقال بعض شعراء حِمْيَر:

يا من رأى يومنا ويوم بني ... التَّيم إذا التف صِيقه بدمه(١)
لما رأوا أن يومهم أشب ... شدوا حيازيهم على ألمه(٢)
كان ما الأسد في عرينهم ... ونحن كالليل جاش في قتمه
لا يسلمون الغداة جارهم ... حتى يزل الشراك عن قدمه
ولا يخيم اللقاء فارسهم ... حتى يشقّ الصفوف من كرمه(٣)
ما برح التيم يعتزون وزرق الخط تشفي السقيم من سقمه

---

(١) الصيق: الغبار الجائل في الجو.

(٢) أشب أي كثير الجلبة، والحيزوم: الصدر.

(٣) لا يخيم اللقاء: لا يجبن عن اللقاء.

حتى تولت جموع حمير فالغل سريع يهوى إلى أممه[1]
وكم تركنا هناك من بطل تسفي عليه الرياح في لممه

وقالت «كبشة» أخت عمرو بن معديكرب تهيج قومها وتذكرهم وصاة أخيها عبدالله عند موته وتعرض بتهاون أخيها عمرو أو أنها تستثيره وتهيج حميته:

أرسل عبدالله إذ حان يومه إلى قومه لا تعقلوا لهم دمي
ولا تأخذوا منهم أفالاً وأبكرا وأترك في بيت بصعدة مظلم[2]
ودع عنك عَمْراً إن عَمْراً مسالم وهل بطن عمرو غير شبر لمطعم
فإن أنتم لم تثأروا واتديتم فمشوا بآذان النعام المصلَّم
ولا ترتدُوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم

وقال أبو محمد الهمداني في الجزء الأول من الإكليل:

ما قال أحد من العرب قديمها وحديثها أشجع من هذه الأبيات لعمرو بن يزيد بن عبدالله بن الحارث وهي فردة لا أخت لها فقال:

يقول لي عَمْرٌو والخيل مشرعة تحت الكماة وقد جالت عواديها
مهلاً لك الخير لا تفعل فقلت له أقصر فإن مميت النفس محييها
همزت مهري برجلي ثم قلت له: اذهب إليك فقد صارت بما فيها
أكرهته فمضى في جوف غمرتهم والرمح يأخذ صيدا ثم يرديها

وكان عمرو هذا هو الذي هاج الحرب بين بني سعد بن سعد وبين الربيعة بن سعد وكان شجاعاً فارساً بطلاً جواداً شاعراً وبسببه تفرقت قبيلته وقتل بعضهم بعضاً وكان ابن عمه الحارث وهو أحد السادة الأشراف

---

(١) الغل: المغلول.
(٢) كانوا يزعمون أن المقتول إذا ثأروا به أضاء قبره فإن أهدر دمه أو قبلت ديته بقي قبره مظلماً.

الحكماء كثيراً ما ينهاه عن البغي ويقول في ذلك الأشعار ويضرب له الأمثال فأبى وركب رأسه وقتل أخويه ثم قُتل؛ فمما قال الحارث:

إذا ما النصح ضيعه الموالي ... فلا تترك مواصلة الصديق
فرب أخ لنفسك لَمْ تلده ... لك الأم الألوف مع الشقيق
إذا عميت عليك السُّبْل يوماً ... ولم تظفر بقارعة الطريق
فسر في القسط لا تتبع سواها ... فإن القسط مقربة الرفيق
ولا تتبع أخا غَيٍ جهولاً ... يدلك للمهالك والمضيق
رأيت الحلم ينجي راكبيه ... ويُردي ذو الغواية والعقوق
يفتح بالترفق كل باب ... ويفسح بالتأني كل ضيق
أحييه تحية ذي حفاظ ... فَيلقيَ بالتجني والمروق
يمني النفس منه بكل سوء ... ويقطع بالعقوق عرى الحقوق

وقال وضاح بن إسماعيل الصنعاني:

قالت ألا لاَ تَلِجَنْ دارنا ... إن أبانا رجل غائر
قلت فإني طالب غرةً ... منه وسيفي صارم باتر
قالت فإن القصر من دوننا ... قلت فإني فوقه ظاهر
قالت فإن البحر من دوننا ... قلت فإنني سابح ماهر
قالت فحولي إخوة سبعة ... قلت فإني غالب قاهر
قالت فليتٌ رابض بيننا ... قلت فإني أسد عاقر
قالت فإن الله من فوقنا ... قلت فربي راحم غافر
قالت لقد أعييتنا حجة ... فأتِ إذا ما هجع السامر
فاسقط علينا كسقوط الندى ... ليلة لا ناه ولا زاجر

ولأعشى همدان من قصيدة طويلة:

بَانَ الخيط وفاتني برحيله ... خودٌ إذا ذكرت لقلبك يشغف

تجلو بمسواك الأراك منظما عذباً إذا ضحكت تهلل يقطف
وكأن ريقتها على علل الكرى عسل مصفى في القلال وقَرْقَفُ
وكأنما نظرت بعيني ظبية تحنو على خشف لها وتعطف
وإذا تنوء إلى القيام تدافعت مثل النزيف ينوء ثمة يضعف
ثقلت روادفها ومال بخصرها كفل كما مال النقي المتنصف
تلك التي كانت هواي وحاجتي لو أن دارا بالأحبة تسعف
وإذا تصبك من الحوادث نكبة فأصبر فكل مصيبة ستكشف
ولئن بكيت من الفراق صبابة إن الكبير إذا بكى ليعنف
عجباً من الأيام كيف تصرفت والدار تدنو مرة وتقذف
أصبحت رهناً للعداة مكبلا أمسي وأصبح في الأداهم أرسف
بين القليسم فالقيول، فحامن فاللهزمين، ومضجعي متكنف
فجبال «ويمة» ما تزال منيفة يا ليت أن جبال «ويمة» تنسف
ولقد أراني قبل ذلك ناعماً جذلان آبى أن أضام وآنف
واستنكرت ما في الوثاق وساعدي وأنا امرؤ بادي الأشاجع أعجف
ولقد تضرسني الحروب وإنني أُلْفَى بكل مخافة أتعسف
أتسربل الليل البهيم وأشتري في الخبت إذ لا يشترون وأوجف
ما إن أزال مقنعاً أو حاسراً خلف الكتيبة، والكتيبة وقَّف
فأصابني قوم وكنت أصيبهم فالآن أصبر للزمان وأعرف
أني لطَلاّبُ التراث مطلب وبكل أسباب المنية أشرف
باق على الحدثان غير مكذب لا كاسف بالي ولا متأسف
إن نلت لم أفرح بشيء نلته وإذا سبقت به فلا أتلهف

ولو تركنا لأنفسنا حرية الاختيار وذهبنا نتزيد في انتخاب ما نحبه ونعجب به من شعر شعراء اليمن في الجاهلية وصدر الإسلام... هذه الفترة التي قيل إنها كانت خرساء في تاريخ الأدب العربي في اليمن لأطلنا... وحسبنا ما قدمناه من نماذج تدل على الأقل أن الشعر اليمني لم

يكن ضعيفاً ولا أشبه بشعر الموالي ممن تعلَّموا العربية وتكلفوا الشعر بها، بل ينبىء عن فطرة حساسة موهوبة، وطبيعة شاعرة متوثبة، ولسان عربي مبين.

وأنا على يقين أو ما يقرب منه بأن الدكتور «طه» نفسه لو استعاد قراءة أو مراجعة ما قاله عن اليمن ولغتها وشعرها الآن. وبعد أن ظفرت الثقافة العربية بثروة هائلة من المخطوطات اليمنية الإسلامية وفيها الجيد الرائع من الشعر والنثر الفني في جميع العصور.. لو أن الدكتور ـ طه ـ راجع نظرياته الأولى وقارنها بما جد على العربية من علم وأدب لم يكن في متناول يده ولا متناول يد المستشرقين حين ألقى كلامه على تلامذته في الجامعة منذ خمسة وثلاثين عاماً، ثم جمعه في كتاب بعد ذلك، لما تأخر لحظة واحدة عن الرجوع عنه واعتباره أثراً من آثاره يمثله في طور من أطوار حياته الأدبية الحافلة قد يعتز بما فيه من عبارة مؤنقة وديباجة مشرقة، وصور بيانية، وخيال ساحر، وأسلوب شاعر، ولكنه لن يرضى ولا شك بما يحوي من فكر هزيل ومعنى ساذج وعقل مقلد لا ينقب، ولا يستبصر بل حتى ولا يتشكك أو يتوقف، وإنما يقدم بشجاعة هائلة مدمراً مخرباً ويرفض وينكر ويحطم دون ما تريث ولا إشفاق.

بل إنني على يقين أو على ما يقرب منه أن الدكتور طه لَوْ اطلع على أبحاث المستشرقين المحدثين وعلماء العرب الذين كتبوا عن اللغات العربية واللهجات العربية وخط المسند، وذلك ما حاولنا أن نلخصه في بحثنا، لرجع عن قوله القديم بأن اليمنيين لم يكونوا عرباً، وأن لغتهم لم تكن عربية وأنه لم يكن لهم شعر في جاهلية ولا في إسلام، بل كان أدبهم في الإسلام تافهاً ضعيفاً كأدب الموالي من الفرس وأمثال الفرس..!

هذا ما أظنه وأكاد أجزم به لما نعرفه من أدب الدكتور طه حسين، وأنه قد يعرف الحق ويرجع إلى الصواب، ويتسم بسيماء العلماء.. وهم يجعلون نصب أعينهم دائماً أن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

وليس هذا فحسب، بل وسيشيد بالأدب اليمني ويعترف معنا بما له من فضل كبير ويد جليلة على الأدب العربي عامة نظراً لما قدمه اليمانيون بهجراتهم قبل الإسلام وبعده خلال فتوحاته في سبيل نشر اللغة العربية والأدب العربي وطبع الشعوب التي فتحوها بطابعها الخالد في الأندلس، وقد كان جيش الفتح يضم كثيراً من اليمانيين والقحطانيين وفيهم شعراء فطاحل كان شعرهم فاتحة شعر الأندلس وكانوا هم طليعة شعرائهم. ومنهم أبو الخطار حسام بن ضرار وكان من أشراف قحطان وممن شهدوا فتوح المسلمين بإفريقيا ووفد على الأندلس سنة **١٢٥هـ/ ٧٤٢م** والياً من قبل هشام بن عبدالملك، وكان فارساً شاعراً ويلقب بعنترة الأندلس ومن شعره:

أفأتم بني مروان قيساً دماءنا   وفي الله إن لم تنصفوا حكمٌ عدل
كأنكم لم تشهدوا «مرج راهط»   ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا   وليست لكم خيل تعد ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا   وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا   بلاء وأنتم ـ ما علمت ـ لها فعل
فلا تجزعوا إن عفت الحرب مرة   وزلت على المرقاة بالقدم النعل

وكثيرون مملوءة بأسمائهم وأشعارهم كتب الأدب، وقبل أن يساهموا مساهمة ذات أثر فعال في نشر العربية بالأندلس نشروها ووطدوا أركانها في المغرب العربي كله، كما هو مذكور في مظانه من كتب الأنساب والتاريخ.

ولماذا نذهب بعيداً! وفي أرض مصر نفسها ظاهرة آثارهم، واضحة معالمهم، ولنترك الدكتور محمد كامل حسين يحدثنا عن تلك الآثار في القرن الأول والثاني للهجرة، فيقول بعد أن تناول علاقة مصر باليمن القديمة التي ترجع إلى آلاف السنين حين كانت القبائل اليمنية تهاجر إلى مصر وكان المصريون يعبرون البحر الأحمر للاتصال باليمن كي يجلبوا البخور والأعشاب الطبية. «ولا يدخل في موضوعنا الكلام عن تلك العلاقات العريقة وما تأثرت به أو أثرت فيه، غير أننا لا بد أن نتعرض من قريب أو بعيد وبإيجاز لتلك العلاقات بين اليمن ومصر خلال القرن الأول والثاني في

الإسلام، وذلك لما كان لليمنيين من أثر فعال في نشر اللغة العربية والأدب العربي وطبع هذه الأرض بطابعهما الخالد.

وبعد أن ذكر الدكتور محمد كامل حسين أن معظم جيش عمرو بن العاص كان من اليمنيين وبلاءهم الحسن في فتح مصر وإشادة عمرو بن العاص ببطولاتهم، وأن أكثر الجيش الذي أمده به الخليفة عمر بن الخطاب ـ كان أيضاً من اليمنيين وأن بهم استطاع المسلمون أن يخلصوا مصر من حكم الرومان، قال:

«وهكذا نستطيع من كتب التاريخ أن نتبع عدداً كبيراً من القبائل اليمنية الذين خرجوا في الربيع «ربيع كل عام» يجوسون القرى والريف، ويختلطون بالمصريين وكان من أثر ذلك انتشار اللغة العربية والدين الإسلامي في مصر، ثم نرى هجرة كبيرة من العرب الحضارمة تفد إلى مصر في خلافة عثمان فقد وفد أكثر من مئة بيت فقوي بهم اليمنيون، ثم استمرت بعد ذلك الهجرات العربية حتى إذا كان القرن الرابع الهجري تم تعريب مصر، وتم الصراع بين اللغة العربية واللغة القبطية بانتصار العربية حتى أن البطريق سويرس بن المقنّع اضطر إلى أن يكتب تاريخه في سير الآباء البطارقة باللغة العربية، ونص على أنه فعل ذلك لعدم وجود من يعرف اللغة القبطية أو اليونانية».

ثم قال:

«كان لقبائل اليمن في مصر في القرنين الأول والثاني للهجرة أثر لافت في الحياة السياسية، ففي هذين القرنين تولى إمارة مصر أكثر من خمسة وعشرين والياً من اليمنيين، ومثل هذا العدد تقريباً من القضاة، وكان أكثر الذين تولوا إمرة الشرطة من اليمنيين، ومعنى هذا أن اليمنيين كانت لهم مشاركة فعلية في حكم مصر في هذين القرنين وأن لهم الفضل في أول عهد مصر بالإسلام والتعريب في أن يعملوا أو يحافظوا على أن تظل مصر بلداً عربياً إسلامياً».

وبعد أن استعرض عدة حوادث تدلل على مدى أثر اليمنيين في كل

الحركات السياسية والاجتماعية والفكرية التي كانت بمصر في ذلك العهد، قال:

«وإذا تركنا هذه الناحية العقلية ونظرنا إلى الناحية الأدبية ـ ونحن نعلم أن الشعر كان أظهر مظاهر الأدب في القرنين الأول والثاني، فسترى أن الشعراء في مصر كانوا من اليمنيين.

«ولعل أول شعر عربي أنشد في مصر هو ذلك الشعر الذي قيل عقب الفتح مباشرة وبناء جامع عمرو، وقد وصلتنا أبيات من هذه الأشعار قالها شعراء من اليمن، فالشاعر أبو قبان بن نعيم التجيبي قال:

و «بابليونٍ» قد سعدنا بفتحها ... وحزنا لعمر الله فيئاً ومغنما
وقيْسيَة الخير «بن كلثوم» دارهُ ... أباح حماها للصلاة وسلما

وقال الشاعر ابن مصعب قيس بن سلمة البلوي بمدح عبدالرحمٰن بن قيس:

وأبوك سلم داره وأباحها ... لجباةِ قوم ركع وسجود

ولأبي مصعب البلوي هذا قصيدة في هجاء زعماء قبائل اليمن في مصر جاء فيها:

وظلت أفادي الكعاء قيسا ... ليدخلني وقد حضر الغداء
وليس بماجد جدات قيس ... ولكن حضرميات قماء
وأعرضَ «نعجة» اليربوع عني ... «يزيد» بعدما رفع اللواء
أشار بكفه اليمنى فكانت ... شمالاً لا يجوز لها عطاء
أكلم «عائذاً» ويصدعني ... ويمنعه السلام الكبرياء
«وجرف» قد تهدم جانباه ... «كريبٌ» ذاكم البرم العياء
وأما «القحزمي» فذاك بغل ... أضربه مع الدبر الحفاء
وهذاك القُصير من تُجَيب ... ولو يَسْتطيع ما نقض الخلاء

«فهو قد هجا بهذه المقطوعة قيس بن كليب الحضرمي الذي كان حاجب عمرو بن العاص ثم حجب لعبدالعزيز بن مروان بمصر، ويزيد بن شرحبيل بن حسنة، وعائذ بن ثعلبة البلوي الذي قتل سنة ٥٣هـ، وعمرو بن قحزم، وكريب بن أبرهة الذي قتله معاوية في دم عثمان، وأراد «بالقُصَيّر» زياد بن حناطة التجيبي صاحب القصر في خطة تجيب».

ثم أخذ الشعراء وأكثرهم من اليمن في قول الشعر بمصر، فنذكر من الشعراء اليمنيين في هذين القرنين:

عابد بن هشام الأزدي الذي مدح مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر سنة ٥٣هـ، وزهير بن قيس البلوى وزرعة بن سعد الذي كان يمدح ابن جحدم الخارجي والي ابن الزبير وهجا عبدالله بن عبدالملك بن مروان، والشاعر زياد بن قائد اللخمي الذي رثى الأكدر بن حمام سيد لخم الذي قتله مروان بن الحكم، وعمران بن عبدالرحمٰن وسعيد بن شريح ومرسل بن حمير، والمسور الخولاني، والغطريف الحميري، وعبدالأعلى بن سعيد، وأنيس بن دارم التجيبي، ويحيى الخولاني، والمعلى الطائي، وسعيد بن عفير، وغيرهم من الشعراء الذين من أصل يمني، وكان هؤلاء الشعراء أساس نهضة أدبية وشعرية في مصر الإسلامية أدت إلى ظهور فحول الشعراء.

وقد تعرض الدكتور محمد كامل في محاضرته لذكر حادثة طريفة تصور مبلغ الاعتزاز بالعنصرية القبلية التي كان يحس بها العرب، والمغالاة والإغراق في تقدير الانتماء والانتساب إلى قبيلة من قبائلهم. وفي التاريخ العربي حوادث كثيرة ورائعة من هذا القبيل كانت منبعاً ثجاً للأدب والشعر، وخاصة الشعر اليمني، واليمنيون يفخرون دائماً بأنهم أبناء الملوك، وسادة العرب وذوو المجد الأصيل، وحين أغرى أحد الخلفاء أحد زعماء قضاعة ليغير نسبه وينتمي إلى عدنان مع قبيلته، ثارت قبائل اليمن وهاجت وكانت معركة بيانية هائلة استمرت عشرات السنين وأتحفت الأدب العربي بروائع الشعر وجميل القول، وسوف نذكر شيئاً من ذلك في موضعه وندع الآن

للدكتور محمد كامل حسين أن يلخص لنا حادثة من هذه الحوادث الطريفة. قال:

«ومما يتصل بحوادث اليمنيين في مصر نرى بعض حوادث اجتماعية شغلت أذهان المصريين مدة طويلة وكانت مجالاً خصباً للشعراء من ذلك قضية أهل «الحرس» وتلخص القضية أن جماعة من بلدة الحرس أرادوا أن يدون لهم نسب عربي فأشار عليهم أحدهم وكان كاتباً للقاضي العمري أن يجمعوا من بينهم نقوداً يرشون بها القاضي. ولكن القاضي كان حريصاً فلم يشأ أن يثبت نسبهم وأحال القضية على الخليفة ببغداد. فذهب وفد من أهل «الحرس» إلى بغداد حتى أثبت لهم النسبة إلى «حوتك» من قضاعة وجاء أمر الخليفة إلى القاضي بتسجيل نسبهم، فطلب منهم البيّنة فأتوا بعرب من «الحوف» ومن الشّام فشهدوا لهم فسجل القاضي لهم فثار اليمنيون على القاضي العمري وهجاه الشعراء فمن ذلك قول يحيى الخولاني:

ومن أعجب الأشياء أن عصابة من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا «حوتك» وأبوهم من القبط علج حبله يتذبذب
وجاءوا بأجلاف من «الحُوف» فادعوا بأنهم منهم سفاحاً وأجلبوا
ألا لعن الرحمٰن من كان راضياً بهم عرباً ما دامت الشمس تَغْرُب

وقال المعلى الطائي يهجو القاضي:

كم كم تطول في قِراءتِك والجور يضحك في صلاتك
تقضي نهارك بالهوى وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صرف الزمان بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم عرباً فزوجهم بناتك

وفي سنة ١٩٤ ولي القاضي البكري فقبض على القاضي العمري وطالبه بأموال «الأحباس» وغيرها وأسقط كل من شهد لأهل «الحرس» ولكن العمري هرب ليلاً من سجنه، وطلب اليمنيون من الخليفة أن يعيد النظر في

قضية «الحرس» وورد أمر الخليفة للبكري للنظر في ذلك؛ فأخرج البكري مقراضاً من تحت مصلاه وقطع قضية العمري وقال لأهل «الحرس»:

العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاضٍ؛ إن كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد، وطلب البكري إقامة البينة فجاء عددٌ من أهل العدالة والقناعة وشهدوا أن أهل «الحرس» من القبط فنقض البكري قضاء العمري وأشهد على قضائه أن أهل «الحرس» من أصل قبطي، فأشاد الشعراء بهذه القضية فمن قول طاهر القيسي:

ولقد قمعت بني الخبائث عندما ... راموا العلى و «تحوتكوا» وتعوبوا
فرددتَهم قبطاً إلى آبائهم ... ونسيب أصلهم الذي قد غيّبوا

وقال الشاعر يحيى الخولاني:

أشكر الله على إحسانه ... فله الحمد كثيراً والرغب
رجع القبط إلى أصلهم ... بعد خزي طوقوه وتعب
ودنانير رشوها قاضياً ... جائراً قد كان فينا يغتصب
أبلغ البكري عني أنّهُ ... عادل في الحكم فرّاج الكرُبْ
قد أمات الجور فينا والرشا ... وأشاع العدل فينا فرَتبْ
إنه قد كان يقضي بالهوى ... ويبيع الحكم جوراً ويهَبْ
ما كفته رشوةٌ ظاهرةٌ ... وقضايا جوره فينا عجب
أن أتى أعظمَ ما يأتي به ... أحدٌ؛ أن صيَّر القبط عرب

وهكذا كانت هذه القضية مصدر ثروةٍ فنيّة للمصريين بما أثاره شعراء اليمن الحاقدون على القاضي العمري بسبب انتساب جماعة من الأقباط إلى قبيلة قضاعة اليمنية.

إن الجهل بآداب اليمن، وعدم تسرّب أخبار شعرائها إلى الرواة والمؤرخين في العراق والشام حيث ازدهرت اللغة العربية وآدابها في الثلاثة القرون الأولى للهجرة قد جنى على اليمن جناية كبرى؛ وَسوَّغ ذلك لكثير

من الرواة أن يتقوّلوا على اليمن بالأباطيل، وأعطى المجال لمن أرادوا أن ينصبوا أنفسهم أساتذة للأدب العربي وأوصياء عليه في العصر الحديث، ولم يكتفوا بما يعلمونه وما وصلت إليه معرفتهم فيصولون به ويجولون، فإذا وصلوا إلى اليمن قالوا لا نعلم شيئاً وتلك طبيعة العلماء، وشرعة المنصفين؛ وليس ذلك بمنكر فهم حقاً لا يعلمون شيئاً عن اليمن، ثم إن الله سبحانه قد ابتلاهم بالكسل، فهم يضنون بأي جهدٍ في سبيل البحث والتنقيب، وقد وصلوا إلى درجة الأستاذية؛ وإذنْ فلْينكروا أدب اليمن ولغتها بل وعروبتها كما فَعل الدكتور طه حسين وسيكون ذلك أسهل عليهم، وأحفظ لكرامتهم أمام تلاميذهم المتعطشين للعلم والمعرفة. وسلام على الحق والتاريخ.

إننا نعذر الكثير من الرواة والعلماء الذين لم يعرفوا شيئاً أو عرفوا النَّزْر اليسير من أدب اليمن وشعرها وشعرائها قديماً وحديثاً، فإن مهمة التمكن من ذلك شاقة وعسيرة؛ فالمصادر مبعثرة، والمراجع قليلة، والغموض يكتنف الحوادث والأسماء؛ ولنضرب لذلك مثلاً ونحن في خلال الحديث عن الشعر والشعراء بنوّاحة اليمن الشاعر «ذو جدن» الذي لا يكاد يخلو كتاب من الكتب اليمنية من الاستشهاد ببعض أشعاره:

ما اسمه؟ ومتى عاش؟ وأين شعره؟ وهل كل ما ينسب إليه قد قاله؟.

فالرُّواة يلقبونه «النوّاحة» لكثرة بكائه على حِمْيَر ونواحه على أطلالها، ويسميه الهمداني في الجزء الثاني من الإكليل علقمة بن أسلم بن مرثد، وقد عدّه في صفة الجزيرة من شعراء صنعاء، ولكن أحداً لم يحدثنا بالتحديد عن تاريخ مولده ووفاته، والكتب اليمنية التي بين أيدينا اليوم لا تذكر لنا شيئاً عن حياته ونشأته؛ بل تروي بكاءه على مجد آبائه، ومراثيه لملوكهم وأقيالهم ونواحه على أطلال قصورهم وحصونهم وسدودهم وإشادته بما شادوا، وأسسوا وبنوا.

ويكاد أن يكون كل ما نقل إلينا من شعر علقمة ذي جدن مقصوراً على هذا الباب، ونحن قد نتصوّر أن الشاعر أكثر من هذا الفنّ حتى استحق

لقب «نَوَّاحَة حمير» ولكنا لا نستطيع أن نتصوّر أن الشاعر قد أعرض إعراضاً كاملاً عن ضروب وفنون الشعر الأخرى المعروفة.

وقد ذكره «القرشي» صاحب جمهرة أشعار العرب، وروى قصيدته العينية في رثاء حمير، كما أن الهمداني تعرّض للحديث عنه وهو يروي نتفاً من أخبار «محمد بن أبان الشاعر» فقال: «وهو، وعلقمة، وأحمد بن يزيد وآل مفرّغ أشعر شعراء بني الهميسعْ».

ويلقّبه الهمداني أيضاً بذي جدن الأصغر الشاعر قائلاً: «ويقال له علقمة بن ذي جدن نسبة إلى جدّه، وكثير من الناس لا يقولون «إلا قال علقمة ذو جدن».

ولقد اختلفت الروايات في اسم أبيه اختلافاً كبيراً؛ شأننا إزاء كثير من الشعراء والملوك القدامى، وخلطوا بينه وبين من لقبوا قبله بذي جدن من الأقيال، ولم يعلموا هل المراد بجدن اسم المكان، أم حسن الصوت.

فياقوت الحموي يقول: «جَدَن بالتحريك وآخره نون، والجدن حسن الصوت، وذو جدن، الملك الحميري، وقيل «جدن» مفازة باليمن، وقيل إن ذا جدن ينسبُ إليها».

ويقول ابن منظور: «جَدَنٌ موضع، وذو جدن قَيْلٌ من أقيال حمير، وقيل من مقاولة اليمن، وفي التهذيب اسم ملك من ملوك حمير قال الأصمعي وأنشد أبو عمرو بن العلاء الكلابي:

لو أنني كنت من عاد ومن إرم غَذِيّ بَهْم ولقماناً وذا جدن

وقال في «تاج العروس» مادة «جدن» ذو جدن قيل من أقيال حمير كما في الصحاح وهو عَلَس بن يشرح ابن الحارث بن سيفي ابن سبأ جد بلقيس، وهو أوّل من غنّى باليمن، ولذلك لقب بسببه لأن الجدَن حسن الصوت».

وإزاء هذا يأتي أبو محمد الهمداني فيحاول أن يزيل الرّين، ويبدّد الظلمة، فيقول في الجزء الثاني من الإكليل:

«فأولد أسلم بن مرثد علقمة ذا جدن الأصغر الشاعر، ويُقال له علقمة ذو جدن، نُسِبَ إلى جدّه، وكثير من الناس لا يقولون إلا قال علقمة ذو جدن، وهو علقمة المطموس، وهو وبشار بن برد الشاعر مولى عقيل من عجائب الدنيا، لأنهما أفرطا في التشبيه وهما لا يبصران» إلى أن يقول: «ويدعى علقمة ذو جدن» النوّاحة أيضاً لأن شعره كله مراثٍ في حمير وقصورها وقصيدته إحدى المراثي التي أولها:

لكل جنبٍ «يا فتى» مضطجَعْ والموتُ لا ينفع منه الجزَع

وهي من أحسن المراثي وأسلسلها وهي معظمة عند أهل اليمن وغيرهم من العرب، وقد كتبنا ما أدركنا من شعره في كتابنا هذا لأنه معدوم بالعراق والشام، قليل في أيدي العلماء، وفي ذي جدن جرى المثل بالحميري «قال باع ذو جدن ماله» قال:

ويلْ ذِي دَوْلَهْ أيُّ وْيلْ الذي لَيْسَ لَهْ مَالْ يبيعَهْ

ثم قال: «وكان أبو نصر يرى أن علقمة بن أسلم هو علقمة الأوسط، ويرى أن علقمة الشاعر من ولد علقمة بن أسلم وأنه نسب إليه كما قيل حذيفة بن اليمان، واليمان جده الأعلى، ولم يكن يرى أن اسم علقمة الشاعر ذو جدن، وَقمِنٌ أن يكون كما قال: لأن علقمة الشاعر كان مخضرماً، وعلقمة ذو جدن بن أسلم قديم» انتهى.

فنرى من هذا أن هذا الاسم قد أطلق على ثلاثة أو أكثر وأنه قد قيل «علقمة الأصغر» و «علقمة الأوسط» ولا بد أن هناك علقمة أو ذا جدن الأكبر، وأنه هو الملك أو القيل، وأن شاعرنا هو ذو جدن الأصغر المتأخر الذي لم يدرك من مجد آبائه وحضارتهم إلا خرائب وأطلالاً استدرت منه الشُّجُون فبكى ما شاء له البكاء.

كما نفهم أيضاً من كلام الهمداني رحمه الله أن شاعرنا قد لقب بلقب آخر وهو المطموس، وأنه كان ضريراً، وأن القدامى كانوا يعدونه لذلك من عجائب الدنيا لإتقانه وصف الآثار والعرصات والقصور وما استخدم من

تشبيهات وهو لا يبصر مما ينبي عن بصيرة شفافة وفكر وقَّاد، كما نعرف بأننا لسنا وحدنا المحرومين من شعر علقمة وآثاره الأدبية، بل إن أبناء القرن الثالث الهجري قد حرموا منه، وأن شعره كان قليلاً في أيدي العلماء أيام الهمداني، وكان معدوماً بالعراق وبالشام، وأن هذا هو السبب الذي جعل الهمداني يكثر من الاستشهاد بشعره في كتابه الإكليل، وأن الاختلاف حول اسمه وتحقيق نسبه قديم مما جعل الهمداني يخالف ما كان قد أدلى به عند نسبه، ويقرر كلام «أبي نصر» رحمه الله وأن شاعرنا ليس علقمة بن أسلم، بل علقمة آخر من نسل علقمة بن أسلم المشهور بعلقمة الأوسط..

غير أني لا أزال في شك من أن لقب «المطموس» قد أطلق على «علقمة الشاعر» وأنه كان ضريراً وأخالف أبا محمد الهمداني في ذلك، ومصدر شكي هو ما ورد في الجزء الثاني من الإكليل نفسه عند كلامه عن علقمة بن ذي قيفان الأكبر ملك عمران وصاحب الصمصامة، فقد قال الهمداني: «وكان علقمة بن ذي قيفان ملكاً بِعَمْران من أرض البون، وكان علقمة ضرير البصر، وكانت همدان حرسه وحاشيته»، إلى آخر قصته الرائعة وما قيل فيها من الشعر الرائع.

فلماذا لا يكون علقمة المطموس هو علقمة بن ذي قيفان لا علقمة الشاعر، ثم اختلط الأمر على الرواة؟!.

لا نستطيع أن نجزم بهذا وخليق بالأمر أن يترك للبحث والتمحيص. ثم نعلم أخيراً من كلام «أبي محمد» بأن شاعرنا كان مخضرماً عاصر الجاهلية والإسلام. ثم... ثم.. نحار ولا نجد منفذاً إلى يقين، ولا سبيلاً إلى علم، ويحيط الغموض والصمت بكل ما يتصل بنشأته وحياته؛ ولم يذكر الهمداني لا في صفة الجزيرة، ولا في الأجزاء الموجودة بين أيدينا من الإكليل نبأ يدل على أن الشاعر قد أسلم ولا ندري عن نهايته والفصل الأخير من حياته، شيئاً.

ونظن أن الكثير من شعره قد فقد، لذلك فلا نستطيع أن نحكم على شعره حكماً عادلاً ما دام الذي بين أيدينا يكاد أن يكون في فن واحد من

فنون الشعر وقد أبدع فيه كثيراً وأسفَّ أيضاً كثيراً.

ولن نستبعد أن يكون البعض مما ينسب إليه في البكاء والنواح على الأطلال قد نحله الرواة ودسوه عليه، وروي عنه دون أن يكون قد قاله:

ومن جيد شعره قوله:

لا تهلكن جزعاً في إثر من ماتا ... فإنه لا يُرَدُّ الدهرَ ما فاتا
أبعد «بينون» لا عينٌ ولا أثرٌ ... وبعد «سلحين» يبني الناس أبياتاً
وبعد «حمير» إذ شالَتْ نعامتهم ... حَتَّتْهُمُ رَيبُ هذا الدهر حِتّاتا

وقوله:

يا بنتَ قيل معافرٍ لا تسخري ... ثم اعذريني بعد ذلك أو ذر
أوَ لا ترْين وكل شيء هالكٌ ... «بينون» هالكة كأن لم تُعمرِ
أوَ لا ترين - وكل شيء هالك ... «سلحين» مدبرة كظهر الأدبرِ؟
أوَ لا ترين ملوك «ناعط» أصبحوا ... تَسْفِيْ عليهم كلّ ريحٍ صرصرِ؟
أوَ ما سمعتِ بحمير وبيوتهم؟ ... أمستْ معطلة مساكن حمير
فَابْكِيْهُمُ.. أو ما بكيتِ لمعشرٍ؟ ... لله درك حميراً من معشرِ

وله في «ناعط»:

عيني فابكي «ناعطاً» واستعبري ... عثر الدهر عليهم فعثَرْ
كان فيها ألف عون ذهبوا ... فلذا لم يبق فيها من بشرْ
درج الدهر على آثارهم ... فعفا ممن ثوي فيها الأثرْ
فإذا أبصرتُ آثاراً لهم ... غشيتني زفرة فيها عبرْ
فأبيت الليل منها ساهراً ... بئس زاداً، لأخي العيشُ السهرْ

وله يذكر «بينون»:

«بينون» أقوتْ فلا خدينٌ ... فأنت صبٌ بها حزينُ

تبكي على أثر حيّ صدقٍ   خانتهمُ عيشةٌ خَؤُونُ
تبكي حزيناً ديار حيّ   قد فرّقت أهلها المنونُ
إن كنت تبكين - أخت - فابكي   حمير تُذْرَى لها الشؤونُ
خانتهم غَضبَةُ الليالي   وطحنتهم رحى طحونُ
فأصبحت دورهم خواءاً   تَسْفِي بها الحرجفُ الحنونُ

وقال في «بينون» أيضاً:

يا من يرى «بينون» أمسى خاوياً خرباً كُعابُهْ
أمسى الثعالب أهلُه   بعد الذين هُمُ صحابُهْ
ولقد أراه بغبطةٍ   في العيش مخضرّاً خضابُه
فخوى، وما من ذي شباب   يُرتجى أبداً شبابُهْ
ثار الغبار وفاح منه   المسك إذ قُضَّتْ قِبابُه

ومما يَدُلَ على أن شعراً قد نحل إلى علقمة قول الهمداني، وقد روى له أبياتاً أولها:

عُمرت حميرٌ تشيد قصوراً   من رخام ومرمرٍ وسلام

ويقال إنها مصنوعة:

على أنني لا بد أن أشير إلى أنه كثيراً ما يرد شعر «علقمة» مصحّفاً مُحرَّفاً وخاصةً في الجزء الثامن من الإكليل الذي أخرجه الكرملي سامحه الله وهو مملوء بالأغلاط، وأكثر تصحيحات «الكرملي» وتعليقاته خطأ بل أحياناً يكون الأصل واضحاً وصحيحاً فلا يفهمه فيفسده بإصلاحه المزعوم.

والأدب اليمني يكاد أن يكون الأدب العربي الوحيد الذي تجد بين أساطينه وشعرائه شاعراً وسلطاناً وإماماً وداعية ومتصوفاً وسفاحاً في وقت معاً، وتستطيع أن تستخلص من شعر بعض شعرائه رقة الفنان، وعُنجهيّة

السلطان، وقيادة الإمام، وإخلاص الدّاعي، وشدوه المتصوف، وتمرد السفّاح، وقسوَة «قاطع الطريق».

إن كثيرين من «قرّاء الأدب العربي اليوم» يظنون هذا محالاً أو خيالاً إذ لم يتيسر لهم الاطلاع على تاريخ اليمن، ولا آداب اليمن، ولا غرائب اليمن، وأظن أن المهتمين بالأدب القصصي، وفن المآسي، لو أعطوا تاريخ هذا الشعب وآدابه وأساطيره وغرائبه شيئاً من الاهتمام لعثروا على كنز لا ينفد يوحى إلى الكتاب والمؤلفين أروع القصص ويُلهمهم ما قد لا يستلهمون مثله من أساطير الهند واليونان والفرس والرومان، أئِمّة شعراء قتلوا إخوانهم وذويهم وقالوا في ذلك شعراً بليغاً، وسلاطين شعراء قتلوا أولادهم وإخواتهم، وإشقاءهم، وقالوا في ذلك شعراً رائعاً، وشعراء زعماء قادوا الجيوش، وفتحوا المدن، وهتكوا الأعراض، وأباحوا المحرمات، وقالوا شعراً في ذلك جيداً، ومدحهم الشعراء فأكرموهم وجازوا المدح بالمدح، والثناء بالثناء، وكل ذلك مدوّن في تاريخ اليمن بعد الإسلام. أما أساطير اليمن قبل الإسلام ونصيب الشعر من ذلك فلنا معها حديث طويل.

عَصبية العِرق
ومعركة القحطانية والعَدنانية

مما سبق نستطيع أن نفهم مدى تأثر اليمنيين بالعصبية العرقية المقيتة، ورغم ما فيها من إغراق ومغالاة لا تلتئم مع ما أرادت مبادىء الدين الحنيف أن تخلقه من مثل عليا، وأن تبدده من حمية، وأن تخففه من نعرة، وأن تذيبه في عصبية إسلامية سمحة تجعل الأخوة في الله والدين أقوى من الأخوة في الصهر والدم، وروابط الحرية والعدالة والسلام والمحبة أسمى وأخلد من روابط النسب وقرابة الأبوة والأمومة، والخؤولة والعمومة، ولكن صدى ذلك كان عميقاً في نفوس اليمنيين في صدر الإسلام وخصوصاً بعد وفاة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وقد كان يمنحهم حبه وتقديره وينفحهم بين الحين والحين بكلمات ثناء عاطرة ويبارك أرضهم ويمجد إيمانهم ويشتمّ «نفس الرحمٰن» من قبل أرضهم، فما أن لحق الرسول الأعظم بالرفيق الأعلى، ونتئت رؤوس التعصب والتحزب وظهر على المسرح من جديد أولئك الذين لم يخلصوا للإسلام ولا لتعاليمه، وإنما طواهم دون خيار واستسلموا لشرعته كارهين، ظهروا ليكيدوا له من جديد وعرفوا بفطرتهم وتجاربهم أن أنجع وسيلة هي إثارة العصبيات القبيلة، بما تراكم عليها من أحقاد وتراث النعرات العنصرية.. بما تَضطغِن به من عنجهية وضلال. وما النزاع على الخلافة والزعامة والقيادة إلا من هذا القبيل.

إلى ما كان واقِراً في نفوس اليمنيين من اعتزاز بماضيهم وافتخار

بآبائهم وهم الملوك والأقيال «وقد كان كل ملك من ملوك حمير يرى العالم عبيده والعرب جميعاً خَوَلَهُ، ومن ذلك قول تبع:

فهل الناس ـ غير أبناء قحطان ـ إذا ما ذكرت غير عبيدي

وقال:

كل من يحتذي النعال ومن لا يحتذيها من البرية عبدي

وقال امرؤ القيس:

لا ينكر الناس منا يوم نملكهم كانوا عبيداً وكنا نحن أربابا

وقال عمرو بن تبع:

ملكنا قبل داوود زماناً وعَبَّدْنَا مُلوكَ المشرقينِ

بل إن العرب كانت تعرف لهم ذلك المجد والملك، وفي ذلك يقول الفرزدق:

سمونا لنجران اليماني أرضه ونجران أرض لم تَدِيْنُ مَقَاوِلُهُ

وكانوا لا يرضون بوالدهم والداً، ولا بنسبهم نسباً، ولذلك ثار اليمانيون وهاجوا وماجوا حين أراد القاضي العمري أن يلحق بهم من ليس منهم، ولذلك أيضاً ثاروا ثورة عمياء حين أراد معاوية بن أبي سفيان ورهطه أن يلحق قضاعة بنسب معد، وأغروا بالمال كثيراً من طماعها ومغفليها فتبارى الزعماء ينكرون ذلك ويأبونه، وقال عدي بن الرقاع العاملي وهو غلام حدث لزهير العذري:

أزهير إني إن أطعت كسوتني في الناس ضاحية رداء صغار
أَضَلاَلُ لَيلٍ ساقطٍ أَكنافُهُ في الناس أَغْدَرُ مِنْ ضَلاَلِ نهارِ
قحطان والدُّنا الذي نُدْعىٰ لَهُ وأبو خزيمةَ مدركُ بن نزارِ
أتبيع والدنا الذي نُدْعىٰ له بأبي معاشر غائب متواري

تلك التجارة لا ربحت بمثلها ذهبٌ يباع بآنكٍ وأبار[1]
إني إذاً كالقدح يُجعل مغزلاً يكسو المعاشر وهو أجرد عاري

وقيل إنه لما بلغت معاوية هذه الأبيات، قال: والله ما أود أن من طاوعني وتابعني من قضاعة ولخم وعاملة وجذام بعد هذه الأبيات بشسع نعلي.

وفي المنازعة في نَسَبِ قضاعة إلى معد قيلت أشعار كثيرة ونشبت معارك أدبية عنيفة، وقال حكيم بن عياشي الكلبي:

برئنا إلى الله من أن يكون أبونا نزاراً فنرضى نزارا
ولكنَّ نحن نجل الملوك يمانون أصلاً، يمانون دارا

قال الهمداني: وسمعت رجال بني نهد تنشد في أشعارها و «تُزومِل» في حروبها:

يا أيها الداعي ادْعُنا وأبشر وكن قضاعياً ولا تُنَزَّر
نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر من قال قولاً غير ذا تنصر

وقد وضعت في ذلك أشعار ورويت أحاديث وفاز الأدب العربي بصور رائعة للنفس الهائجة، والشعور المكبوت، والكيد والغيض والسخرية اللاذعة، والكبرياء المهزومة، وكانت مدعاة لكل ذي غرض أو هوى أو فكرة أو مذهب، أو توق قديم لعادة يحن إليها وتُراثٍ يتشبث به.

كما أننا نظن أن هذه العنصرية والعصبية القبلية كانت من أسباب ظهور المدعين للنبوة، ورجوع بعض العرب عن الإسلام إثر وفاة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ونشوب ما يسمى بحرب الردة، وذلك الصراع الرهيب الذي انتهى بانتصار التوحيد وظفر المسلمين.

---

(١) الآنك الرصاص، والأبار ضرب من الفضة.

والتاريخ وكتب الأدب كثيراً ما تحدثنا عن أفراد من الشعراء والقادة من أبناء قحطان تمردوا على قواعد الشرع الحنيف، أو عبروا عن عدم اطمئنانهم لهذه الزعامة، التي تدعيها قريش لنفسها أو خُيِّل إليهم أنها تدعيها، فمن الأمثال والشواهد الكثيرة التي تنطبق على الفريق الأول ما روي عن «النجاشي» الشاعر اليماني الذي عاش الجاهلية ثم أسلم حين أسلم قومه من أهل اليمن وهاجر معهم، وكان كما قال ابن قتيبة «رقيق الإسلام» وقد خرج مرة في شهر رمضان على فرس له يريد الكناسة، فمر بأبي سمال الأسدي فوقف عليه فقال: هل لك في رؤوس حملان في كرش في تنور من أول الليل إلى آخره قد أينعت وتهرأت.

فقال له: ويحك في شهر رمضان تقول هذا.

قال: ما شهر رمضان وشوال إلا واحداً.

قال: فما تسقيني عليها؟ قال: شراباً، شراباً كأنه الورس يطيب النفس ويجري في العرق، ويكثر الطرق، ويشد العظام ويسهل الكلام.

فثنى رحله فنزل ودخلا المنزل فأكلا وشربا، فلما أخذ فيهما الشراب تفاخرا، فعَلَت أصواتهما، فسمع ذلك جار لهما، فأتى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فأخبره فبعث في طلبهما، فأما أبو السمال فشق الْخُصَّ ونفذ إلى جيرانه فهرب، وأخذ النجاشي فأُتي به علي بن أبي طالب، فقال له: ويحك وِلْدَانُنا صيام وأنت مفطر؟ فضربه ثمانين سوطاً وزاده عشرين سوطاً، فقال: ما هذه العلاوة يا أبا الحسن؟ قال: هذه لجرأتك على الله في شهر رمضان، ثم وَقَفَهُ للناس في تبانة ليروه، فهجا أهل الكوفة قائلاً:

إذا سقى الله قوماً صوب غادِيةٍ ... فلا سقى الله أهل الكوفةِ المطرا
السارقين إذا ما جن ليلهم ... والقارئين إذا ما أصبحوا السورا

وهو القائل يهجو قريشاً ولقبها بسخينة وهو طعام رقيق من دقيق وسمن كان القرشيون يكثرون أكله:

سخينة حي يعرف الناس لؤمها ... قديماً ولم تُعرَفْ بمجد ولا كرم

فيا ضيعة الدنيا وضيعة أهلها ... إذا وُلي الملك التنابلة الْقَزَمْ
وعهدي بهم في الناس ناس وما لهم ... من الحظ إلا رعية الشاة والغنم

ومع هذا فقد كان النجاشي يتشيع وكان شاعر علي وجنده يوم صفين وهو القائل يخاطب معاوية:

يا أيها الملك المبدي عداوته ... انظر لنفسك أي الأمر تأتمرُ
وما شعرت بما ضامرت من خنق ... حتى أَتَتْني به الأخبار والنذُرُ
فإن نفست على الأقوام مجدهم ... فابسط يديك فإن المجد يُبْتَدر
واعلم بأن على الخير من نفر ... سُمُ العرانين لا يعلوهم بشر
وما إخالك إلا لست منتهياً ... حتى يمسك من أظفاره ظفر
إني امرؤ قل ما أثني على أحد ... حتى أُبين ما يأتي وما يذر
لا تحمدَنّ امرءاً حتى تجربه ... ولا تذمنّ منْ لم يبله الخبر

ومما ينطبق على فريق المتمردين الذين لم تطمئن نفوسهم إلى زعامة قريش ما رواه أبو عبيدة وحكاه في الأغاني قائلاً «لما كان يوم القادسية أصاب المسلمون أسلحة وتيجاناً ومناطق ورقاباً فبلغت مالاً عظيماً، فعزل سعد الخمس ثم فض البقية فأصاب الفارس ستة آلاف والراجل ألفان، فبقي مال دثر[1] فكتب إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ بما فعل، فكتب إليه أن رد على المسلمين الخمس واعط مَنْ لَحِق بك مِمَّنْ لم يشهد الوقعة ففعل فأجراهم مجرى من شهد وكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه: أن فض ما بقي على حملة القرآن فأتاه عمرو بن معد يكرب فقال: ما معك من كتاب الله تعالى..؟ فقال إني أسلمت باليمن ثم غزوت فشغلت عن حفظ القرآن، قال مالك في هذا المال نصيب، قال وأتاه بشر بن ربيعة الخثعمي صاحب جبانة بشر، فقال: ما معك من كتاب الله؟ فقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فضحك القوم ولم يعطه شيئاً فقال عمرو في ذلك:

---

(١) الدثر: المال الكثير.

إذا قُتِلْنا ولا يبكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير
نُعْطَى السوية من طعن له نفذ ولا سوية إذ تعطى الدنانير

وقال بشر بن ربيعة:

أنخت بباب القادسية ناقتي وسعد بن وقاص علي أميرُ
وسعد أمير شره دون خيره وخير أمير بالعراق جرير
تذكَّر هداك الله وقع سيوفنا بباب «قُدَيْسٍ» والمُكِرُّ عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهم يُعارُ جَنَاحَيْ طائرٍ فيطيرُ
إذا ما فزعنا من قراع كتيبة دلفنا لأخرى كالجبال، نَسِيرُ
ترى القوم فيها واجمين كأنهم جمال بأجمَال لهن تسير

فكتب سعد إلى عمر ـ رضي الله عنه ـ بما قال لهما وما رَدًّا عليه وبالقصيدتين، فكتب أن أعطهما على بلائهما فأعطى كل واحد منهما ألفي درهم.

وفي الأغاني أيضاً قال: قدم عيينة بن حصن الكوفة فأقام بها أياماً ثم قال: والله ما لي «بأبي ثور» عهد منذ قدمنا هذا الغائط[1]، يعني عمرو بن معد يكرب، أسرج لي يا غلام فأسرج له فرساً أنثى من خيله فلما قربها إليه قال له: ويحك أرأيتني ركبت أنثى في الجاهلية فأركبها في الإسلام؟ فأسرج له حصاناً فركبه وأقبل إلى محلة بني زُبَيْد، فسأل عن محلة عمرو فأرشد إليها فوقف ببابه ونادى أي «أبا ثور» أخرج إلينا فخرج إليه مؤتزراً كأنما كسر وجبر فقال: أنعم صباحاً أبا مالك فقال أو ليس قد أبْدَلَنَا الله تعالى بهذا، السلام عليكم؟ قال دعنا مما لا نعرف انزل فإن عندي كبشاً ساحاً فنزل فعمد إلى الكبش فذبحه ثم كشف عنه وعفاه وألقاه في قدر جماع وطبخه، حتى إذا أدرك جاء بجفنة عظيمة فثرد فيها وأكفأ القدر عليها فقعدا فأكلاه، ثم قال له، أي الشراب أحب إليك اللبن أم ما كنا نتنادم عليه في

(١) الغائط هنا: المطمئن الواسع من الأرض.

الجاهلية؟ قال أو ليس قد حرمها الله جل وعز علينا في الإسلام؟ قال أنت أكبر سناً أم أنا؟ قال: أنت قال: فأنت أقدم إسلاماً أم أنا؟ قال أنت قال: فإني قد قرأت ما بين دفتي المصحف فوالله ما وجدت لها تحريماً إلا أنه قال ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقلنا: لا، فسكتَ وسكتنا، فقال له أنت أكبر سناً وأقدم إسلاماً فجاء بها فجلسا يتناشدان ويشربان ويذكران أيام الجاهلية حتى أمسيا فلما أراد عيينة الانصراف قال عمرو لئن انصرف أبو مالك بغير حباء إنه لوصمة عليّ فأمر بناقة أرحبية كأنها جبيرة لجين فارتحلها وحمله عليها ثم قال يا غلام هات المزود فجاءه بمزود فيه أربعة آلاف درهم فوضعها بين يديه، فقال أما المال فوالله لا قبلته قال: والله إنه لمن حباء عمر بن الخطاب فلم يقبله عيينه وانصرف وهو يقول:

جُزيت أبا ثور جزاء كرامة ... فنعم الغنى المزدار والمتصيف
قريت فأكرمت القِرى وأفدتنا ... بِحَيْثَةَ علم لم تكن قط تعرف
وقلت: حلال أن نُدير مدامةً ... كلون انعتاق البرق والليل مسدف
وقدمت فيها حجة عربية ... ترد إلى الإنصاف من ليس ينصف
وأنت لنا والله ذي العرش قدوة ... إذا صدنا عن شربها المتكلف
نقول أبو ثور أحل حرامها ... وقول «أبي ثور» أسد وأعرف

ومع اعتقادنا بأن هذه الروايات قد تكون غير صحيحة وقد تكون من وضع المحدثين والقصاص، ولاسيما وبعضها يناقض بعضاً إذ بينما تحدثنا الرواية الأولى أن عمرو بن معد يكرب لم يعرف من القرآن شيئاً لحداثته في الإسلام واشتغاله بالغزو، تحدثنا الرواية الثانية أنه قد قرأ «ما بين الدفتين» واستكنه كلّ آيات القرآن.. غير أننا نكاد أن نجزم بأن هذه الروايات تصور فعلاً حالة أولئك الفرسان والشعراء الذين أشربت قلوبهم الجاهلية الجهلاء بضلالاتها وتهاويلها، وبما فيها من خمر وشعر ولهو وانطلاق لا يحد من شهوات المرء وغرائزه إلا بمقدار ما تحتمه وتفرضه تقاليد الفروسية ومقاييس المروءة والشهامة والأخلاق الفردية المتوارثة المقدسة في مجتمعهم الجاهلي.. إنها ولا شك تصور نزواتٍ من حياتهم كانوا يعيشونها على

ذكرى الماضي ولم تبق عارمة، وظاهرة آثارها في صدر الإسلام فحسب، بل إنها ظلت موجودة قائمة عدة قرون وخاصة في اليمن، وما يرويه التاريخ من تطاحن قبائلها وتفانيهم وتفاخرهم وتناحرهم إنما هو أثر من تلك الآثار. ويحدثنا الهمداني في الإكليل أن عبدالله بن وقيش قدم على الإمام الهادي يحيى بن الحسين (توفي سنة ٢٩٨هـ - ٩١١م) إلى صعدة وكان سيد قومه فسأله الهادي يا أبا محمد كم لك من النساء؟ فقال عبدالله سبع فقال الهادي إنه لا يحل لك إلا أربع، فقال دعنا من هذا، ثم كلمه فقال تدخل معنا يا أبا محمد ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا، فقال: «أبا حسين لك مخلاف ولي مخلاف وأنت أخٌ لي وَعزِي وإن احتجت أنجدك أنجدتك».

ونظائرها كثير في التاريخ بل إنَّ ثمة من يعلل التناقض الواضح في القصتين المرويتين عن عمرو بن معد يكرب بأنه كان مشهوراً بالكذب معروفاً بالمبالغة والإغراق عندما يتحدث عن نفسه وعن بطولاته وأن دعواه أنه قد قرأ بين الدفتين من هذا القبيل، وقد قيل لخلف الأحمر: «أكان عمرو يكذب؟ فقال: كان يكذب باللسان ويصدق بالفعال. ومن أظرف ما يُروى من مبالغاته أنه خرج مرة إلى حيث كان يَجتَمِع أشراف الكوفة يتناشدون الأشعار ويتحدثون ويتذاكرون أيام الناس، فوقف عمرو إلى جانب خالد بن الصقعب النهدي فأقبل عليه يحدثه ويقول: أغَرْتُ على بني نهد فخرجوا إليَّ مسْترْعِفِين[1] بخالد بن الصَّقْعب يقدمهم فطعنته طعنة فوقع وضربته بالصمصامة حتى فاضت نفسه، فقال له الرجل يا أبا ثور: إن مقتولك الذي تذكره هو الذي تحدثه؟ فقال اللهم غفراً إنما أنت محدث فاسمع، إنما نتحدث بمثل هذا وأشباهه لنرهب هذه المعدية.

فإرهاب المعدية من مسوغات الكذب عند شاعرنا، وهكذا نستطيع أن نعرف كثيراً من المسوغات لدى الشعراء والمؤرخين والرواة فابتدعوا الكثير من الأقاصيص والأخبار والأشعار تمجيداً لعدنان أو افتخاراً بقحطان.

---

(١) مسترعفين: متقدمين.

ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الأدب والتاريخ القديمة منها والحديثة من تقسيم العرب إلى قحطانية، وعدنانية، وذكر ما نشب بين الحيين من صراع باللسان وبالسنان، ويختلف المؤرخون في تعليل هذا التقسيم، ومدى أثره على المجتمع العربي وعقائده ومذاهبه، وعاداته، والتقلبات السياسية التي طرأت عليه من بعد وفاة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، إلى أن تكالب الصليبيون، والاستعمار الغربي، والدول الأجنبية، على العالم الإسلامي، ومزعوه أوْصالاً، ومزقوه إرباً إرباً.

أقول: تختلف وجهات نظر المؤرخين والأدباء في تَعْلِيل أسباب ومسببات ذلك التقسيم، ثم في نتائجه وآثاره، ثم في الوسائل التي يعمدون إليها ليؤكد كل ذي رأي رأيه ووجهة نظره بما يبلغه وطره، ويفضي به إلى تحقيق هدفه، وخصوصاً ونحن نعلم أن أكثر من خاضوا هذا الموضوع، وفتنوا به، وشعَّبوا شجونه ينتسبون إما إلى قحطان فلا يعرفون لغيره فضلاً، وإما إلى عدنان فلا يقيمون لمن دونهم وزناً، ومع الزمن وبالنتَاجِ الأدبي الضخم الناشىء عن تلك الفتنة تطور الموضوع حتى أصبح حقيقَة علمية ترغم كل مؤرخ لأدب أو حضارة أو نسب أن يقف وقفة طويلة محللاً ومعللاً ومبدئاً ومعيداً، بل قد بلغ الأمر إلى أن بعض المستشرقين وأتباعاً لهم من أدباء العرب ـ خولوا لأنفسهم أن يظنوا أن من يدعون بالقحطانيين ويسكنون اليمن ليسوا عرباً، ولا يعرفون العربية، ولم يتيسر لهم إمعان النظر والفكر، في الأسباب الحقيقية التي دفعت بعض الفئات في القرن الأول الهجري لإثارة هذا الموضوع، والمكاسب السياسية التي جنوها من وراء ذلك، وأن للمكر السياسي، والأطماع الدينوية أثراً كبيراً. بل هو أخطر عوامل إحياء العنصرية، وعصبية العرق في نفوس خرج بها الرسول عليه الصلاة والسلام من حال متفكك موبوء يعبد الحياة الدنيا إلى حال تفرض الوحدة والإيمان وتقدس المثل العليا. واتخذوا لتَحقِيق أغراضهم شتى الوسائل، واستأجروا الرواة والقصاصين ورشوا المؤرخين والنسابين، فابتدعوا أقاصيص، واخترعوا أنساباً، وزينوا لقوم أن يتنكروا لذويهم ولآخرين أن يتبرأوا من قومهم، إلى أن قوماً قد انحطوا من شامخ، وهووا من حالِق،

واكفهر لهم الزمان، وآخرين تسنى لهم الحظ، وابتسم لهم الدهر، وقد حملقت الفتنة بعينيها من أول يوم فارق فيه الرسول عليه الصلاة والسلام الدنيا، والتحق بالرفيق الأعلى، وقال المهاجرون الخلافة في قريش، وقال الأنصار منا أمير ومنكم أمير، وقال الأقربون ما قالوا، وتمرد من تمرد من قبائل العرب ونشبت حروب الردة، غير أن روح الإسلام وتعاليم الرسول كانت لا تزال حية ثَرَّة في نفوس الصحابة الأبرار، فتغلبت على نوازع الهوى، وقهرت جوامح الطمع، وألوتْ برؤوس الشر، ولكن الجذوة ظلت تتوثب تحت الرماد وتترقب الفرصة السانحة، حتى إذا مات الآباء وقام الأبناء، وتكاثر عدد الطلقاء وأبناء الطلقاء واستولوا على مقاليد الحكم، أثاروها وهيجوها، ولونوها بشتى الألوان، وصبغوها أحياناً بدم شهيد، وأحياناً بكرامة زعيم، وتارة بعنجهية نسب، وأخرى بقداسة دين وكان الأمر كما قال شوقي رحمه الله:

ثار عثمان لمروان مجاز ... ودم السبط أثار الأقربون
حسنوا للشام حرباً والحجاز ... فتغالى الكل فيما يطلبون
مكرُ سوَّاس على الدهماء جاز ... ورعاة بالرعايا يَلْعبون

وإلا فقد كان العرب قبل ذلك يعدون أنفسهم أمة واحدة، وكانوا يمجدون في عرب الجنوب جلال الملك والسلطان، ويعترفون لعرب الشمال بحماية البيت والزعامة الروحية وكانت «مكة» مثابةً وأمناً للناس جميعاً، وكعبة مقصودة لكل العرب في سائر أصقاع الجزيرة، ورغم ما كان يحدث بين القبائل من حروب، وتطاحن، وثارات وغارات، وتنافس وتفاخر، فلم يكن لهذه النزوة التي عرفت فيما بعد بالقحطانية والعدنانية أي ذكر أو سلطان على النفوس، بل كان مجرد رغبة في إظهار بطولة أو نزعة إلى إخماد ثار، أو تَوْقٍ إلى كسب مال مما يحدث عادة في المجتمعات الشبيهة بمجتمع العرب حينذاك، ولم يكن يحدث بين عرب الشمال وعرب الجنوب فحسب، بل بين عرب الجنوب أنفسهم كما حدث بين همدان ومراد وبين قبائل خولان وغيرهم، وأيامهم وحروبهم معروفة تزخر بها كتب التاريخ، بل

إن بعض المؤرخين والنسابين قد أعرضوا عن هذا التقسيم الذي ينسب عرب الشمال إلى عدنان وإسماعيل عليه السلام وعرب الجنوب إلى قحطان فإلى أب آخر وقال: «إن النسب الصحيح في قحطان الرجوع إلى إسماعيل أيضاً وأن قحطان بن الهميسع بن تيمن بن بنت قيدار بن إسماعيل عليه السلام (ص**٢٥** هامش طبقات فحول الشعراء) وقد استدل أصحاب هذا الرأي بقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وإنه لا يخرج من هذه الأبوة أحد من العرب، وبحديث ابن أبي حدرة الأسلمي قال: مرّ رسول الله ﷺ بناس من أسلم خزاعة وهم يتناضلون، فقال: «**ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً**» إلى آخر الحديث، وقد حاول الهمداني أن يفند هذا الرأي ويؤول الأحاديث والآيات في الجزء الأول من الإكليل، ولا يخفي تعصبه رحمه الله وشدة تمسكه بالعنصرية.

وللدكتور جواد علي كلام حسن في هذا الموضوع قال: «وظل الرواة يتوارثون هذا التقسيم كلما بحثوا في تاريخ العرب قبل الإسلام وفي موضوع الأنساب. ولا حاجة بنا إلى أن نعود فنقول إن كل ما روي عن هذا التقسيم، وما رواه الرواة من أخبار تلك الطبقات لم يرد إلينا عن طريق النصوص المدونة قبل الإسلام، وإنما ورد إلينا متواتراً من الكتب المدونة في الإسلام لذلك لا نستطيع أن نجرؤ فنقول إن هذا التقسيم هو تقسيم وضعه الجاهليون وتوارثوه كابراً عن كابر حتى وصل إلى صدر الإسلام، ثم منه وصل إلينا.

لا شك في أن عرب الجاهلية كانوا يعنون بالأنساب عناية كبيرة، لأنها كانت أحد أسباب الألفة والتنافر، ودعامة من دعامات النظام السياسي. وقد استدعى نظام القبائل وجوب العناية بالأنساب والأحساب، للمفاخرة والمنافرة والتحالف بين القبائل، والذب عن الأفراد والجماعات. والنسب هو الضامن والكفيل للحصول على حقوق المواطنة في المجتمع القبلي، الذي تقوم فيه القبلية وفروعها مقام القومية والجنسية الآن.

ولكن من يضمن لنا أن هذه الأنساب المروية هي أنساب قديمة جرى

عليها الجاهليون؟ وأنها رويت على الصورة التي تعارف عليها العرب منذ خلقهم الله! وكل البحوث الحديثة تسيء الظن في أكثر هذا الذي دونه الكلبي وابنه وبقية النسابين وتراه شيئاً محدثاً لم يكن له أساس قديم.

وفي القرآن الكريم آيات تشير إلى عناية القوم بأحسابهم وأنسابهم «فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم» ولكنه لم يتعرض لبيان وجهة نظرهم بالنسبة إليها، ولا يشعر في موضوع ما منه بوجود تلك الفكرة التي ألح على وجودها الإخباريون وهي انقسام العرب إلى طبقات ثلاث أو طبقتين، ووجود فرق بين العرب في النسب، وانقسامهم إلى عدنانيين وقحطانيين ولم يرد فيه اسم «عدنان» ولا قحطان ولا أي من هذه الأشياء التي يتمسك بها أهل الرواية والأخبار، ويقصونها لنا على أنها من الحقائق الثابتة في أنساب العرب، وعلى أن العرب كانوا حقاً من جدّين هما عدنان وقحطان.

بل كل ما ورد فيه يشعر أن العرب كانوا ينظرون إلى أنفسهم أنهم من جد أعلى واحد هو إسماعيل بن إبراهيم، وأن إبراهيم أبو العرب ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ. . .﴾ [الحج: ٧٨] فلم يفرق بين عرب قحطانيين وعرب يمانيين. وقيل إن الرسول قال: «**كل العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام**».

ولم يرد في الشعر الجاهلي ذكر لهذا النسب، وكل ما ورد فيه هو فخر بقحطان أو عدنان أو معد، أو غير ذلك من الأسماء التي تعد من أسماء الأجداد التي ينتمي لها «الشعب» أو «الجذم» أما التفصيلات الأخرى والأسماء الواردة في الكتب، فهي من روايات الشراح والرواة. ثم إن من الشعر الجاهلي ما لا يصح ان يكون جاهلياً وأغلبه من النوع الذي قيل قبيل الإسلام، ولا يصح لذلك أن يكون شاهداً على آراء أهل الجاهلية البعيدين عن الإسلام، وقد عنى المستشرقون بدراسة موضوع انقسام العرب إلى قحطانيين وعدنانيين، كما قام علماء بدراسة جماجم القبائل العربية الجنوبية، والقبائل العربية الشمالية، فلم يتوصلوا إلى وجود فرق في تركيب أجسام

العدنانيين أو القحطانيين، وكل ما تَوصَّلوا إليه هو أن القبائل سواء أكانت قحطانية أم عدنانية تحمل في دمائها نسباً من الدماء الغريبة بقدر اختلاطها وصلاتها بالأقوام، ويستوي في ذلك قبائل الطرفين.

وقد ذهب «دوزي» إلى وجود فروق أساسية بين القحطانيين والعدنانيين، حتى ذهب إلى وجود اختلاف بين نفسية كل جماعة من الجماعتين. ونحن لا نريد أن نُنْكر عليه تهجم شعراء اليمن على قبائل معد أو عدنان، ولا تهجم شعراء عدنان على قبائل اليمن المنتمية إلى قحطان، ولا نريد أن ننكر افتخار اليمانيين بانتسابهم إلى اليمن، ولا افتخار العدنانيين بانتسابهم إلى عدنان أو معد أو مضر أو غير ذلك من أسماء الشعوب والأجذام، لا نريد أن ننكر شعر امرىء القيس وافتخاره بنسبه إلى اليمن، ولا ننكر شعر غيره من اليمانيين أو القحطانيين في الافتخار بيمن أو بمضر أو بمعَد. ولكنا لا نريد أن ننكر في الوقت نفسه افتخار القبائل القحطانية بعضها على بعض وافتخار القبائل العدنانية بعضها على بعض، وهجاء القبائل العدنانية بعضها لبعض هجاءً لا يقل عن هجاء اليمن لمعَد أو هجاء مَعَد لليمن. فهل يصح أن يكون هذا الهجاء سبباً لوضع نظرية في اختلاف أجناس هذه القبائل؟ «انتهى ما ورد في الجزء الأول من تاريخ العرب قبل الإسلام».

وهذه الثروة الأدبية النفيسة الممتعة التي ظلت الأجيال تتوارثها قد ألحقت بالأمة العربية الأذى والشر وكان الغلوّ في التفاخر بالأنساب، والإغراق في التَّناحُرِ بالشعر والنثر، من أسباب وهنها وتشتُّتِ شملها، وضعف أمرها، وغير بعيد أن أصابع إلحاديّة قد ساهمت في إثارة هذا الشر كيداً للإسلام، وتمزيقاً لكيان أمة المؤمنين، ومحاربة للمثل العليا التي نزل بها الروح الأمين على سيدنا محمد ﷺ لينشىء أمة كريمة، يصح أن تخاطب بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويدين أفرادها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فأرادَ الكائدون للإسلام طمعاً في الملك، أو محاربة للشريعة المحمدية، ممن لم تطمئن قلوبهم بالإيمان ومن

المنافقين، والمشركين وعبدة الطاغوت محاربة الإسلام بإثارة النعرات العنصرية وعنجهية الأحساب، فكان ما كان مما لا نزال نقاسي بلاءه حتى اليوم، وقد كان منهم الحكام فاشتروا ضمائر الناس وألسنتهم وأهواءهم بالمال والجاه، وكان منهم الشعراء والرواة فأوغلوا بألسنتهم وأقاصيصهم في الأعراض والأنساب قدحاً وثلباً وزوراً وبهتاناً، وكل منا يعرف أن يزيد بن معاوية قد هيج الأخطل وهو نصراني الملة على هجاء الأنصاري فقال:

وإذا نَسَبْتَ ابن الفُرَيْعة خلته ... كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإله من اليهود عصابة ... بالجزع بين صليصل وصرار
قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عيونهم من المسطار
خلوا المكارم لستم من أهلها ... وخذوا مساحِيَكُمْ بني النجار
إن الفوارس يعلمون ظهوركم ... أولادَ كل مقبح أكَّار
ذهبت قريش بالمكارم والعُلى ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

وجاء حكيم بن عياش فأولع بهجاء مضر فدفع ذلك «الكميت» إلى أن قال مذهبته الطويلة: ألا حُيِّيْتَ عنا يا مَدَيْنا. وهي ثلاثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم.

فانفجر الشر وأفرخ وثار اليمانون ومن يتعصب لهم، وقال شعراؤهم شعراً كثيراً في الذود عن قبائلهم وهجاء قبائل مِعَدّ ونزار، وتزيّدوا في الأنساب، وابتدعوا الأقاصيص والوصايا ونسبوها إلى أسلافهم من الملوك والأقيال، وقد ناقض «دعبل» مذهبة الكميت بقصيدة طويلة أولها:

أفيقي من ملامك يا ظعينا ... كفاك اللوم مرّ الأربعينا

وجاء بعده الحسن بن زيد «أبو الذلفاء» فنقض قصيدة «دِعْبل» بقصيدة أولها:

أما تنفك مَتْبُولاً حزينا ... بحُبِ البِيض، تعصي العاذلينا

يهجو بها قبائل اليمن ويذكر مثالبهم وسماها الدامغة.

قال أبو الفرج في الأغاني، وهي إلى اليوم موجودة.

حتى أبو نواس شاعر الرشيد والكأس زعم أنه من نسل الملوك وتعصب لقحطان وذكر مثالب النزارية، ومن ذلك قوله:

فنحنُ أرباب «ناعطٍ» ولنا ... «صنعاء» والمسك في محاربها
ودان أذواؤنا البرية من ... معترها رغبةً وراهِبها
وكان منا الضحّاك يعْبُدُه ... الحابل والوحش في مَساربها
ونحن إذ فارس تدافع بهرام قسطنا على مرازبها
حتى جمعنا إليه مملكة ... يجتمع الطرف في مواكبها
وفاظ قابوس في سلاسلنا ... سنين سبعاً وَفت لحاسبها
فافخر بقحطان غير مكتئب ... فحاتم الجود من مناقبها
إذ لاذ «بِرْوِيز» عند ذاك بنا ... والحرب تمري بكف حالبها
يذل عنه بنو قبيضة بالخطى ... والشهب من قواضبها
ولا ترى فارساً كفارسها ... إذ زالت الهام عن مناكبها
عمرو، وقيس، والأشْتران، وزيد الخيل، أسد لدى ملاعبها
واهج نزاراً وأفْرِ جلدتها ... وهتّك الستر عن مثالبها
وأحِبْ «قريشاً» لحب أحمدها ... واشكر لها الجزل من مواهبها
إن قريشاً إذا هي انتسبت ... كان لنا الشطر من مناسبها
أما تميمٌ فَغير راحِضَةٍ ... ما شلشل العبد في شواربها
أول مجد لها وآخره ... إن ذكر المجد ـ قوس حاجبها
و «قيس عيلان» لا أريد لها ... من المخازي سوى محاربها
وأنّ أكل الأيور موبقها ... ومطلق من لسان لاعبها
وما لبكر بن وائل عصم ... ألا بِحَمْقَائِها وكاذبها
ولم تَعِف كلبها بنو أسد ... عبيد عيرانة وراكبها
«وتغلب» تندب الطلول ولم ... تثأر قتيلاً على ذنائبها

نيكت بأدنى المهور أختهم قسراً ولم يدم أنف خاطبها
وأصبحت «قاسط» وإخوتها تدّخر الفَسْوَ في حقائبها

وجل شعراء القرون الأولى للهجرة قد شاركوا في تلك المعارك الكلامية مما دفع الأدباء إلى التزيّدِ في الأنساب والمفاخر، ووضع المثالب والمناقب، وقد حكى «ابن النجار» عن «أبي عبدالله» قال: قال ابن عبده النساب ما عرف النساب أنساب العوب على حقيقته حتى قال الكميت النزاريات فأظهر بها علماً كثيراً.

والكميت توفي سنة **١٢١هـ (٧٢٩م)** وقد أراد معارضوه ومن ناقضوا نَزَاريَّاتِه بقحطانياتهم وفي مقدمتهم «دعبل» بن علي الخزاعي وابن أبي عيينة وغيرهم أن يأتوا بما يبزونه، وينوفون به عليه، فأظهروا أيضاً علماً جماً حتى جاء الهمداني فعنى بأنساب القبائل اليمنية وألف فيها كتابه «الإكليل» وسجل لها من الفضائل والسؤدد ما لم يتسن لغيرها، وتوسع في ذلك ما شاء له علمه، وافتن ما شاء له هواه، وتحيّز ما شاء له تعصبُه.

وقال شعراً كثيراً في مناقب قحطان، وناقض مذهَّبَة الكميت بقصيدةٍ طويلة سماها أيضاً «الدامغة» وأولها:

ألا يا دار لولا تنطِقينا فإنّا سألون ومخبرونا

وبين أيدينا منها نحو خمسمائة وستين بيتاً، وقد فسرت أبياتها ومعانيها بكتاب كبير قيل إنه للهمداني وقيل إنه لابنه أو لأحد تلاميذه، وفيه أدب جم وعلم كثير، وقد جاء في المقدمة مُجِيباً على من سأله تأليف ذلك الكتاب: «وقد سألت في ذلك أعظم الشطط، وعرضت فيه لما يركب الغلط مع ما يُذْكِي من الحمية، ويحيى من العصبية، وينتج من العداوة، ويفرّق من الكلمة، لأن كل مُدَّع على خصمه بحق ليس بناهِكٍ له إلا بإقامة البينة العادلة، فإن أقامها أَغْنَتْهُ، وإن أغفلها أفْلتَهْ، وعند إقامتنا على خصمنا الشاهد من نفسه يقع التجاوز للعصبية إلى ما هو أسوأ منها وقد قال الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا

﴿وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣] فنعوذ بالله مما خالف أمره مع ما يجر التكلُّف من الخطأ والغيّ، وقد قال قيس بن الخطيم:

وإني لأغنى الناس عن متكلف　　　يرى الناس ضلالاً وليس بمهتدى

مع أن «أبَا مُحمَّد» في قصيدته قد تجاوز إلى السوء والشتم فقال معرضاً بالكميت:

وإن تنبح كلاب بني نزار　　　فإنَّا للنوابح مجحرونا
ونلقمها إذا أشحَتْ شجاها　　　ليَغْدِمْنَ الهرير إذا شجينا

وزَعَم أن الكميت ما قال قصيدته المذهَّبة، ولا نَزارياته، إلا بعد أن توفي صديقه الشاعر الطرَّماح بن حكيم الخارجي المذهب، القحطاني النزعة القائل في بني أسد:

لو كان يخفى على الرحمٰن خافية　　　من خلقه خَفِيَتْ عنه بنو أسد

وفي بني تميم:

لو حل ورد تميم ثم قيل لها　　　حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
وأنزل الله وحياً أن يعذبها　　　إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد

فقال أبو محمد إشارة إلى ذلك:

وكلفتم «كميتكم» هجاءً　　　ليعرب بالقصائد معتدينا
فباح بما تَمنَّى إذا توارى　　　«طرماحٌ» بملحدة دفينا
وكان يعز وهو أخو حياة　　　عليه الذم لِلمتقحطنينا

وقد أشاد المؤرخون بما كان بين الكميت بن زيد والطرمَّاح بن حكيم من مودّة وإخاء؛ رغم اختلافهما في المذهب والهوى، فقال ابن قتيبة: «وكانت بينه وبين الطرماح خلطة ومودة وصفاء لم يكن بين اثنين قال:

فحدثني بعض أصحابه عن «محمد بن سهيل» راوية الكميت قال: أنشدت الكميت قول الطرماح:

إذا قبضت نفس «الطرماح» أخلقت عرا المجد، واسترخى عنان القصائد

قال: إي والله وعنان الخطابة والرواية قال: وهذه الأحوال بينهما على تفاوت المذاهب والعصبية والديانة: كان الكميت شيعياً عصبياً، عدنانياً، من شعراء مضر متعصباً لأهل الكوفة، والطرماح خارجي صفري قحطاني عصبي لقحطان من شعراء اليمن متعصب لأهل الشام، فقيل لهما: فيم اتفقتما هذا الاتفاق مع اختلاف سائر الأهواء؟ قالا: اتفقنا على بغض العامة.

وإذن فقد كان يعرف كل واحد منهما رأي الآخر ومذهبه وعصبيته، وتصادقا على هذه المعرفة، ودعوى الهمداني أن «الكميت» ما هجا قحطان ولا تعصب لعدنان إلا بعد وفاة الطرماح يعوزها البرهان، وقد كان الناس يكبرون الكميت ويجلونه حتى قال ابن مهرويه: سمعت أبي يقول: لم يزل دعبل عندنا جليل القدر وعند الناس حتى ردّ على الكميت بن زيد «ألا حييت عنا يا مدينا».

فكان ذلك مما وضعه. وقال فيه أبو سعد المخزومي:

وأعجب ما سمعنا أو رأينا هجاء قاله حَيٌّ لِمَيْتِ
وهذا «دعبل» كَلِفٌ معنّى بتسطير الأهاجي في الكميْتِ
وما يهجو «الكميتَ» وقد طواه الردى إلا ابن زانيةٍ بزيْتِ

وكأن «الهمداني» لم يطب نفساً، ولا قرت عينه، بنقائض «الدعبل» و «حكيم ابن عياش» وسائر شعراء اليمانية الذين ردوا على الكميت واتهمهم بالقصور إذ قال:

وسوف نجيبه بسوى جواب أجاب به بن «زر» موجزينا
وغير جواب «أعور كلب» أنَّا من المجد المؤثل موسعونا
فقد قَصُرَا ولمَّا يبلغا ما أرَادَا من جواب الفاضلينا

وكـثـرا حـشـومـاً ذكـراً ولـمـا يـصـيـبـا مَـقـتْـلا لـلآفـكـيـنـا
وخـيـر الـقـول أصـدقـه كـمـا أن شـر الـقـول كـذب الـكـاذبـيـنـا

وما عـطـب الـفـتى بـالـصدق يـومـاً ولا فـات بـالـكـذب هـونـا
فـلا يـعـجـبـكـم قـول ابـن زيـد فـمـا هـو قـائـد لـلـشـاعـريـنـا
ولا وسـطـاً يـعـد ولا إلـيـه ولـكـن كـان بـعـض الأرْذلـيـنـا

وما غادر الهمداني فضيلةَ سابقةٍ، ولا شرفَ أقدميّةٍ، إلا ألحقها بقومه. وأصَّلها في قحطان.

ألـسـنـا الـسـابـقـيـن بـكـل فـخـر ونـحـن الأولـون الأقـدمـونـا
ونـحـن الـعـاربـون، فـلا تـعـامـوا وأنـتـم بـعـدنـا الـمـسـتـعـربـونـا
تـكـلـمـتـم بـألـسـنـنـا فـصـرتـم بـفـضـل الـقـوم مـنّـا مـفْـصِـحـيـنـا
ملكـنـا ـ قـبـل خـلـقـكـمُ ـ الـبـرايـا وكـنـا فـوقـهـم مـتـأمـرّيـنـا
فـلـمـا أن خُـلِـقْـتـم لـم تـكـونـوا لـنـا فـي أمـرنـا؛ بـمـخـالـفـيـنـا
وكـنـتـم فـي الـذي دخـل الـبـرايـا بـطـوعٍ أو بُـكُـرْهٍ داخـلـيـنـا
ومـا زلـتـم لـنـا فـي كـل عـصـر مـلـكـنـا أو مـلـكـتـم تـابـعـيـنـا
أعـنّـاكـم بـدولـتـكـم، ولـمّـا نُـرِدْ مـنـكُـم بـدولـتـكـم مـعـيـنـا

وهكذا يذهب في حصر كل الفضائل وقصرها على قومه، ويذكر كثيراً أسماء الملوك وحوادث التاريخ والمخترعات إلى أن يقول:

ولـولا نـحـن لـم يَـعْـرِفْ جـمـيـلاً ولا قـبـحـاً جـمـيـعُ الـفـاعـلـيـنـا

ثم لا يكتفي بذلك بل يتعرض لذكر بعض المثالب المنسوبة إلى قبائل أو أفراد من «نزار» ونحن نعلم أنه ما من قبيلة من قبائل العرب إلا وقد ألصق بها الكثير من العيوب والمثالب، وكان ذلك من وضع الشعوبيين واليهود والأدعياء، ثم دُسَّتْ على التاريخ وتناقلها المتأدبون، وقد أشار إلى ذلك «أبو الفرج» في الأغاني فقال:

«إن أصل المثالب زياد لعنه الله، فإنه لما ادعى إلى أبي سفيان، وعَلِمَ أن العرب لا تقر له بذلك مع علمها بنسبه، ومع سوء آثاره فيهم، عمل كتاب المثالب فألصق بالعرب كلها كل عيب وعار، وحق وباطل، ثم بنى على ذلك الهيثم ابن عدي، وكان دَعِيًّا، فأراد أن يعرَّ أَهْلَ البيوتات تشفياً منهم، وفعل ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى، وكان أصله يهودياً، أسلم جده على يدي بعض آل أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -، فانتمى إلى ولاء بني تَيْم، فجدّد كتاب زياد وزاد فيه، ثم نشأ غيلان الشعوبي لعنه الله وكان زنديقاً ثنوياً لا يُشك فيه، عُرف في حياته بعض مذهبه، وكان يُورّى عنه في عوراته للإسلام بالتشعب والعصبية، ثم انكشف أمره بعد وفاته.. فأبدع كتاباً عمله لطاهر بن الحسين وكان شديد التشعب والعصبية، خارجاً على الإسلام بأفاعيله، فبدأ فيه بمثالب بني هاشم وذكر مناكحهم وأمهاتهم وَرَضائعهم، وبدأ منهم بالطيب الطاهر رسول الله ﷺ، فغمصه وذكره، ثم والى بين أهل بيته الأذكياء النجباء عليهم السلام، ثم ببطون قريش على الولاء، ثم بسائر العرب، فألصق بهم كل كذب وزور ووضع عليهم كل خبر باطل.

وقد كان الكثير ممن ناقضوا قصيدة «الكميت» يتحرجون أن يتعرضوا لقريش لصلة رسول الله ﷺ وقرابتها منه حتى رووا أن أحد الأدباء قرأ على «دعبل» قصيدته التي ناقض بها «الكميت» فلما انتهى إلى قوله:

مــن أيِّ ثـنـيّـةٍ طـلـعـت قـريـش وكـانـوا مـعـشـراً مـتـنـبـطـيـنـا

قال دعبل: معاذ الله أن يكون هذا البيت لي، ثم قال: - «لعنهُ الله وانتقم منه»، يعني أبا سعد المخزومي، دسه والله في هذا الشعر، وضرب بيده إلى سكين كانت معه فجرد البيت بحدها.

ولعل هذا التحرج كان من أسباب تحامل «الهمداني» على دعبل و «ابن عياش» وأنهما قصرا ولم يبلغا ما أرادا، وقد كان الهمداني شديد العصبية ذرب اللسان تذهب به شطحات القلم مذاهب الجاحدين في كثير من الأحيان، وجاء من بعده نشوان الحميري المتوفى سنة ٥٨٠هـ - ١١٨٥م

فنَشَبَتْ بينه وبين شعراء زمنه من الأشراف بني القاسم معارك بيانية، ومناقضات شعرية، وقد قال عنه «الزحيف في اللواحق الندية»: «كان من علماء الزيدية ولم يكن يقدح عليه إلا بكثرة افتخاره بقحطان على عدنان، وله في ذلك هو والأشراف بنو القاسم نقائض كثيرة..

وأهم تلك النقائض ما قاله رداً على الأمير الشاعر عبدالله بن القاسم صاحب القصيدة الدالية في نشوان وأولها:

«أما الصحيح فإن أصلك فاسد»، والتي هدده في بعض أبياتها

فأجاب عليه نشوان بقصيدة طويلة منها البيت المشهور:

إن كان موتي من حُسَامكَ إنني لقرير عَيْنٍ بالبقاء مخلد

والتي يقول فيها:

مهلاً قريش ولا أب لأبيكم - مهلاً فهل منكم إلهٌ يعبد
منكم نبيٌّ قد مضَى لسَبِيْلِهِ أظننتم أنَّ النبوةَ سرمد

وقصيدته «الرائية» التي يقول فيها:

لولا صوارم «يعرب» ورماحها لم تسمع الآذان صوت مكبر
فأفخر بقحطان على كل الورى فالناس من صدفٍ وهم من جوهر

ومما يُنسب إليه أيضاً:

آل النبي همو أتباع ملته من الأعاجم والسودان والعرب
لو لم يكن آله إلا قرابته صلى المصلي على الطَّاغي أبي لهب

وقد ذكر الزحيف وصاحب مطلع البدور في ترجمته أنه تصالح مع القوم في أخريات أيَّامه، وندم على ما كان منه وأورد له الزحيف رسالة يقول فِيها:

«انقضت النقائض بيني وبين الشرفاء القاسميين، وذلك قبل طرور

الشارب، وبلوغ المآرب، وأما اليوم فقد زدت على الأشد، وصرت من الهزل إلى الجد، وأنا في نُذر الشيب، وزايلني كل ريب، وتحلَّيت بحلية الوقار، ونظرت نفسي بعين الاحتقار، ورغبت من القريض، وملاهي معبد والغريض، إلى آخر ما قاله من إعلان رجوعه عما صدر عنه واستغفاره من زلل اللسان والقلم وما للأشراف من فضل لا يُجحد، كما أن الأشراف أنفسهم قد طلبوا ودّه واعترفوا بفضله واعتذر إليه الأمير محمد بن محمد القاسمي من الهجو الذي سبق من الأمير عبدالله بن القاسم فناقض نشوان قصيدته الأولى بأخرى من وزنها ورويِّها أولها:

أعلى الكآبةِ منكما لي مسعد ... فالخل يأسى للخليل ويكمد؟
إن طاب عيشكما وطاب كراكما ... فأخوكما مرّ المعاش مسهد
في قلبه من عتب ابنا قاسم ... حرقٌ تأجَّجُ، نارها تتوقد
وعلى محبتهم نشأتُ، ووالدي ... والحب يولد، والمحبة تولد
حتى سَعَتْ بيني الوشاة وبينهم ... فأمال عبدالله عني الحُسَّد
وأطاع أمرهم وصدق قولهم ... فأتى بقافية تقيم وتقعد
فيها مقال منهُ ليس بجيد ... ما بال عبدالله؟ وهو الجيد
فرددت حين بُهِتُّ غير مبالغ ... في الرد خوفاً من مقال ينقد
وغدوتُ مظلوماً كأني ظالم ... إني على ما نابني متجلد

إلى أن يقول:

وذكرت آل محمد، ووادادهم ... فرض علينا في الكتاب مؤكد
وذكرت زيداً وَالحُسين، ومولداً ... لهم زكي الأصل، نعم المولد
بأبي وأمي من ذكرت، ومن به ... يُهدي الجهول، ويرشد المسترشد
لا أستَعيض بدين زيد غيره ... ليس النحاسُ به يُقَاسُ العسجد

الدَّوامغ

وفي كل فترة من فترات تاريخ اليمن كانت تنجم فتنة «الدوامغ» فيتعصَّب قوم لقحطان، ويناقضهم آخرون أو العكس يكون؛ غير أن جل ما ورد بعد القرن السادس الهجري قد نهج نهجاً مذهبياً، واصطبغ بالصبغة الدينية، فمُسلم بن العليف قال قصيدة على قافية النون سماها «الدامغة» طعن فيها على قحطان وافتخر بعدنان أولها:

ما عبت مذ كنت للأحباب مظنونا ولا بثثت من الأسرار مكنونا

وأبياتها اثنان وستون، فاخر فيها بالأنبياء والمرسلين وآيات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وجعلهم من مفاخر عدنان، وهي من الشعر الركيك الضعيف لفظاً ومعنى وأسلوباً فمنها مثلاً:

وإنما الصبر منا كان شيمتنا جرّا علينا السَّفاهين السفالينا
فلو عَرَجْنَا إلى الآفاق سيق لنا داني الأبوة وإلا مات يوذينا

ومنها:

وإنما أغضبتني سبة ظهرت من بعض أصحابنا في الفاطميّينا
ولم يكن ردنا من أن نسبهم إلا محاذرة من أن يسبونا
أما وقد كان ما قالوا فلا حرج على السلاطين أن تخزي الشياطينا

والعجيب أنه رُوِيَ، أن العليف هذا قد دفع قصيدته إلى عبد له وقال

له، إن أتيت لي بما يناقضها فأنت حر، فذهب العبد يبحث حتى نزل على علي بن سليمان الأسلمي، داراً، الزيدي مذهباً، وكان شاعراً عالماً وحين اطلع على دامغة العليف عارضها بقصيدة أولها:

فخارنا بسيوف الهند يكفينا عن فخركم آل عدنان ويغنينا

وهي نحو ١٢٥ بيتاً وأسماها «دامغة الدامغة»، ونفسها أعلى، وأسلوبها أقوى، ولغتها أمتن، وحجتها أنصع بياناً ومنها:

وكيف نصمت والأقوال تطرقنا من قائليكم أفانينا فتؤذينا
وَوَالمُهَيْمن لولا أصل نسبتنا لعد قائلكم في الأعجميّينا
فلا ملامة إن قلنا لقائلكم رضّ المهيمين فاهُ حين يهجونا

وفيها مناقشة دينية وتأريخية ومنطقية ومنها:

ليس النبيين منكم، إنكم بشر حاربْتُم الله حقاً والنبيينا
لم تعرفوا الدين إلا بعدما فتكت بكم صوارم قحطان الميامينا
فعند ذلك أسلمتم على وضر خوف المنية، لمَّا تسلموا دينا

وقد كان «الأسلمي» من علماء الشيعة فظهر أثر نزعته المذهبية في قوله:

فحين مات رسول الله سيدنا أظهرتم كلما قد كان تخفونا
وبالبتولِ وسبطيها ووالدهم مكرتُم، وبكل الفاطميينا
منعتموهم وُرُودَ الماء، ولوْ وَردَوا ما ضر ذلك سيحوناً وجيجونا
صلبتموهم وأحرقتم جسومهمُ وصرتم لها طراً معادينا

إلى أن يقول بعد أن عدد مساوىء زياد، ويزيد وهشام:

وكان أصل افتراق الناس كلهم في الدين من أجلكم لو كان تدورنا
أتى «ابن عفان» أحداثاً جلبن له حتفاً، فأصبح تحت التُرْبِ مدفونا

وكان ذلك فيما بينكم، ولكم ونحن من ذلك المعنى بريئونا
لما اختلفتم تركنا الأمر عندكم تقوى وصرنا من الآثام ناجينا
لولا العفاف وتقوى الله نهنهنا عنكم فعلنا بكم في الأمر ماشينا

ثم عرَّج على ذكر الجمل وصفين وذكر طلحة والزبير ومناصرة «همدان» لأمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ وافتخر بالملوك الأوائل من آبائه فقال:

أنا ابن «قحطان» من كنتم له خدماً وللخراج له حقاً مُؤَدِّينا
كنا ملوكاً، وكنتم يا بني مضر للشاء والمعزفي في الآفاق راعينا

وَعَاد فخاطب «العليف» بقوله:

أطْنَبْتَ في شعرك النُّوني مفتخراً كأننا في القوافي لم نقل نونا
عرضت أبكار شعرٍ للْفحول، فقد ردوا بكور قوافي شعركم عوْنا
نصبت شعرك تبغي أن تصيد به فلم تصد سمكاً منا ولا «نُونا»
لقد ظفرتَ بِصل ما لِلسْعَتِه راقٍ يزيدك بعد الوهن تهوينا
ذكرت في الشعر من جهل معاويةً وأي فخر له بالله نَبوِّنا
نسل اللعين، وطاغوت الضلال أما قَتْلُ ابن ياسر ينبيكم وينبينا
وما أُمية لا كانت ولا ذكرت إلا شياطين قد أبقت شياطينا

وذهب متأثراً بتشيعه وحبه لآل الرسول يعدد شهداءهم بالكناسة والجوزجان، وباخمراً معلناً ولاءه الخالص لهم بقوله:

أما بنو هاشم طُرا، فنحن لهم ذاك العبيد وهم حقاً موالينا

وجاء السيد العالم الجليل الهادي بن إبراهيم الوزير المتوفي سنة ٨٥٤هـ (١٤٥١م) فناقض «الأسلمي» بقصيدة عدد أبياتها مائة وسبعون بيتاً أولها:

فخارنا برسول الله يكفينا عن كل فخر، وأن الأنبياء فينا

وسماها: «دامغة دامغة الدامغة» وهي من النَّظم العلمي الذي لا يرقى إلى نفس «الأسلمي» وإن كانت حججها الدينية لها قيمتها. والدوامغ الثلاث مجموعة في مخطوط يمني بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٠٩ ـ أدب.

واعتزاز القبيلة، أو الجذم، أو الأسرة بنسبها، وتعاليها وتطاولها به على غيرها، يتغير بتغيير الأحوال والظروف التي تكتنف المجتمع من عزة ورخاء وشدة وشقاء، وتطور تقاليده بتطور مفاهيم الحياة دينياً وعقلياً واجتماعياً، وقد يصبح العزيز ذليلاً بحادثة مِن حوادث الدهر، ويصبح الوضيع شريفاً.. والتاريخ الإنساني مليء بالعبر والعظات، ولذلك وضع القرآن الكريم حدّاً إنسانياً جامعاً مانعاً لمفهوم الكرامة وأعلنه جلياً صريحاً لا يحتمل تأويلاً فقال ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. ولم يقل الأشرف نسباً ولا الأكثر مالاً، ولا الأسمى جاهاً ومنصباً، وثبَّتَ بذلك مفهوماً إنسانياً خالداً لا يتحول ولا يتبدل مهما تحولت الأحوال وتبدلت الظروف، وتطورت مفاهيم المجتمع وتقاليده؟.

وكثيراً ما قرأنا في تاريخ العرب الأدبي، عن إغراق قبيلة من القبائل أو جذم من الأجذام العربية في اعتزازهم بقبيلتهم، وتعصبهم لعرقهم، حتى أنهم يأنفون من الإصهار إلى من ليس منهم، ولا ينتمي إليهم، ولا يرتضون لكريمتهم إلا أحد قومهم، أو من يسامقهم محتداً وعرقاً.

كخبر مالك بن العجلان الخزرجي مع القَيْطَون وإبائه أن يزوّجه ابنته وقوله: «إنا قوم عرب لا نزوج من ليس منا ولك في قريش متسع»، ثم لما لم يجد من الأمر مناصاً احتال فقتل القيطون ليلة زفاف ابنته إليه.

وذكروا أن رجلاً من غسان جنى على بعض بني عمه ثم هرب وحالف زرارة بن عدس التميمي فخطب زرارة ابنة الغساني على بعض بنيه، فكره الشيخ الغساني ذلك ودافعه، فلما مات زرارة أقبل على أهله فقال إن حليم القوم قد هلك وهؤلاء شباب ولست آمن أن يحملوني على ما أكره

من إنكاحهم، ثم احتمل في أول الليل بأهله فما عرس حتى خرج من دار تميم وقال:

رغبت بها عن حاجب وابن أمه لقيط وعن تلك الرجال الركائك
ولو كنت في غسان أبرزت وجهها وأنكحتها بعض الرجال الصعالك

وقد أشار إلى ذلك الهمداني في (دامغته) بقوله:

وقد طلبت تميم مِهْرَ جار لهم منها فأضحوا مبعدينا
وما كانوا لغسان بكفو لربات الحجال مقدمينا

وسمع جرير امرأة من كندة تساب امرأة من بني كليب وهي تقول:

لئن عدلتِ غالباً بأوس والخطفا بالأشعث بن قيس
ما ذاك بالعدل ولا بالكيس

فطلب إليها جرير حتى كفت، ولما خطب معاوية ابنة عبادة بن الصامت الأنصاري على ابنه يزيد رد إليه عبادة كتاب عذر في أسفله:

ولو أن نفسي طاوعتني لأصبحت لها حفد مما يعد كبير
ولكنها نفس على كريمة عيوف لأصهار اللئام قذور(١)

وكان مهلهل بن ربيعة أخو كليب بعد حرب البسوس تنقل في القبائل حتى جاور قوماً من مذحج يقال لهم بنو جنب فخطبوا إليه أمية أخته، فامتنع فأكرهوه حتى زوجهم وكان صداقها أدما فقال:

أصبحت لا منصباً أفدت ولا أَبِتْ سليماً خُلْواً من الندم

---

(١) ورقة ١٣١ شرح الدامغة، وفي كتاب الفاضل أن الطلب كان من النعمان بن بشير وزاد في الأبيات:
لنا من بني العنقاء وابن مُحَرِّق عقائل لم تدنس لهن حجور
ومن آل عمران بن عمرو بن عامر مناكح قد ترضى بها وصهور

أنكحها فقدها الأراقم في | جنبٍ وكان الحِبَاءُ من أدم
لو بابانين جاء يخطبها | ضُرّج ما أنف خاطب بدم
عزَّ علي تغلب الذي لقيت | أخت بني المالكين من جشم
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا | يغنونَ من فَاقة ولا عدم

وقد أشار إلى ذلك الهمداني بقوله:

ونحن الناكحون إلى عَدِيٍّ | كرايمه ونعم المنكحونا
فأمهرنا الذي جعلوه فيهم | رضى لجميعهم مسكا دهينا

وأشار إليه أيضاً أبو نواس في قصيدته بقوله:

نيكت بأدنى المهور أختهم | قسراً، ولم يدم أنف خاطبها

وفي الجزء العاشر في الإكليل «أن الفنيق سيد بني ربيعة بن مالك بن حرب بن عبدودِ، بن وادعة، قصد بابن أخ له في جماعة كثيرة منْ بني ربيعة إلى محمد بن عبدالرحمٰن «آل أبي الدِنيا» وهو نازل «بَيَناعَة» فضافوه ليلا فلما قام بضيافتهم سأله الفنيق أن يزوج ابن أخيه بابنته فدافعه، فلم يندفع هو ولا من معه وحايروه ولم يكن عنده جماعة يحتمي بها من جماعتهم فزوّج. فلما عقد النكاح قالوا: ائته بها الساعة، فتلوَّحَ من ذلك وعَرفهم أنه لا يمكن فلم يقبلوا له عُذراً فناشدهم فلم ينشدوه، فقال: فإني أفعل فلتبعد الجماعة من المنزل ويدخل معي العروس فأخليه بأهله، فأبعدوه، وأخذ بيده فأدخله، ثم اتكأ على حلقة فذبحه وقطع ذكره فجعله في فيهِ، وثقب المنزل من دبره وخرج بحرمته تحت الليل فلحق «بضياف» فمنعوه وقال بعض أهل ضياف فيه:

منعنا ابن ذي المشعار فالنجم دونه | فمن رامه فليلمس النجم باليد
فقل لرجال أوعدوه تزاجروا | فللنجم أدنى مَلْمَساً من محمد

وقال الهمداني عند كلامه عن (المعيديين)، وهذا البيت من المعيديين

لا يرون لهم كفؤاً من حاشد، وقد طمع محمد بن يحيى بن الحسين بالصهر إليهم فأعجزه ذلك.

والشواهد من هذا القبيل كثيرة، ولا تزال مؤثرات التعصب للعرق والنسب واعتبار الكفاءة بهما تتحكم في تقاليد وعادات بعض القبائل العربية في الشمال والجنوب حتى اليوم.

وَرُبَّمَا أني قد أسهبت وطوَّلت، واستطردت فذكرت ما كان أجدر بي أن أُرجئه إلى مكان هو به أليق. ولكن مجال البحث لا تكاد حدوده تبين، والأدب اليمني وتشعب سبله، وتعدد فنونه وآفاقه، يقذف بالباحث أحياناً في بحر خضم يتيه فيه الفكر، ويحار العليم.

مُوجَز تاريخي

من تكرار القول إذا أكّدنا أن هذه الأبحاث ليسَتْ سوى علامات في طريق الباحثين والمؤرّخين؛ ترشدهم إلى مواطن الكنوز الفنّية في تاريخ أدب اليمن... ولأن الكثير من قرّاء العربيّة لا يعرفون شيئاً عن «اليمن» وحكوماتها ودولها، وآدابها؛ ولأن الحوادث دائماً هي الإطار الذي يُبْرز الصُور الأدبيّة ويُقرّها في الأذهان؛ ولأنّنا لا نستطيع أن نذكر كلَّ ما نعلمه أو اطلعنا عليه من آدابنا.. فنوفيه حقَّهُ بحثاً وتحقيقاً ونقداً.. فقد رأينا من المفيد أنْ نُجْمِلَ في سطور مُوجزَة تاريخ اليمن في فتراته الأدبيّة المجهولة، حَسَب كبرى الحوادث، ونذكر البعض من شعرائها وعلمائها وأدبائها متعمّدين الإكثار من ذكر المشاهير الذين عاشوا تحت كَنَفِ الدول التي حكمت اليمن أو بعض أجزائها من غير الأئمّة «العلويين»، وذلك لأنّ المؤرّخين من أبناء الطائفة «الزيدية» قد بذلوا عناية فائقة في التراجم لأدبائهم وشعرائهم، وألّفوا فيها الكتب المشهورة مثل «طبقات الزيدية» و «نسمة السَّحَر» و «طيب السَّمَرْ» و «مطالع البدور» و «سِيَر الأئمة» وغيرها.

وفي الإمكان أن نقسم تاريخ اليمن الأدبي إلى عشر فترات:

١ ـ فترة الجاهلية:

فترة المجد العتيد، والخرافات والأساطير، والتبابعة والأقيال، حين كانت اليمن رمز القوّة والسلطان، ومسرح السياسة والتجارة، وفيها سدّ مأرب والجنّتَان، و «غيمان» و «قصر غمدان». فترة أشرقَتْ مع التاريخ

المعروف للبشر، وغرَبَتْ في ليل الغزو «الحبشي» الرهيب.

وقد سَبَق أن تحدثنا عن الحضارة اليمنية قبل الإسلام وعن آدابها وآثارها. وأقاصِيْصُها جمَّة، وشعراؤها كثيرون، ومنهم: عمرو بن براقة، مالك بن حريم، عمرو بن يزيد العوفي، عمرو بن زيد المغْرِق، امرؤ القيس، القمقام ابن العُباهل، مالك بن كعب، أبو رُهْم، حارثة بن سُراقة، ابن قرط البلوى، قيس بن سِيّار، عمرو بن رباءة، سيف بن عمرو الوهبي، مالك بن ملالة، علقمة بن مالك، الأسفح بن الأوبر، مالك بن عمرو الزبيدي، يزيد بن ثمامة وغيرهم من المشهورين المذكورين في المعاجم ومؤلفات الهمداني.

٢ ـ صدر الإسلام:

فترة الاحتضار والمحاولة ثم التلاشي، فلا تبابعة ولا سدود، ولا قصور ولا عروش، يطأ الأحباشُ تربتها الطيّبة بمناسم الذل؛ فتستنجد «بفارس»، وتَعِزُّ «بسَيْف» ثم تدخل في دين الله أفواجاً، وتعوذ «بمعاذ»، ثم تمرق عنه زرافات ووحدانا، وتلتفّ حول «الأسود العنسي» ثم ما تكاد تعلو راية الإسلام من جديد حتى يهوي بها «بِسْرُ بن أرطاة» ويمرّغمها بدماء الشهداء...

وتبتدىء هذه الفترة نحو سنة «٦٠٠م» أي سنة **٢٣** قبل بعثة الرسول بعد أن تهدّم سد مأرب للمرة الأخيرة، وتفرقت قبائل اليمن، وحكمها ولاةُ الفرس وأقيال المخاليف وتنتهي سنة **١٣٢هـ ـ ٧٥٠م**.

وقد سبق أن أشرنا إلى التيّارات التي كانت تكتنف اليمن إبّان ظهور الإسلام، وقد حكمها، بعد استجابتها للإسلام، عُمّال من قبل الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وبني أميّة، ونشبَتْ فيها فتنٌ وقلاقل، ألمحنا إليها في أحاديث مَضَتْ ومن مشاهير هذه الفترة:

عمرو بن معد يكرب الزُبيدي، قيس بن المكشوح المرادي، الأشتر النخعي، عمرو بن يزيد السَّعدي، عمرو بن زيد الغالبي، فروة بن مسك، خُنافر بن التوأم، وهب بن منبّه، الحارث بن سمي الهمداني، أعشى

همدان، وضّاح اليمن، ونوّاحة اليمن عَلقمة بن ذي جَدن وغيرهم.

٣ ـ من سنة ١٣٢هـ إلى ٢٠٤هـ (٧٥٠ ـ ٨٢٠م):

عهدُ فتن وثورات، وهجرة وشتات، وأئمة وأعلام، وشعراء وفرسان. وتبتدىء هذه الفترة بتلاشي الحكم الأموي حين ثار أبو حمزة الشَّاري، واستولى على «صنعاء» واحتل «الحجاز» وتنتهي بحروب إبراهيم بن موسى «الجزار» مع ولاة العباسيين مظهراً الدعوةَ للإمام محمد بن إبراهيم، وكانت اليمن ـ خلالها ـ شبه خاضعة لحكومة بغداد وعُمّالِها وسُعَاتِها، وَمُنْطَوِية إدارياً تحت لواء «صنعاء».

وحين ثارت قبائل تهامة سنة **٢٠٣هـ (٨١٩م)** على عمال العباسيين جرّد «المأمون» عليهم حملة تحت قيادة محمد بن زياد، فأخضع القبائل الثائرة، وامتدت سلطته إلى الجبال وحضرموت واختطَّ مدينة «زبيد» وأسس دولة استمرت زمناً وسميت دولة «آل زياد».

وفي هذه الفترة نبغ من الأعلام قاضي صنعاء إبراهيم الأنباري، وعلامة اليمن أبو العلكم المرّاني، الإمام الحافظ عبدالرزّاق الصنعاني، عبدالملك الذماري، أبو قرّة صاحب المسند موسى بن طارق الزبيدي، أبو السمط الفيروزي، والكاتب المترسل بشر البلوي، بكر بن مرداس، أبو الهول الحميري، مطرف بن مازن، يعلى بن عمرو بن زيد، الحارث بن عمرو، ابن السلماني، محمد بن إبان الخنفري، عبدالملك الحارثي، أحمد بن يزيد القشيبي وغيرهم كثيرون.

٤ ـ من سنة ٢٠٤ إلى ٢٧٧هـ (٨٢٠ ـ ٨٩١م):

يا لها من ثلاثة وسبعين عاماً: تضاعفَتْ أيامها والليالي بالصراع الدامي والأطماع والمغامرات، والانحطاط والمؤامرات؛ وفي الوقت الذي استقلتْ فيه «تهامة» والأصقاع التي دانتْ لابن «زياد»، ظَلّت صنعاء ومنطقة الجبال تغلي وتضطرب. وحين ثار يُعْفِر الحوالي سنة **٢١٨هـ (٨٣٤م)** على قوّاد العباسيين دارت بينه وبينهم معارك هائلة كان النصر فيها حليف الأمير الثائر، وهو مؤسس دولة «آل يُعْفِر».

وفي هذه الفترة اشتهرت زمرة كبيرة من الشعراء والعلماء وفي طليعتهم: عبدالخالق بن أبي الطَّلح، عبدالله بن عبّاد الأُكَيْلي، الغطريف بن الضحاك الهمداني، أبو نصر الحنبصي، أبو بكر بن أحمد، الشاعر ابن أفنونة، أحمد بن عيسى الرداعي، ابن مناذر، موطل الصنعاني، عبدالله بن رازم الحارثي.

٥ ـ من سنة ٢٧٧ إلى ٣٣٢هـ (٨٩١ ـ ٩٤٤م):

وهذه فترةٌ رهيبةٌ حاسمة في تاريخ اليمن، تفاعلت فيها عناصر الشر والخير، والموت والحياة، واختلطتْ دعوة الحق بأصوات الباطل، وتجالدت المذاهب والآراء، والملل والنِحَل، والبدع والأطماع، وأرهصتْ لانبثاق النور «الهادي»؛ فما إن قتلَ إبراهيم بن محمد بن يُعْفرْ والدَه حتى انتقضتْ عليه البلاد، وخرج «المناخي» ثائراً، «والدُّعَامُ» مغاضباً، وبعثتْ «بغداد» «ابن جُفتمْ» والياً، وظهر «علي بن الفضل القرمطي» واستقر في «مذيخرة»؛ و «منصور بن حسن» واستوطن «مسور»، وظَلّت هذه القوى تتناحر، وسبحت اليمن في بحرٍ من الدم، واضطرَبَتْ أحوالها؛ فذهبت طائفة من رؤساء «خولان» إلى جبل «الرس» بالمدينة المنورة وأخرجوا الإمامَ «الهادي» يحيى بن الحسين إلى «صعدة» سنة **٢٨٠هـ (٨٩٤م)** وبايعوه إماماً هادياً، فاستولى على «صنعاء» إلى «يريم» وهو مؤسّس دولة «أهل البيت» وكان يقول: «إن هي إلاّ سيرة عليّ أو النار»، وتوفيّ سنة **٢٩٨هـ (٩١١م)**.

وقد كانت هذه الفترة مسرحاً لمشاهير من العلماء والشعراء والقادة وحسبك منهم، أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الإكليل، الإمام الهادي يحيى بن الحسين، ابن أبي البلس، أحمد بن عبدالله بن عبّاد، محمد بن إبراهيم بن إسحاق، إبراهيم الحوالي، إبراهيم بن الجدوية، التبع بن عبدالله الحوالي، زيد بن أبي العباس، وأضرابهم.

٦ ـ من سنة ٣٣٢ إلى ٤٣٩هـ (٩٤٤ ـ ١٠٤٨م)

وظلّ الشرّ يحوم على ربوع اليمن، ومزقتْ الخلافات السياسية والمذهبية أوصالها وطارت الرؤوس، واندثرت المدن وعمّ الفساد، وانتشرت

السموم، ونضب الخير. وقد كانت هذه الفترة حقاً أرهب من التي سبقتها فقد دخلت اليمن بها في دور من الفوضى يشبه دور ملوك الطوائف. وأصبحت «صنعاء» نهباً لكل من تسوّل له نفسه أن يَسْتولي عليها، وتنازع السلطة كثيرون؛ فآل «يُعْفر» تتبعهم حمير الغربية، و «آل الضحاك» في سُرّة همدان، و «ابن أبي الفتوح» بالمشرق، وآل «الهادي» في صعدة وما صاقبها يعارضهم «القاسم العياني» وأولاده، و «تهامة» تحت راية «آل زياد» وبني «نجاح»، وبنو وائل الحميري قد ملك أمرها «ذو الكلاع»، وآل الكرَندي يتحكّمون على المعافر والجند، وآل «مَعْن» تدين لهم «عدن» إلى سلاطين أُخر، وثوّار وقطاع طريق. ورغم ذلك كله فقد نبغ في هذه الفترة أفذاذ منهم المفضل بن محمد الجندي، المغيرة بن عمرو العدني، الشاعر البوسي، الشاعر التقوي، القاسم بن محمد الجمحي، محمد بن القاسم المختار، القاسم العياني وغيرهم.

٧ ـ من سنة ٤٣٩ إلى ٥٦٩هـ (١٠٤٨ ـ ١١٧٤م):

وفي غفلة من الدهر تطلعتْ إلى الاستقرار جموع، ما كادت تستنيم إليه حتى دهمتها الكوارث من جديد في عَرَامَة واستهتار، وتبتدىء هذه الفترة بقيام ملك عظيم، وتنتهي بفاتحة الحملات المصرية على اليمن، ففي جبل «مَسارْ» ظهر علي ابن محمد الصليحي سنة **٤٣٩هـ** ملكاً داعياً، وانقضّ كالنسر الكاسر على كل تلك الإمارات فطواها، ولم يمض وقت قصير حتى وحّد اليمن (تقريباً) وأعلن الدعوة للفاطميين بمصر. وانجحرت الفتن، وهدأت النيران تحت رماد الخوف، وظل ملكاً مهاباً حتى سنة **٤٧٥هـ (١٠٨٣م)** حيث قُتل في معركة بينه وبين سعيد الأحول النجاحي. والملكُ «علي» هو مؤسس «الدولة الصيلحية» التي استمرت زمناً وقد عاصر دولتهم من الأئمة، أبو الفتح الديلمي وقتلهُ الصيليحي سنة **٤٤٠هـ (١٠٤٩م)**، ثم الأمير حمزة بن هاشم وقُتل في أرحب، وقام الملك لمكرّم الصيلحي بثأر أبيه ثم سلم أزمة الحكم إلى زوجته العظيمة «الملكة أروى» وعاد آل «نجاح» إلى زبيد من جديد، واستولى «آل زريع» على عدن وامتد نفوذهم إلى بلاد المعافر، وتغلب الإمام أحمد ابن سليمان على «صعدة»، والسلطان حاتم

اليامي على «صنعاء». وفي سنة **٥٥٤هـ (١١٦٠م)** تحكم علي بن مهدي الحميري على زبيد وتهامة وعظم أمره حتى غزا اليمن «توران شاه» بن أيوب سنة **٥٦٩هـ (١١٧٤م)** في الحملة المصرية الأولى على اليمن، وزحف الخوفُ على سَقْم وجوع.

ومن فطاحل هذا العهد شاعر الملك عمر بن يحيى الهيتمي، عبدالله بن يعلى الحميري، الحسين بن القِمّ، عبدالله بن يزيد اللّعقي، القاضي عِمران الهمداني، أبو بكر العبدي، عمارة اليمني، محمد بن زياد الماربي، علي بن عيسى بن حمزة، أبو الطامي الملك جياش، القاضي العثماني، الغرنوق، ابن مكرمان. وكثير من ملوك وأمراء ذلك العهد كان فيهم الشاعر والأديب، السلطان حاتم اليامي، الشاعر يحيى بن محمد الحسيني، السلطان الخطاب بن أبي الحفاط، أخوه سليمان بن أبي الحفاط الجموري، سالم بن عمران، حاتم بن محمد الصنعاني، عبدالله بن محمد الصنعاني، عيسى بن إبراهيم الربعي، أخوه إسماعيل، أحمد بن علي التهامي، الحسن بن أبي عقامة، أبو بكر اليافعي، الشيخ الحسن بن أبي عباد، الإمام يحيى بن أبي الخير، يحيى بن أبي أحمد من آل يحيى، عبدالنبي بن مهدي، محمد بن عبدالله الحميري، نشوان بن سعيد الحميري.

٨ ـ من سنة ٥٦٩ إلى ٩٢٢هـ (١١٧٤ ـ ١٥١٧م):

وكأن عوامل الفناء الداخلية التي كانت تعبث باليمن لا تكفي، فظلّت تتطلع إلى إمدادها بروافد غريبة، ففي هذا العهد التعيس عرفت اليمن المصريين لأول مرة غُزاة يبيحون ما لا يُستباح، وتقطعت روابط القرابة بالأطماع، وهتك «الحمزات» عهد أبيهم العظيم، وقضى «الأيوبي» فيها على سلاطين اليمن، واحتز على ساحل البحر رؤوس أقيالها، وماجَ الآذىُ بسفن الغزاة مرات. وهي فترة طويلة رهيبة نشب فيها صراع طائفي، ونزاع قبلي، ووقف الحق في وجه الباطل حيناً، وتغلب الشر على الخير أحياناً.

وفي هذه الفترة تغلب على اليمن ثلاث دول:

(١) دولة «بني أيوب» التي ابتدأت بغزو الحملة المصرية الأولى بقيادة

«تُورَانْ شاهْ» ابن أيوب وخليفته السفاح «طغتكين» سنة **٥٦٩هـ (١١٧٤م)** حتى سنة **٦٢٦هـ (١٢٢٩م)**.

(٢) دولة «بني رسول» التي ابتدأت بتلاشي الأيوبيين سنة **٦٢٦هـ (١٢٢٩م)** وانتهت بظهور «آل طاهر» **(٨٥٨هـ) ١٤٥٤م**.

(٣) دولة «آل طاهر» التي بدأت سنة **٨٥٨هـ (١٤٥٤م)** وانتهت بقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب سنة **٩٢١هـ (١٥١٦م)** على يد المصريين في حملتهم الثالثة، وفي أثناء ذلك قام الإمام الأكبر «عبدالله بن حمزة»، وكانت له مع المصريين وقعات، واستولى على «صنعاء» و «ذمار» وحين توفي سنة **٦١٤هـ (١٢١٨م)** قام الإمام الأعظم يحيى بن المحسن المتوفَّى سنة **٦٣٦هـ (١٢٣٩م)** وقد أكدى، وعارضه آخرون، ثم قام الإمام الشهيد أحمد بن الحسين وكافح وجالد حتى قتله أولاد عمه «الحمزات» سنة **٦٥٦هـ (١٢٥٩م)** مناصرة للملك المظفر الكبير الذي استطاع الاستيلاء على «صنعاء» وجعل قاعدة ملكه «تعز»، والإمام السّراجي وقد سمل عينيه القائد «سنجر» و «ابن تاج الدين» وقد مات سجيناً في تعز وقام بالدعوة آخرون.

وفي سنة **٧٢٥هـ (١٣٢٥م)** وردَتْ الحملة المصرية الثانية تحت رئاسة بيبرس فعاثت في البلاد فساداً، وقام الإمام يحيى بن حمزة وعارضه مُدَّعون، وظلت راية الحرب تخفق، وطبولها تهدر، ورحاها تدور بأيدي الأئمة والثائرين والمشايخ والسلاطين، حتى نهض الإمام المهدي «أحمد بن يحيى المرتضى» فعارضه علي بن المؤيد وزجَّ بالمهدي في غياهب السجون، وانحصر نفوذه في شمال بلاد صعدة، واستولى الإمام علي بن صلاح الدين على أكثر الجبال، واستبد آل رسول بتهامة و «تعز» إلى «سُمارة». وبعد وفاة علي بن صلاح سنة **٨٤٠هـ (١٤٣٧م)** قام أئمة آخرون، ودعاة ثائرون، يتعارضون ويتصارعون، حتى تلاشى أمر «الرسوليين» خلفاء «آل أيوب» واستولى «آل طاهر» من بلاد «رداع» على أزمة الأمور وفتحوا «عدن» و «تعز»، ودانت لهم «تهامة»، وثار «الإمام الوشلي» فأسره السلطان عامر ومات في سجنه سنة **٩١٠**. وفي سنة

٩١١هـ (١٥٠٦م) ادَّعى الإمام شرف الدين، وفي سنة ٩٢١ (١٥١٦م) غزت اليمن الحملة المصرية الثالثة واحتلوا «كمران» ثم «تهامة» وجرت بينهم وبين جنود السلطان عامر معارك كان الفوز فيها للمصريين المسلحين «بالبنادق» ـ ولم يكن هذا السلاح الناري قد عُرِف باليمن ـ وكانت المعركة الفاصلة على أبواب صنعاء حيث قُتل السلطان عامر بن عبدالوهاب سنة ٩٢٢هـ واستولى المصريون على «صنعاء» فأباحوها.

ومن مشاهير هذه الفترة: قاضي همدان حاتم بن أسعد، ابن النساخ ابن الأحمر، ابن هُتيمل، عبدالله بن جعفر، ابن دعّاس، علوان بن بشر، مدرك بن حاتم، عبدالقادر السودي، الحافظ الديبع، العماد الشيزي، المبارك ابن منقذ، محمد بن حمير، أحمد بن المنصور، إسماعيل المقري، أخو كندة، علي بن يحيى العنسي، يوسف العنسي، العفيف عبدالله بن جعفر، علي بن أحمد المشرقي، الدَّاعي يحيى بن المحسن، الإمام عبدالله بن حمزة، أحمد بن سعيد، الحسن بن بدر الدين، الهادي بن إبراهيم الوزير، محمد بن إبراهيم الوزير، وأفذاذ كثيرون.

٩ ـ من سنة ٩٢٣ إلى سنة ١٢٥١هـ (١٥١٨ ـ ١٨٣٦م):

تضافرت مصائبُ الأرض وكوارث السماء، فانتشر الطاعون وفتك بالخلق، وتعاون الأتراك والمصريون وتحالفوا للقضاء على أبناء اليمن، وكانت قد خمدت الأصوات غير صوت «الإمامة» بعد صراع دام أكثر من ثمانمائة عام بين أكثر من عشرين دولة وإمارة، وكان السرُّ أن الصلاح والخير يغلب على مجموع الأئمة لا على جميعهم، وأن أصل دعوتهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس الاستبداد بالمال والسلطان، وإذ نقرر هذا فنحن نعلم أن أفراداً منهم قد امتهنوا كرامة الدّعوة، وخانوا أمانتها، فَحقّ عليهم ما حُقّ على الظالمين. ولقد كانت اليمن طيلة هذه الفترة مسرحاً رهيباً للقتال والنضال، وجلا «المطهر» في الكفاح بطلاً لا يجارى، وحين ظنَّ الدخيل العثماني أن الأمرَ أمرُ أسرة وأمراء، فساق البارزين منهم إلى «استانبول». دوّى صوتُ القاسم بن محمد من «شهاره» فردّدتْ أصداءه

الجبال والسهول، وكاد أبناؤه أن يوحّدوا اليمن حتى استشرى فيهم الفساد. فانتقض عليهم الأمر، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً:

فبعد قتل السلطان عامر استتب الأمر للإمام شرف الدين الذي حارب «المصريين» ودانت له ولولده المطهر معظم اليمن وانسحب «المصريون» إلى زبيد وغزوا «جيزان» سنة **٩٢٥هـ (١٥١٩م)** وأحرقوها من الجبل إلى البحر. وفي سنة **٩٤٦هـ (١٥٤٠م)** تقدموا إلى «تعز» بعد أن استنجدوا بالسلطان العثماني فأمدّهم بقوة، وجرت حروب بينهم وبين قوات الإمام. وفي سنة **٩٥٥هـ (١٥٤٩م)** تقدّم الوزير «أَزْدُمرْ» واستولى على صنعاء وأثخن فيها نهباً وتقتيلاً ولم يزل «المطهّر» يقود اليمنيين في نضال مع الأتراك حتى لفظ أنفاسه الأخيرة سنة **٩٨٠هـ (١٥٧٣م)** وقام الإمام الهادي علي بن المؤيد وظل حتى أسره الباشا «سنان» سنة **٩٩٣هـ (١٥٨٥م)** وأرسله إلى «استانبول» وألحقَ به أولاد الإمام المطهّر حيث ماتوا هناك، ومأساتهم تثير الشجون.

وفي سنة **١٠٠٦هـ (١٥٩٨م)** ادعّى الإمام القاسم بن محمد المنصور وظلّ مع الأتراك في حرب ومهادنة حتى سنة **١٠٣٦هـ (١٦٢٧م)** فانتقضت الهدنة واستنجد الأتراك بمصر فأنجدهم الباشا «قانصوه» الذي جهّز الحملة المصرية الرابعة إلى اليمن بجيش عظيم، وتقدّم إلى «تعز» ثم انهزم إلى «زبيد» وظلّ في حرب مع جنود الإمام حتى اضطرّ إلى التسليم وجلا عن اليمن سنة **١٠٤٥هـ (١٦٣٦م)**، ولم يزل الأئمة من آل القاسم يتوالون حتى سنة **١١١١هـ (١٧٠٠م)** حيث نشبت فتنة السيد إبراهيم «المحطوري» الساحر وانتهت، بقتله وتتابع الأحفاد بحق وباطل حتى قام المنصور علي سنة **١٢٢٤هـ (١٨١٠م)** فزاحمه الشريف الهمام حمود ابن محمد الذي قامت بينه وبين سلاطين آل سعود حروب ومعارك مشهورة، وفي سنة **١٢٣٤هـ (١٨١٩م)** غزا تهامة خليل باشا مُوْفداً من قبل «عزيز مصر» محمد علي باشا في الحملة المصرية الخامسة، وأَسَرَ الشريف أحمد بن حمود وأرسله إلى مصر، وبعد موت المهدي عبدالله سنة **١٢٥١هـ (١٨٣٦م)** ضعف نفوذ الإمامة وظهرت الفوضى واحتل إبراهيم باشا تهامة بأمر محمد علي، ولم

تُكَفّ أيدي المصريين عن اليمن إلا سنة ١٢٥٧هـ (١٨٤٢م) ودخلت البلاد في مآس وبلاءٍ شديد.

ومن أعلام هذه الفترة الطويلة، موسى بهران، محمد بن يحيى بهران، محمد بن إبراهيم الحوالي، عبدالرحمٰن النُّزَيْلي، يحيى بن أبي بكر العامري، شهاب بن أحمد، إسماعيل الفرادي، جمال الدين الجُبَنى، يعقوب النُّحَازي، عبدالعزيز الحبيشي، عيسى بن لطف الله، السيدة زينب بنت محمد الشهارية، سعيد بن صالح السُّمَحِي، إبراهيم اليافعي، أحمد النَّاخوذه، عبدالله بن شرف الدين، محمد بن عبدالله بن شرف الدين، عبدالرحيم البرعي، صالح بن عبدالله الغرباني، صلاح بن أحمد المؤيدي، إبراهيم الهندي، شعبان سليم، الحسن الهبل، محمد بن إسماعيل الأمير، إسماعيل بن صلاح الأمير، الحسن الجلال، صالح المقبلي، محمد بن علي الشوكاني، علي بن محمد العنسي، عبدالرحمٰن البهكلي، السيد محمد بن إسحاق، عبدالله بن علي الوزير، هاشم بن يحيى الشامي، محمد بن هاشم الشامي، أولاد أبو الرجال، محمد المرهبي، محمد العصامي، علي العماري، عبدالحميد أبو طالب، عبدالقادر بن أحمد، الأبي، أحمد الزنمة، عبدالله العادل الجراح، ابن شاجر عبدالرحمٰن الآنسي، عبدالله بن حسين الشامي، علي حسن الخَفنجي، يحيى جحّاف، محسن بن عبدالكريم، أحمد المفتي وغيرهم.

١٠ ـ من سنة ١٢٥٢ إلى سنة ١٣٨٢هـ (١٨٣٧ ـ ١٩٦٢م):

في هذه الفترة اسْتُعْمِرَتْ «عدن» من قبل بريطانيا، وفيها تقلصتْ معاني الإمامة إلى حدٍ أثار السخرية لدى الشعراء والظرفاء، وفي سنة **١٢٦٥هـ (١٨٤٩م)** عاد الأتراك إلى «الحديدة» واستدعاهم إمام صنعاء حينذاك مستعيناً ومستنجداً، لكن أهالي «صنعاء» استهجنوا ذلك، واجتمعوا على قتل «الأتراك» في الأزقة ثاني يوم وصولهم..! بل وقتلوا «الإمام» الذي استدعاهم ونصّبوا إماماً آخر، وعاد الأتراك أدراجهم إلى «الحديدة»، وفي سنة **١٢٨٩هـ (١٨٧٣م)** وصل أحمد مختار باشا يقود جحفلاً جرّاراً من

الأتراك واستولى على «صنعاء» وكان إمامها المحسن بن أحمد فانحاز إلى «شهارة» وبلاد حاشد وبكيل إلى أن توفي سنة **١٢٩٥هـ (١٨٧٨م)**، وقام بالأمر الهادي شرف الدين بن محمد الحسيني حتى توفي سنة **١٣٠٦هـ (١٨٨٩م)**، وفي سنة **١٣٠٧هـ (١٨٩٠م)** قام بالأمر بجدّ وعزم الإمام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين والتف حوله الدعاة الأحرار والمجاهدون الأخيار حتى توفي سنة **١٣٢٢هـ (١٩٠٥م)**، ونهض بالأمر نجله الإمام يحيى بن محمد فحارب الأتراك واستولى على صنعاء لأول مرة سنة **١٣٢٣هـ (١٩٠٦م)**، وجهَّزَتْ «الآستانة» حملة كبيرة بقيادة أحمد فيضي باشا، وانسحب الإمام إلى «شهارة» وكان عاملها السيد البطل محمد بن محمد الشامي، وهناك وفي تلك الأصقاع دارت معارك رهيبة وانهزم الباشا بعد خسائر فادحة في النفوس والأموال والسلاح، ولم تزل الحرب سجالاً حتى سنة **١٣٢٩هـ (١٩١١م)** حيث بعثت الآستانة أحمد عزت باشا يرافقه «عصمت اينونو» لعقد الصلح مع «الإماميين» وكانت اتفاقية «دعّان».

ودانت اليمن للإمام يحيى حتى سنة **١٣٦٧هـ (١٩٤٨م)** حيث قُتل وبويع بالإمامة السيد عبدالله بن أحمد الوزير وأعلن الدستور لأول مرة في تاريخ اليمن، وثارت الفتنة وتغلب الإمام أحمد بن يحيى وأُعدِم الوزيرُ وكثيرون، ونُهبت صنعاء، وتفتّحت أبواب اليمن للعالم، وغزتها الأفكار الغريبة، ومردَتْ على الثَّورات والمؤامرات، وتربَّصت الدواهي حتى هبت العاصفة الكبرى سنة **١٣٨٢هـ (١٩٦٢م)** وكانت الحملة المصرية السادسة جوّاً وبحراً، وأعلنوا اغتيال الإمام محمد البدر وقيام جمهورية «السلال» يؤيدها الرئيس جمال عبدالناصر، ضد الإمامة الإسلامية التي يساندها الملك فيصل آل سعود، وهاجت الفتن من أوكارها، وهَب من هب للنار، أو لِلْعار، أو للدينار، ونهض للجهاد في سبيل الله ثم الوطن مؤمنون وأحرار، وَتعَمْلَقَ أقزام، وتمضر طغام، وتسرّعت «واشنطن»، وتريّثَتْ «لندن»، وساهمت «موسكو» بالموت والدمار، ولم يكن «يوثانت» أميناً كَسَلَفِه، ولا «حَسُّونةٌ» هُماماً «كَعزَّام» والمسلمون تائهون حيارى، وأعاد التاريخ نفسه من جديد ونشب الصراع الدَّامي الذي لا يزال حتى كتابة هذه السطور.

ومن مشاهير هذه الفترة أحمد بن لطف الباري الزبيري، محمد بن عبدالكريم بن إسحاق، حسين بن أحمد العرشي، محمد بن إبراهيم الشامي، عبدالكريم مطهر، محمد بن محمد زبارة، قاسم بن حسين العزي، عبدالوهاب المجاهد، يحيى الإرياني، عبدالله العيزري، يحيى بن محمد بن الهادي، أحمد منصور، حسن الدعيس، محمد عبدالرحمٰن كوكبان الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين، الأمير محمد بن يحيى حميد الدين، محمد أحمد الحجري، أحمد الحضراني، علي عقبات، أحمد الوريث، أحمد المطاع، عبدالله العزي، حامد المحضار، عبدالرحمٰن بن عبيدالله، أحمد السالمي، نعمان القدسي، أحمد محمد نعمان، محمد محمود الزبيري، زيد بن علي الموشكي، حسين بن علي الويسي، عبدالكريم الأمير، محمد عاموه، إبراهيم بن أحمد الحضراني، أحمد محمد الشامي، عبدالوهاب محمد الشامي، إبراهيم بن علي الوزير، قاسم بن علي الوزير، زيد بن علي الوزير، عبدالعزيز نصر، عبدالله البردّوني وغيرهم كثيرون.

وبعد فلعَلّ الذي عنده علم من تاريخ اليمن يستطيع أن يقدر الجهد الذي بذلناه حتى ألفنا هذا الموجز التاريخي، وقد تعمدنا إبراز ما يتعلق بمصر واليمن نظراً للظروف الحاضرة ولأن الكثير لا يعرفون عن ذلك شيئاً ويظنون أن ما حدث أخيراً في **٢٦** سبتمبر سنة **١٩٦٢** هو الأول من نوعه، ويعتقدون أنه لم يغز اليمن بعد الأحباش غير العثمانيين، وقد يأتي من يتمكن من التنقيب والبحث بجهد أكبر وإمكانيات أكمل، وهناك قد يظهر تقصيرنا أو قصورنا عمداً هدفنا إليه، ولكنا نؤكد مخلصين أننا حاولنا الإتْقَانَ قدر الإمكان.

أدبُ المهَاجرين

ما مدى دعوى كُلّ أمةٍ في أدب أبنائها النازحين عنها، المتخذين لهم أوطاناً أخرى يستبدلون بها أهلاً بأهل، وجيراناً بجيران؟ وما هو نصيبها منه؟ وهل من حق مؤرّخ الأدب أو ناقده أن يُلحق أدب هؤلاء المهاجرين بأدب أوطانهم الأصيلة، ومنابتهم الأولى، دائماً وأبداً ما ظلوا يشعرون أنهم مهاجرون، وما ظل الهوى والحنين يربطان أحاسيسهم بذكراها حتى ولو تعاقبت على ذلك أجيال وأجيال؟ وهل هناك حدود زمنية، أو تقاليد اجتماعية أو سمات خُلقية، يجب أن يَحسِب المؤرّخ أو الناقد حسابها إن أفضى به الحديث إلى أدب «المهاجر» وشِعْر المهاجرين فيجعلها له مِسْبَراً ومقياساً.

والشعب اليمني: شعب مهاجر دائماً، وأبناؤه في كلّ أوان تتعلق قلوبهم وأهواؤهم بالسفر والترحال، لا يؤوبون من سفرٍ إلا إلى سفر، ولا تكاد الأرض بما رَحُبَتْ تَتّسع لمآربهم، وأطماعهم، وخيالاتهم، فلو وجدوا منفذاً من أقطارها لسلكوه، ولا يَهُمّنا أن نعَلّل أسباب ذلك ففي عصر العزة والمجد قالوا: إنهم تركوا أوطانهم غزاةً فاتحين، وفي عهود الانحلال قالوا: إنهم غادروها عُفَاةً مُنْتجعين، وفي الفترات الأخيرة فارقوها، طلباً لرزق، أو مجانفةً لِضَيْم أو هروباً من ظلم، أو حُبّاً في عِلم.

وقد تَمّتْ هذه الهجرات في فتراتٍ من التاريخ زرافاتٍ ووحدانا وكانت الهجرات الجماعِيّة عجيبة حافلة، وخصوصاً تلك التي أشاد بها التاريخ القديم بعد سد مأرب ـ لأول مرة ـ واندثار حضارة اليمن، وبعد أن

أرسل الله عليهم سيل العرم وبدّلهم بعزّهم ذلاً، وبسعادتهم شقاءاً، وبأمنهم واطمئنانهم خوفاً وشتاتاً فتفرّقوا أيدي سبا، ومُزّقوا تمزيقاً.

هذه الهجرات الجماعيّة عجيبة حافلةٌ بالغرائب من أمور الحياة... فأولئك الذين ارتادوا العراق فكانوا سادة البلاد وملوكها وهم اللَّخْميون، وأبناء عمهم الذين نزلوا بالشام ما أسرع ما كوّنوا مملكة أخرى هي مملكة الغساسنة، ومن حلوا بيثرب، وهم الأوس والخزرج كانوا هم الذين أووا النبي عليه الصلاة والسلام وعزّزوه ونصروه.

وآخرون تفرّقوا في أصقاع الجزيرة، وأثاروا الأرض وعمروها، معروفة أنسابهم في كتب الأنساب ويسمونهم «القحطانيين» وشعراؤهم يتغنّون بهذا النسب ويلهجون بذكراه على مرّ السنين.

وقد قيل في هذه «الهجرات» الجماعية وفي وصف مراحلها، ومشقاتها، وحوادثها أشعار كثيرة رائعة، وقد حصر الأماكن التي هاجر إليها اليمانون القدامى شاعر يمني من آل أسعد تبّع أثبتها صاحب صفة الجزيرة، كما نجد في كتب التاريخ والأدب لأفراد الشعراء الذين قُدّر لهم أن يفارقوا وطنهم اليمن، الشعر الباكي حنيناً وذكرى.

والمؤرخون القدامى كانوا يقسّمون العرب إلى شعبين عظيمين «قحطان وهم اليمانيون، و «عدنان» وهم أبناء نجد والحجاز، ثم يترجمون للشعراء والعلماء والأدباء، على أساس تقسيمهم هذا سواءً من بقي داخل اليمن أو من قذفته الظروف إلى مَهْجَرٍ مّا، وسواء أكان حديث عهدٍ بالهجرة أم أنه من سلالة قوم قد تطاول على آبائهم الأمد منذ هجروا ديارهم واستوطنوا هذه المرابع الأخرى، ولم يكن أولئك العلماء والمؤرخون يُبالون بالزمن وحدوده، فمن كان يُنسبُ - إلى قحطان فهو يماني الهوى، يماني النسب يماني الشعر، وعلى هذا الأساس قال أبو عمرو بن العلاء «لقدْ ذَهبت اليمن بكل الشعر، بامرىء القيس في الجاهلية، وحسان في الإسلام وأبي نواس في المحدثين»، ومعلوم أن امرأ القيس قِد نشأ في بني أسد وإن كان القائل «دَمّون إنّا معشرٌ يمانون»، وأن حَسان من يمانية «يثرب» وإن فاخر بجده

«الشيخ يعرب»، وأما أبو نواس فإنه ـ فيما نعرف ـ لا تجري في عروقه قطرة دم قحطانية، إلا أنه قد اختار أن يكون لهم مولى وتابعاً، ولذلك عُدّ من اليمانية وكان لهم لساناً.

وفي كُلّ دواوين الأدب القديمة وموسوعاتها الكبرى، ومجاميع شعرها، وكتب أنسابها، يَسلك مؤلفوها نفس النهج، ويتبعون ذات السبيل، فلو أننا جاريناهم، ومضينا على نهجهم لكان جُلّ شعرائنا المشهورين في تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده من جاهليين، ومخضرمين ومحدثين، ومولدين من شعراء اليمن وفي مقدمتهم أبو تمام، والبحتري والمتنبي، والمعري. وتكون اليمن قد ذهبت بالشعر إلى الأبد.

لكننا لم نجعل ذلك لنا مقياساً في هذا البحث، وتحاشيناه قدر الاستطاعة ولم نقصده بحال من الأحوال، وإلا فما كان لنا أن ندّعي أن أدب اليمن أدب مجهول ونشكوا ونتظلم، ونجهد أنفسنا بحثاً، ودرساً، وتنقيباً.

ورغم المسوّغات التي يركن إليها بعض الباحثين حين يكتبون عن شاعر، أو عالم، أو فيلسوف، فيجعلون للعرق القديم وعنصر الوراثة أثراً في نتاج وخيال وأدب من يحللون آثاره ممن قد يضرب به أصلٌ قديم إلى شعب غير الشعب الذي نشأ فيه، وعاش ودان بحبه وعقائده وتقاليده شأن كثير ممن كتب عن ابن الرومي، وأبي نواس، ومهيار الديلمي، وشوقي في المتأخرين، فإننا لن نبيح لأنفسنا أن ندّعي أن للجنس اليمني، أو العرق القحطاني أي خصائص تشذ عن الخصائص العربية العامة التي تتباين بين الأفراد قوة وضعفاً، أو تُباينها. بل نحن نعتقد أن القُدامى سامحهم الله قد أغرقوا في ذلك التقسيم وشطوا وتأثروا بعوامل سياسية، وقد سبق أن أوضحنا ما كان لمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد في إثارة ذلك الشر المستطير من أثرٍ فرّقَ كلمة الأمة العربية الإسلامية، وجنى عليها ما لا تزال تعانيه حتى اليوم؛ ونعتقد أن «قحطان» و «عدنان» أخوان ينتميان إلى أصل واحد، وأن إسماعيل وأباه إبراهيم عليهما السلام، ومن قبلهم ممن في

جنوب الجزيرة أو شمالها أو شرقها أو غربها كانوا كلهم عرباً، وأبناءً لعرب، وآباءً لمن قطن شبه الجزيرة في جميع أصقاعها ومنذ العصور السحيقة. وليس هذا بدعاً من القول نعتَسِفُه، بل إن كثيرين قد ذهبوا إليه. والآية الكريمة ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ والحديث «كل العرب لإسماعيل» وقصة عبدالمطلب و «سيف بن ذي يزن» في وفد التهنئة على ذلك برهان ودليل.

ولو أن أخبار شعراء اليمن وأدبائها قد وصلت إلى من أرّخ للأدب العربي وكتب عنه ممن كان في بغداد أو دمشق أو غيرهما قديماً وحديثاً لما صحّ لنا أن تقسِّم الأدب العربي إلى آداب أقطارٍ شتى، ولكانت لغةُ العروبة قد ضمتهم جميعاً في إطارٍ واحد، غير أن ما لحق بأبناء الجزيرة العربية والأقطار التي تنطق لغتها من شتاتٍ وتفرّق قد جعل الأخ يجهل آثار أخيه ولا يعلم عنه شيئاً، وقديماً حين وصل الشاعر «عمارة اليمني» إلى مصر سأله أدباؤها أن يحدثهم عن شعراء اليمن وعن أخبارها، فكتب لهم مختصره المشهور في تاريخ اليمن ونبذة عن شعرائها المشهورين في عصره.. ثم جاء الدكتور طه حسين خريج جامعة القاهرة والأزهر الشريف، وجامعات باريس، فادّعى أنه لم يكن للأمة اليمنية لا شعر ولا أدب، لا في الجاهلية، ولا في صدر الإسلام، ورأينا ذلك يُجانف الصواب فكان لا بد أن نقوم بهذا البحث للتعريف بالأدب العربي في اليمن.

وإذنْ فهدفنا هو البحث عن الآداب اليمنية البحتة الخالصة، أعني شعر وأدب من عاشوا في اليمن وتأدّبوا بآدابها، ومعظمه لم يَتسنّ لأدباء العرب في الأقطار الأخرى الاطلاع عليه، أو شعر وأدب أولئك الذين لم يُهاجروا من اليمن إلا بعد أن مارسوا الحياة الأدبية فيها فنوناً وألواناً، ولمعتْ أسماؤهم في محافلها، فأولئك وهؤلاء قُدامى ومحدثون ممن سنذكر أسماءهم أو نترجم لهم أو نستشهد بآثارهم يمانون داراً يمانون طبعاً وأدباً ـ حتى ولو زعم النسّابون، وادّعى المتعصبون لهم نسباً آخر.

ونحن لا نريد أن نتزيد ولا أن نسلك منهج المتعصبين من القدامى، فمحصولنا يكفي رغبة البحث، ويشبع نهم الأدب، ويُغني عن التزيد ولن

نتشبث بالسيد الحميري وآله، ولا بأبي نواس وأضرابه، ولا بالتنوخيين وشعراء الأوس والخزرج، أو غيرهم ممن يفاخرون بقحطان في كل مكان وزمان، ولا يسعُنا إلا أن نسجل أننا قد أهملنا إهمالاً واضحاً شعر وأدب «حضرموت» وما صاقبها قديماً وحديثاً عجزاً منا وقصوراً، فهناك من هو أقدر على الدرس والتحقيق في هذا الباب من شعراء وأدباء حضرموت الأعلام.

خصائص الشِعر اليَمني والنقد الذاتي!

الشعر - كما يُخيَّل إليَّ - تصوير وتعبير، تصوير لفكرة أو عاطفة أو ذكرى، أو أي معنى من معاني الحياة، ثم تعبيرٌ عن ذلك بأسلوب موسيقي ينسق الصورة، وينغم التعبير، ولا تَتفاوت قيمة أي شعر عن شعر آخر إلا بمقدار قوة وحيوية التعبير وعمق وسمو التصوير، ثم جودة التنسيق بينهما، وانسجام التنغيم، بحيث يطرب له السمع ولا يمجه الذوق، ويسبح بالأفكار والأرواح في عوالم جميلة.

وإذا كان الشعر «ديوان العرب» فإن ذلك يتجلى واضحاً في حياة اليمنيين وواقعهم، سواء بالنسبة إلى ماضيهم العتيد أو حاضرهم المتحفز؛ . . . الشعر أعظم ما يهتمون به، وأقدس ما يعتزون، وهو فنهم الوحيد يلوّنون به مجتمعهم، وتقاليدهم، وتعاليمهم، وعاداتهم، وعلومهم، وتاريخهم، بل وعقائدهم.

وإذا كان الشعر كما قال «شوقي»:

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفةً   أو حكمةً؛ فهو تقطيع وأوزانُ

فإن اليمنيين كانوا وما زالوا يصبغون كل شأن من شؤون حياتهم بصبغة شعرية تصور أفكارهم وعقائدهم وعواطفهم، وتعبر عن أحاسيسهم إزاءها تعبيراً موسيقياً راقصاً، والناقد والأديب قد يستطيع أن يُميز المعنى

الكريم والغرض الشريف، ويفرق بين ما يحق أن يسمى شعراً وما يُعد نظماً، ولكنه لا يستطيع أن ينكر أن هؤلاء قد حاولوا أن يجعلوا كل حياتهم شعراً، فإن فقدوه فلم يفقدوا التقاطيع والأوزان؛ وما النغم والرقص إلا تقاطيع وأوزان، والمنظومات العلمية واللغوية والدينية «والزوامل» و «الغناوي» كلها تقاطيع وأوزان وما أكثرها في تراث اليمنيين القديم منه والحديث، وهي تصور لنا أوضح تصوير الطبيعة الشاعرة ومدى تحكّمها في نفسية هذا الشعب، وتقديره لسحر الكلمة وانسياقه لقيادتها وكيف أن أبناءه لا يتأثرون بشيء كما يتأثرون بمثل سائر، أو بيت من الشعر، أو حكمة بالغة.

والشعر العربي الجاهلي في اليمن لا يختلف كثيراً عن الشعر العربي الجاهلي في سائر أصقاع الجزيرة، فالقوة والعمق، وشمول النظرة، وتجسيد الفكرة وإبداع المعنى الجليل في اللفظ القليل، واستخراج دقائق الموصوفات، واستكناه غوامض المعاني، وتزويد الحِس والفكر بما يُبهج أو يزعج، أو يُترِح أو يُفْرِح من طاقات تحرك انفعالات شتى تستبد بمسالك الأحلام والخيالات والعواطف.

والشاعر اليمني في الجاهلية كسائر الشعراء في شمال الجزيرة العربية، قد وصف الحيوان والطبيعة، وافتخر بنفسه وقبيلته، واستخدم الغريب والتشبيهات البعيدة، وتخيل الصور العجيبة، واستلهم الحكمة البالغة، وبكى الدمن والآثار، كما أن الشعر اليمني في كل من القرن الأول والثاني والثالث للهجرة لا يختلف قوة أداءً، وفصاحة لغة، وجودة تعبيراً وتصويراً عن الشعر العربي في العراق والشام والحجاز، غير أن ما كان يجتاح اليمن من فتن ومذاهب وثورات وحروب قد صبغه بلون أرجواني تكاد رائحة الدم تفوح من بين أوزانه وقوافيه، وأرْغم شعراء تلك القرون على أن يفترعوا الفتن ويثوروا مع الثائرين، وينافحوا عن معتقداتهم، ويحاربوا من أجلها ويقولوا الشعر تحريضاً أو تحدياً، ووعداً أوْ وعيداً، وفخراً أو بكاءاً ـ وكثير منهم كان القائد والفارس، والسلطان ـ فالقلق والخوف والمقارعة والتشرد جعلهم لا يتأثرون كثيراً بما تأثر به شعراء بغداد ودمشق والمدينة من حضارة مستحدثة، وأفكار مستوردة، ورفاهة مادية، وإن كان قد رُوي لبعض شعراء

صنعاء حينذاك ما يوحي بمجاراتهم لشعراء تلك العواصم في السلاسة والرقة، وممارسة المعاني والأساليب الجديدة، والإغراق في المجون، ووصف مباهج الحياة، نقرر هذا وإن كان لنا رأي خاص في هذا الباب ومدى صدق الشاعر في ترجمته لبيئته ومحيطه.

فما يتكلم عنه النقاد، ومؤرخو الأدب، ويسمونه خصائص الشعر أو مميزاته، ويعنون السمات التي تفرِّق بين شعر فترة وأخرى من فترات التاريخ، وتخص أمة دون أمة من بني البشر: ويُفيضون في ذلك ويسهبون. نقف منه ـ بالنسبة للشعر الجاهلي وشعر القرنين الأول والثاني ـ موقف الحيطة والحذر ـ رغم ما قاله النقاد ومؤرخو الأدب العربي المحدثون في هذا الباب، وما أسرفوا فيه من فلسفةٍ وبيان.

حقاً إن الناقد الخرِّيت، والأديب الفهّامة، ومن صرف وقتاً طويلاً في دراسة أساليب الشعر العربي وفنونه يستطيع أن يميِّز بين الشعر الجاهلي، وشعر صدر الإسلام، ويشعر بفوارق تفصل بينهما، ويلمس أموراً يرجع بعضها إلى الشكل، وبعضها إلى الموضوع يمكن أن يتعرَّف بها على هذا أو ذاك، ولكنه لا يستطيع في نفس الوقت أن يحللها تحليلاً فنياً دقيقاً يُفضي بالباحث إلى قاعدةٍ مطردة لا تشذ، وطابعٍ خاص لا يتغير كما استطاع نُقاد فنِّ الرسم والنحت وكثير من الفنون أن يحدِّدوا ـ إلى حدّ ما ـ مميزاتها على حسب العصور وتطوّر الأجيال، ومسايرة الإنسان وأفكاره لنموِّ المجتمع وبيئته وعقائده وتقاليده.

إن أكثر ما قاله النقاد ومؤرخو الأدب العربي عن خصائص الشعر الجاهلي وسماته مجرّد افتراضات غير ثابتة، يستطيع الحاذق الفطن أن ينقضها بسهولة، فمن يقول إن طابع الشعر الجاهلي هو الخشونة يستطيع أن يجد في الشعر الإسلامي ما هو أشد خشونةً من بعض الشعر الجاهلي، ويجد أشعاراً جاهلية تذوب رقة وسلاسة وليناً، ومن يقول: إن شعراء الجاهلية قد أكثروا من ذكر الأماكن والوقوف على الأطلال، ووصف الحيوانات وما شاكل ذلك، لا يستطيع أن ينكر إذا أمْعن النظر، وأرجع البصر، أن شعراء القرنين

الأول والثاني للهجرة قد أكثروا من ذلك أيضاً ومنهم من أسرف وتجاوز أسلافَهُ وبزَّهم. والذين يحصرون الشعر الجاهلي أو معظمه على ما كان الجاهليون يتحلون به من فضائل، وما كانوا يقدِّسونه من مكارم الأخلاق مثل الوفاء بالعهد، وحماية الجار، والدفاع عن الحريم، والانتصار للعشيرة، والصبر، والصدق، واحتمال المكروه، إلى وصف المشقات والأهوال والنوق، ومناجاة الأطلال والأحباب، وهَجْوِ الخصوم، وبكاء القتْلى والموتى، لا يستطيعون أن ينكروا أن شعر صدر الإسلام لم يهمل شيئاً من ذلك، وإن يكن قد فتح أبواباً جديدة أو وسَّعها بتعبير أدق وأصدق.

وهكذا لا يضرب من يحاول أن يضع لنا حدوداً، أو يفترض مميزات، أو يصطنع سمات لشعر أي فترة من فترات الجاهلية وصدر الإسلام والقرن الذي يليه، بمثَلٍ من الأمثال إلاّ جيء له بمثل أكبر يهدم ما بناه، وينقض ما سوَّاه.

ومع ذلك فالأديب حقاً والناقد حقاً يستطيع أن يميِّز بين الشعر الجاهلي، والشعر الإسلامي، ونحن نعرف من أدبائنا الكبار من يستطيع وأنت تقرأ له شعراً مّا أن يقول: هذا بنَفَس فلان أليق، وذلك بأسلوب فلان أخلق، وذاك أحس أنه شعر الأخطل أو الفرزدق، أو النابغة أو الأعشى.. وحين تسأله كيف عرفت ذلك؟ وما هي الخصائص والسِمات الممكن اعتبارها في هذا الشأن؟ يكتفي بأن يقول: إنها مجرَّد خبرة، أو إدراك لا يستطيع له وصفاً ولا يجد له بياناً أو تفصيلاً. لأن ما ورد إلينا من الشعر الجاهلي قليل، ودراستنا لا تزال ناقصة، وما غاب عنا كثير، وما ينظر أن نتوصل إلى معرفته جليل الخطر والأهمية، ثم إن الأمر كما قال ابن سلام: «نعرفه بلا صِفة يُنْتَهي إليها، ولا علم يُوقَفَ عليه».

ونحن وقد قرأنا كثيراً من الشعر اليمني ولمختلف الشعراء في كل العصور، كلما حاولنا أن نفرد له مميزات خاصة أخْفَقنا، فهو أحياناً يسيل رقة وسلاسة، وأخرى يغلظ جفوة وبداوة، وقد يلين، ويتراخى، ويتخلع، وقد ينبو وينفر ويتوثب، وتارة هو النسيم العليل، وحيناً هو الإعصار فيه

نار، ولكنه على كل أحواله شعر الطبع اليمني الكريم الذي نستطيع أن نميّزه عن سائر الشعر العربي بلا صفة ولا علم، ولا حدود ولا مقاييس.

والحديث عن الشعر ذو شجون، وأجدني ملزماً ـ وأنا أتحدثُ عن الخصائص أن أتعرَّض للنقد وموازينه، وكثير هم الذين كتبوا عن النقد قديماً، وحديثاً، ولن أطرف بجديد أو آتي بما لم تستطعه الأوائل، ولن يبلغ بي التطاول والأمل مجارات فرسان هذا المضمار، وخصوصاً و «صادق الرافعي» يشترط في الناقد من المؤهلات العلمية والأدبية، والمواهب العقلية والعاطفية ما لا يكاد يوجد إلا في «الرافعي العظيم».

غير أني وقد جشَّمت يراعي هذا المسلك الوعر، لا بد أن أفند مزاعم من ينصبون من أنفسهم نقاداً للأدب والشعر، ويصدعون الرؤوس بالهراء والسخف من القول والآراء باسم النقد الذاتي، مستوردين مفاهيم، ومعايير أجنبية تتنافر مع آدابنا العربية والإسلامية طبيعة ولغة وذوقاً، وطريقة فن وأسلوب، وتعاليم خلق ودين.

وكثيرٌ من المتأدبين المحدثين يظنون أن الأولين من علماء العرب ونقادهم كانوا لا يتحرون في نقد الشعر وتقييم الجيِّد منه والرَّدي، والصحيح والفاسد، وأن موازينهم النقدية كانت شكليَّة فقط، وأن «النقد الذاتي» إنما تلقيناه مع المدنية الحديثة الغربية، ويظنون أن المستشرقين قد علمونا أيضاً التروي، والشك والتمحيص والحكمة، وأن لا نتلقى ما يُروى أو يقال بالقبول المطلق، وأنه علينا أن نتأكد ونتبصر... إلى آخر دعاويهم العريضة وأوهامهم الباطلة، فالواقع الذي يتفق وما يعلمه العارفون أن رواة الشعر وعلماءه وناقديه القدامى لم يتلقوا كل ما وصل إليهم بالقبول المطلق، بل كانوا يتحرون في معرفة الصادق منه كما يتحرون في معرفة أصول دينهم، بل إنهم وجدوا من الحرية وعدم التحرج في مناقشة الآثار الشعرية درايةً وروايةً أكثر مما وجدوا في مناقشة النصوص الشرعية، وكانوا يحذرون من المحدثين، والقصاصين و «الصحفيين»، ومن لا يتورع عن الكذب والتزيد، أو من قد يجوز عليه الكذب لسبب من الأسباب، وهذا محمد بن سلام

صاحب الطبقات يقول: «وفي الشعر المسموع مفتعلٌ موضوع كثير لا خير فيه ولا حجة في عربيته، ولا أدب يستفاد، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستظرف، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحدٍ ـ إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه ـ أن يقبل من صحيفة ولا يروي عن «صحفي».

فأعجب لهذا الكلام الرائع الرصين الذي لا يكتفي بأن يخبرنا أن في الشعر المسموع الموضوع والمفتعل؛ بل ويبصرّنا في الوقت نفسه إلى أننا نستطيع أن نعرف ذلك بيسر إذا تأملنا في هذا الشعر نفسه وما يمكننا أن نفيد منه أو نستخرجه من معنى يروق أو مثل يُضرب أو أدب يُطلب أو لذّة من مُتع العقل والسمع والفؤاد، ثم يبيّن لنا مقدار تحرّي القوم واعتمادهم على الرواية لا على «الصحف» والكتب التي تتعرّض للتزييف والكذب والوضع والافتعال أكثر مما تتعرض رواية اللسان، وما يتطلبه من شروط وقيود يلتزمها القوم ويتعاونون في تَقْنينها ضيقاً وسعةً وتسهيلاً وتشديداً، والمتسامح منهم لا يترك ثغرة لذي أرب خفي، أو غرض مفتعل، يعرف ذلك ويتأكد منه من قرأ كتب الأسانيد والروايات والرواة، فأي أثر لم يسنده راوية ثقة إلى ثقة معروف، ولم يُعرض على العلماء فأقرّوه فهو من سَقَط المتاع.

ولا يكفي عندهم أن تجد في صحيفةٍ أو كتاب أسطراً تروي حديثاً لفلان أو شعراً لعلاّن، وقد يختلف العلماء في بعض الروايات، ولكن ما اتفقوا عليه فليس لأحد فيه رأي أو خيار، وفي ذلك قول ابن سلام «وقد اختلف العلماء في بعض الشعر كما اختلف في بعض الأشياء، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحدٍ أن يخرج منه» وذلك ملائم لطبيعة الأشياء لأن للشعر كما قال ابن سلام صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، مما تُتقِنهُ العين، أو اليد، أو الأذن، أو اللسان.

وكم نكون مخطئين حين نتجاوز النصوص التي بين أيدينا ونحكم على

علمائنا بأنهم كانوا شكليّين في نقدهم للأدب والشعر، وأن ما يسمونه «بالنقد الذاتي» حديث عهدٍ، وننسى أن ابن سلام قد قال بعد أن ضرب الأمثال لذي الخبرة والعلم والصناعة الخاصة: «يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلا صفةٍ يُنْتهي إليها، ولا علم يوقَفُ عليه، وأن كثرة المدارسة لَتُعْدِي على العلم به فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به».

فهل هنالك أكثر تجويداً وأسمى تقديراً للذوق الناشىء عن بصيرة وعلم ودراسة جَعَلَتْهُ ملكة صادقة تتحَسَّسُ الحق ولا تكاد تخطى في تَلمُّسها له، والتصاقها به، وتفانيها فيه.

وهذا يصوّر لنا المعنى السَّامي الذي قصده خلف الأحمر حين قال له قائل، «إذا سمعتُ بالشعر أمتحنه فما أبالي ما قلت فيه أنت وأصحابك.

فقال خلف: إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته فقال العرَّاف إنه رديء هل ينفعك استحسانك له»؟.

فناقد الشعر عندهم كان كالعراف لا يمكن أن يُعطى هذا اللقب حتى يكون قد حذق حذقاً كاملاً معرفة هذه المهنة وما يمتّ إليها من قدرة على تمييز الزَّيف، وموهبته تستطيع أن تفرِّق بين الجيّد والرديء والحق والباطل، وإنها لمزيَّة سامية لا يُسَامقها إلا الأكفاء، وما هي «الذاتية» إن لم تكن اكتفاه الحقيقة، واستشفاف المعنى المراد وراء الحروف والألفاظ وضمن المظاهر والأشكال.

وهذه شِنْشِنةٌ هادرة لو تَرَكْتُ لها الحريَّة لما قرَّ لها هدير، وسيتطاول البيان إلى الشواهد والأمثال فأشرد عن جادة البحث وأخرج عن موضوع الكتاب إلى ما هو خليق بالاهتمام والتفكير والمعالجة في كتاب مستقل لا علاقة له بالأدب اليمني إلا في ضمن آداب العرب في كل مكان.

المسند

وَرَدَتْ لفظة «المُسْنَدِ» في كلامنا كثيراً، ولعله من المفيد أن نقف عندها قليلاً لنبحث عن أصلها، واشتقاقها وأقوال اللغويين والعلماء في ذلك:

وجل ما روي عن علماء اللغة والمؤرخين العرب من تفسير أو تبين لخط المسند، يدل على أنهم لم يكونوا على علم به وإنما يتناقلون الأخبار عنه، ويزيدون فيها وينقصون، يَسْتَوِي في ذلك، ابن منظور صاحب لسان العرب وشارح القاموس (مادة سند) ومحمد بن سلامة القضاعي مؤلفه خطط مصر، وابن جبير والمقريزي في خططه، وابن خلدون في مقدمته، وابن خلكان في وفياته، وغيرهم، منهم من ظنه: خطا خاصاً كان يتناقله الحميريون فيما بينهم أيام ملكهم، ومنهم من قال: إن كلام أولاد شيث، ومنهم من استعمله بمعنى الخط المصور المعروف بالهيروغليف، كما اختلفوا في تعليل تسميته «بالمسند» فقال البعض: لأن حروفها ترسم على هيئة خطوط مستندة إلى أعمدة، وذهب ابن رسته في كتابه الأعلاق النفيسة إلى أنه مأخوذ من المساند وهي أحجار كبار يكتبون عليها الأحداث فأضيفت الكتابة إلى هذا الحجر، ثم حذف المضاف لشهرته فقيل المسند وهم يريدون كتابة المسند.

وأجود ما نقل إلينا من كلام الأقدمين عن (المسند) هو كلام (الهمداني) في كتابه الإكليل فإنه يتفق مع ما توصل إليه علماء الحفريات والنقوش حديثاً في معظم ما جاء به، وقد عقد له باباً خاصاً في الجزء

الثامن من الإكليل ورسم حروفه وذكر اختلاف صورها، وتكلم عن بعض قواعده وفواصله، كما تعرض لذلك في أكثر من موضع في الجزء الأول والثاني من الإكليل مما يدل على أنه كان يحْسِنُ قراءته، ويجيد فهمه، وإن تشكك في ذلك الأب الكرملي، والدكتور جواد علي.

ويتألف (المسند) من تسعة وعشرين حرفاً وهي كلها حروف صامتة، أي خالية من حروف ترمز إلى الحركات. وهو أقدم الأقلام العربية عهداً، ويرى البعض، أنه نبع من الأبجدية الفينقية حوالي الألف قبل الميلاد، ولكن ذلك تخمين باطل، وقد استبعده الدكتور جواد علي وقال: إنه من الصعب البت في مثل هذا الموضوع، ففي الأبجدية العربية الجنوبية حروف غير موجودة في الأبجدية الفينيقية، وفيها حروف تختلف عن الحروف الفينيقية في الشكل، مما ينفي تفرعها واشتقاقها من الفينيقية، ويحمل الإنسان على التفكير في نظرية أخرى بالقياس إلى منشأ هذه الحروف وأصلها، وحروف المسند غير مشكلة فليس فوقها أو تحتها حركات كما هي الحال في عربيتنا حين نرغب في تحريك الحروف وهي غير منقطة، كذلك فلا نقط فوق بعض الحروف أو تحتها لتمييزها من غيرها من الحروف المشابهة لها كما هي الحال في أبجديتنا أيضاً، ولم يرمز عن الحركات بحروف أو برموز تستعمل مع الحروف الصامتة داخل الكلمة ليتمكن بها القارىء من النطق بالكلمة النطق الصحيح كما حدث ذلك في الأبجديات اللاتينية، وفي الأبجديات الأخرى التي سارت على نهجها، ولم يرمزوا عن حرف المد بشيء ولا عن السكون أو التشديد. وهذا مما جعلنا في حيرة من النطق بكلماتهم نطقاً صحيحاً مضبوطاً، وجعل القارىء الحديث يذهب مذاهب مختلفة في كيفية ضبط الكلمة وفي كيفية النطق بها إلى أن يقول:

(وقد ولدت هذه الطريقة مشكلات كثيرة لنا من حيث التوصل إلى معرفةِ نَحْو تلك اللهجات وصرفها).

ورغم الجهود المشكورة التي بذلها بعض المستشرقين لمعرفة قواعد نحو وصرف (اللهجة الحميرية).. فإننا نظن أن كل ذلك من باب الرجم

بالظن، وأنه لم يحن الوقت بعد لأن نقطع في ذلك برأي راجح مؤيد بالبراهين العلمية، وإن كنت أطمئن إلى أنه لو وجد من يعني بقراءة (المسند) على أنه قلم عربي استعمله اليمنيون لتدوين خواطرهم وآرائهم بلغتهم العربية التي لا فرق بينها وبين لغة الشعر الجاهلي القديم ولغة القرآن الكريم... إلا من قبل ارتضاخ لهجة، أو اختصاص بلفظة ـ لو وجد من ينهج هذا النهج ـ واجتهد طويلاً ـ لاستطاع أن يقرأ كل ما اكتشفوه من النقوش قراءة صحيحة لا عوج فيها، ولعرف الناس حينئذ، أنها عربية قحة، وأن عدم التفريق بين اللغة العربية مكتوبة بحروفها المعروفة لدينا الآن، وبينها مكتوبة بحروف أخرى ـ وخصوصاً إذا كانت صامتة مثل المسند ـ هو الذي حدا بالبعض إلى الشطط فظنوا أن لهجة الحميريين ومن قبلهم ومن بعدهم كانت لغة أخرى لا تتفق مع العربية... إلاّ في الأخوة السامية، وذهبوا يبتدعون لها نحواً وصرفاً كلغة قائمة بذاتها.

ونحن نعلم أن ابن الكلبي المتوفَّى سنة **٢٠٤هـ** والهمداني وكل علماء ومؤرخي العرب القدامى، كانوا حين يروون ما وجد في القبور والكهوف من كتابات ووصايا ونصوص بلغة عربية فصيحة، ولم ينكر عليهم أحد ذلك ـ من الناحية اللغوية ـ مما يدل على أنهم كانوا لا يشكّون في أن لغة ـ هذا المسند ـ هي العربية، وعلى أنهم أيضاً قد اعتمدوا في تدوين تلك النصوص وتفسيرها على معرفة بالمسند وقواعد نطقه، أو على وثائق مدونة، وكتب معروفة.

ويؤكد هذا ما قاله «بروكلمان»: من أن البحوث العلمية التي قام بها المستشرقون قد وافق معظمها ما جاء عن ابن الكلبي، وأيده في كثير من المواضع التي كان يتهم عليها، وما قاله «الهمداني» في الجزء الأول من الإكليل، وهو يتحدث عن شيخه: أبي نصر الحنبصي، قال: «شيخ حمير، وناسبها، وعلامتها، وحامل سفرها ووارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها، وقارىء مساندها، والمحيط بلغاتها» ومما يستأنس به ـ لتأكيد ما نذهب إليه ـ أسماء الأرقام عندهم، فإنهم يرمزون لرقم (٥) بحرف الخاء، الذي هو الحرف الأول من كلمة «خمس» ويرمزون

لرقم (١٠) بحرف «العين» الذي يمثل الحرف الأول من كلمة «عشرة» ولرقم (١٠٠) بالحرف الأول من كلمة «مئة» أي بحرف «الميم»، وأما الألف، فرمزوا عنه بالحرف «ألف» أي الحرف الأول من الكلمة أيضاً، مما يؤكد أن أسماء أرقامهم كأسماء عربيتنا المعروفة[١].

وقد عقد الدكتور جواد علي فصلاً كبيراً للحديث عن «المسند» وأشكاله، وقواعده ونحوه، وصرفه، في الجزء السابع من كتابه «تاريخ العرب قبل الإسلام»[٢] كما تحدث عنه أيضاً بإسهاب في الجزء الأول من كتابه، ولعله من المفيد أن ننقل بعض ما قاله مما يؤكد أن المسند كان هو القلم العام لجزيرة العرب كلها في يوم من الأيام ولم يكن خاصاً بحمير كما ظن بعض المؤرخين قال:

«أما المسند فقد اشتهر عند علماء العربية بأنه خط حمير، ولذلك قال بعضهم الخط الحميري و «القلم» الحميري كما قال له المستشرقون فيما بعد

---

(١) استعمالهم حرف «الخاء» في مقام العدد «٥» جعلهم يحارون بعض الحيرة في التعبير عن العدد «٥٠» الذي يبدأ مثل العدد «٥» بحرف الخاء، فتخصيص هذا الحرف بالعدد «٥» جعل من غير الممكن تخصيصه بالعدد (٥٠) كذلك. ولما كان من الصعب كتابة الـ «٥» عشر مرات للتعبير عن العدد (٥٠) الذي هو حاصل جمع عشر خمسات خاصة لأن هذا العدد يتضاعف ويتكرر، فكروا في حل آخر يحل لهم هذه المشكلة. مشكلة إيجاد حرف أو علامة ترمز عن الرقم (٥٠) وقد وجدوا ذلك الحل من حقيقة العدد (٥٠) الرياضية. فالعدد (٥٠) هو نصف الـ (١٠٠) كما هو معلوم. ولما كان حرف الميم يرمز عن المئة، والمئة هي حاصل جمع خمسين مع خمسين، فيكون حرف الميم هو حاصل جمع خمسين مع خمسين. ولما كان حرف الميم في المسند هو على شكل خط عمودي يرتكز عليه مثلثان قاعدتهما ملتصقة على ذلك العمود من الجهة اليسرى منه، فإن كل مثلث من ذينك المثلثين يعبر في الواقع عن الرقم (٥٠)، فهداهم تفكيرهم هذا إلى رفع المثلث الأسفل ليبقى مثلث واحد هو المثلث الأعلى مرتكزاً على الخط العمودي ليعبر عن قيمته المتبقية وهي خمسون، وصار هذا الرمز الذي هو نصف حرف الميم رمزاً عندهم للعدد (٥٠) وبذلك أوجدوا لهم حلاً لتلك المشكلة التي لا بد أنها شغلت بال كتابهم مدة من الزمن (انظر صفحة ٤٤، ٤٥ من تاريخ العرب قبل الإسلام الجزء السابع).

(٢) من صفحة ٣٦ إلى صفحة ١٣٩.

وهي تسمية مغلوطة على كل حال، لأن الحميريين لم يكونوا أول من أوجد هذا الخط، لقد سبقهم في استخدامه السبئيون والمعينيون وأقوام عربية أخرى وربما استخدمته شعوب أخرى أقدم من هذا عهداً.

قال ابن خلدون في مقدمته «كان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها إلا بإذنهم. ومن حمير تعلمت مُضَرُ الكتابة العربية» وقد بقيت جماعة من اليمن تكتب بهذا الخط وهي في الإسلام.

والمسند من الأقلام العتيقة، وهي أعتق من القلم النبطي المتأخر وهو أقدم الأقلام التي عرفت في شبه جزيرة العرب حتى الآن وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة أن النظرية القديمة التي كانت ترى أن استعمال القلم الحميري كان قاصراً على اليمن فحسب، لم تكن صحيحة وأنه على العكس كان مستعملاً في مناطق نائية بعيدة عن اليمن، بل لقد تجاوز حدود بلاد العرب قبل المسيح فعبر إلى مصر حيث عثر في موضع «قصر البنات» على طريق «قنا» على كتابات بهذا القلم كما عثر على كتابة بهذا القلم كذلك بالجيزة كتبت في السنة الثانية والعشرين من حكم بطليموس بن بطليموس وهي ليست بعد سنة **٢٦١** قبل الميلاد بأي حال من الأحوال وعثر على كتابات بالمسند في جزيرة «ديلوس» من جزر اليونان.

ولا يمكن تصور وجود هذه الكتابات في هذه الجزيرة البعيدة لو لم تكن هناك صلات بين شبه جزيرة العرب وبين اليونان. ولعل الأيام تكشف عن نصوص أخرى في أماكن حول البحر المتوسط أبعد من جزيرة «ديلوس» ترينا كيف أن النظرية القديمة التي وضعت جزيرة العرب في عزلة عن العالم لم تكن تستند إلى علم.

وذكر السائح الإنكليزي «لوفتس»:

أنه لاحظ فجوة في «وَرْكاء» في العراق فبحث فيها فتبين له أنها كانت قبراً، ووجد في داخله حجراً مكتوباً بالمسند، فيه: إن هذا قبر هنسترِينْ عِيسوُ بن هنستر.

ولهذه الكتابات المدونة بالمسند أهمية كبيرة جداً لأنها أول كتابة وجدت بهذا الخط في العراق، وهي تشير إلى الروابط الثقافية التي كانت بين اليمن والعراق، وإلى وجود أشخاص في هذا المكان كانوا يستعملون المسند سواء كانوا عراقيين أم يمانيين.

أما في الحجاز، فلم تعرف الروايات العربية أنه كان يستعمل المسند استعمال حمير وأسلاف الحميريين، وأنه كان قلم الحجازيين قبل الميلاد وقد وصل هذا القلم إلى فلسطين وربما وصل إلى الشام، فقد عثرت بعثة علمية قامت بأعمال الحفر في ميناء «عصيون جابر» على جرار عليها كتابات بحروف المسند رأى بعض العلماء أنها معينية تفصح عن الأثر العربي في هذا الميناء المهم الذي حاول سليمان أن يجعله ميناء إسرائيل على البحر الأحمر.

وكشفت العروض ونجد وأماكن أخرى في جنوب نجد عن سر كان العلماء يبحثون عنه في شوق، فقدمت للعلماء عدداً من الكتابات المدونة بالمسند وبذلك ثبت علمياً أن المسند كان معروفاً قبل الإسلام في كل شبه جزيرة العرب وربما كان القلم العام للعرب قبل المسيح، أي قبل ظهور أقلام أخرى ولدت على ما يُظن قبل الميلاد.

ففي سنة ١٩١١ للميلاد عثر الكابتن شكسبير على كتابتين «بالمسند» في موضع حنا وفي خرائب . . «ثج» «تأج» التي تبعد خمسين ميلاً تقريباً عن ساحل الخليج وزهاء مئة ميل عن شمال غربي القطيف، وقد نشر ترجمة الكتابتين المستشرق «مارجليوث»، وعثر بعد ذلك على كتابة أخرى في موضع «ثج» «تاج» دخلت في ملك أمير الكويت وقد نشر ترجمتها «ريكمن» وهي حجر قبر لشخص من قبيلة «شذب»، وعثر على كتابة أخرى في هذا الموضع وقد بلغ عدد ما عثر عليه في هذا المكان أربع كتابات، وعثر عمال شركة البترول العربية السعودية الأمريكية «أرمكو» في أثناء الحفر على مقربة من «عين جوان» «جون» عام ١٩٤٥ للميلاد على حجر مكتوب تكسَّرت بعض أطرافه بالمعاول قبل معرفته، اتضح بعد أنه حجر قبر لامرأة يقال لها

«جشم بنت عمرت» (عمرة) بن تحيوس أسرة (عور) (آل غور) من قبيلة (شذب).

واستخرج (كورنول) لوحاً مكتوباً بالمسند كان مدفوناً في أحد بساتين القطيف دفنه أصحاب البستان، وقد ذكر أنه نقل من جزيرة «تاروث» أو من موضع لا يبعد كثيراً عن القطيف، وقد وجد أن هذا اللوح هو مثل الألواح التي عثر عليها قبلاً، شاهد قبر، وضع على قبر رجل يقال له «إيليا بن عيني ابن شعر من أسرة سمسم من عشيرة ذال من قبيلة شذب» ويرى بعض المستشرقين أن صاحب القبر كان نصرانياً عاش في القرن الخامس أو السادس للميلاد.

وعثر على شاهد قبر آخر مدون بالمسند، هو شاهد قبر (شبام بنت صحار بن عنهل بن صامت) من قبيلة يدعب، وجد على مقربة من القطيف و (يدعب) بطن في بطون قبيلة (شذب) ويظهر أن قبيلة شذب كانت من القبائل المعروفة في (العروض) وكانت ذات عدد من البطون، ولا تحمل الكتابة تاريخاً، ويرى الذين درسوها أنها تعود إلى القرن السادس للميلاد وأما الرقم الذي ذكر في نهاية النص فالظاهر أنه يشير إلى عمر صاحبة القبر.

هذا ما عثر عليه من كتابات بالمسند في العروض، أما في أواسط شبه الجزيرة وفي داخلها وفي الأماكن التي لم يكن يتصور العثور فيها على أثر الحضارة فقد عثر فيها على كتابات بهذا القلم، ولهذه الكتابات أهمية كبيرة، لأنها أول وثيقة تاريخية لا يتطرق إليها الشك، ترد إلينا عن هذه المناطق التي يَرد لها ذكر مفصل عند المؤرخين السابقين، ولأنها أول دليل عملي يثبت انتشار الخط في أواسط شبه الجزيرة. عثر (فلبي) في هذه المناطق على فخار وآثار أرسلها إلى المتحف البريطاني ظهر أنها تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد ويَظُن مَنْ فَحصَها أنها من آثار السبئيين، وأظن أنها غير سبئية لأن لهجتها لهجة أخرى تختلف عن لهجة السبئيين، كما عثر على كتابات وصوَر، وبقايا مقابر وعظام. وقد صور (فلبي) بعض الكتابات وصور بعضاً آخر رجال شركة البترول العربية السعودية الأمريكية الذين وصلوا إلى

هذه المواضع للبحث عن البترول. وقد وصلت تصاوير عدد منها إلى العلماء فنشروا نصوصها وترجماتها مثل كتابات (القرية) أو (قرية النار) التي سبق أن تحدثت عنها.

وقد وجد اسم الصنم (ود) مكتوباً بحروف كبيرة بين تلك الكتابات. وحيث إن هذه الكنوز الثمينة إنما عثر عليها ظاهرة على سطح الأرض، وحيث إنها لم تفحص الكهوف فحصاً دقيقاً، ولم تنظف من الأتربة والرمال التي في داخلها فإننا نأمل العثور على أشياء ثمينة ذات بال بالنسبة للتاريخ الجاهلي إذا اهتمت الحكومة العربية السعودية بهذا الأمر وقامت بتجهيز بعثة علمية من المتخصصين بالأثريات العربية أو سهلت للعلماء وللبعثات سبيل الوصول إليها. وحافظت على تلك الآثار من التلف وعبث العابثين.

ووجد (فلبي) كهوفاً ومقابر في مواضع أخرى من (وادي الفأد) وقد وُجدت حيطان بعض الكهوف (سردب) (سرداب) مكسوة بالكتابات و (الرسم) والتصاوير المحفورة، ويظهر أن أبنية ضخمة كانت في هذه الأماكن. وعثرت شركة (آرامكو) على رأس نُحِتَ من الحجر في (القرية) كتب عليها بالمسند أنه (ثار ونفس علزان) (علزن) بن قلزان (قلزن) غلوينان (غلونين) أي (صورة وقبر علزان بن قلزان الغلواني)، كما وجدت كتابات بهذا القلم عند جبل عبيد وفي حصن ناطق وفي شمال موضع (خشم كمدة) على مسافة (١٠٠) كيلومتر من شمال قرية (الفأو) في وادي الدواسر وفي وادي هين على (١٢٠) ميلاً شمال شرقي عدن وفي (عين قرية) على ٣٠ ميلاً من شمال زفر وفي (منخلي) في جنوب خشم العرض حيث يعتقد البدو أن هذا الموضع هو بئر من آبار عاد).

ثم يقول الدكتور جواد علي:

(لم يفسر علماء العربية سبب تسمية (المسند) مسنداً، وقد قرأت (لإسرائيل ولْفنْسون) تعليلاً لتسمية هذا القلم مسنداً فقال (والخط المسند يميل إلى رسم الحروف رسماً دقيقاً مستقيماً على هيئة الأعمدة فالحروف عندهم على شكل العمارة التي تستند إلى أعمدة) وعلى العموم فإن لحضارة

بلاد جنوب العرب عقلية تنحدر نحو الأعمدة في عمارة القصور والمعابد والأسوار والسدود وأبواب المدن.

من أجل ذلك يوجد عندهم ميل شديد لإيجاد حروف على هيئة الأعمدة، أي أن الحروف كلها عبارة عن خطوط مستندة إلى أعمدة.

وقد تنبه علماء المسلمين إلى شكل هذه الكتابات وأطلقوا عليها لفظ المسند، لأن حروفها ترسم على هيئة خطوط مستندة إلى أعمدة.

وبعد أن سفَّه هذا الرأي قال جواد علي (إن كلمة المسند) التي تطلق في المؤلفات العربية الإسلامية على خط أهل اليمن قبل الإسلام لا علاقة لها بالقصور والمباني واستناد أجزاء الحرف الواحد بعضها على بعض، وإنما تعني شيئاً آخر تعني خط (حمير) لا أكثر ولا أقل، وكلمة مسند في العربية الجنوبية تعني الكتابة (مطلقاً وقد وردت في مواضع متعددة من الكتابات والنقوش).

وأخيراً يقول:

«يتألف المسند من تسع وعشرين حرفاً، وأبجديته مثل الأبجديات السامية الأخرى من حيث أنها تتألف من الحروف الصامتة ولا حركة في الكتابة فيها ولا ضبط في أواخر الكلمات ولا علاقة للسكون أو للتشديد. وَيُفْصَل بين الكلمة والكلمة التي تليها فاصل هو خط مستقيم عمودي. وقد يكتب الحرف المشدد مرتين كما في اللغات الأوروبية. وتقرأ الكتابة من اليمين إلى اليسار وتقرأ في بعض الأوقات من اليسار إلى اليمين على طريقة الكتابة اللاتينية ويمزج بين الطريقتين أحياناً فيكتب من اليمين إلى اليسار، فإذا انتهى السطر كتب من اليسار إلى اليمين ثم من اليمين إلى اليسار وهكذا على شكل حلزوني.

ومما يلاحظ على الكتابات المعينية أنه لم يطرأ عليها تغيير كبير في العهود التي مرت بها. أما الكتابة السبئية فيمكن التمييز بين القديم منها والمتأخر في الأسلوب وفي شكل الكتابة. وللكتابة الحميرية مميزات أخرى منها اشتمالها على تاريخ الكتابة والزخرف). انتهى.

ولعلنا بعد هذا نستطيع أن نقول، إن المسند كان معروفاً قبل الإسلام في كل شبه جزيرة العرب وإنه من المحتمل احتمالاً راجحاً الاعتقاد بأنه كان القلم العام للعرب قديماً، ومنه تفرعت الخطوط التي ظهرت في شبه الجزيرة في العصر الجاهلي الأخير.

أجل إن أولئك الذين عودوا أنفسهم على أن لا يصدقوا شيئاً يرويه المؤرخون وأن يتشككوا إزاء كل أثر أو خبر حتى يجدوا الدليل الحيَّ الذي يشاهدونه بأعينهم، أو يلمسونه بأيديهم، سيجدون أنفسهم ولا شك في متاهة حين يحاولون تعليل انتشار (المسند) في كل شبه الجزيرة العربية، وسيظلون ينتظرون ما تأتي به نتائج الحفريات، والاكتشافات العلمية، وإلى أن يحين ذلك الوقت قريباً أو بعيداً سيظلون حائرين لا يهتدون إلى اليقين. أما الذين تعودوا كثيراً الاطمئنان إلى صحة ما يعتقدونه صحيحاً، ويتحرون أكثر ما يتحرون توثيق الرواة، ونقد الرواية، بالعقل، والترجيح، فإذا اطمأنت نفوسهم، إلى توثيق الراوي، وصدق الرواية وعدم مخالفتها للعقل، والمنطق، ومقاييسهم النقدية، فإنها تكون حينئذ لديهم بمثابة الدليل، الحسي الملموس وبهذه الطريقة، أخذ العرب والمسلمون جلَّ تراثهم الديني والثقافي... لذلك فإن انتشار (المسند) في كل شبه الجزيرة العربية - في نظري - أمر يتفق وطبيعة الأشياء، فقد ذكر التاريخ، أن عرب اليمن الذين اصطنعوا هذا المسند كانوا هم المسيطرين سياسياً وتجارياً وعسكرياً على كل شبه الجزيرة، في وقت من أوقات التاريخ، بل كثيراً ما بالغ التاريخ والمؤرخون في وصف الروايات التي تكاد أن تكون أشبه بالخيالات.. وأقرب إلى الأساطير، عن أولئك الفاتحين الغزاة من الحميريين والسبئيين.. أما أنهم سيطروا على كل الجزيرة العربية في فترات طويلة وأحقاب مديدة من تاريخ العرب قبل الإسلام فذلك ما يتفق عليه الرواة والمؤرخون القدامى، وما ينطبق كما قلنا وطبيعة الأشياء... إذا قدرنا التفوق المادي وما كانوا يمتازون به بين سائر الشعوب العربية الأخرى من حضارة ومدنية، ونظام، وثروة، وتجارة وحركة، وما يمتاز به موقعهم الجغرافي بالنسبة للتجارة بين الشرق والغرب في العالم القديم، وذلك ما أسهب المحققون

في تفصيله وتبينه في مظانه من كتب التاريخ. وإذا قدرنا أيضاً ما يتطلبه هذا الامتياز وذلك التفوق من رغبة في التوسع، إما طمعاً في تأثيل مجد، وتشييد فخار، أو حفظاً لمصالح عيش، ومنافع رزق، أو نزوعاً إلى توحيد شمل، وتجميع كيان، أو لكل ذلك، ولغيره من شؤون الحياة، وما أكثرها.. وقد روى التاريخ ذلك وأكده، وما كشفه العلم من انتشار (المسند) أو (القلم الحميري)، في أصقاع شبه الجزيرة، إنما يقدم البرهان الحسي المادي لمن يسعى إليه. وقد قرأنا كثيراً في كتب (الهمداني) عندما يتحدث، أو ينسب أشخاصاً فيقول: (كان يتولى أعمال تهامة، والحجاز، أو عمل اليمامة والبحرين، ونجد إلى كندة) إلى غيرها من الأماكن مما يدل على أن جزيرة العرب كانت في ماضيها تخضع لحكم واحد ودولة واحدة.

الكتابة وأصل الخطّ العربي

أما أن قدماء اليمنيين كانوا يعرفون الكتابة، ويستعملونها نقشاً على الأحجار لتسجيل أغراضهم الدينية والقانونية، ومفاخرهم القومية، وحوادثهم التاريخية، والتعريف بأجداثهم ومقابرهم، فذلك ما لا شك فيه، فقد عرفوا الكتابة واستعملوها منذ أقدم العصور التي وصل إلينا علمها. ولكن هل استعملوا الكتابة في تسجيل الشعر أو النثر الفني، وشؤون الحياة الخاصة، مما يعبر عن وجدان، أو يصف إحساساً، أو يترجم عن فكرة، وعلى مواد رقيقة كالجلد والورق وما شاكلها؟.

وهل استعملوا في تسجيل الفن الكلامي نفس الكتابة التي كانوا يستعملونها في نقش الآثار الدينية، والقانونية والتاريخية على الأحجار؟ أم أنهم كانوا يصطنعون نوعاً آخر من الكتابة على المواد الرقيقة، تتناسب معها، وكانت هي التي تطورت وتغيرت مع الأيام وأصبحت أصلاً للخط العربي المعروف؟.

لم يعثر العلم حتى اليوم على ما يثبت هذا أو ينفيه، ولا يعقل أن قوماً بلغوا من الحضارة والمدنية ما بلغه قدماء اليمنيين من مدنية استمرت آلاف السنين ثم لا يكون لهم بيان فني يصور حياتهم الفكرية والوجدانية. ومن البعيد أن يكونوا قد استعملوا حروف «المسند» لو أنهم قد كتبوا بالحبر على الورق شعراً ونثراً وأخباراً، أو على الأقل لا بد أن يحدثوا شيئاً من التغيير فيها، «كأن يحدثوا بعض الليونة على الأحرف ليرتبط بعضها ببعض، ولتسهل حركة الكتابة على الكتاب» كما قال الدكتور جواد علي:

أجل إن أحداً من علماء الآثار المحدثين لم يحدثنا أنه عثر على كتابات يمنية قديمة مسجلة في رقّ أو جلد أو قرطاس.

ولا يعني ذلك بحال من الأحوال أن اليمنيين لم يعرفوا الكتابة عليها، فمثل هذه المواد الرقيقة معرضة للتلف، وقد حرمنا من كل تراث العصور الجاهلية. بل وما دوّن في القرن الأول والثاني للهجرة من أدب وعلم ودين على القراطيس والأوراق وما شابهها من مواد فحرمنا من معرفة كثير من الخطوط العربية وتطورها الفني القديم.

والقرآن الكريم حين يتحدث عن «القلم» و «الرق المنشور» و «الكتابة» و «التسطير» إنما يتحدث عن أشياء معلومة معروفة عند قوم قد قطعوا أشواطاً بعيدة في مضمار الكتابة والتعليم والتدوين.

وحين يحكي لنا القرآن الكريم قصة ملكة سبأ مع النبي سليمان عليه السلام وقولها لقومها، ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة النمل] لا نتصور أن هذا «الكتاب الكريم» قد ألقي إلى بلقيس في صخور وأحجار، ولكن في أرق ما يمكن أن يخط عليه قلم، ويدون فيه كتابٌ كريم. وحين نرجع إلى كتب التاريخ والأدب نجد الهمداني يحدثنا في أكثر من موضع حديث المطلع على آثار جاهلية قديمة مدونة في كتب كقوله عن أبي نصر الحنبصي إنه وارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من مكتوب علمها. وقوله وهو يتحدث عن صعدة «وقد سكنت بها عشرين سنة فأَطْلَلْتُ على أخبار خولان وأنسابها ورجالها كما أطللت على بطن راحتي، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفري المتوارث من الجاهلية» وقد أشار الهمداني إلى هذا السجل في كتابه الإكليل عدة مرات مما يدل على أن أخبار وأنساب الحميريين والسبئيين كانت مسجلة في كتب وسجلات ظل اليمنيون يتوارثونها حتى عفى عليها الزمن والتهمتها كوارث الفتن كما حصل بدواوين ملوك الحيرة، وبني عبد المدان، والغسّانيين وغيرهم.

وروايات المؤرخين وآراؤهم تختلف في منشأ الخط العربي غير أن

أكثرهم يجمعون على أن الكتابة اليمنية القديمة هي أصل الخط العربي، ولكن المحدّثين لا يستطيعون أن يقرّوا ذلك للتفاوت الكبير بين ما نقل إلينا على أنه الكتابة اليمنية، وبين هذا الخط العربي بحيث لا يمكن أن يكون له أصل. فالبون شاسع بين خط المسند وبين الخط العربي بحيث ينفي وجود أي صلة بينهما اللهم إلا إذا كان اليمنيون قد استعملوا لِلْكتابة على المواد الرقيقة نوعاً آخر من الخط ولم يصل إلينا علمه، وذلك محتمل فنحن حتى الآن لا نعرف إلا القليل من الخطوط والأقلام العربية القديمة، بل نحن نرجح أن اليمنيين لم يكونوا يستعملون «خط المسند» بالشكل الذي يستعملونه على الأحجار في كتابة أشعارهم وأخبارهم ومراسلاتهم على الورق أو الجلد أو الْعُسُب اليمانية، بل كانوا يستعملون نوعاً آخر من الخط أسهل استعمالاً وأيسر على الكاتب وهو الذي عناه الرواة الذين يرون أن منشأ الخط كان في اليمن كما روي عن ابن عباس وذهب إليه ابن خلدون في مقدمته وأشار إليه ابن النديم في «الفهرست» والصولي في أدب الكاتب، وفي لسان العرب عن ابن سيده: والجزم هذا الخط المؤلف من حروف المعجم، قال أبو حاتم: سمي جزماً لأنه جزم عن المسند، وهو خط حمير في أيام ملكهم، أي قطع ومما يؤكد أن اليمنيين قد عرفوا الكتابة على المواد الرقيقة وأنهم بلغوا في ذلك مبلغاً عظيماً من الاتقان ما ورد في أشعار الجاهليين فهذا أبو ذؤيب الهذلي يصف كاتباً من اليمن يكتب دَيْنَه على رجل آخر.

عرفت الديار كرقم الدوا ... ةِ يَزْبُرُهُ الكاتب الحميري
برقم ووشي كما زخرفت ... بميشعها المزدهاة الهديّ
أدان وأنبأه الأولون ... أن المدان المليّ الوفي
فنمنم في صحف كالرّيا ... ط فيهن إرث كتاب محيّ

وقال امرؤ القيس:

ترى أثر القرح في جلده ... كنقش الخواتم في الجرجس

والجرجس الصحيفة وقال أيضاً:

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط الزبور في العسيب اليماني

والعسيب السعفة أو جريدة النخل إذا يبست وكشط خوصها. وقال أبو الفرج في الأغاني: خرج قيسبة بن كلثوم السكوني، وكان ملكاً، يريد الحج ـ وكانت العرب تحج في الجاهلية فلا يعرض بعضُها لِبَعْض ـ فمر ببني عامر بن عقيل فوثبوا عليه فأسروه وأخذوا ماله وما كان معه وألقوه في القِدِّ فمكث فيه ثلاث سنين، وشاع باليمن أن الجن استطارته، فبينا هو في يوم شديد البرد في بيت عجوز منهم إذ قال لها: «أتأذنين لي أن آتي الأكمة فأتشرق عليها فقد أضرَّ بي القرُّ؟ فقالت له: نعم. وكانت عليه جبة له حبرة لم يترك عليه غيرها، فتمشى في أغلاله وقيوده حتى صعد الأكمة، ثم أقبل يضرب ببصره نحو اليمن، وتغَشَّاه عبرةٌ فبكى، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال اللّهم ساكن السماء فرِّج لي ما أصبحت فيه فَبَينا هو كذلك إذ عرض له راكب يسير، فأشار إليه أن أقبل، فأقبل الراكب، فلما وقف عليه قال له: «ما حاجتك يا هذا؟ قال: أين تريد؟ قال: أريد اليمن. قال: ومن أنت؟ قال: أنا أبو الطمحان القيني، فاستعبر باكياً. فقال له أبو الطمحان: من أنت؟ فإني، أرى عليك سيماء الخير ولباس الملوك وأنت بدار ليس فيها مالك. قال: أنا قيسبة بن كلثوم السكوني، خرجت عام كذا وكذا أريد الحج، فوثب على هذا الحي فصنعوا بي ما ترى، وكشف عن أغلاله وقيوده فاستعبر أبو الطمحان، فقال له قيسبة: هل لك في مائة ناقة حمراء؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك. قال: فأنِخْ، فأناخ ثم قال له: أمعك سكين؟ قال: نعم. قال: ارفع لي عن رحلك، فرفع عن رحله حتى بدت خشبة مؤخره فكتب عليها قيسبة بالمسند، وليس يكتب به غير أهل اليمن:

بَلِّغَا كندةَ الملوك جميعاً حيث سارت بالأكرمين الجمال
أن رِدُوا العَيْنَ بالخميس عجالاً وأصدروا عنه والروايا ثقال
هزئت جارتي، وقالت عجيباً إذ رأتني في جيدي الأغلال
أن تريني عاري العظام أسيراً قد براني تضعضع واختلال
فلقد أقدم الكتيبة بالسيـ ـف عليَّ السلاحُ والسربال

وكتب تحت الشعر إلى أخيه أن يدفع إلى أبي الطمحان مائة ناقة. ثم قال له أقرىء هذا قومي، فإنهم سيعطونك مائة ناقة حمراء. إلى آخر القصة، وكل ذلك يدل على أن اليمنيين قد استعملوا في كتابتهم مواد غير الأحجار والمساند وأنهم يجوّدون الخط ويتأنقون فيه ويزخرفونه حتى صحَّ لأبي ذؤيب الهذلي أن يشبهه بالعروس ليلة أن تهدي إلى زوجها، ويصف الكاتب بأنه ينمنم كتابته أي يُرَقِّشها ويزخرفها على صحف كالرياط أي الأثواب الناعمة الدقيقة.

أما الهمداني فقد نقل في الإكليل رأياً يرجع بالخط العربي إلى أيام العرب العاربة إلى عبد بن ضَخْم وبني بَيْض وروى عن الكلبي أنه قال:

يقال إن هذين الحيين هم الذين وضعوا الكتاب العربي بالحجاز ولهم يقال «حاجر الأزدي»:

عبد بن ضخم إذا نسبتهم وبيض، أهْلُ العلو في النسب
ابتدعوا منطقاً بخطِّهم فبيَّن الخط لهجة العرب

وبنو عبد بن ضخم قبيلة من العرب العاربة درجوا كما في لسان العرب.

وقال الهمداني إنهم كانوا يسكنون الطائف فانقرضوا وفيهم يقول أمية بن أبي الصلت.

كما أفنى بني عبد بن ضخم فما يذكو لصاليها شهاب
بني بيض، ورهط بني معاذ وفيهم عزة، وهم غلاب

وللعلماء والرواة أقوال كثيرة في منشأ الخط العربي وهي في مجموعها تدل على أنهم يرون أنه لم يكن أصيلاً في الحجاز، وإنما دخله من اليمن أو العراق أو أرض مدين، كما أن للمستشرقين وجمهرة الباحثين المعاصرين آراء أخرى وقد استوفى نقلها جميعاً الدكتور جواد علي في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام فمن أراد التوسع فليرجع إليه.

الأدبُ الشعْبي

لا أريد أن أطيل الحديث عن الأدب الشعبي وأهميته في تاريخ كل أمة، ومدى تأثيره على مجتمعها وتطورها، وصلة كل ذلك بحياتها العقلية والاجتماعية، فقد كاد الناس أن يفرغوا من ذلك، فهو في كثير من الأحيان الصورة الصادقة لِعَقْلية الأمة وطريقة فهمها للحياة، واستعدادها لتذوّق الأشياء، وأحاسيسها إزاء الخير والشر والجمال والقبح، والسعادة والشقاء.

والشعب اليمني يمثل ما عُرِفتْ به الأمة العربية منذ أقدم العصور، من حبٍ للأدب، وافْتِتَان بِسحْر الكلمة، فهو شعب شاعرٌ طروب يحب الأغاني، ويحب الشعر، ويغرم بالفنون الجميلة في شتى أشكالها، حَركةً أو أداءاً، وتعبيراً أو غناءاً، ولا تكاد تخلو قبيلة من القبائل أو جذم من الأجذام، دون أن يكون لها حادٍ أو شاعر يلهج بمفاخرها، ويذود عن حياضها، ويرتل آمالها ويعبّر عن آلامها، ويُسجل أمجادها.

ورغم أن جُل هؤلاء الشعراء أميُّون إلا أنك حين تصغي إلى قصائدهم وأراجيزهم تجدُها جيدة السبك، شريفة القصد، في لهجة عربية سليمة.

نعم قد يكون من التجاوز اللفظي أن نطوي تحت عنوان «الأدب الشعبي» كل المعاني التي أقصدها وأريد أن أتحدث عنها من أنواع «التعبيرات الفنية» التي جرت عادة أبناء اليمن أن يلجأوا إليها في كثير من الأحيان للتعبير عن أغراضهم وأهوائهم وتصوير مشاعرهم، اللهم إلا إذا كان المراد هو الحديث عن كل ما لم تَجْرِ عادة مؤرخ الأدب العربي - في

العصر الحديث ـ أن يتحدث عنه حين يكتب عن الشعر أو النثر الفني.

فالآداب الشعبية في اليمن متعددة الأنواع والأشكال والأسماء؛ فمنها:

١ ـ الزَّامِلْ:

جمعه «زوامِلْ» وهو نوعٌ من الرَّجز يلجأ إليه أبناء اليمن عندما يكونون في حالة خصام أو حزوب فيقف قائدهم ـ وهو في غالب الأحيان يجيد نظم الزوامل ـ أو أي واحد منهم فيرتجز بضعة أبيات بلهجته العامية فيتلقفها القوم وينغمونها بأصواتهم ثم ينشدونها جميعاً لإثارة الحماس، وتحفيز الهمم، وكذلك إذا كانت جماعة من الناس، أو قبيلة من القبائل، تريد أن تحقق لها مطلباً، أو تسأل أمراً من «الإمام»، أو «الحاكم» أو قبيلة أخرى، فإنها تُوفد زُمرةً تمثلها وهم ينشدون «الزامل» الذي قد وَضعوا فيه مطلبهم، وأوجزوا غرضهم، وهذا النوع من الرجز قديم وقد قال الهمداني في الجزء الأول من الإكليل: «وسمعتُ رجال بني نهد تنشد في أشعارها «وتَزوْمِل» في حروبها:

يا أيها الدَّاعي ادعنا وأبشرِ وكن قضاعياً؛ ولا تنزرِ
نحنُ بنو الشيخ الهِجانِ الأزهرِ قضاعة بن مالك بن حميرِ
النسب المعروف غير المنكرِ من قال قولاً غير ذَا «تنصرِ»

وهَذه التسمية خاصة بأهل اليمن لم يعرفها غيرهم، أو أنها مأخوذة أصلاً من «الزَّمَل» وهو الرَّجز كما قال الشاعر:

لا يغلب النازع ما دام «الزَّمَلْ» إذا أكبَّ صامتاً فقد حَملْ

يقول: ما دام يَرجُزُ فهو قويٌ على السعي فإذا سَكتَ ذهبت قوته ويُروي (الرَّمَل) بالراء كما في لسان العرب.

(والزامل) عادة يكون باللغة العامية وتتفاوت القطعة منه ما بين بيتين وثمانية أبيات، ومن أمثلة ذلك قول (الشيخ الفقيه) شاعر خولان الطيال:

مَابَا نِسَلِمْ لِلجنودِ الكافرهْ لو با يقولونْ القيامهْ باتقومْ

ولو سما الدنيا تقعْ له طايرهْ تلقي القنابل مثلما عدَّ النجومْ[1]

أو قوله أيضاً:

حَيدْ «الطِّيال» إعلنْ ونادي لاجبالشْ باليمنْ

قولي لهمْ: ما بانجمهزْ قط. لو نخلصْ خلاصْ

لو يرجعْ أمسْ اليومْ، وإلا الشمس تشرقْ من «عَدَنْ»

والأرض تشعل نار، وامزان السما تهطل رصاص[2]

٢ ـ القصيدْ:

وهو في عرف أهل اليمن «الشعر القبلي» الذي يمارسه شعراء القبائل الأميون أو من يسلك منهجهم، والفرق بينه وبين «الزامل» أن أوزانه تتشعب كثيراً وأن القطعة منه تتراوح ما بين العشرة أبيات والمائة بيت، وهذا النوع من الشعر يتعاطاه الكثير من اليمنيين، ولكن القليل هم الذين يجيدونه ويحكمونه وفي مقدمتهم الشيخ علي ناصر القردعي، وأخوه الشيخ أحمد ناصر، والشيخ عبدالولي الذهب، والشيخ محمد صالح جميزة، والشيخ عبد ربه الحميقاني، والقاضي أحمد الحضراني، والشيخ ناجي بن علي الغادر، والشيخ الفقيه، والصوفي، وغيرهم كثيرون.

فالشيخ محمد صالح جميزة ـ وقد جاوز الآن السبعين من عمره ـ وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة، يقرض الشعر القبلي بكثرة ويجوده تجويداً بديعاً كقوله من قصيدة كبيرة أولها:

---

(١) معنى البيتين: أننا لن نستسلم للعدو ولو قامت قيامة العالم، وأننا لن نرهب قواته ولا طياراته حتى لو تحولت السماء الدنيا له طائرة وأصبحت نجومها قنابل يلقيها علينا.

(٢) المعنى: جبل «الطيال» صرخ في جميع جبال اليمن وناداها أن تقول: إن قبائل اليمن لن تدخل تحت نظام «الجمهورية» المزعوم ولو سبب لها ذلك الفناء. وأن الشعب اليمني لن «يجمهر» حتى ولو عاد أمس الغابر، أو لو أمكن للشمس أن تشرق من (الجنوب)، ولو تحولت الأرض إلى نار، وتحولت أمزان السماء إلى قنابل محرقة.

يقول أبو «فنهْ» الليله طلغ فكرِهْ من هاجسهْ ذي هجسْ حرّكْ معه لَشجانْ

يتضجر من مقامه في «عدن» وفيها سوق «البهره»، ويطل عليها جبل «شمسان» ويحيط بها البحر، ويتشوق إلى بلاده «الحدا»:

ما قولي، أجلِسْ من (النادي) إلى (البُهْرِهْ)
والبحر تَحْتي، ومن فَوْقي جبل (شمسانْ)
وإلا، بلادي تسغْني حيث لي خبرهْ
وأعمدْ مع الذيب ذي ساكنْ في الشعْبانْ
وكم لوينا يِمان (الحَيْد) واليسرهْ
وكم غَزَيْنا، وخافتْ مننا البدوانْ
وانا على العهد ما مني بَدَتْ قصرهْ
قدلي (مهاجِر) من أول يوم في (شعبان)
مع رجال اليمن ذي قد لهم شهره
(دماج[1]) و (الشيخ عبدالله[2]) و (بن نعمان[3])
همُ و (الزبيري[4]) وسيدي (زيْدْ[5]) في الخُبْرِه
و (سيدي أحمدْ[6]) جزاهْ المغفره وِحْسَانْ

إلى أن يقول:

لوشي عَد إلهْ، وجاء (ابن النبي) مثلهْ
ما كان شعب اليمن خَادِمْ مَع (النصرانْ)

---

(١) الشيخ مطيع دماج.
(٢) الشيخ عبدالله أبو راس.
(٣) الشيخ أحمد محمد نعمان.
(٤) القاضي محمد محمود الزبيري.
(٥) السيد زيد الموشكي.
(٦) السيد أحمد محمد الشامي. «المؤلف».

غير اكتسَبْ لا (نُقْمْ) قد ضاقْ مِنْ كُبره
لـه الـصـواعِـق تَـخـلـي شُـمَّـخِـهْ وِديـانْ

وفي القصيدة بيت من الحكمة جميل وهو:

واصْبـرْ عـلـى صَـاحِـبـكْ مَـرّهْ قَـفـا مَـرّهْ
والـثـالِـثـهْ تَـرْكِـهْ لا رَيْـتْ خُـبـرِهْ بـانْ

ثم يقول:

لا بُـدّ مـن فَـجْـر يِـطْـلـعْ من قَـفـا الـغُـدْرِهْ
ويـكـشـف الـهـمّ مَنْ بِـيـدِه جـمـيـع الـشَّأنْ
والـعِـلْـب لا شَـابْ رَأسـه يِـقْـتَـطِـعْ دَفـرِهْ
تِـقْـبـلْ فُـروعِـهْ سَـبـقْ، وانّـهْ عـلـى مـا كـانْ

وشاعر آخر، وهو الشيخ علي ناصر القردعي المرادي أجاد التعبير واتقن الوصف حين صوّر حالة قومه وما هم فيه من الخصام والنزاع من قصيدة طويلة:

كُلّينْ يِبا، يجْزَعْ العَوْجَا على الثَّاني   وانتُو سَوى تِحْت هِجّ اعوجْ تجرّونهْ
مَات المِسَقى، ومات السَّيسْ والساني   والزّرع ظامي، وبيرْ النّقْعْ مَدْفُونِهْ

يقول: يا عجباً كل واحدٍ يريد أن يسلك الطريق المعاكِسْ لرفيقه؛ مَعَ أنكم جميعاً تحت نيرٍ واحد من الظلم والفاقة تجرّونه مذعنين غير مختارين، وقد مات الساقي وهلك سائس المواشي، ومات «السَّاني» الذي ينزع الماء، والزرع عاطشُ ظمآن، والبئرْ قد دُفِنَتْ واخنى عليها الزمان.

والتعبير العظيم الموجز في قول الشاعرة «غزال المقدشيّة»:

سَـوا سـوا يـا عـبـاد الـلّـهْ مِـتْـسَـاوِيـه   مَا حَدْ وَلَـدْ حر والثاني وَلَـدْ جارِيَهْ

بلغ أقصى ما يستطيع شاعر فحل، أو خطيب مصقع أن يعرب عنه

وكأنها تقول: خلق الناس جميعاً متساويين ولم تطبع الولادة أحداً بطابع الحرية ولا أحداً بطابع العبودية.

وحامل لواء هذا الفن، وخزانة جواهره الذي يكاد يلم بحافظته الرائعة بأحسن ما قاله شعراء كل قبيلة يمنيّة مع تفهم لهجاتها هو القاضي العالم الشاعر الرّاوية أحمد الحضراني.

٣ ـ الغناوي:

ومن الآداب الشعبيّة ما يسمّونه «بالغَنَاوي» مفردها «غُنْوِيهْ» وهي في الغالب أبيات مفردة، أو رباعية، كل بيت منها بقافيتين، وهذا النوع تقريباً خاص بالنساء يترنمّن به في الحقول، أو مشارف الجبال، أو في مجالس العزاء، أو في الأزمات، وتعبّر الواحدة منهن «بالغُنوِيهْ» عما تشعر به من حُب، أو بغض، أو أسى. وكثيراً ما تتناقله الألْسُن ويذهب مذهب الأمثال كشعرِ لقائل مجهول لا يُدوّن في كتاب ولكنه يخلّد على الألسن، كما أنه كثيراً ما يلجأ أدباء اليمن إلى هذا النوع من الأدب حين يريدون الرَّمز إلى حادثة ولا يستطيعون الإفصاح، أو يريدون تسجيل حادثة غريبة لشخص ما فَيُطْلِقون عليه «الغُنْوية» كما اعتاد «المصريّون» أن يُطْلقوا «النكتة» فلاّ يمر وقتٌ قصير إلا وكل نساء القرية أو المدينة يترنمون بها، ويحفظها الناس ويتناقلونها في مجالسهم، بل ويتهادونها إلى مهاجرهم دون أن يُعرف لها مصدر أو قائل.

ومن أمثلة ذلك قول القائل أو القائلة:

ما حِيلتي، والخِلّ قد جَفَاني ... وَشَلّ نوم العينْ، وابتلاني
ما زِدْ تنازل لي ولا بنْظرهْ ... أمره إلى الله، هُوْ عليمْ بسرّهْ

أو القائل:

حَنّ قلبي رَعَدْ ... يا ناس ما احَدْ يلومِهْ
إنْ صَبرْ ما قَدَرْ ... وإن صاح شاعتْ علومه

أو القائل:

أنت الزجاجْ وَانَا مراية الكأسْ جِيْ نِفْتَرِشْ خِرْقِهْ، بعيدْ عن النّاسْ

ولما كان من عادة نساء صنعاء أن يَحْجُرنَ - أي يُزَغْرِدْنَ - في مناسباتٍ محدودة، مثل الفرح بمقدم «حاج» أو برؤية «الإمام»، فقد قالتْ بعض «المغنيّات» حين سمعت بعض النساء يُزَغْرِدْن بمناسبة زيارة «رئيس أجنبي» لصنعاء أثناء الحرب القائمة حالياً:

بِتِحْجِرَينْ؟ لا هو (إمام) ولا حَجْ هو، يا قِحَابْ، مِنْ حقّ بَحْر رَجْرَجْ

وبحر رَجْرَجْ أوسخ شَارع في صِنعاء.

أو مثل قوله:

أهلاً بأحبابي، وبيت ناسي حَيَّا على عيني، وفوق رأسي
حَيّا بكُمْ، يا نشوتي وكاسي، ومن لِحُبّهْ قد خَلَقْنِيَ الله

ولا شك أنه من الصعب تفسير الكلمات أو التعابير العامية، ونقل كلَّ ما تدل عليه في ذهن سامعها من معانٍ اكتَسَبَتْهَا بمرور الزمن وكثرة الاستعمال، وليس هذا فحسب بل ويكاد يكون متعذّراً الإعراب عمّا يحسه، ابن اليمن، من طرب واهتزاز وجداني عند أن يسمع هذه التعابير سواءاً من «الزوامل» أو «القصيد» أو «الغناوي» أو الشعر «الحُمَيْني» الذي سوف نتعرض له قريباً.

فهذه الفتاة التي قَضَتْ معظم ليلتها (ساهرة) ساهدة تترقّب عودة حبيبها وتُناجي النجوم، فما هو إلا أن يعود، وتحتفل بمقدمه حتى يقابلها ببرود وجفاف ويتركها لِيَعْتَكف على تلاوة القرآن الكريم، فتقول الفتاة:

فِتَحْ لي الخِتِمهْ وقام يِدْرِسْ واشهَدْ عليه يا نجمْ، يا مِغَلِسْ

قد لا يطرب غير اليمني لهذه التعابير ويظن أنها «عاديّة» لا يكمن تحتها أي معنى جميل. بل إن بعض أولاد اليمن الذين ابتعدوا عن جوها

الفني كثيراً وتعلموا منذ نعومة أظفارهم خارج بلادهم، قد يقولون ذلك ولكن «ابن اليمن» الحقيقي يتصوَّر تصوّراً كاملاً ما تدل عليه، والهوى الصاخب في أعماق هذه المدْنَفَة الذي أهاب بها أن تستصرخ السماء، وَتَسْتَشْهِدِ النجم - وليس أي نجم - بل ذلك النجم الساهِد المغلّس الذي ظلت تناجيه ويراقبها حتى أوشك الفجر أن يبين منتظرة هذا المخلوق الذي كان كل ما قابلها به أن أخذ (المصحف) الختمة وبسطه أمامه ومضى يتلو آياته كأنه ليس في عُش الغرام بل في المسجد الحرام..

وكما يكون أحياناً من الصَّعب ترجمة الشعر من لغة إلى أخرى ترجمةً حرفية وإذا تُرجْم فقد شيئاً من روعته في لغته الأصليّة، أو اكتسب روعة وفخامة من اللّغة الأخرى حسب قدرة وموهبة المترجم، كذلك الحال - في نظري - بالنسبة لمحاولة نقل أو تفسير معاني «الآداب الشعبية» إلى اللّغة الفصحى وبتعابيرها وموازينها.

٤ - الشعر الحُمَيْني:

الشعر الحميني جماع آداب اليمن الشعبية، فقد يطلق فينطوي تحت مدلوله العام، القصيد، والزَّامل والغناوي ونحو ذلك، والشعر الحميني مما اختص به أهل اليمن ولم يُعرف عند غيرهم في أي قطر من الأقطار العربية لا قديماً ولا حديثاً، وله أشكال كثيرة، وبحوث متعدّدة. وكل الأغاني اليمنية في مختلف المواضيع سواءاً في الحب والغزل، أو الحنين إلى الوطن، أو المناجاة الصوفية، أو الموشحات الدينية، أو المجون والهزل، أو غير ذلك مما يُترَنم به عادةً جماعاتٍ أو أفراد وفي شتَّى المناسبات، تُصَاغ غالباً في الشعر الحميني، وكل الأوزان، والتفاعيل، والبحور المعروفة في الشعر العربي والرجز القديم، يَبْتَسِرُ أعاريضها أهلُ اليمن في شعرهم الحميني، ويُبيحون لأنفسهم أن لا يتقيدوا بالحركات النَّحْويّة، بل يُسَكِّنون ويجزمون أواخر الكلمات تبعاً للنغم والموسيقى، ولا يبالون أن يجمعوا بين «بحرين» في بيتٍ واحد، ويضيفون إلى ذلك من عندهم ما يبدعونه من «تفعيلات» و «توشيحات»، ثم لهم أوزان وبحور أخرى لم يُشِرْ إليها

«الخليل بن أحمد» ولا غيره من علماء العروض.

أما أصل تسمية الحميني وهل هو نسبة إلى شخص، أو بلد، أو فن أو أنه مصحف من لفظة الحميري؟ فلم يُعرف بعد وقد بحثتُ وسألتُ وفتشتُ كثيراً فلم أقف على طائل، كما أن مبدأ ظهوره، وكيفَ ومن أين تسَرَّب إلى اليمن غير معروف؟

وكل ما وصل إليه الباحثون ممّن عُنُوا قبلي بالحديث عن الشعر الحميني أو الموشحات العربيّة هو ما يلي:

فالأستاذ مصطفى صادق الرّافعي رحمه الله في كتابه تاريخ آداب العرب يقول:

«ومن التَّوشيح» ما لا يكون معرباً وهو من اختراع أدباء اليمن: قال صاحب «سُلافة العصر» ولأهل اليمن نظم يسمونه «الموشّح» وهو غير موشح أهل المغرب، والفرق بينهما، أن موشح أهل المغرب يراعى فيه الإعراب بخلاف موشح أهل اليمن فإنه لا يراعى فيه شيء من الإعراب بل اللحن فيه أعذب، وحكمه في ذلك حكم الزجل، ولم نزل نبْحث عن أصل هذا النوع حتى وقفنا في كتاب «نفحة اليمن» لأحمد الأنصاري اليمني الشرواني وهو مطبوع بمصر على نوع سماه «الشعر الحميني» لا يكون إلا ملحوناً، وقال إنه منسوب إلى الفضل الأديب محمد بن حسين الكوكباني اليمني وهو توشيح أوله:

ما لقلبي لم يزل عِشْقِه فنونْ؟ في هوى خَالي التَّثَنيّ والمجونْ
زَيّ الغصون
قد فَنَى صَبْرِي، وقلَّ الاحتيالْ

❋ ❋ ❋

قد قَسَمْ قلبي بأسياف الجفُونْ وقَسَمْ لي من هوى تلك العُيُونْ
ريبَ المنونْ
ما حياتي بعد ذا إلا مَحَالْ

وقال: إن شعراء اليمن هم فرسان لهذا الميدان، وحاملوا لواء هذا الشأن.

ورغم أن الرّافعي رحمه الله يكاد يكون الوحيد بين مؤرخي آداب اللغة العربية المحدثين الذي تنبه للحديث عن (الشعر الحميني) فإنه كما ترى لم يأت بشيء يُذكر، ويكاد أن يكون النص الوحيد الذي تحدث عن (الشعر الحميني) بتفصيل أكثر - ولم يطلع عليه الرافعي - هو ما ذكره السيد الأديب عيسى بن لطف الله رحمه الله المتوفى سنة **١٠٤٨هـ (١٦٣٩م)** وجامع ديوان السيد الشاعر محمد بن عبدالله بن الإمام شرف الدين فقد قال في مقدمة الديوان:

(وإنني لما فرغت من تدوين ما وجدته وظفرت به من شعر سيدي محمد بن عبدالله بن الإمام شرف الدين رحمه الله تعالى (المُعرب)، وقضيت في ذلك دَيْني، أردت أن أجعل ختامه (الموشّح) المعروف عند الناس (بالحميني) وهو من النظم الذي ولع به المتأخرون، ولم يَسبق إليه الأولون، له بحورٌ مختلفة، ومعانٍ لطيفة مؤتلفة، أول من أظهر حجته فاتّضحتْ محجّته، في الديار اليمنية الفقيه شهاب الدين أحمد بن فليته[١] ثم الفقيه فخر الدين عبدالله ابن أبي بكر المزّاح وكلاهما كانا في الدولة الغسّانية[٢] ثم الفقيه الإمام، إمام العلوم والطريقة عبدالرحمٰن بن إبراهيم العلوي، وهو ممن أدار كأس الشراب، وأبدى فيه من المعاني ما يفوق الرّوض عاوده السحاب، وكان في زمن السلطان عامر عبدالوهاب[٣] وأدرك دولة والدنا الإمام شرف الدين وله فيه وفي ولده الخليفة المطهر مدائح تودّ النجوم مواقعها، وتهوى البدور مطالعها، وهذا النظم مما مالت إليه القلوب وصار بين الناس المطلوب، ووافق أرباب النشيد، وطابق الصفة في إيقاع الأغاريد، وراق فهمه في الأذهان، وعذب في المسْمَع واللسان... إلخ».

---

(١) توفي سنة **٧٦٢هـ (١٣٦١م)**.

(٢) يعني دولة بني رسول أي في القرن الثامن الهجري.

(٣) قتل السلطان عامر سنة **٩٩٢هـ (١٥٨٥م)** على أيدي المصريين.

فالكاتب ـ كما ترى ـ قد جزم بأن هذا الفن حديث، وأن أول من برز فيه هما الشاعران «ابن فليته» و «ابن المزاح» أي أن أوليته لا تتجاوز القرن الثامن الهجري، وقد أتحفنا بالأسماء اللامعة في تاريخه قبل ابن شرف الدين، والآنسي، ومن ازدان بهم «الشعر الحميني» من شعرائه المبدعين.

غير أن ما وقفت عليه من نصوص أدبية تخول إلى الظن بأن أدباء اليمن قد عرفوا «الشعر الحميني» قبل ذلك بكثير، وأن شعراءها قد مارسوه سواءاً كانوا يطلقون عليه هذه التسمية أم لا.

فياقوت الحموي المتوفي سنة **٦٢٦هـ** يحدثنا في الجزء الرابع من كتابه «معجم البلدان» فيقول:

«والغَيْل ـ غيل البرمكي ـ وهو نهر يشق صنعاء اليمن وفيه يقول شاعرهم:

وَاعَويلا، إذا غاب الحبيبْ عن حبيبهْ، إلى مَنْ يشتكي
يتشكّى إلى «والي» البلدْ والدموعْ مثل «غيلْ البرمكي»

وهو شعر غير موزون، وهو مع ذلك ملحون، وأوردناه كما سمعناه من الشيخ ابن الربيع سليمان بن عبدالله الريحاني صديقنا أيده الله».

وهذا يدل على أن الشعر الحميني قد عرف قبل (ابن فليته) بأكثر من قرن، بل إننا ونحن نقرأ أخبار (أعشى همدان) وهو من شعراء القرن الأول الهجري وقتله الحجاج بن يوسف الثقفي في ثورة عبدالرحمٰن بن الأشعث يحدثنا أبو الفرج الأصفهاني في الجزء السادس من الأغاني عن أحد مشايخه فيقول: «سألت الأصمعي عن أعشى همدان فقال: من الفحول وهو إسلامي كثير الشعر، ثم قال: العجب من ابن «داب» حين يزعم أن أعشى همدان قال:

مَنْ دعالي «غزيلي» أربح الله تجارتهْ

ثم قال: سبحان الله، أمثل هذا يجوز على الأعشى؟ أن يجزم اسم الله

عز وجل، ورفع تجارته وهو نصب، ثم قال لي: «خلف» والله لقد طمع «ابن داب» في الخلافة حين يظن أن هذا يُقبل منه، وأن له من المحل أن يجوز مثل هذا، قال: ثم قال: ومع ذلك أيضاً أن قوله (من دعا لي غزيلي) لا يجوز إنما هو (من دعا لغزيلي) ومن دعا لبعيرٍ ضالٍ، إلى آخره».

وهو تحامل من كل من (الأصمعي) و (خلف الأحمر) على (ابن داب) واستنكارهما لأن يكون الأعشى قد قال شعراً ملحوناً راجع إلى عدم اطلاعهما واطلاع أمثالهما من علماء شمال الجزيرة وبغداد والشام على آداب أهل اليمن الخاصة، واليمانيون لا يزالون حتى هذه اللحظة يستعملون نفس الطريقة ونفس العبارات، ويجزمون هاء الجلالة ويرفعون المنصوب وينصبون المرفوع في الشعر الحميني كما عمل أعشى همدان ويقولون «من دعا لي» وليس «من دعالِ..» وهذا النص وإن وجد من يتشكك فيه ويزعم أنه موضوع على طريقة الدكتور طه حسين يكفي دليلاً على أنه قد وجد في القرن الثاني الهجري على الأقل من يضع شعراً على طريقة الشعر الحميني وينسبه لشاعر فحل من شعراء اليمن يثبت قدمه وتغلغله في أعماق التاريخ.

على أن نصاً آخر يخول لي أيضاً الظن والقول بأن هذا النوع من الشعر الملحون قد مارسه أهل اليمن في الجاهلية الأولى، فالهمداني في (صفة جزيرة العرب) يقول:

(وادي سعوان) وهو واد يكاد أن يسنت سنين متوالية ثم إذا أقبل أتى بثمر كثير، وقد ذكره بعض قدماء حمير فقال:

(أحـلـك الأرضْ مـسْـوَرْ واخـتـهـا بـتـوْعَـرْ)
(وأخْـوزْ فـأخْـوزْ وسَـعـوانْ لـوْ تُـمـطـرْ)

وهذا خليق بأن يكون أصلاً من أصول «الشعر الحميني»، وعلى الرغم من أنه ربما قد نقص النساخ منه وحذفوا فإن وزن المقطع الأخير: «وسعوان لو تمطر» لا يختلف عن وزن، وبحر القصيدة المشهورة من الشعر الحميني: «شقيق القمر أسفرْ».

بل إن هناك نصاً أصرح من هذا، ففي الجزء الثاني من الإكليل يقول الهمداني:

وفي (ذي جدن) ـ الملك الجاهلي، أو الشاعر المخضرم ـ جرى المثل بالحميري (قال: باع ذو جدن ماله) قال:

ويـــلْ ذي دولـــر أي ويـــلْ الــذي لـيـس لـه مـال يـبـيـعـه

وهذا بيت (حُميني) وزناً، وطريقة، ولحناً.

كما أني أشعر بأن الملك الضليل حينما أتاه خبر مقتل أبيه وهو (بدمون) من أرض (حضرموت) وترنم بذلك اللحن الباكي الحنون قائلاً:

تـطـاول الـلـيـل عـلـيـنـا دمُّـون دمُّـون إنـا مـعـشـرٌ يـمـانـونْ
وإنـــنـــا لأهـــلـــنـــا مـــحـــبّـــونْ

قد استعمل طريقة (الشعر الحميني) ولجأ إلى الحروف الصوتية، والنون الساكنة في مقاطع لحنه، ليستعين على الإعرب عن أساه العميق، وحزنه الموجع، شعراً، وغناءاً، ولفظاً، وذلك هو الغاية القصوى في (الشعر الحميني) الأصيل.

والواقع أنني أشعر بخجل التقصير، وبأنني لن أوفيّ الموضوع حقه حين أكتب عن هذه الآداب الشعبية فلم أكن من المتخصّصين فيها ولم أمارسها كثيراً، وبضاعتي فيها قليلة، «والشعر الحَكَمِي» والنثر الفني هما ميداني وحقلي، ولكنني لم أجد أحداً قبلي قد حاول أن يسدّ هذه الثغرة ويؤرّخ لهذه الفنون، فعسى أن تكون أبحاثي حافزة لِلْهمم، وأن تفتح لأدباء اليمن المجال في ميادينها الباب فيشبعونها دَرساً وتحليلاً، ويهتمُّون بحفظ وتسجيل الكثير من آياتها الرَّائعة، وتعابيرها الجميلة، ويترجمون لمشاهيرها وأقطابها، وينقّبون عن الضائع الكثير من آثارها، ويُصَحّحون ما قد يرون في هذه الأبحاث من هفوات، ويزيدون عليها الشيء النافع من الأدب والمعرفة.

وقبل أن أختم هذا الفصل لا بد أن أختار قطعاً من «الشعر الحميني»

الذي قيل باللّغة الدارجة، وملحوناً، لكنه قريب إلى اللغة الفصحى ويمكن لكل عربيّ أن يقرأه ويفهمه، وإن لم يتمكن من استيعاب معانيه التي تمثل الروح اليمنية غرّاء جلواء لا تكلف فيها ولا تعكير.

وَلْنُصْغِ إلى الشاعر الرقيق عبدالرحمٰن الآنسي وهو يقول:

عن ساكني صنعا ... حديثك.. هات. وافوج النّسيمْ
وخِففْ المشعى ... وقِفْ.. كي يفهمَ القلبُ الكليمْ
هل عهدنا يُرعَى؟ ... ولا يرّعى العهودْ إلاّ الكريمْ
وسِرَنا مكتومْ ... لديهم، أم تِعرّضْ للظهور

❊ ❊ ❊

بالله عليك يا ريحْ ... أمانِهْ.. إن تِيسّر لَكْ رجوعْ
لَمِحْ لهم تَلْميحْ ... بما شاهدت من فَيْض الدموعْ
والشوق، والتبريحْ ... والوجْدْ، الذي بين الضُلوعْ
واحذَرْ يكونْ مفهومْ ... حديثك إنني أخشى النفوُرْ

ومن شعر عبدالرحمٰن الآنسي من قصيدة أخرى يخاطب «الطائر الحبيس».

ليتْ شعري مَنْ أكثر تِرقاب الفُرَصْ ... فيكْ يا طيرْ، واحتالْ واحتاشْ
وتردّدْ عليكْ كل يَومْ حتى اقتَنصْ ... شاردكْ، والحذر من قدرْ لاشْ
ورَبَطْ ساقْ رجلكْ، وقَصَّرْ بالمقصْ ... من جناحكْ، طويلات الارْياشْ
وتجاسَرْ على ظُلْم، حَبْسَك في القَفصْ ... ما فساد البلادْ غير من الناسْ
مَنْ كُفي شرَّهم، ما لِقى باسْ ... فهُمُ الرِّجْلْ في الشرِّ والرَّاسْ
هُمْ رَموا صَفْوَ عيشه بأكدار النَغَصْ ... هُمْ أعلو فؤاده بَلغْطاشْ
هُمْ وهُمْ جرعوه بالفراق كل الغُصَصْ ... عَجَبى كيفْ لِلْيومْ زِدْ عَاشْ

❊ ❊ ❊

كم يِقلّبْ من الفكر وجْهِهْ في السّما ... إن سِمعْ في الهوى خفقَ الجَناحْ

ويَطرّبْ غِناه إن رأى خُضرِهْ وما	ويصفّقْ جناحه ويلتاخ
ويُظنوُّهْ مرتاحْ، وفي الجهل العمَى!	كيفْ محبوسْ، مشتاق، ويرتاحْ؟
ذاك حينْ كانْ على غُصْن إن غَنّى رَقَصْ	تَحْت رِجْله، وإن نوّشه ناشْ

والذي هام قلبهْ بحبُّهْ
وفنى كُلُّ جِسَّه ولُبْه
فيه من بدَّةِ الطَّيرْ جَنبِهْ

قد رضي به على لَقْط حَبَّات الحَلَصْ	حَيث يسْمَعْ تِخِرْواط الْحَنَاشْ
مَا بِشا الرزّ والماء على سكَّرْ يُمَصّ	في حِجَرْ بالقَنادِيلْ والانْقَاشْ

ومما يعجبني من شعر الآنسي قوله من قصيدة طويلة بَثّ فيها شجو قلبه المحزون بشعر رقيق:

خانِهْ الاصطبارْ	وَجفاهْ السكُونْ
لو تمكنْ لطارْ	بجناحْ الشجونْ
كلما دارْ حارْ	ما درى كيف يكونْ
سَلَبَتْهُ القرارْ	ساجعات الغصونْ

ومن شعر السيد محمد بن عبدالله شرف الدين البديع قوله:

يا عُرَيْبَ الحيّ من ذي سَلِم	وأَهيْل المنْحنَى والعِلم
هل علمتم أنني من هجركُمْ	أمْزِجُ الدَّمعَ اشتياقاً بدم

توشيح

أسفي ما بيدي، سلبوا عن جسدي	يوم بانوا كبدي، وسبوا قلبي الصدى

بيت

ليس لي قلبٌ، ولا لي كبدٌ	فتلا فوْني، وداوُوا ألمي
وانشدوا في أي خدْرٍ كبدي	وانظروا قلبي بأيّ الخيمِ

توشيح

مــن سبــى قــلـبـي الــشــجـي — مـــن ذوات الــــدَّعَـــج
قَـــاتِـــلاَت الـــمـــهـــجِ — بـــدلال الـــغُـــنُـــجِ

بيت

ذات حُـسْـنٍ غـازلـتْـني بـالـهـوى — عـيـنـهـا فـي غـفْـلـةٍ من لُـوّمـي
صـاغـهـا الله قـضـيـبـاً فـي نَـقَـى — وهــلالاً طـالــعــاً فـي الـظـلـمِ

ويعجبني قوله من قصيدة طويلة:

عـلـيـكْ سَمُّـونـي، وسَـمْـسَـمُـونـي — وبـالـمـلامـة فـيـكْ عـذّبـونـي
وجَـرّوا الـمـصْـحَـفْ وحـلّـفـونـي — وقـصـدهـم بـالـنّـار يـحـرقـونـي
حـلـفـتْ مـا حِـبَّـكْ فـكـذّبـونـي — وقـبـل ذا كـانـوا يـصـدقـونـي
هم يحسبوني اضْمَرْتْ في يميني، — فـقـلـت ألله بـيـنَـهـم وبـيـنـي

❊ ❊ ❊

قالوا: فمالكْ حين تراه تَخجلْ؟ — يـصـفـرّ وجـهـك إن بـدا وأقْـبَـلْ
وتـسـتـحـي يـوم تُـذْكُـرهْ وتـفـشَـلْ — يـغـيـب عـقـلـك إن ذُكـر وتـذهَـلْ
وأنـت قـالـوا الْـيـوم عـلـيـه تـغـزّلْ؛ — غَـزَلْ رقـيـق فـي كـل حـيـن يُـقـبَـلْ
قَـرَوا بـخـطّـكْ لـهْ غَـزَل حُـمَـيْـنِـي — يـهـز حـتـى قـامـة الـرّدَيْـنـي

❊ ❊ ❊

هـو يـرْحَـمِـه قـلـبـي لـصُـغـر سِـنّـهْ — مـا هـو شَـفَـق فـي مَـبـسَـمِـهْ وعـيـنـهْ
وأنـتـمْ تـقـولـوا أعـشَـقِـه لـحُـسـنِـهْ — وإنّ قـدّه غـرّنـي بـغُـصـنِـهْ
حُـسـنِـهْ لِـنَـفـسـه، أيـشْ عـلـيّ مـنـه — كـيـف أعـشَـقـه، والـهـجـر سَـارَ فَـنّـهْ
قـالـوا كـذب، والاّ فـصـدّقـونـي، — وإن لـكُـم قُـدره فـقـيّـدونـي

❊ ❊ ❊

قالوا: عِشِقْ هو عَيب من تَعَشَّقْ ... قالوا: فؤادي بالهوى معَلَّقْ
قالوا: لِمِهْ قلبي عليه يِحْرَق ... من سكر حُبّهْ ما صَحَا ولا افْرَقْ
وما لعيني بالدَّموعْ تِغْرقْ ... ونهرها فوق الخدود مطلق؟
الدّمع دمعي، والعيون عيوني ... وما عَلِيْهُمْ من بُكَا جفوني..؟

❋ ❋ ❋

والسيد محمد بن شرف الدين هو صاحب القصيدة المشهورة التي تجري على لسان كل مطربٍ وفنَّان من أبناء اليمن:

شقيق القمر أسْفَرْ ... بِدَيْجور فيْنَانِهْ

والقصيدة الرائعة التي مطلعها:

السنا لاح... حَرّمْ على أجْفَاني لذيذْ الهجوعْ

والقصيدة المشهورة التي مطلعها:

لَقِيتْ في المسْقَى حذا الْمَحَلّهْ ... في مورد الْمَا، لي لَقِي

والقصيدة التي يغنّيها المطربون:

صادَت فؤادي بالعيون الملاح ... وبالخدودْ الزاهرات الصِّباح

والأخرى التي أولها:

معشوق الجمال ... نِهِبْ فؤادي جمالهْ

ولد ديونا شعر أحدهما معرب، والآخر «حُمَيني» وشعره المعرب رقيق بديع رائع يدل على تفوقه وعلو كعبه في الأدب واللطف كقوله:

أفدي التي بِتُّ أبلُّ الجوى ... من ريقها باللّثم والمصّ
قالوا لها لما رأوا خدّها ... وفيه أثر العضِّ والقَرْصِ
ماذا بخدَّيك؟ فقالت لهم ... نِمتُ ولم أشعر على خرصي

يا حُسْنَ خديها! وَعَضّي على ... ناعم خدٌ ترفٍ رَخْصِ
كَفٌّ ياقوتٍ على دُرَّةٍ ... آهي على الدرةِ والفص

وقد عني السيد العالم المؤرّخ علي بن إسماعيل المؤيّد والقاضي المهذّب إسماعيل الجرافي بشرح وطبع ديوانه فأحسنا إلى التاريخ والأدب وتوفي سنة ١٠١٦هـ (١٦٠٨م) ويقول السيد عيسى بن لطف الله جامع ديوانه: إن السيد محمد «كان يستحسن شعر عبدالله بن أبي بكر المزّاح ويعجب به، ويفضله على شعر «ابن فليتة»، و «العلوي» ومن نهج نهجهم في نظم «الحميني» ويظهر ذلك من كثرة معارضة «ابن شرف الدين» لقصائد ابن «المزّاح» الذي عدّه السيد عيسى من أئمة الشعر الحميني ومن قصائده المشهورة التي أولها:

أرْعَنْ يلاعِبْ دَلّهْ ... لما رأى الأفْلاكْ تِلْعَبْ
بدرٌ سَرَى في جُنح غَيْهَبْ

والقصيدة التي مطلعها:

بَدَا أخُوْ الغزالهْ

ومن شعر «المزّاح» غير الحميني قوله:

وطيف عاد منك فلم يزدني ... على تسليمه وعلى وداعي
طمعت بما تُحَيْتَ المرْطِ منهُ ... فلم أظفر بما تحت القناع

وله أيضاً حين بلغه زواج «جُمْلى» وكان يطمع في الاقتران بها.

لقد خبروني أن «جُملى» تزوجتْ ... وقد نال من تلك المحاسن زوجُها
فبت كأني في غوارب لجةٍ ... يُقلبني في ظلمة الليل موجُها

ومما قاله في مدح الإمام علي بن صلاح الدين المتوفَّى سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٧م) وذكر صنعاء:

وكيف لا تخضع الدنيا لها وبها   إمامنا الملك المنصور سلطان
كأنه وملوك الأرض خاضعة   من حول كرسيه فيها سليمان

ومن شعره الحميني الذائع قصيدته التي أولها:

بِطَّالَتي عن شرْب خمرْيْ   ما هِيْ من الصّوابْ

والقصيدة التي مطلعها:

بالأمس جانا من تهامه كِتَاب   مكتوب، عِنْوانِهْ صَدَر من زبيدْ

والقصيدة المشهورة على لسان كل مطرب:

ليس تَدْري ما بقلبي يا حبيبْ   إن قلبي فيهْ ما فيْهْ

أمّا الشاعر أحمد بن محمد بن فليته الذي قال السيد عيسى إنه أوّل من أظهر حجة الشعر الحميني فقد كان كاتب الإنشا في زمن الملك المجاهد علي بن داود الرسولي ملك اليمن من سنة **٧٢١** إلى سنة **٧٦٤هـ (١٣٦٣م)** وله ديوان شعر مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنعا تحت رقم **٣٥** أدب، كما أن له أيضاً كتاب «رُشْد اللبيب» في «معاشرة الحبيب» ويوجد بدار الكتب المصرية تحت رقم **٥٦٦** أدب.

وهناك طريقة الهزل والمجون في «الشعر الحميني» وقد كان من روّادها فيما نعلم السيد عبدالله بن أحمد القَشَنْشَلي الذي عاصر السيد محمد بن عبدالله شرف الدين، وعمد إلى معارضة بعض قصائده وقد قال عنه السيد عيسى بن لطف الله: «وقد كان للسيد عبدالله هذا من القدرة والتمكن من نظم الشعر المضحك» «البليغ في معناه المحتوي على المجانة المعجبة، والفكاهة المطربة ما لو سمعه كئيب استراح وزال عنه سورة الكدر والترح، وله أيضاً في الشعر المعتبر اليد الطولى الخ» من ذلك معارضته لقصيدة السيد محمد شرف الدين التي يقول في أولها:

لَقِيت في المسْقَى حذا المَحِلّهْ   في مورد المَا، لي لَقِي

فـقـلـت لـه عـزنـي سِـقَـاكْ لـلَّـهْ　　إنـي ظُـوَيْـمـى شَـاسْـتـقـي
رمـى الـسِّـقَـالـي ورنـا بـمُـقْـلِـهْ　　بـالـمـوت صـارمـهـا سُـقِـي
وقـال: لا تِـحْـبِـسْ فـشـانـزِلـهْ　　زَلُّـوا الـرفـاق مـا احـدَّ بِـقِـي

فقال القشنشلي معارضاً ماجناً:

لقيت في المسقى الوحيش سِعْلِهْ　　لابـسْ لـشـمـلـه دَعَـبـقـى
حامل لغرْب أسْود تجر نِهْلِهْ　　وشـرِّ حِـجـهِ فـي الـمـخـنـقِ
قـردِه ولـكـن هـي بـغـيـر سُـبْـلِـهْ　　خـدودهـا أحْـذِى مَـشْـرِقِـي

إلى آخرها وقد أجاب عليها السيد محمد بقصيدة أولها:

لـقـيـت زَهـرِهْ ولـقـيـت سِـعْـلِـهْ　　كـلاّ بـشـكـلِـهْ يـلـتـقـي

وقد بلغت هذه الطريقة الغاية القصوى على يد كلّ من الشعراء السيد علي بن حسن الخنفجي، والسيد القاره، والشاعر الحسن بن أحمد الفسيّل والسيد عبدالله بن حسين الشامي والسيد محمد أبو طالب «شغدر» والشاعر سعيد بن علي القرواني والسيد علي بن موسى أبو طالب، وكلهم عاشوا في أواخر القرن الثاني عشر، كما ساهم في هذه الطريقة البديعة أشعر شعراء عصره السيد محمد بن هاشم الشامي المتوفّى سنة **١٢٠٧هـ (١٧٩٣م)** والذي يُعَدْ أيضاً رائد «الشعر الممزوج» إن صَحّ هذا التعبير؛ ونعني به الشعر الذي يختلط فيه الهزل بالجد، كقول السيد محمد بن هاشم وسعيد القرواني في القصيدة المشهورة التي مطلعها:

سلام على حاوي المحامد عن يَدِ　　ومن في المعالي والندى يده الطولى
سـلامٌ يـحـاكـي مـنـه نـفـح سِـمَـاتِـه　　وناضر خُلْقِ يخجل الروض مطلولا

❋ ❋ ❋

عليكَ يابن موسى من «محمد» ومن «سعيد»　　ومن سَائر الخُبرة، وفيهم خبير جديدْ
وزُغْبِهْ من الشَّوقْ الذي ما عليه مَزيدً　　عجيبة ـ وهم من خُبْرتكْ ـ والغرامْ يزيدْ

إلى آخرها، على أننا لا بد أن نكرّر أن «الشعر الحميني» ـ وإن كنا قد حاولنا أن لا نختار منه كشواهد إلاّ ما يمكن أن يشارك في فهمه والإعجاب به أبناء الأقطار العربية الأخرى ـ لا يتذَوَّقه بكل معنى الكلمة غير أبناء اليمن، الأصيلة روابطهم بتراث اليمن وآدابها وفنونها ولهجاتها وعاداتها وتقاليدها، فكثير من الصُّور الفنية في «الشعر الحُمَيني» تحمل في ثناياها تقاليد وعادات المجتمع اليمني الخالص؛ في ألفاظ وعبارات عامية صقلتها الأجيال، وتدل على معان خاصة لا يمكن أن تُترجم، ولا يمكن أن يتذوقها غير «ابن اليمن». وقل لي بربك من يستطيع من أبناء مصر، أو العراق، أو الشام، أن يفهم قول الشاعر «المشرعي» في هجو زميله الشاعر «العنسي»:

«عَنسِي» هِدَارْ وَلو جِمس في مَقَالِهْ
في بَيْتُهُمْ «عِدَارْ» يِبَوزِم امَّه قُبَالِهْ..؟

وقد بلغ الغاية التي لم يبلغها إلا الأفذاذ تعبيراً وتصويراً وفناً وجمالاً، واسألوا أهل اليمن إن كنتم لا توقنون!

لعلي بهذا قد أعطيت فكرة جلية عن ذلك «الفن الجميل» وذكرت أعلامه والبارزين من أقطابه، مما يسهل مهمة من يريد أن يتحدث عنه بعدي بصورة أكمل ويترجم بإسهاب لأئمته الأعلام.

والملاحظ أن «الشعر الحميني» قد ضعف في العصر الحاضر والمشهورون في مزاولته حديثاً لا يسمون إلى المنزلة التي توجب العناية والدرس، إلا أن يكون في الزوايا خبايا، وذلك ما ستكشفه الأيام، أما الشعر القبلي «القصيد» فله أقطابه الفحول.

٥ ـ الأمثال العرفيّة:

يتناقل العامة بلهجتهم أمثالاً وحكماً كثيرة تصوّر عاداتهم وتقاليدهم وتفهمهم للحياة وما يتعلق بشؤونها الزراعية، والمعاشية والاجتماعية ويتوارثونها غير مسجلة في كتاب، ومن أشهر أعلام الحكم والأمثال «علي بن

زايد» وقد عني بعض المتأخرين من أدباء صنعاء و «ذمار» بتأليف شواردها التي تختلف لهجة وفناً وقيمة باختلاف المناطق والبيئات.

مَع سِتة شعراء

إنها في الواقع ثلاثة أسماء: كل اسم منها عَلَمٌ لشاعرين كبيرين؛ وكثيراً ما تتردَّد أسماء هؤلاء الشعراء غير مميّزة، وتختلط أشعارهم وأخبارهم دونما تحديد؛ ولكي أجنّب المؤرّخين والباحثين المشقة والحيرة، كان لا بد أن أقف وقفة قصيرة للتّعريف بهم واحداً واحداً.

لقد كابدت عظيماً من الضنى والجهد، وأفنيتُ كثيراً من الوقت والتفكير.. كي أميّز أخبارهم، وأحدّد أنسابهم وأزمانهم، ورغم ذلك فلن أزعم أني قد كشفت سراً أو أتيت بما لم تستطعه الأوائل.

١ ـ عمرو بن زيد (المُغْرِقُ الأكبر):

شاعرٌ جاهليٌ مشهور، كان سيّد قومه والمجمع على رئاسته، ويُعرف بِمُغْرِق الأكبر، وهو الذي «قام بحرب «الرَّبيعة»، وشهد «خَزَازاً»، وله يوم «الحِنْو» وفيه قَتَلَ عتّاباً جدّ عمرو بن كلثوم التغلبي، وحاطب بن حلزة اليشكري سيد بكر بن وائل. وأكثر أخباره مشتتة في كتب «الهمداني» كما أن صاحب معجم البلدان قد ذكره في مادة «خزازا» مستنداً إلى «ابن الحائك» ويعني الهمداني.

وشأنه شأن غيره من شعراء الجاهلية لا تُعرف تفاصيل حياتهم ولا تواريخ مواليدهم ووفياتهم، ولكن ما نستوحيه من النصوص يؤكد أنه من أقدم من وصلت إلينا أشعارهم وأخبارهم.

فهو قد قَتَل فيما يروِي الرواة عتاباً جد عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة المشهورة والذي عاصر عمرو بن هند، وهو قد شهد «خزازا» فَحَسُنَ أثره وقال في ذلك شعراً، ولا أحد يدري كم كان عمره حينذاك، ثم هو جد يَعْلى بن سعد بن عمر صاحب حصن «تلمص» والملقب بـ «الْمُغْرِقِ الأصغر» والذي كان أحد رماة خولان وشعرائها، والذي نعرف من أخباره أنه ـ أي يَعْلى ـ رمى بين يدي سيف بن ذي يزن فأجاد فقال سيف: أغرق المالكي في قوسه، فسمى «مُغْرِقاً» وأضيف إليه الأصغر تمييزاً له عن جده مغرق الأكبر شاعرنا الذي نتحدث عنه. وهذا يعني أن يَعْلى حفيد عمرو، قد عاصر سيف بن ذي يزن وشهد مواقعه، ويقول الهمداني: إن يعلى بن سعد هاجر إلى النبي ﷺ، وإذن فيكون شاعرنا قد عاش في أوائل القرن الخامس للمسيح أي قبل بعثة الرسول عليه السلام بحوالي مائة وخمسين عاماً.

نسبه وشعره:

هو عمرو بن زيد بن مالك بن زيد بن أسامة، وينتمي إلى الرَّبيعة بن سعد بن خولان. وقد سمّي مغرقاً لأنه تولّى إخراج بني حيّ بن خولان إلى مصر فركبوا البحر فغرق بعضهم.

وقد كان فارساً نجداً وشاعراً مفلقاً، وهو الذي عناه الحارث بن همام بقوله:

تـديـن لـه الـقـبـائـل مـن مـعـدٌ ... كـمـا دَانـتْ قُـضـاعـة لابـن زَيـدِ

وحين أُسِر يوم «خزازا» «بغيض بن عنزة» مَنَّ عليه بنفسه فقال «بَغْيضٌ»:

عَمرو بن زَيد يقود الخيل يقدمها ... لـه مـخـالـب أظـفـارٍ وأنـيـابُ
يعطى الجزيل ويحمي دون عقوته ... وفـي الـحـفـائـظ مـنـان ووهّـاب
ما زال يحمي على صيدِ مقاولهُ ... مـنـه هـنـالـك نـهّـاب ووثـاب

ومن شعر عمرو بن زيد قوله يوم خزازا:

كانت لنا بخزازا وقعةٌ عَجبٌ
لما التقينا وحادي الموت يحديها

مِلنا على وائل في وسط بلدتها
وذو الفخار كليب العزّ يحميها

قد فوّضوه وساروا تحت رايته
سارت إليه معد من أقاصيها

«وحميرٌ» قومنا سارت مقاوُلها
و (مذحج) الغر سارت في تعابيها

والحي من صِيدِ (همدان) لها شغف
يَفرى الفريَّ، ويُقمي من يُناويها

ومن (قضاعة) حيا باسها نزلا
نهدٌ وجرم وخولان توافيها

وسار بعضٌ إلى بعض برايتهِ
وقدمت لغوادينا غواديها

حتى التقينا بأكناف المسيل وقد
أبدى لعمرك ما في النفس مُخفيها

كنَّا غثى بني شيبان إذ طلعوا
فيها، بُجيرٌ أخو الغارات يهديها

ثم استطلينا ونار الحرب ساطعةٌ
كأسد غابِ تداعت من نواحيها

شنت قسيٌّ من الشريان مشطرة
من كل زوراء أتى الذرو باريها

ثم استخفَّت (بنو شيبان) ما لبثت
كالخُشب مال عليها سيل واديها

وفاز جميع كليبِ عند صولته
في (حمير) الشمّ إذ زالت رواسيها

نلنا ونالوا كذا الأيام نعرفها
لها صروف على الأيام تخفيها

٢ ـ عمرو بن زيد الغالبي:

وهو سيد بني غالب بن سعد بن سعد في زمنه، وشاعرها وفارسها، عاش في العهد الأموي، وأدرك أوائل العهد العباسي، ومات قتلاً على يد مَعن بن رائدة الشيباني عامل العباسيين على اليمن، ويُعدّ شعره من الطراز الأول جودةً، وبياناً، وعمقاً، وتصويراً، إلى حبك قوي، وديباجة صافية.

ومن حياة (عمرو بن زيد هذا) ومواقفه، وأشعاره، نفهم كيف أن عصره كان يمثل عصر الجاهلية الأولى، وكيف أن القبائل اليمنية ظلَّت حتى بعد الإسلام مُسيّرةٌ بقوانين العصبية، مدفوعةً بتياراتها، محافظة على تقاليدها العميقة الجذور، ولا تراقب في ذلك ربّاً، ولا تخشى لوماً.

فبينا نراه يلوم ابن عمه (عمرو بن يزيد السعدي ـ الآتي ذكره ـ على

بَغيِهِ وطغيانه، ويوبّخه لإثارته الحروب بين قومه، وينهاه عن الفتن.. إذا به يتزعم هذه الفتن، ويزيدها ضراماً بعد قتل (عمرو بن يزيد) إصغاءاً لصوت الثأر، وحمية الجاهلية الجهلاء، ودواعي الانتقام.

فمن شعره ينهى عمرو بن يزيد ويوبّخه:

يا عمرو مهلاً فإن البغى متلفة ... تردى الرئيس وتفني كلَّ ما جمعا
لا تقطعَنْ بالمُدَى مِنَّا أواصرنا ... مهلاً هُدِيت فخير النصح ما نفعا
لسنا نحب نَرَى فينا مُوَلوِلةً ... تبكي وتهتف إذ ما إلفْها نُزِعا
إني أرى الحرب قد أبدت نواجذها ... فينا، وأصبح منها ضوؤها لمعا

ويروي الهمداني أن «عمرو بن زيد» حين رأى «ابن يزيد» غير ملتفت إلى نصح الناصحين، قال له: لقد أصابك يا عمرو قول جابر بن عَمْرو لابن أخيه سالم بن سالم البهراني:

وكُنْتَ كالعَيْر غداً يبتغي ... قرناً؛ فلم يرجع بأذنين
مهلاً من البغي وأشياعه ... فالبغيُ داء بين دائينِ
من يركب البغي يَرَ شخصه ... عند التقاء الجمع شخصينِ
من يقصد البغي يَعُدْ خائباً ... لاقِطَ حَبٍّ بين فخّينِ
أخاف إن جئتَ الذي قلتُه ... يأتِكَ منه الغدرُ بالحَيْنِ
فاترك طريق الغدر، واجمع لما ... يصلح يوماً بين صِنوينِ
لا تركب العوراء من قومنا ... فتَجْنِ عاراً بيّن الشّيْنِ
انظر «كُلَيباً» بعد دار العُلا ... أصبح رهناً بين طِمْرَيْنِ

ويظل شاعرنا يرسل الأشعار ناصحاً لابن عمّه مؤنّباً؛ ولكن ما يكاد يبلغه مصرعه حتى يتزعم حرب «الرّبيعة» ويُوري ضرامها، ويضاعف وقودها ويقول:

سَلِي تُخْبَري يا هندُ هل عِفتُ مَشربي؟ ... وهل عافه قومي بجنب الأخاشبِ؟
عشيّة سرنا حاشِدين وقد بدَتْ ... من الشمس عينٌ أو توارت لحاجبِ

وقد حشدت فيها ذؤابةُ سعدها وحيًّا «عديٌّ» بالقنا والكتائب
صبحناهُمُ بالموت في عقر دارهم وقد لاح ضوء الفجر من كل جانبِ
فَدُسنا بنيْ عوفٍ بزَوْرٍ وكلكلٍ وملنا عليهم مَيْلةً بالمناكب

وجنى «عمرو بن زيد» شاعرنا ثمرة تهوّره وعصبيته، فأنهكته وقومه الحروب حتى ظعن في بني غالب إلى «الحجاز» وجاور عدة قُبُل يبكي عزّه المفقود ويرسل أشعاراً حزينة يسأل فيها - جرير بن حجر - (ابن خالته) مساعدته على العودة إلى موطن هواه، ومرتع شبابه ومن ذلك قوله:

فأصبحتُ قد ودعتُ قومي ومعشري وحالفت همّاً ما أزال أُصَاوِلُهْ
رهينة ذُلٍّ بين «برج» و «مكة» كذلك من قامت عليه قبائلُهْ
فوالله ما خليت داري لمعشري بطوعٍ، ورب البغي ذو العرش خاذلُه
قارعَ كيداً من «سليم» و «عامرٍ» وحقدهمُ تغلي عليَّ مراجلُهْ
عدوٌ يغضّ الطرف عنّي تمقُّتاً ويخبر عمّا في الفؤاد تغافلُهْ
فأدفعه عني برفقٍ وحيلةٍ وقد أخذت في القلب مني دلائله
فمن مُبْلِغٌ «خولان» عنّي بأنني رهين العِدَى تجري عليَّ عواملُه
يُبَيِّتُ لي في كل يوم مكيدةً ويَطحَنُ جسمي حاركاه وكاهلُه
ويبلغ مني قولُه ما يَسُوؤُني ويَعلمُ أن قَدْ ساءني فأجامِلُهْ
فيا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلة بحجر بني حيٍّ حوتني قَوابلُه
أبى قومنا أن ينصفونا وجرّدوا لنا حدَّ سيفٍ أخْذَ متْنَا صياقلُه

وقد أبدع في تصوير ذلته واستكانته: وهو غريب الدّار بعيدَ النَّصِير، شريداً عن أهله، بين قوم يَظْهر أنهم لم يكرموا وفادته، فيهم العدو الذي يدبر له الكيد، والحاقد الذي يكنّ له البغض، وذلك الذي يَسْتثير كرامته ونخوته، ويؤذي شهامته فلا يثور ولا يغضب، بل يتهدّى إلى الحيلة فيدفع بالرفق وفي قلبه ما فيه:

ويبلغ مني قولُه ما يسوؤني ... ويعلم أن قد سائني، فأُجَامِلُهْ

وما أرق وما أنكى قوله:

فمن مُبْلِغٌ «خولان» عنّي بأنني ... رهين العدى تجري عليّ عوامله

وهو في قطعة أخرى يحنّ فيها إلى وطنه، ويستعطف ذويه، يَصِفُ بصراحة ما يقاسيه مع أصحابه من سوء المعاملة فيقول:

يا خولُ هل تجمعنا الدّار بعد نوى؟ ... أم هل يعود زمانٌ واصلُ الرَّحِم
أمسى «جرير» يحيل الحيل من عُسرٍ ... ما إن يراقب فينا حُرْمة الذمم
أمست منازلنا بالجوف شاسعةً ... ونحن إخوتكم في نبعة الكرمِ
وحيّ قيسٍ يوم الغل سادتنا ... قد أمسكوا بعُرى الأنفاس والكظمِ
لا قرب الله قرباكم فليس لكم ... عطفٌ جميلٌ، ومحمودٌ من الشِيم
ونحن في حيّ «قيس» يبْرُمون لنا ... سوء الحديث، ونخشى زلة القدم
ظَعَائِن من «ذرى خولان» زيَّنها ... طيبُ العفافِ شريْنَ الذلَّ بالرَّغَم
قطعتم حُرْمةً من حقهِنَّ فما ... ترعون قربي ولا نصراً لِمظَّلِم

وقد رقّ له ابن خالته وأعاده ومن بقي معه من بني غالب، ولكن عودتهم لم ترض محمد بن أبان الزعيم الشاعر الفارس لما كان قد وقع بين قومه وبينهم، وعاتب جريراً على ذلك، بل إن «الربيعة» نفسها قد ندمت لِما رأت من شاعرنا وقومه ما تكره.

وفي الجزء الثاني من الإكليل عند الكلام عن محمد بن أبان ما يوهم أنه قد قتل عمرو بن يزيد انتقاماً لأخيه «رفاعة» ولكن الصحيح أن ابن أبان قد حارب عمرو بن زيد وطارد أهله وقتل الكثير من قومه، ولكنه فيما بعد كان هو الذي أخذ بثأره من «مَعنْ بن زايده» وقاومه وحاربه كما يقرر ذلك صاحب الإكليل في الجزء الثاني.

ومعلوم أن ابن أبان قد ولد سنة ٥٠هـ وتوفي سنة ١٧٥هـ بعد أن

جاوز المائة بعشرين عاماً، وأن «مَعْنَ بن زايدة» كان في اليمن سنة **١٤٠هـ** فيكون شاعرنا قد أدرك عصر ابن أبي ربيعة، وعاش عهد بشار، والسيد الحميري وهو في نظري يسامقهم مرتبة وبياناً.

ومما قاله محمد بن أبان يلاحيه:

فَمَنْ مبلغٌ عني «بن زيد» رسالةً ... يغلغها سيرٌ إلى الخائن الفسْلِ
هُبلْت؛ ألم يعلم بأنا حماتها ... إذا قامت الحرب العوان على رجل
إذا ما حماةُ القوم شبُّوا ضرامها ... وثار عجاجُ الرَّهج كالقزع الطحْل
تخال شعاع البرقِ يلمع بينها ... إذا التمعت فيها محادثة الصقل
فإن كنتَ سُدت القوم منك بمن مَضى ... فقد سوّدت قدماً بحيلتها «مشلى»
وقد قال قبلي عالمٌ بزمانه ... زمانك، إن الرذْلَ للزمن الرذل
فإن كنت تبني فوق ما أسّ والدٌ ... فدونك شيّد بالعطاءِ وبالبذل
وإلا فِسرْ مُخزَى لأنكد منزلٍ ... نصيبك من حفظ العلى خَطْوة الرجل
وإن تلْقني تلقَ امرأً ذا حفيظَةٍ ... أخا نجدةٍ لا بالدَّني ولا الوكلِ

وقال «ابن أبان» أيضاً يعاتب جرير بن حجر الذي أذن له بالعودة:

تراكَ جرير الخيرِ تُدْني عدوَّنا ... وأسيافنا زالت بهنّ مفاصلهْ
وتُخْبِئُهُ من خلفنا يشحذ المدى ... ليوم عصيبٍ لا يزال يُزاوُلهْ
فتصبح يوماً قد جرَتْ في حلوقنا ... ربائقه الوثقى وجُرَّت سلاسله
وإنَّ له يوماً علينا إذا دنا ... ونحن إذا ما ناء عنا نحاوُله
أمن بعد «عَمْرٍو» و «ابن يعلى» و «ثابتٍ» ... وبعد «ابن زيدٍ» يغمد السيف ناصلهُ

وما أروع ذلك الشعر الذي وجهه إلى شاعرنا بعد نكبة الشاعر الحكيم الحارث ابن عمر والذي كان ينهي سلفه «عمرو بن يزيد» السعدي عن البغي، والذي نهى أيضاً شاعرنا فتمادى ولم يَرْعوي:

فدونك فَاجْرعهَا ذُعافاً كأنها ... من الصاب، والذيفان تُمزَجُ بالسمِّ

٣ ـ عمرو بن يزيد السَّعدي

شاعرٌ فارس يُعدّ من أفذاذ «خولان» وهو عمرو بن يزيد بن عبدالله بن الحارث والذي أهاج الحرب بين بني «سعد بن سعد» وبين الرَّبيعة بن سعد في أواخر القرن الأول الهجري، واستمرت زمناً طويلاً وهلك بها خلقٌ كثير، وكان شاعرنا من جُناتها وممنْ صَليَ بنارها؛ وكان شجاعاً بطلاً جواداً شاعراً ودارت بينه وبين فرسان عصره وشعرائهم معارك بالسّنان واللّسان.

وما وصل إلينا من شعره ينمّ عمّا كان ينطوي عليه من همّةٍ، ويدُل على أنه كان يحمل بين جنبيه قلباً عظيماً ونفساً أبيّة.

وما وصل إلينا من شعره لا يتعدى التعبير عن الفضائل والشمائل التي كان العرب يتحلّون بها ويعدّونها مثلهم العليا كاحتمال المكروه، وحماية الجار، والدفاع عن الحريم، والانتصار للعشيرة، والصبر عند اللقاء.

ولم يحدثنا أحد عن سنة مولده ولا وفاته، ولم نجد له ترجمة في كتب الأدب المشهورة، غير أن ما نعلمه بأنه سلّم أعباء الفتن بعد مصرعه لخلفه «عمرو بن زيد الغالبي» الذي قُتل في أوائل العهد العباسي، مضافاً إلى ما قاله الهمداني أنه والد الشاعر الفارس يعلى بن عمر الذي قام مع السيد إبراهيم بن موسى العلوي بصعدة؛ ونحن نعرف أن إبراهيم بن موسى قد دعا للإمام «ابن طباطبا» سنة ٢٠٠هـ وإذن فشاعرنا قد ولد في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وعاش ردحاً من مطلع نصف القرن الثاني وعاصر محمد بن أبان وعمرو بن زيد والحارث بن عمر، وشعراء ذلك العهد الدّامي.

ومن شعره في حرب أخويه فياض وثابت:

يقول لي عُمرٌ والخيل مشرعةٌ ... تحت الكماة وقد جالتْ عواديها
مهلاً لك الخير لا تفعل؛ فقلت له ... أقصِرْ؛ فإن مميت النفس محييها
همزتُ مهري برجلي ثم قلت لهُ ... إذهب إليك فقد سارت بما فيها
أكرهته فمضَى في جوف غمرتهم ... والرُّمحُ يأخذ صيداً ثم يُرْديها

وقد قال الهمداني تعليقاً على هذه الأبيات: ما قال أحدٌ من العرب قديمها وحديثها أشجع من هذه الأبيات وهي فردةٌ لا أخت لها.

وقال أيضاً:

شببت لقاح الحربُ لما تبوّختْ فأسفر لي من ضوئها كل جانب
وزرني فيها حُماةٌ أعزةٌ هم الصيد من حربٍ وسادة غالبِ

وقد كان أحد السادة الأشراف الحكماء الحارث بن عمرو بن الحارث وهو ابن عم شاعرنا ينهاه عن البغي، ويقول في ذلك الأشعار ويضرب له الأمثال، فأبى وركب رأسه فقتل إخوته ومزّق أهله وظلّ حتى خرّ صريعاً. ومما قاله الحارث:

إذا ما النُّصح ضيّعه الموالي فلا تترك مواصلة الصَّديقِ
فرب أخ لنفسك لم تلده لك الأم الألوف مع الشقيق
إذا عميتْ عليك السبل يوماً ولم تظفر بقارعة الطريق
فسِرْ في القسْطِ لا تتبعْ سواها فإن القسط مقربة الرفيق
ولا تتبع أخا غيٍّ جهولاً يدُلكَ للمهالك والمضيقِ
رأيت الحِلم يُنجي راكبيهِ ويُرْدَى ذو الغواية والعقوقِ
يَفتح بالترفّق كل بابٍ ويَفْسحُ بالتأني كل ضِيق
أحييهِ تحية ذي حفاظٍ فيلقي بالتجني والمروقِ
يُمنّي النفس منه بكلّ سوءٍ ويقطعُ بالعقوق عُرَى الحقوق

ومن شعر عمرو بن يزيد السعدي:

جارَتْ رماح بني الذلفا أو قَصدَتْ[1] إن كان قومٌ جروا في الغيّ أو قصدوا
صاغوا عليهم من الماذيّ مبهمةً خرس العرى وسيوفاً في الوغى تَقدُ

---

(١) كأنه يقول أهون برماح بني الذلفاء: أو تصبر لرماح بني الذلفاء إن جارت وإن قصدت. همداني.

وقومنا «مُغْرِقٌ» تَنَوّا بداهيةٍ   وهم رمونا برَجافٍ له سَدَدُ

٤ ـ عَمْرو بن يزيد العوفي

ونجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام «عمرو بن يزيد» آخر، تدل الأخبار القليلة التي وصلت إلينا عنه أنه قد عاش حياته قلقاً مضطرباً مكافحاً، وفي صراع مستمر لا يخرج من معركةٍ إلا إلى أخرى، ولا من هول إلا إلى هول.

«عمرو بن يزيد بن عمرو العوفي» شاعر خولان وفارسها في وقته، والشعر والفروسية كثيراً ما يتلازمان في تاريخ اليمن القديم حينما كانت الحياة قاسية عنيفة، وكانت قساوتها وعنفها منبعاً ثجّاً لخيال الشاعر يَمْتاحهُ ويَستوحيه صوراً رائعة يلوّن بها حياته الخاصة، وحياة جيله وقومه.

و «عمرو بن يزيد» العوفي لا يخلو كتابٌ من كتب مؤرِّخي اليمن القدامى من ذكره، والإشادة بأيامه، ووقائعه مع فرسان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام؛ وقصصه تجعله في زمنه مثلاً أعلى لكل ما تَطلَّبه جيله وقومه من بطولة وزعامة وبيان.

ورغم أن الصور التي نقلت إلينا عن حياة هذا الشَّاعر الفارس باهتةٌ لا نكاد نَتبيَّن ملامحها، إلا أننا لا نستطيع أن نتجاهل مدى أثرها في حياة الشعب اليمني، بما خلَّفته من حقائق وأساطير تشبه إلى حد بعيد أساطير «عنترة بن شداد» وعمرو بن معد يكرب ومن في طبقتهم من الشعراء الفرسان.

وحياة شاعرنا مبهمة غامضة فلم أجد له ذكراً في الأغاني، أو الأمالي أو معاجم الشعراء، وطبقاتهم المعروفة، وليس إلا هذه القطع المبعثرة مما قاله في حروبه أو افتخاراته؛ أو الأقاصيص المتفرقة في الكتب اليمنية القديمة التي تصور شجاعته وفروسيته، وتعدد ضحاياه.

ولم يكن «عمرو بن يزيد العوفي» وحده المجهول، بل إن أكثر شعراء ورجالات وأخبار «صعدة» وما صاقبها قد ظلت مجهولة وغير معروفة عند جمهور الأدباء والمؤرخين؛ ويعلل ذلك الهمداني تعليلاً حسناً بقوله:

«ولو كانت (صعدة) في القديم من البلدان التي دخل إليها أصحاب الحديث لانتشرت أخبارها كما انتشرت أخبار (صنعاء). إلى أن يقول: وقد سكنت بها عشرين سنة فأطللت على أخبار خولان وأنسابها ورجالها كما أطللت على بطن راحتي، وقرأت بها سجل محمد بن أبان الخنفري المتوارث من الجاهلية[1].

وقد أورد الهمداني نبذاً من أخباره وقال: «كان فارس العرب وحُمَّة البلد، وسيد بني عوف، ولسان خولان وهو القائل لسيف بن ذي يزن وقد سأله عن أحواله وقال شِبْتَ بعدي يا أخا بني عوف فقال عمرو:

فما كِبرٌ يُشيب لذات مثلي ... ولكن شيبت رأسي الحروبُ
وغاراتي بكل صباح يومٍ ... يَغُصَّك عنده اللبن الحليبُ
ومختلف الرماح على لَبَاتيَ ... كأشطانٍ أَلَّف بها قليب
فذاك هو الذي أبلى شبابي ... وأخلقه وبُردَيْهِ قَشِيبُ

وخولان تقول لم يقتل أحد من العرب مثل من قتل «عمرو» من السادة والعظماء. ولا شك أنه كان من المعمرين وقد عاش الفترة المضطربة في حياة الأمة العربية قبل البعثة، وأثر فيها وتأثر بها، وقد كانت حوادثها تمهد للرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، وترهص بضرورة دعوته، ليهدي العقول الضالة، ويبلسم الجروح الدامية، ويوحد الصفوف المتفرقة، ويجمع شمل العرب على كلمة التوحيد، وطلب العزة، ويحمّلهم رسالة إنقاذ البشرية، والسمو بها وهدايتها إلى عالم أفضل وحضارة سامية.

---

(١) ص٧٥ جزء أول من إكليل مخطوط السيد علي المؤيد وهذا يدل أيضاً على أن اليمنيين كانوا يدونون أخبارهم وأشعارهم وأنسابهم ويحفظونها في سجلات، وليس الأمر فقط أمر أحجار ونقوش عليها بقلم المسند ـ كما أراد لنا طه حسين أن نفهم ـ ثم لا ندري بأي خط قد كتبوا في تلك السجلات الجاهلية؟ هذا ما نرجو أن يزيح التنقيب عنه الستار.

فكما أن شاعرنا قد نادم سيف بن ذي يزن وحضر معه حروبه، وسيف بن ذي يزن كما يقول المؤرخون استعاد ملك آبائه وأجداده حوالي سنة ٥٧٠ ميلادية، فإنه أيضاً قد بلغته الدعوة الإسلامية وعاش حتى قبيل وفاة الرسول عليه والسلام أي إلى حوالي ٦٣٠م، أو بعدها ولا شك أنه لا يستطيع أن يحضر حروب سيف بن ذي يزن وينال لديه الحظوة والمكانة إلا وقد تخطى سن الشباب المبكر، وصقلته تجارب الحياة، والشعر الذي سبق أن ذكرناه حين أجاب الملك وقد استنكر الشيب الواخط في عارضيه يدل على أنه كان حينذاك قد جاوز الخامسة والعشرين أي أنه قد ولد حوالي ٥٤٠م. فيا لها من تسعين عاماً كانت «الجزيرة العربية» أثناءها مسرحاً للأهوال من كل لون، وكانت اليمن نفسها في تلك الفترة تغلي كغلي المِرْجَل، وفي حروب طاحنة مع الأحباش الغزاة، والفرس والأنصار، والزعماء وملوك الطوائف، والأقيال، في حروب أهلية لا ينطفي لها أوار.

وقبيلة شاعرنا نفسها قد نشبت حروب بين أفخاذها مزقتهم كل ممزق، فنزح بعضهم عن اليمن إلى «الحجاز» وبعضٌ إلى الشام، وجلا آخرون إلى مصر، وقد أسهب في وصف تلك الأحداث وذكر أسبابها أبو محمد الهمداني في الإكليل.

وكان شاعرنا رغم تعصبه لعشيرته وفخذه حزيناً لما يراه قد حل بقومه ونزل بهم من بلاء، وأرسل في ذلك أشعاراً خالدة.

من ذلك قوله:

أطاع بنا «عمرٌو» قول الوشاة ... ومن قبل عمروٍ وشاةً أطعنا
فكلٌ توسدها نادماً ... لأن الحمية منها خُلقنا
وكنا يَدَيْنِ كعظم اليمين ... فجاز الفراق علينا فهنا
فلم يهتك العرش من «مالك» ... ولا عزّ عوف لذلٍ وضعنا
وصحت بقومي غداة النفير ... فما إن حزنًا وما إن ندمنا
ولو كان حياً «أبو رعْشَةٍ» ... لما إن رحلنا ولا إن ظعنا

وقال أيضاً:

أبلغ بني «مالك» ببلدتها ... إخوتنا الأقربين إن نسبوا
يمين بَرٌّ بالله مجتهدٍ ... يُعرف منه الوفاء لا الكذبُ
ما قوَّضتْ «عوف» دارها فرَقاً ... منكم، ولا زعزعتْ لها طُنبُ
لكن إحدى اليدين طاح بها الميل ... فزال العناد والكربُ

وتفاقم الشر بين بني عوف وبني مالك، ولقي قومه الويل والعناء، فقال عند نفوره يذكّر بني عمه القربى والرحم:

«بني مالك» عودوا لفضل حلومكم ... ولا تركبوا في غيّكم كلَّ باطلِ
فأنتم لنا كفٌّ نطول بها العدى ... وهل توجدن كفٌّ بدون أناملِ
ونحنُ أشقاءٌ أبونا أبوكم ... وإخوتكم في كل يومِ زلازلِ
أليس أبونا من «أسامة» في الذرى ... شقيقٌ إليكم، قسمة في المنازلِ

ولما تشتتوا وتمزقوا أيدي سبا؛ ولم يصغِ أحد لصوت عقل أو نداء قربى قال:

إذا ما معشرٌ ضغِنوا فدْعهمْ ... فإنَّ الضغْنَ ليس له دواء
أضاعوا عزهم سفهاً ونوكاً ... فلا حلمٌ هناك، ولا ارعواء
فبعضٌ في أظلتهم حقودٌ ... وبعضٌ ظلها الأسل الظماء
رموا بالعز منهم واستقادوا ... لكل قبيلة منها انتحاء
تنازع أمرهم لخلاف بينٍ ... كذاك الله يخلق ما يشاء

وفي الجزء الثاني من الإكليل قال الهمداني: إنه هاجر في أخريات أيامه إلى المدينة قاصداً الرسول عليه السلام مسْلماً؛ وذلك في آخر أيام الهجرة وقال لما خرج يعاتب بني سعد بن سعد:

مهلاً بني «سَعد بن سعدٍ» عمنا ... إنا نصرناكم ولما نخذل
فارعوا قرابة معشرٍ نصروكم ... وارجوا مودتنا لعامٍ مقبل

فلعلنا يوماً نقارع دونكم ... ونذبّ من يغشي البلاد بِمعْضل
أنسبَّ في حَافاتِكم؛ ما منكم ... يوماً لنا في غيبةٍ بمجمَّلِ؟
لولا رحيلي «يثرباً» لكررتها ... بالجد مني لِلئيم الأعزلِ
أملت أمراً لستُ أرجع دونهُ ... والرشد في رفق الفتى المتأملِ
حتى أزور نبيَّ صدقٍ مرسلاً ... يأتيه وَحْيٌ بالكتابِ المنزل
من خير بيتٍ في لؤيٍ بيتهُ ... بيتٌ لعمرك في الرَّفيع الأطولِ

وهنا تنقطع أخباره، ولا ندري هل أكمل رحلته ـ إن كان ما قاله الهمداني حقاً، فإنك تلمس في البيتين الأخيرين أثر الوضع ـ إلى يثرب وقضى أمره الذي عزم عليه، أم أن المنية قد فاجأته وهو في الطريق؟ ونحاول أن نجد له سيرة أو خبراً في كتب الطبقات والسِير فلا نظفر بطائل.

وقد شهد مع «ابن ذي يزن» حرب «الأشبا»، و «الصدَف»، و «حضرموت»، ورمى مالك بن زيد (الصَّدفي) الملك فقتله؛ وقال في ذلك:

ولقد تركتُ أخا المهابة مالكاً ... رهن الضريح مزملاً مدفونا

وفيه يقول شاعر الصَّدف:

ألا شلّت يمينك (يابن عوفٍ) ... فقد أوريتَ زندك فاستنارا

ومن شعر (عمرو بن يزيد) العوفي في ذلك أيضاً:

أغشى الكماةَ إذا تراجع لَحظها ... لا طائِشاً فرقاً ولا رِعديدا
ولقد جلستُ مجالساً محمودةً ... وَحزَزْتُ من حَلقِ المليك وَرِيدا
وَقتلتُ ذا التاج المذَّهب (مالكاً) ... ولكم أبدتُ مهذباً صنديدا
ما قلتُ إلا الحق قولاً فاعلمي ... أبدِي بذاك براهناً وشهودا

وللعباس بن مرداس ولعمرو بن معدي كرب في شاعرنا أشعارٌ كثيرة، ولما قتلَ (مُرّ بن عمر)، و (نَوال بن عُتيْك) غلام (ابن ذي يزن) قال:

لـمـا أبـان لـنـا مُـرٌّ عـداوتـه مِـلـنـا عـلـيـه بـرجـاسٍ لـه زَحـل
مـن آل عـوف إذا جـروا رمـاحـهـم حسبت منها جبال الأرض تحتمل
إنـسٌ إذا أمـنوا؛ جـنٌ، إذا غـضـبـوا تحت العجاجة في أيمانـهم شُعلُ
سرنـا إلـى حـصـن مرٍّ حـين لاذ بـه فـلـم يـكـدْ عـن ظُـبَـا أسـيـافـنـا يَـئـل
وقـد تـركـنـا (نـوالاً) لا حـويـل لـه كـأنـه الـجـذع جـذع الـنـخـلـة الـقَـطِـل
لـمـا أبـى حـكـم مـولاه دلـفـت لـه مـنـي بـأسـمـر ألـويـه فـيـنـتـقـل
حتى اجلعبَّ على الخدين منعفراً وفـوق حـيـزومـه غـرَّافـة تـهـل
من كفّ أصيد لا يخشى عواذله ولـيـس يـدخـل فـيـه الـلـوم والـعـذل

ومن جيد شعره قوله من قصيدة قالها في بعض أيام نجد:

حـمـلـت عـلـى الـكـتـيـبـة مـن مـعـدٍ ولـو أنـي قُـتـلـت لـمـا خَـفـلـتُ
حـمـلـت الـمـهـر إذ حـمـيـتْ لـظـاهـا ولا والله مـا فـيـهـا نـدمـتُ

وأشعاره وأخباره كثيرة وخليق بها أن تدرس وتمحَّص.

٥ ـ أحمد بن يزيد القُشَيْبي «الكبير»

أحمد بن يزيد بن عمرو بن ثابت العَوسَجي القُشَيْبي الشاعر الفارس، كان رفيقاً وحليفاً للشاعر الزعيم محمد بن أبان، وسكن معه «صعدة» وتزوج بأخته «فارهة» بنت أبان، وعلى هذا الصهر وتلك الصُحبة دخل معه في حرب «سعد والربيعة» وناصره بسنانه ولسانه، ولكنَّه بعد أن تداعت سعد والربيعة إلى الصُلح وهو يعلم أنه قد أضرّ وأنكى، دون ما مبررٍ غير الصِّهر والصداقة، وبقوم لم يكن بينه وبينهم لا ترة ولا دم ـ خاف دوائر سعد بن سعد وفتكات خولان وخشي على عقبه فظعن إلى «نجد» وحالف جنْباً ونهْداً وزُبيْداً ثم تقدّم فحلّ بالرياض من تُنَادح في أهل بيته وخدمه ومن خفَّ معه من عوسجه، لكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنَّار، فلم يطب له العيش ولم يرق لأهل «رياض تنادح» أن يقيم بينهم هذا الشاعر القحطاني بخيلائه وحشمه وأن يَحْتَلّ أرضهم، ولوَقتٍ غير محدود، فما إن تمادَتْ أيامه، حتى

اجتمعت (عَزْ) من كل أوب وأقبلتْ إليه تسأله النزوح عن أحمُيتِها، فسألهم الفُسّحَة والْمُهلة فإنه قد بَعَثَ رُوّاده إلى الطّائف يَرودُونَ، وعِبْؤُهُ ثقيل، ولكن عنزاً اعتبرت هذا الطلب مطاولةً ومدافعة، وأكدوا عليه السؤال بأن يَشدّ الرحال؛ وكره الشاعرُ المطارَدُ أن يَخفَّ ونَشبتْ بينه وبينهم ملاحاة ثم مواثبة وثار كلٌ إلى سلاحه ودوّى الصوت الصارخ في «نهْدِ» و «زُبيْد» و «جَنب» وكان منهم حُلاّل بالقرب من تلك المنطقة، فأنجدوا حليفهم، وابن عمّهم، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً ترابطوا فيه وتصابروا حتى تَبالغوا المجهود كما يقول الهمداني، وقد انهزمت «عنز» وقتل من وجوهها مقتلة عظيمة، غير أن شاعرنا لم يستقر في «رياض تنادح» وارتفع بمن معه إلى قرية «جُرش» فتوطنها من يومئذٍ حيث اطمئن على بقية حياته، وعلى خلفِه من بعده، وقد كان ما دار بينه وبين «عنز» سبباً في استمرار العداوة بين الفريقين لأمدٍ طويل.

وحياة شاعرنا هذا وما يتخللها من مغامرات وحروب وأدوار مثيرة؛ سواءاً حين تدَّخل في حرب لا تُعنيه بين «السّعد والرَّبيعة»، أو حين تخوَّف السلم على نفسه وعلى عقبه أو حين هاجر مع ذلك السّرب الطويل من النساء والأطفال، والخيل والجمال، والحشم والأتباع، أو في مُلاَحاته مع من نَزَل بينهم، وحلَّ أرضهم، أو في انتظاره للروّاد، ونُصرة الحلفاء. ثم في حنينه إلى وطنه القديم، كلُّ ذلك يكوّن قصةً رائعة تحرك المشاعر وتهزّ العواطف وتوحي بأبدع المعاني.

وفي حربه مع «عنز» يقول أحمد بن يزيد الكبير:

لقد لفقتْ عنزٌ علينا وأجلبتْ	ودبّت إلينا في كتائبها تَسرِي
وساقت علينا من معدٍّ قبائلاً	تبخترُ في الماذيّ ذي الحلقِ الخُضرِ
فقالتْ معدٌّ؛ ارحلوا من سيوفنا	وخلوّا بلاد الأكرمين ذوي الفخرِ
فسارت إلينا من «زُبيد» عصابة	وقاموا لنا بالجدّ منهم وبالنَّصر
وجاءت بنو «نهْد» بن زيدٍ بعارض	من المزن داني الرعدِ منبجس القطر

يقودون شُعثاً في الأعنّة ضمراً يبادرن سرب القوم في وَضح الفجر
إذا أصبحت في الروّع يوماً جيادهم منازل قوم في أعنّتها تجري...
ظننتَ ضَجيج القوم بين رماحهم صليل رداة النيق في خرشف الصخرِ

إلى أن يقول:

فجالتْ جياد الخيل منا ومنهم بكل فتًى عبل الذراعين كالصقْرِ

وهي قصيدة طويلة اختتمها بقوله يخاطب صهره الزعيم الشاعر محمد بن أبان ويُبشر قومه بالنصر على «عنز»:

فمن مبلغٌ عني الشريف بن زرعة وسادة قومي من سراة بني عمرو
بأنا رُمينا عن قسّي عداوةٍ فأيدنا الله المهيمن بالنصر
وما النَّصر إلا الصبر مفتاح بابه ومُختطمٌ من حدّث النفس بالفرِّ
فعش ناعماً في غبطةٍ وغضارةٍ فأنارَ ميناهم بقاصمة الظهر

وقد أجابه محمد بن أبان بمطولة رائعة رأينا أن نثبتها هنا أولاً لما فيها من شعر جيد، لو أن علماء الشعر في البصرة وبغداد والكوفة قد قرؤه أو اطلعوا عليه لعدوا صاحبه من فحول الشعراء ولكان لهم معه مواقف طويلة، ولما جاءنا الدكتور طه حسين بعد ألف ومائتي عام ليقول إن اليمن ليس لها شعر في الجاهلية وإن شعر شعرائها في الإسلام ليس جيداً؛ وثانياً لأن القصيدة تخبرنا أن محمد بن أبان قد قالها وهو في سن الخامسة والثمانين، ونحن نعلم أن مولده سنة ٥٠ هجرية فيكون قد قالها في سنة (١٣٥هـ). وبذلك نعرف أن شاعرنا الذي نتحدث عنه قد هاجر من اليمن في ذلك العام أو الذي قبله، قال محمد بن أبان:

أتهجرُ «سعدَى» فالتجّني من الغدرِ وقد كنت مفتوناً ببهتانة بِكرِ
فيا ربّ يومٍ قد لهوت وليلة بواضحة الخدّين طيبة النشرِ
فإن كان ريعان الشباب سلبته وأرمدت جفن العين من واكف القطرِ

وأصبحتَ قد أفنيتَ سبعين حجة ... وأردفت خمساً بعد ذاك مع العشرِ
فيا ربّ يوم قد غدوت بفيلقٍ ... تمدُّ أواذيه كموجٍ من البحرِ
أقود عواديه، وأهدي رعيلَه ... إذا ابتزّ من ثوب الظلام ضيا الفجر
عليّ قميص من حديدٍ مفاضة ... وأشقر رنّان الطهاطِه كالنسر
واستلب البيضاء في الخدر لبّها ... بفينانة لون الغراب على الصدرِ
وأحمى على المولى، وأمنع ضيمَه ... وأتلف مالي في المغارم والخمرِ
وأغدوا على ندمانها بسلافةٍ ... أطافت بحولٍ قدْ تجرَّمَ في الجرّ
وأجعل ليلي من نهاري للعدى ... وأغدو عليهم بالمسوّمة الشُّقْرِ
وفتيان صدقٍ من أرومة «مُغْرقٍ» ... ومن «حمير» السادات في الحسب النضرِ
وفيها سراة من ذؤابة «كندةٍ» ... ذوي الأوجه الزهراء في ساعة الكرِّ
وحوليَ صِيدٌ من «كليب» بن «محكم» ... ذوي الشدّ، والاتلاف في شنف النكر
يَدبّون حولي في الرَّعيل كأنهم ... جمال تخطى في العصور من الوعرِ
هُمُ برحوا يوم «الغُبير» وبعده ... بأسفل «ضحيان» فدى لهم عمري
أسودٌ لدى الهيجاء في حومة الوغى ... إذا ما شعار القوم تُعْزَى إلى «عمرو»
رأيت شواء الموت بين رماحهم ... وقد خُضِبَ المران بالعَلَقِ الحمْرِ

***

فإن كان ريعان الشباب قد انقضى ... فقد يُطربُ القلبَ العزوفَ عنا القر
فلا يلحني لاحٍ فإني لم أدع ... لنفسي غُلاً من عدوٍ إذا أسري
ألجّ به حتى أبيح دياره ... وأركبه قسراً بقاصمة الظهر
ولم أرع فيه ما مضى من هَوادة ... ولم أرجِهِ يوماً لقُرْبى ولا صِهْرِ
فإن تكُ قومي قد توافوا فإنني ... سأتبع قومي، والمنايا بنا تجري
سألقي الذي لاقوا، وأشرب وردهم ... وقد كنت قدماً قد أشد بهم أزري
سأبكي عليهم ما حييت بعبرةٍ ... إلى أن أوارى أو أضمن في قبري
وخلت «بنو الريان» مني قوادمي ... بطعنهم عن عقر داري وعن وكري

وأصبح بين الدار مني ومنهم تنائف تودي بالحذاء وبالظهْرِ
فإن قلت إني ناعمٌ في غضارةٍ أطالع عِيْناً في ذرى غرفة القَصرِ
فما عيش من أمسى يحسّبُ عمره ثمانين حولاً بعد خمس من الدهرِ
فإن كملت تسعين منه سنوّه فقد بلغ العمر الرفيع من القدرِ
وإن هو وافي للهنيدة عدّها فذاك حبيس الله في البلد القفرِ[1]
طوى من أعاليه قروناً ثلاثة وأبلى ثلاثاً من عمائمه الشقّرِ
قَدِ اعْرَت خوافيه الليالي وأصبحتْ حوازكه جمعاً تلذّع بالجمرِ
تَتابع إخواني وزال عمودهم فمدت كما ماد النزيف من الخمرِ
كذا الدهر لا يُبقي على حدثانه أخا عدمٍ يوماً ولا ذا غنى مثري

ومن شعر أحمد بن يزيد «الكبير» حين فارق محمد بن أبان:

ألم ترني ودعتُ أيمن صاحبٍ وأكرم خلق الله نفساً وعنصرا
نماه من «الذلفاء» عرق سماحةٍ فبرّج في أعلى العلى وتبخترا
أبوه «بن ميمون» وجدَّاه «زرعة» و«حجر بن زرع» خير من وطىء الثرى
وأصبحتُ من طودٍ «بروض تنادح» تصاول عن أجوارها من تنزرا
تساقى بها «عنزا» سماماً، وربما شربنا بأيدهم سماماً ممقَّرا

وقد أطلقنا عليه لقب «الكبير» تمييزاً عن الشاعر المجيد أحمد بن يزيد القشيبي الآتي ذكره، ولا ندري سنة وفاة شاعرنا ويظهر أنه لم يعد إلى اليمن بل سكن «جرش» مع أهله، ويقول الهمداني: إن أولاده بها إلى اليوم، أي القرن الثالث الهجري أيام الهمداني، وربما إلى يوم كتابة هذه السطور، أما الشاعر فهو من أعلام القرن الثاني.

❋ ❋ ❋

(١) أي قرن ليس من قرنه فكأنه معهم في قفر ـ هـ. همداني.

٦ ـ أحمد بن يزيد القشيبي (الثاني)

أحمد بن يزيد بن عبدالرحمٰن القشيبي الشاعر الفحل الذي خلف محمد بن أبان في الرياسة والشعر، ويعدّ من فطاحل شعراء اليمن في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري، وكان فارساً نجداً، ومكيناً لدى الأمير يعفر بن عبدالرحمٰن الحوالي، ويذهب مذهب الكميت والسيد الحميري في التشيّع، ويقول صاحب الإكليل: إن «محمد بن أبان وعلقمة بن ذي جدن وأحمد بن يزيد، وآل مُفرِّغ أشعر شعراء بني الهميسع» ويعني به حفيد «عبدالرحمٰن» لا حفيد «عمرو».

وكان إلى ذلاقة لسانه وقوة بيانه يمثل بحق النفسية اليمنية في تلك الفترة بما تجيش به من عصبية قبلية، وعقيدة دينية، وآمال قومية، فهو يعتز بعشيرته وقومه، ولكنه أيضاً شيعي مخلص في حبه لآل الرسول ﷺ، وقد امتزجت كل تلك المعاني بعداوة الطامعين وكيد الحاقدين، وتِراةِ الناقمين ثم تهور من تصوره مثلاً لذلك التشيع والحب والإخلاص.

وكان أحمد بن يزيد هذا هو الذي ألّب أهل اليمن على إبراهيم بن موسى العلوي أول داعية للإمامة في اليمن، وقلب عليه البلد وقام كثير من اليمانية مع عبدالله بن محمد بن ماهان سنة ٢٠١ ثائرين عليه حتى خرج ابن موسى طريداً.

وكان «ابن موسى» المعروف في تاريخ اليمن بإبراهيم الجزار قد قدم (صعدة) سنة ٢٠٠هـ ـ ٨١٦م داعية للإمام ابن طباطبا فأسرعت إليه تنصره وتشد أزره وتبشر بدعوته «بنو سعد بن سعد» تشفياً من «الأكيليين» و «بني شهاب» و «حمير»، فلما رأت ذلك «أكيل» وأحلافها لقيته بالسلم والطاعة واستقر بصعدة حتى تهيأ له المخرج قاصداً صنعاء فطلب منهم أن يخرج معه من وجوههم من أمكنهم، فخرج معه من آل أبان وبني خنفر وأكيل وبني شهاب مائة رجل وخمسة رجال، فلما صار إلى منزل محمد العمري «بضموء» أمر بهم فقيدوا وسار بهم إلى صنعاء، وكان فيهم شاعرنا أحمد بن يزيد ولكنه استطاع أن يفلت من قبضته «بِرَيْدَة»، وأخفاه بعض (اللغويين)،

أما بقية الركب الأسير فقد سيقوا إلى حيث أعدموا صبراً بصنعاء.

وقد اضطرمت نفس أحمد بن يزيد غضباً، وآلى على نفسه أن ينتقم من قتلة إخوانه، ووجوه قومه، وكان يعلم أن لبني سعد بن سعد يداً في تدبير المجزرة الرهيبة، وأن إبراهيم قد خضع لوشاية يعلى بن عمرو بن زيد السعدي، فقال شعراً ثائراً حزيناً يصور عاطفته الشيعية وحبه لآل محمد، واحتدام هذه العاطفة بالواقع الدامي المرير، لأن الذي يحبه، ويتشيع لآله، ويقدس ذويه، كان السيف الذي أصْلِتَ على رقاب أهله وعشيرته وأحبابه، فمما قاله في قتلهم وسعاية بني سعد:

وللهِ عيناً من رأى مثل عصبةٍ ... أبيروا عَلَى خُلقٍ وليس لهم ذنب
سوى أنهم جاءوا بسمعٍ وطاعةٍ ... على أنهم حيث انتهت بهم صَحْبُ
فأركبتهم حَدّ السيوفَ تبذّخاً ... فأفنتهمُ منك القَسَاسيّة الشهب
بلا تِرَةٍ كانت لديهم طلبتَها ... فأعجبني ما جئت وازداد بي العُجْبَ
تَشَافى بك الأعداء منهم فأصبحت ... مَغَادركم فيهم يسيرُ بها الركبُ
وأنت رفيع البيت من «آل هاشم» ... وصلبكَ خير الناس إن ذكر الصلبُ
فهلاّ بعفو منك كنتَ انتقذتهم ... فكان لك العفو المغمد والذنب؟
فليسَ بعيداً منك ما فيك يُرتَجى ... لأنك ذو الأفضال والسيد الندبْ

وإنه لعتابٌ عنيف صادرٌ عن مرارةٍ تذيب الضلوع، كيف لا ينسى الشاعر أو يتناسى وهو في عنفوان غضبه أن هذا السَّفّاح رفيع البيت ومن ذرّية خير البشر، بل إنه لا يتحاشى من أن يصف قاتل ذويه وأهله بأنه ذو الأفضال والسيد الندبُ، وأنّ مِنه كانت ترتجى السماحة والعفو، ثم يَودُّ أن يغالط نفسه فيذهب ملتمساً له الأعذار ليخفّف من صدمته وخيبة أمله فيقول:

سمعتَ بهم قول الأعادي فأصبحوا ... وكلهمُ في شخب أوداجه يحبُو

وتتجسّم المأساة وتكبر وتستنزف عبراته الدَّامية، ويتذكر بطولتهم وهم

الصيد الغطارف، ويذكر «إبراهيم» بمواقف قومه وتشيعهم ومؤازرتهم للرسول وآل بيته:

فيا أسفاً من بعد صيدٍ غطارِفٍ ... جسام المعالي ليس زندهم يكْبُو
بكل غداةٍ تُسْتَفَاض جيادهم ... من الماء قرناً بعد قرنٍ لَهُ سكبُ
ويمْجُجْنَ من علك الشكيم بها دَماً ... فذوُ شكْلةٍ منه؛ ومُعتبَطٌ عَضبُ
ولو أنهم خافوا التي نلْتَ مِنهمُ ... لضَاقتْ بك الأرض العريضةُ والرَّحُبُ!
ولكنهم قالوا شريفٌ وسيدٌ ... وذو ثقةٍ محض أبوّتُهُ طبُ
فمهلاً لكَ الخيرات لا تَبْرِ عظمها ... فشعبُكُمُ من يوم كان لنا شَعْبُ
ونحن لكم كفٌّ على كل مُلحدٍ ... ونضرب منْ يُخفي الحقيقة أو يصبُو
ونحنَ لكم حصنٌ حصينٌ وشِيَعةٌ ... فأصغيتَ أذناً للوشاة وقد دَبُّوا

ثم يلتفتُ التفاتة رهيبة إلى تلك الأفعى التي دبت ما كرةً تنفث سمومها، إلى يعلى بن عمرو بن يزيد:

فمن مبلغٌ يعلى بن عمروٍ رسالةً ... تخِبّ بها نوق مخيسة صُهب
بأن دمانا طوقتها رقابكم ... وأن لنا نجماً يلوح ولا يخبو
هنيئاً بما طوقت من دم ثائرٍ ... جسور على الغارات ما سيفه ينبو
سألقاك يوماً إن سلمت بعارضٍ ... تصمُّ له أذناك، مياحه لجبُ
ولولا ابن موسى ما ظفرت بطائلٍ ... ولا نيل منهم ويك هضم ولا عصبُ
ولكن إبراهيم ملنا لعدلِهِ ... وقد نيربت منه الخيانة والكذبُ
فلا تفرحنْ (سعد) بسفك دمائنا ... فإن لنا يوماً زعازعه نُكبُ
نقود عتاق الخيل في كل منزلٍ ... ونصبحها الأعداء ريعانها يربو
إذا ما نشرناها لدار عدونا ... فليس له صِرْمٌ مقيمٌ ولا سربُ
وما زال منهم خائنٌ وابْنُ خائنٍ ... فإن رام رشداً فهو فجفاجَةٌ خبُّ
سأتلو قبيحاً بيناً في قديمكم ... وما ضمنته في صحائفها الكتبُ
ولولا رجالٌ من أكيل بن مالكٍ ... لما آب من سعدٍ ثنيٌّ ولا سقبُ

جحدتم جميلاً كان منهمْ إليكمُ وقد نصروكم حين أجلتكم الحربُ
جزيتم بني حجر بن سعدٍ بنصرهم عقوقاً وقد شاع التطاعن والضربُ
عشية سارتْ من زُبيد فوارسٌ تظلهم راياتها والقنا الشطبُ
لظلَّ لكم لولا همو في دياركم بهم أنةٌ أثناء يظهرها الكربُ
ونحنُ نصرناكم على ابني هوازنٍ غدية جاءوا حاشدين لهم لجبُ
فلم يُنجكم منهم حصونٌ توفرت ولا شاهقٌ ناءٍ شناطئه، صعبُ
لحا الله من لا يورد الخيلَ داركم ومن لم يُسْقْ منكم إلى داره نهبُ
ومن لا يكافئكم بسوء فِعالكم فلا وسعته الأرض شرقٌ ولا غربُ
أنا بن يزيد فاعرفوني فقد بدا لأعناقكم صاف عقيقته عَضْبُ
تركتُ بن مُرّ بينكم بغرارهِ يَخِرُّ على جنب، ويقلبه جنبُ
وقد نَهلتْ في حيّ حرب وغالب رماح بني الذلفاء، والنبل، والقضْبُ

❊ ❊ ❊

ولأحمد بن يزيد هذا قصيدة رائعة يعاتب فيها أيضاً إبراهيم بن موسى، ويبكي صرعاه، ابتدأها بالبكاء على الربع، وبذكر سلماه وهواه، وقد أبدع فيها وأجاد:

عَفا الربعُ أو رسمٌ محيلٌ من الربعِ منازلُ من نعم برابيةِ الفرعِ
وقفتُ بها هَجرَ النهار مطيتي فلا نظري فيها شَفَيتُ ولا سمعي
فعاتبني صحبي وقد رحتُ قافلاً فيا لك من عذل ويا لك من قَذْعِ
تراك على (سلمى) تُبكي وقد نأت ولستَ بذي رجع لما فات بالدمعِ؟
فقلتُ لهم مهلاً دعوا عذل عاشق يُبكي على إلف برابية الجزعِ
خليليّ ما لي قد بليتُ من الهوى «ونعمٌ» تمادى في القطيعةِ والمنع
إذا قلتُ يوماً أردفيني بنائلِ أبَتْ ثم قالتْ لا نوال لذي ولْعِ

❊ ❊ ❊

فَمَن مبلغٌ عنّي على نأى دارِهِ أخا الجود والنعماء والنسب الفرعِ

أيا بنْ «عليٍّ»، يا بن بنتَ «محمدٍ» نراك رغِدتَ اليوم في المنّ والودْع
وأنت فُريْع القلب مِنْ آل «هاشم» وبيتك منها في التمام وفي الشفع
تناسلك السادات من طرفيهم فلا محسِن يوماً إلينا ولا مُرْعِي
تناولْتَ منَّا قَتْل كلّ متوّج وأرديت منا كل أروع كالجذع
توَّعبْتَ واستوعبت جدع أنوفنا وقد يَقْبُحُ الوجهُ الجميلُ من الجدع!
وقطعْتَ منا كل كفّ ومعصم وما غنيٌّ كفٌّ قد أبنتَ من القَطعِ؟
ألَسْنَا لكم وِدّاً، نَقُومُ بأوْدِكم ونقرع من عاداكم بشَبا القَرْعِ؟
فما ذنبنا؟ أن قلتَ إنّي خليفةٌ؟ حَجَدْناك؟ أم قمنا نكابر بالدَّفعِ؟
ونحن قديماً قد شهدنا بأنَّكم خلائف أرض الله بالطوع والسمع
نعادي الذي عاديتم ونُذِيمهُ ونسعى له بالحتف عنكم وبالقَلعِ

وهذا عتابٌ حارٌ صادق يصوّر خيانة «إبراهيم» بعد أن نصروه وأيدوه ويعود إلى «ابن عمرِو» فيقول:

أطعتَ «بن عمرو» في هراقِ دمائنا وخُنْتَ، وقد هِيضَتْ حشاه مع الضَّلْعِ
وقدماً رضضنَا منه صلباً بحارك فحارَ وما يدري بضر ولا نفعِ
وكُنَّا أمَلْنا منه حاملةَ القفا وأثَّر كيٌّ في حجاجيه باللَّذعِ
فأفرْقَ لما قُمتَ فينا بنصره لما جاء فينا بالخيانة والخدْعِ
فملت إليه ميلة لم تدع لنا مآباً ولا ركناً يُشَدُّ لذي نزع

ثم يتذكر صرعى قومه فيقول:

فيا لهف نفسي بعد قوم أَبَرْتَهُم فأمْسَوا رهاناً في صفيح وفي صدع
أتاحت لهم منك المنيةُ حاصداً فيا رب ذي ضرّ أبدتَ وذي نفعِ!
فلا ثبتَتْ من بعدهم قدمي ولا أَقلّ إليها صدرُ نعلي إذ أسعى

إلى آخر القصيدة، ويقول الهمداني: إن شاعرنا.. هو الذي خلَفَ «ابن أبان» في الرياسة وإنه كان مكيناً عند «يُعْفِر بن عبدالرحمٰن الحوالي»

على حدّ القرابة والعشيرة، وله شعر جيد يعاتب فيه «يُعْفر» في فعاله بعباد بن محمد الذي لم يُبار معن بن زائده في جوده من أهل اليمن سواه، وكان «يُعْفر» قد نكل بعبَّاد وسجنه وقد تعرض لغَدْر عبدالرحيم بن جَعفر:

نكأتَ بعبَّاد بن عمرو جراحنا ... وضَعْضَعْتَ منّا عزّنا فتهدّما
أيُعْفِر، يا ذا الجود جرَّت لحومنا ... سباع العدا فاذكر لنا ما تقدّما
ولا تُعْسر من سَبْد الجناح قوادماً ... بما نهضتْ علواً وخلفاً، ومقدماً
فما ذنبنا إن كان أجرم واحدٌ ... ونحن ترانا في جفيرك أسهما
وإن كان جرماً قد أتيناه فاحتمل ... فما كلنا يوماً إليك قد اجرما
فإنّا نُعَفّى ما جفاهُ ابن عمنا ... ونعتب فيما قد جنى، فتحكَّما
أليس أبوكم معدن البرّ والتقى ... وأنتم بنوه ما أهلَّ وهيمنا؟
أيعفر، فاصفح عن أخيك فإنما ... أخو المرء في عصيانه من تندّما
وقم في رجال من ذوي يَمن لها ... وقارع عليها من طغَى وتعظَّما
أيُعْفر: إن المرء زين بن عمّه ... فلا تخذَمنْ منه بَناناً ومعصما
فإنا حماة من حماتك ذادة ... نهدّ لك الأقوام يمناً ومشأما
فإن تعف عنا تعف من بعد قدرة ... وإن تأخذنا، فابن عمك أجرما
فعد لجميل من فعالك إنما ... أخو القوم من أغضى لهم وتكرّما

إلى أن يقول:

أبا عَكةُ نذل الطبيعة غادراً ... وما زال من واتى الملوّم ألوما
تبيد بني عمٍّ لأبعد أبعَدِ ... فتصبح من أبناء عمّك معدما
وما باعه إلا وقد باع غيره ... كما باع قدماً في خراسان هرزما

وقال أيضاً:

إذا الله جازى بالدنيّةِ أهلها ... فجازى بها عبدالرحيم بن جعفر
وإن يك محض الغدر منه سجية ... فإن خلال العفو من طبع يُعفرِ

شهيرات النسَاء

في الشرق نساءٌ شهيرات، وإذا استثنينا الصحابيات ونساء التابعين وشاعرات العرب في العصور الأولى، وفُضليات نَبغنَ في العصر الحديث، فإن الأخريات لسنَ سوى سرْب من الهالكات بين المعاصي والمؤامرات.

ولليمن نساء شهيرات نعتهن التاريخ بأسمى الصفات، ملكات أديبات، وأميرات شاعرات، وعالمات فاضلات، وظريفات مهذبات، كما أنّ لها أيضاً مغنّياتها وقيانها. وسأذكر أسماء بعضهن في هذا الموجز وعسى أن تلتفت أنظار أدباء الشباب فيولونهن عناية واهتماماً.

١ ـ بلقيس ملكة سبأ وصاحبة العرش العظيم.

٢ ـ الشاعرة عمرة بنت زيد من بني حي من خولان.

٣ ـ سلامة ابنة إبراهيم الحوالية.

٤ ـ الملكة أسماء بنت شهاب الصيلحية.

٥ ـ بلقيس الثانية الملكة السيدة أروى بنت أحمد الصيلحية.

٦ ـ العالمة الشريفة فاطمة بنت المرتضى بن المفضل.

٧ ـ الشريفة العالمة صفية بنت المرتضى بن المفضل.

٨ ـ الأميرة فاطمة بنت الإمام علي بن محمد.

٩ ـ الشريفة العالمة دهما بنت يحيى المرتضى.

١٠ ـ الشريفة المجتهدة فاطمة بنت المهدي أحمد.

١١ ـ الأميرة بدرة بنت محمد بن علي بن صلاح.

١٢ ـ الأميرة فاطمة بنت الحسن بلقيس الصغرى.

١٣ ـ الشريفة الكاتبة فاطمة بنت عبدالله الحسنية.

١٤ ـ الشريفة العالمة فاطمة بنت عبدالله الحمزية زوجة الإمام شرف الدين.

١٥ ـ الشريفة الشاعرة زينب بنت محمد الشهارية.

١٦ ـ الشاعرة غزال المقدشية.

العَصْر الحَديث

الظاهرة الرائعة التي تحدثنا عنها في أكثر من مناسبة أن الأدب اليمني وخصوصاً الشعر لم يرتكس بين ما يُسمّونه «المحسّنات البديعية» كما ارتكست آداب الأقطار العربية الأخرى من بعد القرن السادس الهجري، ولذلك فمجانفةٌ للصواب أن ينهج من يريد أن يؤرِّخ له طريقة مؤرّخي آداب العرب التي سلكها المتأخرون، فيقسّمونه إلى فترات رقي وانحطاط ثم بعث من جديد؛ فأنت تجد طابع الألمعية والسمو في التعبير، والجودة في الأداء، والرقة في الشعور، والإبداع في التصوير، والإشراق في البيان، متشابهة ومتقاربة لدى الأفذاذ من شعراء اليمن في جميع العصور، وإن كان كل واحد منهم له شخصيته المستقلة وأدبه وفنُّه، ولكن كما تجد الفرق بين أبناء العصر الواحد. فلو انتخبت مجموعة متباينة من شعراء كل فترة من فترات التاريخ اليمني على مختلف العصور والأحوال والنوازع والمذاهب، وقرأت أشعارهم، واستوعبتَ أدبهم، ووازنتَ وقارنْتَ لوجدتَ نفس الروح، وذات العاطفة، وعين الألمعية، وإن تفاوتوا قيمة، وهمة، وشرفاً وأخلاقاً. ويندر أن تجد ذلك في أدب أي أُمة عربية أخرى... إن مَا سَتلمسهُ من عبقرية عمرو بن معدي كرب المخضرم، ووضاح اليمن الأموي، وأحمد بن زيد القُشيبي، أو بكر بن مرداس من شعراء أواخر القرن الثاني، هو ما سَتعجَبُ بِما يُضارعه لدى ابن أبي الطلح أو ابن عباد من شعراء القرن الثالث، وقلْ مثل ذلك في إبراهيم بن الجدوية والهمداني وهما من شعراء القرن الرابع، فإذا تدرَّجتَ إلى القرن الخامس فستجد أمثال الحسين بن القِم

وابن أبي الحفاظ، واليافعي، وفي السادس نشوان وعُمارة، وتسمع في القرن السابع روائع ابن هتيمل وعبدالله بن حمزة وابن حمير، وفي القرن الثامن والتاسع يأخذ بمجامع إعجابك أمثال المقري ومطهر بن محمد منصور العامري، وفي القرن العاشر والحادي عشر تظفر بمثل عبدالله بن شرف الدين، والحسن الهبل وسعيد السمحي، وفي الثاني عشر يروعك أن تقف وجهاً لوجه أمام أحمد الزعن، والمرهبي، ومحمد بن هاشم الشامي فتسمع لغة البحتري، وعمارة، ووضاح، وفي القرن الثالث عشر تجد مثل عبدالرحمٰن الآنسي، ومحمد صالح العصامي، والشوكاني، وأحمد لطف الزبيري، وفي العصر الحديث الكثير من الشعراء الأفذاذ أمثال محمد محمود الزبيري وإبراهيم الحضراني وعبدالوهاب الشامي، وقاسم الوزير.

إن شعراء اليمن دائماً وأبداً يَرْضعون من ينبوع واحد، ويستمدون من وحي واحد، هو الطبيعة اليمنية التي وصفها سيد البشر بالحكمة والرقة، وقال عنها علم من أعلام الأدب قديماً «إنها ذهبت بالشعر كله» وإن أوهم في التفسير.

ولا أقصد أن «المحسّنات البديعية» لم توجد في الأدب اليمني، كلاّ فإن كثيراً من شعراء وكتاب ما بعد القرن السابع قد زاولوها بإتقان ولهم فيها مقامات ودواوين وأبدعوا فيها إبداعاً، ولكنني أقصد أنها لم تطبعْ أدب الجميع بطابعها، وهذا بحث مستقلّ لطيف يمكن أن نعود إليه أو نفرد له كتاباً إن وجدنا من الوقت والتوفيق إمداداً، أو قد يتفرَّغ له ويُعنى بدراسته من أهيب به من أدباء الشباب.

لا شك أن «العزلة» التي انحبستْ فيها اليمن من سنة **١٣٢٩هـ - ١٩١٢م** إثر صلح «دعّان» وفترة الحرب العظمى وما بعدها قد جمدت الأفكار والألسن والأقلام أكثر من ربع قرن حتى غزت اليمن المطبعة والكتب والمجلات التي كانت تصل مع الحجّاج، والأفراد الذين هيّأت لهم ظروفهم زيارة الأقطار العربية الأخرى، كالعراق، وسوريا، ومصر، ولبنان، ونقلوا معهم حين عادوا صوراً من نواحي الحياة هنالك، ثم بواسطة السُّيَّاح

والمبعوثين الذين كانوا يفدون إلى اليمن لِماماً وفي فترات متقطعة، وقد تكوّنت بذلك مدرسة جديدة نبغ بين روّادها الشيخ حسن الدعيس، والقاضي أحمد الحضراني والسيد علي عقبات، وبرزت ناهضة بالسيد أحمد الوريث والسيد أحمد المطاع، والقاضي عبدالله العزب، والسيد عبدالكريم الأمير، وتبلورَتْ زعامتها في شعراء اليمن الثلاثة القاضي محمد محمود الزبيري، والقاضي إبراهيم الحضراني، وصاحب «النفس الأوّل».

أولئك وهؤلاء جميعاً أثّروا في أدب الناشئة الذي يواكب الآن بحسناته وسيئاته تيّارات الأدب في الأقطار العربية الأخرى.

كما أني لا بد أن أشير إلى أن كثيراً من شعراء وأدباء حضرموت وعدن كانت لهم آثار عظيمة في تنوير الأفكار وتطوير الأساليب، ولكن غيري قد يكون أقدر على الحديث في هذا الباب، وأنني أهيب بالشاعر العالم السيد حامد المحضار أن يولي هذا الموضوع، والكتابة عن أدب وأدباء «حضرموت» عنايةً مَّا قياماً بواجب التاريخ والأدب، فهو وحده ابن بجدة هذا البحث وحامل علومه وموطن كنزه وأسراره.

ومن العوامل التي سببت في يقظة الأفكار وتحطيم أغلال الجمود وفتحت الأذهان، وحرّكت الهمم، نشر بعض الكتب لدعاة الإصلاح من رجالات اليمن مثل محمد بن إبراهيم الوزير، والمقبلي، والشوكاني والأمير، والجلال وغيرهم، وكان للسيد محمد زبارة يدٌ طولى في هذا الشأن، كما أن من أهم ما أثر في أبناء المدرسة الجديدة كتب الشيخ محمد عبده، ورشيد رضا، وشكيب إرسلان، وفؤاد الخطيب ومصطفى صادق الرافعي وشوقي، وحافظ، والعقاد، وأحمد أمين وجرجي زيدان، وأمين الريحاني.

❊ ❊ ❊

الصحافة

أما بالنسبة للصحافة، فإن أوّل صحيفة صدرت بصنعاء عقب دخول الإمام يحيى سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٩م) ببضع سنوات وكانت اللسان الرسمي

للحكومة، اسمها «الإيمان»، وكان رئيس تحريرها القاضي الأديب عبدالكريم مطهر الذي كان في نفس الوقت رئيس الديوان الملكي، وكانت هذه الجريدة تهتم أيضاً بالأدب والأبحاث العلمية، وتنشر لكثير من الشعراء وأدباء اليمن قصائد ومقالات أدبية، واستمرت في الصدور حتى سنة **١٣٧٦هـ (١٩٥٧م)** أي حوالي خمسين عاماً ثم تأخر صدورها، وقد تولى رئاسة تحريرها بعد وفاة عبدالكريم مطهر السيد عبدالكريم الأمير الشاعر اليمني المعروف.

وعندما تولى الإمام أحمد العرش سنة **١٣٦٧هـ (١٩٤٨م)** صدرت بتعز صحيفة رسمية اسمها «النصر» وأخرى اسمها «سبأ»، كما أن أحد الشباب فكر في إصدار جريدة أكثر تطوّراً من الجريدتين المذكورتين وأسماها «الطليعة» لكنها خُنِقتْ في مهدها.

وفي الفترة ما بين **١٩٣٨ و١٩٤٠م** صدرت في اليمن مجلة ممتازة اسمها «الحكمة» تولى رئاسة تحريرها السيد العبقري أحمد عبدالوهاب الوريث وعقب وفاته سنة **١٩٣٨م** تولى رئاسة التحرير السيد الأديب أحمد المطاع وكانت تحفل بالكثير من المقالات الأدبية، والمواضيع العلمية وتنشر لكثير من شعراء اليمن وراجت وانتشرت داخل اليمن وخارجها.

وفي فترة الحرب العالمية الثانية أواخر ما بين سنة **١٩٤٣ و١٩٤٦م** بعد أن أقفلت المجلة المذكورة بسبب ارتفاع الورق، ولأسباب سياسية أخرى قام مجموعة من أدباء اليمن بإنشاء مجلة خطية أسموها «البريد الأدبي» كانوا يتناقلونها أسبوعياً ما بين المدن اليمنية الكبرى كالحديدة وصنعاء وتعز وذمار وكان أهم كتابها، السيد أحمد محمد الشامي (المؤلف) الأستاذ إبراهيم الحضراني، السيد أحمد المروني، الأستاذ علي العنسي، السيد علي حمود الديلمي، القاضي أحمد سلامة، السيد زيد الموشكي، الأستاذ أحمد البراق وغيرهم كثيرون وتلاشت سنة **١٣٧٦هـ (١٩٤٧م)**.

كما أن السيد أحمد الشامي «المؤلف» رأس تحرير مجلة «الندوة» التي أصدرها خطياً أيضاً مجموعة من الأدباء في معتقل «حجة» من سنة **١٩٥١** إلى سنة **١٩٥٣م**.

وكانت كلتا المجلتين الخطيتين المذكورتين تحفلان بالأدب الرفيع شعراً ونثراً، كما كان لهما أعظم أثر في الارتفاع بمستوى الذوق الفني والأدبي بين قرائها في تلك الفترة من الزمن.

الإذاعة

أما الإذاعة فلأول مرة ارتفع صوتها في اليمن سنة **١٩٤٧م** وكانت المدة ساعة فقط، ثم بعد تولي الإمام أحمد حميد الدين شجعها وحاول تطويرها، ثم عين مديراً لها السيد الأديب محمد أحمد الشامي فوسَّع مناهجها ولوّن أركانها في إطارٍ محدود، واستمرَّ عليها حتى مات وهبّت العاصفة الكبرى سنة **١١٦٢هـ**.

شواهد

إن شعراء اليمن وأدباءها من الكثرة بحيث لا يحيط بهم حصر، ولا تعرف أن أمةً من أُمم الأرض قد خصَّها الله بما خصَّ به اليمن في هذا الشأن، سواءاً في الجاهلية أو في الإسلام، قديماً أو حديثاً.

وشعراء اليمن وأدباؤها طبقات متفاوتة: جاهاً، وبياناً، وقد كانت النيةُ معقودة عند أن بَدَأنا كتابة هذه الفصول على أن نُترجم لمجموعةٍ من شعراء وكتاب وخطباء اليمن كما تعوّد أن يفعل الكثير ممّن زاولوا كتابة تواريخ الأدب، وملنا على كتب التاريخ، والسِّيَرْ، والبلدان، والتراجم، والطبقات والوفيات، نصطفى الأسماء ونجمع الحوادث ونستقري الأخبار. ونمحّص الآثار، ونختار الأشعار، ونؤلف النوادر والرسائل، والخطب، وكل شيء يتصل بأدباء اليمن في جميع العصور.

وإذا بنا أمام حشدٍ هائل لا تستوعبه إلاَّ آلاف الكراريس وعشرات المجلدات، وكان لا بدّ من أن نوجز، ونقتصر، ونختصر قدر الإمكان، فاخترنا من بينهم خمسين أديباً وشاعراً، وكانت مهمة التمييز والاختيار شاقة وعسيرة، فإلى أنه لا بد أن تُمثّل كلُّ أدوار التاريخ، وَتُسْتَجْلى صور جميع

الأجيال، فقد يوجد أحياناً من الأفذاذ في جيلٍ مَّا مَنْ لا يمكن تجاهلهم أو المرور عليهم مَرَّ الكرام، دون وقْفةٍ وحديث، وتحرّينا الإيجاز والاقتصار فإذا بما جمعناه من تراجم ودراسات يكوّن ثلاثة مجلدات. ولم نكن ـ أصلاً ـ نَسْتَحْسِنَ أن يكون تاريخنا للأدب اليمني كتاب تراجم ووفيات، ولا أن يؤرّخ للأدب العربي بتلك الطريقة السَّقيمة التي سلكها «الزيات» و «جرجي زيدان» ومن نهج نهجهما من المحدثين.

ونداء الواجب يصرخُ بنا أن نبادر، والأحداث الرهيبة تستبد بالوْقتِ، والفكر والأحلام، فاستقر الرأي أخيراً على أن نفرد للتراجم كتاباً مستقلاً اسمه «أدباء اليمن» على أن نصْطفي منه في هذا الفصل مختارات وطرائف كشواهد تُثْبِت ما ادّعيناه، وتؤيّد ما رأيناه، وتعطي القارىء صورة صادقة للفن والأدب في اليمن.

قال مالك بن حريم الجاهلي:

إذا سألتَ نفسك أن ترانا ... بملك الجوف فاغتربِ النجادا
ترانا بالقرار بغير شكٍ ... نُقَوّدُها مسوَّمةً جيادا
علينا كل فَضْفَاضٍ دلاصٍ ... وأسيافٍ ورثْنَاهنّ عادا
سنحمي الجوف «ما دامت معين» ... بأسفله مقابلةً «عرادا»
ونلحق من يزاحمنا عليه ... بأعراض «اليمامة» أو «جُرادا»
بَنيْتُ مع الثَّعالب حيثُ باتَتْ ... ونجعلُ صَمغَ عرفطهِنّ زَادا

من قصيدة لكثير بن الصَّلت الخولاني يستنجد «سيف بن ذي يزن»:

مال العدو علينا ميلة عركت ... منّا المقدّم والعرقوب بالثَّفَنِ
فسار نحوك أمجادٌ غطارفةٌ ... من حيّ «خولان» حمّالون للمننِ
هم خير قومهم، فَابْسُطْ رجاءَهمُ ... يثنوا بخيرٍ لما أوليتَ من حَسَنِ
فاعطِفْ علينا بِخَيْرٍ منك يُبْلغْنَا ... دار العدّو، ويَنْفِني ريبة الظنن
حتى نُكافِئهم مثل الذي فعلوا ... إن الضيم لذو بثٍّ وذو شجنِ

كيلاً بكيلٍ؛ وإن جُرنا فلا حرجٌ فالجور أشفى لصدر الثَّائر الأحِنِ

وللشاعر يعلى بن سعد بن عمرو الجاهلي وأدرك الإسلام:

إذا ما المرؤ أسرع في هواه فدعه ورأيه فيما يُرِيْدُ
فإن نازعته رسناً لأمرٍ فأنت له عدوٌّ أو حسودُ

وللشاعر سيف بن معاوية الجاهلي في يوم «مَذَاب»:

لما رأيت الخيل جئن «أفايحاً» يغبرْن بين صَفَا صِفٍ وروابي
قرّبتُ سابحة اليدين رَجيلةً تهوي بي المَوطى هوي عُقاب
ودعوت قومي فاستجاب لدعوتي منهم فوارس نجدةٍ وضراب
حتى إذا ألحقتْ أوائل خيلنا أخْواهُمُ، وجزعْنَ بطن «مذاب»
وتركنَ فارسهم صريعاً مجهضاً وخضبن لمتَهُ بشرّ خضاب
يَضمُو بجَائفةٍ كأن فروغها فوق الرَّهابَةِ منه لون قلاب

للشاعر الفارس جمال بن عبد وكان ملكاً على بكيل أيام التَّبابعة:

بنى لنا أولونا فوق عاليةٍ مجداً دَعَائِمُهُ من تحته زلقُ
حتى استوينا على أشراف رابيةٍ عند الثريَّا بها الأرواح تَخْتفِقُ
لا يفتح الناس باباً حين نُغلقه ولا يكون لباب دوننا غَلَقُ
الناس أرضٌ ونحن السَّقفُ فوقهم نحن السماءُ وهم من تحتنا خُلِقوا
إن نحضر الرأيَ لا ينظر به أحدٌ وإذْ نَغِبْ عن ظهور الحيّ يرتفقُوا

وله أيضاً:

لقد علمَتْ أفناء قحطان أننا إلينا يصير المجد في كل مجمع
وأنا قبيلٌ في عصانا صلابةٌ إذا زُعزِعتْ أحلامنا لم تزعزعِ
ويوم جذام قد كفيتُ عشيرتي حملتُ بألفيْ ناقة وبأربعِ
فلم يبلغوا جهدي، ولكن حملتها على كاهلٍ منّي ذلول موْقعِ

بـأكـلُـبِـهـا سـلَّـمْـتُـهـا ورعـاتـهـا وذلـك مـن كُـلٍّ بـمـرأى ومـسـمـع
ولـو حـملوا في ضعفها لحملتها عـلـيّ ولـم أنـكـلْ ولـم أتـخـشّـعِ

❊ ❊ ❊

وليزيد بن ثمامة بن الأسفع الجاهلي:

أعـاذل، إنـه مـالٌ طـريـفٌ أحـبَّ إلـيّ مـن مـالِ تـلادِ
أعـاذل، إنـمـا أفـنـي شـبـابـي وأقـرح عـاتـقـي حـمـل الـنـجـاد

وله:

سـائـل «مُـراد» يُـنْـبِـيك عـالـمـهـا أنـا نـعـلُّ الـقـنـا ونـنـهـلـهـا
ونـخـمـد الـحـرب حـيـن يـضـرمـهـا أهـل الـوغـى تـارة ونـشـعـلـهـا

وللفارس الشاعر مالك بن ملالة الجاهلي في حرب خولان وقضاعة اليمن:

ناديت همدان قومي ثم سرت بهم أبـغـي تـقـاضـي ديـن مـا لـه أجـلُ
فـي سـادة مـن بـنـي زيـد إذا ركـبـوا كمُتَ الجيادِ حَسِبت الأرض تحتمل
سـرنـا بـأرعـن جـرار كـلاكـلـه تـخـال أن عـلـيـه الـبـرق يـشـتـعـلُ

❊ ❊ ❊

وللشاعر علقمة بن مالك الجاهلي:

عـادات أسـيـافـنـا يـومـاً إذا صـدَئـتْ صـقـالـهـا بـمـسـاحـي هـام «خـولان»
نـظـمـأُ مـا ظـمِـئـتْ فـيـنـا، ولـيـس لـهـا إلاّ دمـاؤهـم مـن مـشـرب دانِ
أمـثـلـكـم هَـاجـنـا أوهـادَ بـيـضـتـنـا أو سبنا، يا رعاة المعزِ والضّان!

❊ ❊ ❊

وللشاعر سليمان بن عمرو «ذو الدمنة» والجد الثامن للهمداني:

إذا المرؤُ لم يستر عن الذمّ عرضه بـبـلـغـة ضـيـف أو بـحـاجـة قـاصـدِ

فما المالُ إلا مظهرٌ لعيوبه ... وداع إليه من عدوّ وحاسدِ
وما المرؤ محموداً على ذي قرابة ... كفاهُ مهماً، دون نفع الأباعدِ!
ومن لا يُواتيهِ على الجود وجدهُ ... فإن جميل القول إحدى المحامد
بذلك أوصاني أبي عن جدوده ... وأوصى بذاكم عن «بكيل» و «حاشدِ»

❋ ❋ ❋

وللشاعرة «المرهبية» ترثي «أبا خيثمة» وقُتل زمن معاوية بن أبي سفيان:

أتانا نعيك بعد العشاء ... فبتَّ المدلَّهةَ المؤلمهْ
وكان أبو خيثم لليتيمِ ... فضاع يَتيمُ أبي خيْثمهْ
وكم طارق لك في ليلةٍ ... خماسيّة قرّة مظلمهْ
فأنحيت في منحر شفرةٍ ... وَحادَتْ يداك عن الزَّرْدمهْ
فنعم الفتى كنت تحت السيوف إذا فرّت العصبةُ المعلمهْ
ونعم المعين على ما ينوب ... ونعم المجاور لِلمُسْلِمهْ

❋ ❋ ❋

ومن روائع بكر بن مرداس الصنعاني وقد أعجب بها أبو نواس الشاعر:

يا إخوتي إن الطَّبيب الذي ... ترجون أن يبرئن مُسْقِمي
وَما ألاَ نُصْحاً ولكنه ... عن علم ما بي من سقامٍ عَمِي
فسائلوهُ عن عقاقيره ... وسائلوه ما الذي أحتمي؟
فإنما الطب لمن داؤه ... من مرةٍ، أو بلغمٍ، أو دمٍ،
والحُب لا يُشفى بأيّارَجِ ... ولا بترياقٍ، ولا محجمٍ،
إلا بشمّ الحِبّ، أو ضمه ... ومجّ ريق من فمٍ في فم
فيا شفاء النفس من دائها ... داويْ سقامي، وارحمي تُرحَم
فلو بعينيكِ إذا جئتني ... ليلٌ، وأغفت أعينُ النّومِ
طَرْفي على بابكم باكياً ... لحرٍّ شجو في الحشا مضرم

لـخـلْـت أنـي طـائـف مـحـرمٌ ... فـي سـاحـةِ الـبـيـت إلـى زمـزمِ
واسْـتَـيْـقـنـتْ نـفـسـكِ أنَّ الـهـوى ... أشـد مـا يـعـلـق بـالـمـسـلـم
فـاعـتـقـي عـبـدكِ مـمـا بـه ... وأكـرمـي وجـهـك أن تَـظْـلـمـي

❊ ❊ ❊

وللشاعر ابن السلماني الأبناوي من شعراء القرن الثاني الهجري يرثي أوس بن عمرو:

ألاَ إن أوساً قاتل الجوع قد مَضى ... وأورث مـجـداً مـا تـنـال أطـاولُـهْ
تـمكن من مَرعى سماوة «حمير» ... فـعزَّ جـمـيـع الـنـاس طـولاً تـنـاولُـه
لـهـم كـان مـلـك الـجـاهـلـيـة كـلـه ... ومنهم مجير الجوع جوداً وقاتلُهْ

❊ ❊ ❊

وللشاعر محمد بن أبان المتوفى بعد أن جاوز المائة سنة سنة ١٧٥:

وقد علمت عُلْيَا قضاعة أنني ... جـريٌّ لـدى الـكـرّات لا أتـورعُ
أخوض برمحي غمر كل كتيبة ... إذا الخيلُ من وقعِ القنا تتسكّعُ
فكم من كميّ قد تناولت نفسه ... وآخر يـدعـو بـالـهـوان ويـضـرَعْ
إذا سرت يوماً في رعيل كتيبة ... أصـارع أقـرانـي مـخـافـة أصـرعُ
ويـغـدو عـلـيَّ بـالـمـلام عـواذلي ... فـأعـرض عـمـا قـد يـقـلـنَ وأسـمـع
وأركـب نـفـسـي عِـزّة وحـمـيـة ... وأقـصـد أنـجـاد الـكـمـاة فـأقـمـعُ
واعلم أن المجد في بذل مهجتي ... فـأبـذلـهـا لـلـطـالـبـيـن وأسـرع
وأعذل نفسي أن أضيع منصبي ... ولـيـس كـريـم الـوالـديـن يـضـيـعُ

❊ ❊ ❊

وللشاعر محمد بن إبراهيم العوسجي من مشاهير أواخر القرن الثالث:

ألا يـا لـقـومـي لـلـهـمـوم الـلـوازب ... وصـرف زمـان نـابـنـي بـالـعـجـائـب
وإني لأمضي الهم عند احتضاره ... برأي أصيل في النهى والتجارب

ولستُ بمجزاع إذا الدهر عضّني ولا مستكيناً للعدو المشاغب
سناني رفيقي، والكميت ملاعبي، وسيفي شقيقي، في المكر وصاحبي

وكتب بشر بن أبي كبار البلوى الصنعاني إلى إبراهيم بن عبدالله الحجي وإلى صنعا لهارون الرشيد، وكان قدم إليها سنة **١٨٢هـ** وكان قد عزم على أن يولّي بشراً بعض نواحي اليمن.

«أما بعد فإن رأي الأمير أمتع الله به أن لا يعلم «هشاماً» ما يريد من صلتي: فإنه لم يردني والٍ قط بخير، ولم يفتح لي باب صلة فتكون منه خالصة لا يريد بها إلا وجه الله، ولا يرجو بها إلا ثوابه إلا عرض هشام من دونها فنقلها وكرهها، وأدار القياس فيها، وضرب لها الأمثال، وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمهما بالله أني لكما لمن الناصحين، وحتى بما لا يسمع به من أخلاقي، وانتقصني فيما لا يطمع تغيّره مني، ليكون ما أظهر من المدحة مصدقاً لما أسرّ من العيبة، ثم زخرف ذلك بالموعظة، وزينه بالنصيحة، وقاربه بالمودّة، وأغراه من ناحية الشفقة، وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن غضب الله عليه إن كان من الكاذبين، فإذا الحاجب يزلقني ببصره، وإذا الكاتب يسلقني بلسانه، وإذا الخادم يعرض عنّي بجانبه، وإذا الوالي ينظر فيّ نظر المغشي عليه من الموت، فصارت وجوه النفع مردودة، وأبواب الطمع مسدودة، وأصبح الخير الذي كنت أرجوه هشيماً تذروه الرياح، والصلة التي كنت أشرفت عليها صعيداً زلقاً، وأصبح ماؤها غوراً فما أستطيع له طلباً، فأسأل الله الذي جعل لكل نبي عدواً من المجرمين أن يكفيني شره، ويصرف عني كيده، فإنه يراني هو وقبيله من حيث لا أراهم والسلام.

وله إلى يزيد بن منصور عامل أبي جعفر المنصور على اليمن وقدم إلى صنعاء سنة **١٥٤هـ**.

«أما بعد فإنه قدم عليّ كتاب من الأمير حفظه الله مع رسوله نعمان الهمداني يأمرني أن أبعث إليه بفَرْضِ الفرات بن سالم «يريد بالفَرْضِ شيئاً كان فَرَضَهُ على أهل اليمن» وأنا أخبر الأمير أكرمه الله أنه كان قدم علينا قبل

كتابه كتاب الله تعالى مع رسوله محمد ﷺ يأمرنا فيه أن نفرّق ما جمع الفُرَات، وأن نهدم ما بنى، وأن نوالي من عادى وأن نعادي من والى؛ ونظرتُ في الرسالتين، وقست بين الرسولين بغير تحيّر عرض، ولا لِشَبْهَة بحمد الله، ودخلتُ فرأيت أن لا أنقض ما جاء به محمد بن عبدالله لما قدم به النعمان لعنه الله وغضب عليه، وعلمت أنه من يزغ منا من أمر الله يذقه من عذاب السعير، فَلْيَقْضِ الأمير حفظه الله فيّ ما كان قاضياً، ثم ليعجّل ذلك ولا ينظرني، فوالله إن العافية لفي عقابه وأن الموت لخير من الحياة معه، إذا كان هذا الجدّ منه، والحق عنده والسلام».

ولبشر أيضاً.

«أما بعد فإن من الناس من تحمل حاجته، أهون من فحش طلبه، ومنهم من حمل عداوته أخف من ثقل صداقته، ومنهم من إفراط لائمته أحسن من قذر مدحته، وإن الله خلق فلاناً لِيَغُمَّ الدنيا ويقذر به أهلها، فهو على قَذَره فيها من حجج الله على أهلها: فاسأل الذي فتن الأرض بحياته، وغم أهلها ببقائه أن يديل بطنها من ظهرها والسلام».

❋ ❋ ❋

للشاعر الصنعاني عبدالخالق بن أبي الطّلح الشهابي من شعراء النصف الأول من القرن الثالث الهجري في محمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٧٠هـ والميشب والشباب:

مـا بـكـاءُ امـرئ بـدمـنـة دار ... بـعـد مـا لاح شـيـبـهُ فـي الـعـذارِ؟
لاهُ، ذاكـم إلاّ سـفـاهـة حـلـم ... واذّكـاراً ولـيـس حـيـن اذّكـار!
عَـدَّ خـمـسـيـن، ثـم عـاد بـديـاً ... يـشـفـع الـدمـع بـالـدمـوع الـغِـزارِ
وإذا عـاج بـالـمـنـازل يـومـاً ... هـيَّـجَـتـهُ مـلاعـب، وأوارى
وابـن خـمـسـيـن جـاهـل إن تـصـابـا ... بعد خمسين أو بكى في الديارِ!
أي عُـذْر لابْـن «الأسْـدِّ» وعـشـرِ ... في التصابي، ولات حين اعتذار!
حـقّ لـلـشـيـب أن يـوفِّره الـمـرؤ ... وضـيـفُ الـمـشـيـب أهـل الـوقـار

صبغة غيرها أحبّ إلى العاطل عن حَليها، وذات السوارِ
لا تريد الفتاة إلاّ ابن عَمّ ليس عَمّ الفتاة منها بجارِ
هُنَّ ميلٌ إلى الشباب وزورٌ عن بياض المشيب أي ازورار
يتبرجنَ للشَّباب ويَعْرُضنَ بأقسى مقالةٍ لِلْكبارِ
ما يُبالين والنساء كذاكم أمشيباً رأين أم ذا افتقارِ
ذاك سيّان عندهن وهذا، ويُمَاذِقْن بالمنى ذا اليسار!
لسوادُ البهيم أحْظَى لدى البيض وأدْنَى لِقُرب ذات النفارِ
من بياض المشيب في عارض المرء، وأجنى لطيّبات الثمارِ
لو يُبَاعَانِ، أو أخيّر، لاخترت، وهيهات من لَنَا بالخيارِ

❊ ❊ ❊

عَيَّرتني بالشَّيب لما رأتني أمُّ عمرو والشَّيب ليس بعارِ
قالت: أربعْ فقد عداكَ عن اللهو وأيامهِ عليكِ القصارِ
واضح اللون في المفارق كالبرصِ شَنِيٌّ إلى الفتاة النوّارِ
ولقد قالت الخليل سُلَيْمَى ذاك من قبلها وكنت أماري
وأقول الشبابُ جارٌ مقيمٌ داره ما بقيتُ دارُ قرارِ
فإذا نضرة الشباب كشيء ردَّه المستعيرُ للمستعارِ
وإذا الشيبُ والشباب رداءان مُعارٌ يُؤدي وغير مُعار
فارعوى باطلي، وأقصر جهلي، وتزاجرتُ حين أعي ازدجاري
غير أني إذا الهموم اعترتني لم تجدني الهموم بالخوّارِ
أجعل المِنْسمَ الدرفس قراها واعْتَسَاف الدَّويَّةِ المقفارِ
رُبّ خرَق قطعته بعد خرقٍ وصحار وَصلْتها بصحاري
وفلاة قفرٍ يُحارَ بِها الركبُ تجاوزتها بسامي العِذارِ
صادق الوَجْدِ بالرديف شِملٍ، دَوْسريّ، غبّ السُّرى، خطارِ
يقطع الغائط البطيء بهادٍ مستطيل، ومرفق موّارِ

من بنات الجديل أو داعريّ ... غير ذي كبوة ولا مستطارِ
ملبس الجورِ والسناسن بالنَّحْضن، ... سليم القرا، أمين الفقارِ
أو بعلكومةِ الملاط عقيم ... لم تُمخضَّنْ لمُقْرم بحُوارِ
عيسجور تنفي اللغام إذا ما ... حُرِّكَ الغَرْزُ بالبلاد القفارِ
ذات أتْو هوجاء تدرّعُ اللّيل ادراع القميص ذي الأزارِ
وتجوب الفلاة كالناشط الفَرد ... دَعاهُ تذكر الأوطارِ
لا تَشكي الوجى ولا ألم النسْعِ ... ولا النصّ بعد طول السفارِ

❋ ❋ ❋

وخصوم جاثيتُ عند مليك ... ينتفي التاج من حماة الذمارِ
ذي هَبانيق كالعتيق من الطيرِ ... يُجلّي طوراً، وطوراً يُواري
لم تلده «تيمّ» ولا ابنةُ «مُرّ» ... لا ولا ينتمي إلى ابن «نزارِ»
وإذا ما نسبته لم تجده ... من «إياد» ولا «قريش» التجارِ
حميري حاز المكارم والمجد ... تراثاً عن حمير الأخيارِ
عن ملوك الزمان، والسادة الغرّ، وأهل القصورِ والآثارِ
واللُّهى، والبهاء، والفتق والرتق، وورد الأمور والأصدارِ
والمجيرين لا يُجار عليهم ... والمزيحين لزْبة الأمعارِ
ثم لمْ يلفَ بينهم ضِغث عَلقى ... بل وجدت النُّضار وابن النضارِ
بَخْ لفرعٍ سما بجدّك حتى ... قارَن الجديَ والسُّها في المجاري
أنت للناس يا محمد فرعٌ ... لا تُسامى طولاً، وأكرم جارِ
نلتَ لا عن تكلف شأوَ جدَّيْكَ وخلفتَ من جرى في الغبارِ
وإذا أصلدَ الرجال لدى القرح براحاتِهم، فزندك داري
واحتويت العلى وقدماً حواها ... لك (عمروٌ) وقبله (ابن الصوّارِ)
وابتنى شامخاً أشمّ لك (الرَّايش) ذو الأيد، وابنه (ذو المنارِ)
والذي أمُّه العيوف من الجنّ ... ويُدْعى بالعبد (ذي الأذعارِ)

وأخوهُ، إذ ساق (كنعان) حتى ... أُلحقتْ في السياق (بالبربارِ)
مُستظلاً على البناء منيفاً ... أيد الركن، مطمئن القرارِ
لا بكلسٍ ولا بشيدٍ بناه ... بل بَسيْح الندى، وَفتلِ المغَارِ
وسما غاية الفراقد والنثرة ... في الجوّ بعدهم (ذو مقار)
وأخو الحرب (عامر) ذو (حوال) ... بَوَّأ الأمر منكم خير دارِ
عرفتْ فضلكم عليها بنو (المنذر) قدماً والصِّيد آل (المرارِ)
و (بنو الحاف) و (الجهاضم) و (الأزد) وغُرّ الوجوه من (أنمارِ)
وذو الرأي والمشورة (كهلان) إذ أشكلتْ على الأغمارِ
والبقايا من (جُرْهم) ابنة (قحطان) ومنها العليم بالأخبارِ
و (نزار) إذا الأعاجم طالتْ ... يعرق الحق منهم المتماري
وإذا ما الزمان ضاق على الناس، وَضنتْ سماؤهم بالقِطَارِ
فاضَ من بحرك النوّال عليهم ... عند طَوْلِ الزّمان بالأصفارِ
ما (ابن لام) ولا (ابن مامة كعب) من ندى راحتيك في المعشارِ
ولعمري أن لَو (بحاتم طيّ) ... أو (بزيد) لحقت غير مُماري
أو بذي الجود (طلحة) غاية الجود لضلّوا في بحرك الزخّارِ
يُشفعُ العرج من نداك بعرج ... مثله، والبذور بالقنطارِ
والخناذيذ بالمخيسةِ الأدْم ... بأوساقِها وبالأكوارِ
جود (يُمنى) يُرْبي عليهم جميعاً ... وتعفيهم بجود (اليسارِ)
بذل آبائك الملوك ذوي الشا ... ن على الكف لا عِدات الصِمارِ
بابنِ عبدالرحمٰن (يُعفرِ) تسمو ... وتحوز الرهان عَمّن تُجاري
(وبعبدالرحمٰن)، والسيد الذرب ... (كُريب) في كل يوم افتخارِ
ومساعي (أبي حميد) سباء، ... لك ما هبت الرياح الذوّاري
أو دعا فاقدٌ على غصن بان ... أو عشا راكبٌ إلى ضوء نارِ
أو ناءَ كوكبٌ مضيءٌ سناه ... في دُجى الليل أو صغى لانحدارِ
من يكن عن كسى المكارم يوماً ... عارياً جلده فلست بعاري

لا أراها إلا عليك كما كنتُ أراها على أبيك الخيارِ

وعلى جدّك المبرز كانتْ لم تزل لِلكبار ثم الصغارِ

ذاك عن جدّه، وذا عن أبيه عن عطاء المهيمن الجبارِ

تجعل الجارَ من عيالك حتى يرحل الجار راضياً غير زاري

وتفوق الجواد حين يجاريك وكلٌّ يجري إلى مقدارِ

وإذا اصطكتِ الأضاميم برزت، ولم تُلفَ واهناً ذا انبهارِ

طلتَ بالباع أبوعاً طُلنَ أخرى واعترفتَ العتيق عند الحضارِ

ومَنعتَ اللجوجَ ناشئة الشأو، ورُضتَ الصعاب في المضمارِ

وسددت الثغور من كل أرض كل ثغر بجحفل جرّار

وعدلتَ القناة من كل زيغ وجلوت العشا عن الأبصارِ

وافتتحت الحصون حصناً فحصناً من بلاد العدى بغير حصارِ

وخضعتَ العزيز منها ذليلاً بعدما أن جهدْت في الإعذارِ

أي ذي منعة عصاك ومَلْكٍ لم تزِلهُ عن مُلْكِهِ بصغارِ

أو تُنِلهُ يداك، أو تصطلمهُ أو تدع داره محل بوارِ

رام (عيسى) ما لا يُرام فأمسى ثاوياً (بالحصيب) نائي المزارِ

في بلاد يسومه الخسف فيها من عبيد العِصِيّْ شرار الشرارِ

ولقد كان في رفاهة عيش ساكن الليل مطمئن النهارِ

يُعْمِلُ الفكر في ابتناء المعالي ويُطيل القيام بالأسحارِ

غير حانٍ على التخالج والشك ولا نائمٍ عن الأوتارِ

فأبى جهله عليه ورأيٌ لم يَزعهُ حلمٌ عن الانتشارِ

وجَرتْ في عروقه بنتُ حول خندريسٌ، تبوح بالأسرارِ

فما طرفه إليك على تلك، وأينَ الوليد من ذي الخمار؟

كم وكمْ من يدٍ يحق لها الشكر ومن نصرة وفك إسارِ!

كفر (التُرخميُّ) والكفرُ شَيْنٌ تجتويه طبائع الأحرارِ

رام إذ رام صخرة تفلق الصخرَ وترمي أمامها بالشرارِ

وأبـا أشْـبـل بـبـيـشـةَ جـهـمـاً تـتـحـامـى عـنـه الأسـود الـضـواري
لـم تـزل (حـمـيـر) لـهـا فـخـمُ الـفـخـرِ عـطـاراً مـن واهـبِ ذي اقـتـدارِ
يـمـلـكـون الـمـلـوك فـي كـل أرضٍ ويـضـيـئـون كـالـنـجـوم الـسـواري
وإذا مـا مـضـرةٌ دَرْدَبـيـسٌ سَـيءٌ خـلـقـهـا زبـون الـجـوارِ
حَـيـزبـون تـنـسـي الـولـيـد أبـاه وأخـاه، والـبـكـر ثـوب الـخـمـارِ
شـمـرَّتْ، شـمـروا وثـاروا إلـيـهـا ثـورة الأُسْـدِ بـالـسـيـوف الـعـواري
والـرديـنـيـة الـمـثـقـفـة الـسُّـمـر ظـمـاء الـكـعـوب، زرق الـشـفـارِ
والـعـنـاجـيـج بـالـوشـيـج تـغـادي بـالـمـسـاعـيـر تـحـتَ نـقْـعِ الـغـبـارِ
وتـطـيـر الـنـفـوس مـن حـذر الـمـوتِ نـهـوضَ الـقـطـا مـن الأحـفـارِ
ويـمـوت الـجـبـان قـبـل فـرارِ ويـكـر الـشـجـاع بـعـد الـفـرارِ
أنـا مـن حـمـيـر، وحـمـيـر قـومـي أهـل ورد الأمـور والأصـدارِ
سادة الناس في الحديثِ، وكانوا قـبـلُ أربـابَ «نـاعـطٍ» و «طـفـارِ»
وهـم شـيـدوا «بـبـيـنـون» «شـهـرانَ» بـسـاجٍ وعـرعـرٍ وحـجـارِ
وابـتـنـوا «رادعـاً» ومـا حَـيْـلـتـيْـهِ فـوق نـبـق كـأنـه قـدح نـارِ
و «بـغـيـمـان» أسَّـسـوا دار مـلْـك حـفَّـفـتْ بـالـكـروم والأنـهـارِ
أخـذتْ «حـمـيـرٌ» عـلـى كـل حـيّ مـن نـواحـي الـسـمـاء بـالأقـطـارِ
فـلـهـا فـضـلـهـا، وكـهـلان مـنـهـا كـشـمـال الـيـديـن بـالأظـفـارِ
ذا، وهـذا أبـوهـمـا عـبـد شـمـس حيث أرسى الندى وعُتق النجارِ
ورجـال إذا الـمـكـارم عُـدتْ والـمـعـالـي مـن أسـلـم و «غِـفـارِ»
أوجـبـوا نـصـرة الـنـبـي وكـانـوا لـلـنـبـيّ الـشـعـار دون الـدثـارِ
ربّ أرضٍ حَـمـتْ وأرضٍ أبـاحـتْ بـالـمـذاكـي كـتـائـبُ «الأنـصـارِ»
وسـبـأٍ حَـوت، ونـهـبٍ أفـاءتْ وقـلـيـب أشـجـتْ مـن الـكـفـارِ
بـطـعـانٍ خَـلْـسٍ، وضـربِ دَراكٍ مـثـل إيـزاع شـائـلات الـعـشـارِ
تـلـك «قـحـطـان» والـعـلاءُ إلـيـهـا يـنـتـهـي والـفـخـار يـوم الـفـخـارِ
يـغـتـدي الـفـخـر حـيـث شـاء، ويـأوي وهـم الـوكـرَ أمـنـع الأوكـار

ولعبدالخالق الشهابي أيضاً مطولةٌ أخرى يحرض فيها على الأبناء والعُمريّين ومن غَزَلِها:

لقد طال المِطال فما لِدَيْني لديكمْ حين أطلبهُ قضاء
فتاةٌ من بني جُشَمِ بن بكر بدون بهائها وُصفَ البهاءَ
غذاها اللين فهي مهاةُ خِدْرِ قطوف الخطو، أبهضها الغذاء
أناةٌ طفلةُ الأطراف بكر خَدْلَجَةٌ مفاصلها، رُوآءُ
برودٌ في الهواجر حين تحمى، سخونٌ حين يقتبل الشتاءُ
تصدّ وتارة تدنو اقتراباً فلا منعٌ يَتمُّ ولا عطاءُ

ومنها يناشد أبناء اليمن أنْ:

تُرحّل «فارساً» وبني «عديّ» فإنّ قلوبنا منهم ملآءُ
من الأحقاد تحسبنا سكارى وطوراً قدْ تقول بنا انتشاءُ
إلى أوطان أولهم.. فكلٌ إلى (صنعاء) كان له انتواءُ
فواجذلاء وذاك يقرّ عيني إذا نقلوا كما نقل السياءُ
وأضحتْ (فارس) وبنو (عدي) على آثار دمْنتِها العفاءُ
يقول القائلون لقد تولّوا فتلك ديارهم منهم خلاءُ
وذلك كائنٌ إن شاء ربّي لأن الله يفعل ما يشاء
وقد نامتْ عيون ذوي (يمان) فطابَ لها على الفُرش اتكاءُ
أقول وقد جَرتْ عبرات عيني أضرّ بها مع الأرق البكاءُ
أراني الله في كَنَفَيْ (أزال) رعال الخيل تنعلُها الدماء
وأسمعني على (غُمْدان) صوتاً له بقبائل (اليمن) اعتزاءُ
ينادي يا لِحمْيَر، وهي منه قريبٌ حيث يُستمعُ النداءُ
كتائب كالهضاب هضاب رضوى يضيق بها لكثرتها الفضاءُ
عليها كل سابغة دِلاصٍ وفي أيمانها الأسلُ الظماءُ

إلى أن يقول:

هناك تُسخَّل الأسقام عني ... ويعقبها مع الفرح الشفاءُ
وتنفعُ غلّة للضَّيم هيْما ... كما يَشفي من الدّاء الدواءُ
وتعلم (فارسٌ) و (بنو عدي) ... لأي بني أب نُصب اللّواء
ومن أهل البلاد انحنُ أم هم ... غداةَ غدٍ إذا انقطع المراءُ؟
ووطئت الجياد (ازال) حتى ... تبرّأ من بعولتها النساءُ
فيُطفأ باطلٌ، ويضيءُ حقّ ... وتحيا صحةٌ، ويموت داءُ
وتشفى حِكةٌ بجلود قوم ... كما يشفي من الجرَب الطلاءُ
فإن نظفر بذلك من (عديٍ) ... وما فيهم لمنتقم جزاءُ
نكلْ لهمُ كما كالوا جزاءاً ... بما قد أسلفوا وبما أساءوا
وأقسم بعد ذلك لا أبالي ... حياتي إن بها نزل القضاءُ
ولا صرف النوائب لا أبالي ... ولا ماذا به محضَ السقاءُ
ولا عند المعاد إذا سئلنا ... عن الأعمال ما كان الجزاء
ولا صرف الدوائر لا أبالي ... ولا ماذا به حمل النساء
وإن أخذل فما لي في (نزار) ... أبٌ أدعى إليه، ولا انتماءُ
ولا في الفرس لي نسبٌ قريبٌ ... ولا لي في دمائهم بواءُ
سأترك دار مَضْيَعَةِ وذلِ ... لدار لا يُرام لها فناءُ
وأوشك رحلة منها لأخرى ... يُسَرُّ بها المقيم ولا يساءُ
فلي عن «فارس» وبني «عدي» ... رواح إن خذلت، ولي اغتداءُ
ولي أرض أعيش بها وأعني ... حياتي ما حييت، ولي سماءُ
وإن يربط حمام الموت نفسي ... وما للنفس عن قدر رجاءُ
فإن الموت أكرم ما تمنى ... على ذلٍ يدوم به البقاءُ

ثم يقول بعد أن افتخر بحمير وبني «شهاب» يناجي بني عمومته:

هبونا أننا لكم عبيدٌ ... وأن نساءنا لكم إماءُ
وأنا ليس يعطفكم علينا ... قراباتٌ تُعدّ ولا إخاءُ

فإن جوارنا لكم قديمٌ وإن بلاءنا فيكم بلاءُ
وجار القوم بينهم وفيهم كذي القربى حقوقهمُ سواءُ
فلا تغضوا على خسف وهضم فيقبح في غدٍ بكم الثناءُ
فكيف ونحن إخوتكم ومنكم لنا بكم من الكرب احتجاءُ
وأنتم ريشنا وبكم نهضنا كما يستنهض الدَّلو الرشاءُ
فيا يمناً أبعد العزّ ذلٌ؟ وبعد الذل يُفترش الوِطاءُ؟
ويا يمناً إذا تُرِكَتْ «عديٌ» بما ارتكبوا لقد عَظُم البلاءُ

واسترسل يذم «الأبناء» وعشائرهم وأجدادهم وعدوانهم على قومه حتى قال:

وساروا نحو ربع بني شهابِ لكل ثنية بهم امتلاءُ
إلى الدور التي فيها نساءٌ يزينها مع الخفر الحياءُ

إلى آخرها.

❊ ❊ ❊

للشاعر عبدالله بن محمد بن عبّاد وكان هو وعبدالخالق الشهابي أشعر أهل اليمن في عصرهما.

أليس من البلوى التي نبتلي بها بقا المرئ حياً، واحترام الأماثلِ
فليت المنايا إذ قضمن خيارنا ضربن على أشرارنا بالحبائلِ

وله:

فلو كان لي رأسان قدمتُ واحداً لسمر القنا والمرهفات البواترِ
ولكنه رأسٌ إذا زال لم يعد لموضعه أخرى الليالي الغوابرِ

وله:

خليلي من جرم بن ريّان أو هندِ ألا حيياً هنداً، دنا البين من هندِ

وقولا لهند قبل أن يشحط النوى ... بنا وبهند، هل من البين من بدِّ
أبا القلبُ إلا حب هند، وقومها ... عـدوٌ.. فـأنـا لـلـعـداوة والـودِّ؟
ولـكـن عـدانـي أن أروم مـزارهـا ... وساوسُ هم قد فرى دَيْتها جلدي
رأيت بني عمي الربيعة أجمعوا ... بأن يجعلوني للعدا واضع الخدِّ
وقالوا تسلّم، واحترسْ، وانس ما مضى ... ومن دون ما قالوا مصيري إلى لحدي
إذا المال أدناني إلى الضيم وفرُهُ ... فـعـجّـلـه يـا ربـي لـوارثـه بـعـدي
إذا المال أمسى وافراً وفضيحتي ... يسيّرها الركبان في الغور والنجدِ
فلا قرت العينان بالمال ساعة ... ولا عشت إلا عيشة البائس الفردِ
أبـى الله إلا أن لـلـعـز نَـبْـوةً ... بصاحبه ترقى على المال والولدِ
وكيف رضا قلبي بضيم وأسرتي ... «أكيل» ذو الشدات في ساعة الشدِ
إذا معشر أعيت عليهم أمورهم ... فـأمـر (أكـيـل) بـالـحـزامة والـجـدِ
لهم عادة أن يوري الناس قدحهم ... إذا كـبـيَـتْ أيـدي الـقـوارح بـالـزنـدِ
فبئس إذاً ما أسْبلَتْ في كنافها ... عجوزي إذا لم أحم بيضة ذي الجعدِ
سقينا بني جرم وجادر شربةً ... من الشكل نالت منهما غاية الجهدِ
لقد حكمت أسيافنا في بنيهما ... حـكـومـة قـاض مـا لأمـره مـن ردِّ
إذا بذخوا يوماً وطالت رقابهم ... فإنا لهاتيك الرقاب ذوو حصدِ
محا السيف يوم (الأربعاء) عديدهم ... وقابلهم بالنحس لا كوكب السعدِ

ومن شعره المشهور:

تـأوبـنـي هـدوءاً طـيـفُ هـنـدِ ... عـلـى عـشـواء مـن خـوف وبـعـدِ
جرى المقدور أنني ذو انتصاف ... وسـيـر بـيـن أغـوار ونـجـدِ
إذا ما الليل ألحفني جناحاً ... سريت لجانب في الأرض جردِ
إذا ما قلت قد أمعنتُ حتى ... خفيتُ على ذوي ظعني وودي
حفرتُ بمضجعي إفحوص دخْل ... كدحل الوبر، أو كعقيق لحدِ
فيجري النوم في آماق عيني ... ويطرقني هنالك طيف هندِ

فيدخل مدخلي عريان حتى ... يكون لحافه أسمال بردي
ويقذف صخرة كانت وسادي ... ويثني ثنيَ ساعده لخدي
ويرْشفني رضابَ مفلجات ... تمج لثاته برداً لشهدِ
فصار الليل لي، نصفاً لأُنْسٍ، ... ونصفاً موحشاً ومَبيت فردِ
وأُولاه انفرادٌ وانتصافٌ، ... وأخراه التعانق والتفدّي
جفا في الناس إلا طيف هندِ ... وآذنني ذوو ودّي بصدِ
فأمسكت اليدين له لأني ... أعاطيه مداراةً بجهدِ
أعاطيه الهوى طوعاً وكرهاً ... بحال تهازل وبحال جدٍّ
أحاذر أن يرى مني جفاءاً ... فَينزل ذاك مني نقض عهدِ
فأخشى أن يَدلّ عليَّ قوماً ... ذوي شنف وخائنة وحقدِ
لأن قد صار بي خبراً لطيفاً ... ولوْجاً بين أثوابي وجلدي
وأخشى غدرَه والغدر فيه ... معيدٌ حين تخبره ومبدي
وكم في قومه (خولان) قومي ... لئيم غادر ضغِن معدّي
يعاطيك المودّة ما استَقامَتْ ... إليه بالعطاء يدٌ تُبَدّي
وآخر عهده بالسكر منه ... إذا ما غاب عنك وراء نجد
إذا استعددت خُلّته لنفع ... فأخطأك النفوع خطأ عمدِ
متى تطْلبه لا تجد بن عمّ ... للين في الأمور، ولا لشدٍّ
وإن يطلبك أو يحتج لأمر ... فأنت له ابن عمّ وبن جدٍّ
وإن أخلفته ميعاد يوم ... فأنت مكررٌ إخلاف وعدِ
وليس على مودّته براع ... لميعاد ولا موفٍ لعهدِ
يكون أخاك ما تغْمُرْ رشيداً ... وليس أخي أخي غيّ ورشدِ
بلا تِرَة ولا ذنبٍ ولكن ... رأى دهراً رداك فقام يُردي

❊ ❊ ❊

وللشاعر أحمد بن عبدالله بن عباد سيد خولان في زمنه والوافد على

المعتضد العباسي يطلب النصرة على الإمام الهادي يحيى بن الحسين سنة ٢٨٥هـ:

ودويّة مجهولةٌ ما يُرى بها ... مدى العين إلا جفجَف وكثيبُ
هي البحرُ من برّ يمور سرابه ... لها منخراً يذري الرياح رحيب
ترَى طلحَ الأنضاء في فلواتها ... لِقاً؛ ما لِحسْراها هناك طبيب
بعيدة عهد بالأنيس فجاجها ... بها الناس وحشٌ، والنعام ربيب
ترى الذئب فيها والعاً بلسانه ... أضلّت جراه المورُ فَهْو حَريب
تخوض بنا أجوازها في سرى الدجا ... وفي حائم للحرّ فيه لهيب
نجائب لولا الله سخّرها لنا ... لعزّ علينا فوقهنّ ركوب
فبينا أناس فوق حرف شملة ... لها خببٌ مستوسقٌ ودبيب
وَعَتْ أذني من بعض أسقاط صاحبي، ... ألا ليت شعري من نراه يؤوب؟
فقلت له، قَدْكَ اتئِدْ، وَكُ صابراً ... على نائبات الدهر حين تؤوب
أقول وقد جاوزت (فيْداً) وبعدها ... سباسب فيها للقلوب وَجِيْب
على حين لا يَخفي الصبابة أهلها ... ولا يَبرَحِ العينَ الجمودَ سكوب
وأعرضتِ الجوزاء حتى كأنها ... وقد ركدت وسط السماء ـ صليب:
أرى أنجماً يا صاحبيَّ، وأنها ... وعيشكما من أرضنا لقريب
غرائب في أرض العراق كمثلنا ... وقد يؤنس المرء الغريبَ غريبُ
ستسليكما ـ إن فرّج الله ـ أوبةٌ ... تقرّبها أعياننا وتثوبُ
ويضحي الذي قاسيتماه قد انقضى ... ويخفض عيش بعدها ويطيبُ
فما العُسْر إلاّ اليسر يأتيك بعده ... ولا الضيق إلاّ بالرخاء مشوب
وليس نعيم الدهر ضربةَ لازب ... ولا هو بالبلوى عليك مذيبُ
فما اخترتما هذا، ولكن مشَتْ بنا ... عقارب لم يوجَسْ لَهنَّ دبيبُ
عقارب ضغن أبرَها غير بارح ... لها حُمَةٌ تجري بنا وتذوب
ولا منكر من حاسد نال ما ابتغى ... ولا من حريص أن تراه يخيب
وكنا جميعاً أهل دار وطينة ... وبعضٌ لبعضٍ صاحبٌ وحبيبُ

فأبلغهم عني إذا ما لقيتهم ... ولن يُلْفَ منهم بالعِتَاب مجيِب
على ما اجترأتم بالقبيح، وبعضنا ... لبعض أكيْلٌ دهره وشريب؟
ألم نَك نكْفَى كالدريّةِ دونكم ... عداكم، وأنا للعُفَاة قليب؟
وكنا لساناً تأمنون سقاطه ... إذا ارفضّ في عُور الكلام خطيب
وكنا نراعي غيْبكم فكأنما ... علينا لكم في الغائبين رقيب
سنحفظ ما ضيّعتم وَنصونه ... ليكشف يوماً ذاك وهو قشيب!
عفى الله عنكم كلّ شاة برجْلها، ... على نفسه يخطي امرؤٌ ويصيب
وإنا لنجْزي حملنا وتقلُّه ... كواهل منَّا ما لَهنَّ ندوب
ويبقى بنا من بعد ذاك بقيةٌ ... وباعٌ على خَطْو المُخِفّ رغيب
وما زال فِينا الدهر نفسٌ أبيةٌ ... وسيفٌ يخاف الغمد وهو صليب
ونرجو على ما كان أن إمامنا ... له بَعْد رأي بالجميل يثوب
ولله أمرٌ نافذٌ في عباده ... تَقلَّب آراءٌ لهم وقلوب

وقد أكدى الشاعر فيما طَلب، فقد كان يأمل من الخليفة العباسي أن يعينه بالجيوش والمال، وروى الهمداني عن ابنِهِ (الصبَّاح) أن أباه أحمد بن عبدالله دخل على الخليفة فبث له خبره وأعلمه بما قصد من نجدته له، فقال الخليفة، أتيت على حاجتك وبلغت مني أقصى مرادك، ثم دخل عليه بعد ذلك فوجده قد غيّر رأيه في إرسال جيش إلى اليمن.

قال شاعرنا فقلت: يا أمير المؤمنين، إنهم خدمك يصيرون إلى بلدك، وإلى جوار رعيتك، فقال الخليفة: إن لأهل اليمن وثباتٍ كوثبات السباع النهمة، ومن شعر أحمد في سفره إلى العراق:

هي العين أمستْ والكرى لا يطيعها ... ففيم تَلوم النفسَ، أو ما صنيعها؟
وإني وإن كان العراق محلةً ... من الأرض مأمونٌ ظماها وجوعها
لمستشعرٌ شوقاً إذا ما تألّقتْ ... بوارق أرض واستبان لميعها
أقول، وبات الهم ثمَّ مضاجعاً ... يسامرني والعين نزرٌ هجوعها

ألا ليت شعري عنْ حَمَام عهدتها ... تجاوب في حرف (الرحاة) سجيعها
وعن قاطنات من ظباء رواتع ... بأكناف (دمَّاجِ) يطيب رتوعها
حمينا علينا بالقنا عقوَة الحمى ... فَهنّ كوال ليس شيءٌ يروعها
أكالعهد؟ أم حالتْ؟ فللدهر توبةٌ ... تبيّن في الصم الصلاب صدوعها
وما القلب بالناسي على كل حالة ... وإن نزحتْ دارٌ وبان شسُوعها
وهل مرجعاً أيامنا ومرادها ... لتسكن نفسٌ، أو ليهدَا نزوعها؟

إلى أن يقول:

ذوت لفراق الماء حتى كأنها ... سعانف عشْبَاني تميد جذوعها.
مخافة ذي حاج يضيّع حَاجة ... ولا لوم إن كان القضاء يضِيعها
إذا ما وقفت النفس في الشك لم يزل ... لها خاطر ينزو لها، ويليعها
وعند بلوغ العذر للنفس راحةٌ ... ويأوي إليها خفضها وقنوعها
لنا أنفس لن يبلغ الضر جهدها ... ولم تستكن للهم وهو ضجيعها
نصارع أياماً ومنها صريعنا ... إذا ما استطعْناه ومنا صريعها
لحسن مقال أو لنفي مذمة ... إذا صالح الأبناء يثْني رجيعها
خلائق من آبائنا عرفت لهم ... إذا نائبات الدهر هبَّ فظيعها
سلي عقب الأيام عنا فكلها ... حلبنا فذقْنا ما تضم ضروعها
فما حملتنا فوق أصعب مركب ... ولوْ آدنا ـ الا ونحن نطيعها

***

وللإمام الهادي يحيى بن الحسين المتوفَّى سنة **٢٩٨هـ** إلى أولاد عمه:

نفى النومَ عن عينيَّ همٌ مضاجعُ ... وخطبٌ جليلٌ فهو للنوم مانعُ
وأرَّقَنِي، أن لا صديقٌ ولا أخٌ ... يشاركني فيما تُجِنُّ الأضالِعُ
أفكّر في الدنيا وتافه شأنها ... كما طال فكري والعيون هواجِعُ
سَبَتْهمْ بحسْنِ الذّوق من شهواتها ... فكلٌّ لها إلفٌ محبٌ مطاوعُ

يوفر ما قد نال من فضلاتها ... ويذخر للورّاث ما هو جامعُ
ويبخل عن تقديم خير لنفسه ... ويجزع عن إخراجه ويمانع
ويمنعه التسويف عن باب رشده ... ويعجل فيما ضره ويسارعُ
ويدخره حتى يكون كأنّه ... إلى ما له بعد المنيّة راجع
أليسَ عظيماً أن يُسالَمَ مبطلٌ ... ظلومٌ لأهل الحق؟ فالحق خاضعُ
قتيلٌ، قليلٌ أهله، ومُضَيَّع ... فساحته قفرٌ، قواءٌ، بلاقعُ
وعطّله أنصاره وحماته ... فقد درستْ أعلامه والشرائع
وآل رسول الله قد شغلْتهم ... عيونٌ، وأموالٌ لهم، وزرائع
وحقدٌ، وإحياء الضغائن بينهم ... ولم يجمعوا فيه، وقل المطاوع

❀ ❀ ❀

أرى الطالبيين الأسود تخاذلوا ... فمنهم مدانٍ للعدى، ومُصانع
ولم يطلبوا إرث النبوة بالقنا ... ولم يمنعوه والرماح شوارعُ
أرى حقهم مستودعاً عند غيرهم ... «ولا بد يوماً أن ترد الودائعُ»
هلموا إلى ما يورث الفخر والسَّنا ... فما عزَّ قومٌ أمرهم متنازعُ
فلو عضدتني عصبةٌ طالبيةٌ ... لها شيم محمودة ودسائعُ
وصبر على البلوى إذا نزلت بها ... جحاجح في أسيافها السم ناقع
إذاً ملكوا الدنيا وذل عدوهم ... ولم يُرَ في روضاتهم وهو راتع
ولكنهم أموا وأضحوا كآيس ... مدانٍ فيعطى تافه وهو قانع
فذرية المختار في عقواتهم ... وفي الأرض قد ضاقت عليها المواضع
تفرقت الأهواء منهم وطامنوا ... فلا الحفظ محمود، ولا السلم نافع
شديد عظيم أن تسيروا أذلة ... وأنتم ليوث حين تُخشى الزعازع
وأعداؤكم في غبطة وغضارة ... وعيش على حافاته الملك ذائع
هل الملك؛ إلا العز والنهي والغنا ... وأفضلكم من هذبته الطبايع؟
ومن لم يزل يحمي وينقم ثاره ... ومن هو في الحالات يقظان هاجع

يقلب بطن الأمر فيه لظهره ... ويمضي إذا ما أمكنته المقاطع
ونحن بقايا المرهفات وسؤرها ... إذا كان يوم ثائر النقع ساطع
يموت الفتى منا بكل مهندٍ ... وأسمر مسنون الشبا وهو دارع
فتلك منايانا، وإنا لمعشرٌ ... من الناس في الدنيا النجوم الطوالع
نهضت ولم أعجل وقلت مواعظاً ... ذخائر علم إن دعاهن سامع
فكم قائل في نفسه وضميره ... أيا واعظاً في ذا؛ كلامك ضائع
فكيف غناء الكف عند اجتهادها ... إذا لم تعنها بالفعال الأصابع
بنيتُ لكم بيتاً من المجد سمكه ... دُوَيْن الثريا فخره متتابع
نعشتُ كتاب الله بعد هلاكه ... فليس بغير الحق يزمع زامع
ولا يمتُّ أحكام الكتاب بأسرها ... كما لاءَمَ الذودَ المشتَّ المشايع
فطال بفعلي كل آل محمد ... وكل عزيز منهم متواضع
وإني لأحمي أن أبيت بغبطة ... بطيناً وجاري مقتر وهو جائع
فلا تسرعوا في الظن فيّ بأنني ... ذخرت كنوزاً، فالظنون تسارع
فلست إذا أعطيتُ أبقى بقيةً ... ولست إلى ما لا يحلّ أطالع
وما أحد يسعى لينعش عزكم ... سواي، وهذا عند ذي اللب واقع
ولا راتقٌ ما قد فتقتُ على العدى ... ولا واضع في الحق ما أنا رافع
تظنون أن المال عندي مرامكم ... وإني به عنكم ضنين ممانع
إذا خذلتني إخوتي وعشيرتي ... فما أنا بعد الجهد والحزم صانع؟
بني العم إني في بلاد ضريرة ... قليل وداها، شرها متتابع
وليس بها مال يقوم لبعضها ... وساكنها عريان، غرثان، جائع
سلوا الناس عنها تعرفوا ما جهلتم ... من أخبارها؛ خير الرجال المطالع

وللإمام الهادي يحيى بن الحسين أيضاً في رثاء الشريف علي بن أبي جعفر العباسي:

قبرٌ «بخيوان» حوى ماجداً ... منتخب الآباء عباسي

قبرُ «عليّ بن أبي جعفر» من هاشم كالجبل الراسي
من يطعنُ الطعنة خوّارة كأنها طعنة «جساسِ»

وقال في كتاب دعوته:

«أيها الناس؛ أدعوكم إلى ما أمرني الله أن أدعوكم إليه؛ أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة رسول الله، وإلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فما جاءنا به الكتاب اتبعناه، وما نهانا عنه اجتنبناه، وإلى أن نأمر نحنُ وأنتم بالمعروف ونفعله، وننهي نحن وأنتم عن المنكر ونتركه، أيها الناس إني أشترط لكم على نفسي الحكم بكتاب الله، وسنّة نبيه، والأثرة لكم على نفسي فيما جعله الله بيني وبينكم، أؤثركم ولا أتفضل عليكم، وأقدمكم عند العطا قبلي، وأتقدم أمامكم عند لقاء عدوي وعدوكم بنفسي، وأشترط لنفسي عليكم اثنتين، النصيحة لله سبحانه ولي في السر والعلن، والطاعة لأمري في كل حالاتكم ما أطعت الله فيكم فإن خالفت طاعة الله فلا طاعة لي عليكم، وإن ملت أو عدلت عن كتاب الله فلا حجة لي عليكم، هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني، وسبحان الله، وما أنا من المشركين».

وللشاعر إبراهيم بن الجدوية الصنعاني من شعراء القرن الثالث الهجري:

تعاتبني حسينةُ في مقامي بأرض العشْتَيْن فقلتُ خبتِ
أفي قومٍ أحلّوني، وحلّوا على ظهر الثريّا اليوم لُمتِ؟
بقربهم علوتُ الناس؛ حتى رأيت الناس والثقلين تحتي
وإن شهدوا الحروب فأسد غابٍ غِضابٌ دون أشْبلها نجبْتِ
وإن طلبوا المكارم أدركوها بكل مقدّم العرنين صلتِ
فقد طابت مغارسهم وطابوا وزادوا في المدائح فوق نعْتي
سلي الدنيا ومن أضحى عليها تُنَبئكِ اليقين إذا سألتِ
أحقاً يا سماءُ رأيتِ قوماً مشوا من تحت ظلك مُذ رُفِعتِ؟

وهل يا أرض كان لهم نظيرٌ ... على أكتاف ظهركِ مُذْ سُطحْتِ؟
ويا شمسَ النهار عليك أولى ... يمين الله رَبُّكِ هل طلعت؟
على قومٍ كمثلهم، لجارٍ ... غريبٍ أو لمرملةٍ، ومشتي؟
وللحربِ العوانِ إذا ازبأرّتْ ... نواصي الخيل من سقرٍ وكمتِ
أريني خامساً لهم، وأنّى ... تنالين السماء، ولو حَرِصْتِ
كمثل «أبي فطيمة»، أو «كزيد» ... أو «إبراهيم» أو «حسن» وبَتِ

❋ ❋ ❋

ولأبي محمد الهمداني من مرثاة في زيد بن أبي العباس:

لا رَمَتْ يعربُ بسهم شديد ... بعد «زيد» أخي الفعال الحميدِ
عَقِمَتْ بعد هُلْكه رَحِمُ ... الأرض فليستْ لمثله بولودِ

وللهمداني أيضاً إلى زيد بن أبي العباس من السجن يستنجده:

يا زيد، زيد الخير يابن محمدٍ ... ما كنتُ لاسمك إذ غرقْت بناسي
بل كنتَ أول من هتفت به إلى ... إحياء نفس ساعة الإبلاسِ
فابدرْ إلى نقْذِ الغريق فإنّهُ ... إلاَّ تحثُّ يعوم عوم الغاسي
وَليلْحقني منك نصْرةُ مَالكٍ ... في جارهِ المزنيّ، أو جَساسِ
واطلبْ بطائلتي طلابَ «مهلهل» ... و «زهير» عبس تارة في «شاسِ»

وللشيخ الشاعر إبراهيم بن محمد من قصيدة قالها عند مبايعة الناصر بن الهادي سنة ٣٠١هـ (٩١٤م):

قومٌ أبوهم رسول الله حسبهموا ... بأن يكون لهم دون الأنام أبا
من ذا يفاخر أولادَ النبي؟ ومن ... هذا يداني إلى أنسابهم نسبا؟
قوم إذا افتخرَ الأقوامُ واجتهدوا ... وجدت كل فخار منهم اكتسبا
تشوّف الملحدون النوّك إذ علموا ... أن الإمام علينا اليوم قد عتبا
فقلتُ لا ترفعوا جهلاً رؤوسكم ... فيأخذ السيف من هاتيك ما انتصبا

إنّ الإمام وإن أبدى معاتبة منه ليشبه فينا الوالد الحدبا
كانت أمورٌ وكان الله بالغها ومحنة منه قد كانت لنا أدبا
وقد تولى أمور الناس كلهم بعد الإمام فتمَّ الأمر أو قربا
صنو الإمام ومن سدَّ الإمام به نهج الثغور ولمَّ الصدع فارتأبا
هذا «أبو حسَن» والجود في قرَن أمسى بذي يمن أمناً لمن هربا
يُعطي الجزيل، ولا يرضى القليل، ولا يجفو الخليل، لذنْب جَدَّ أو لعبا
لما بدا ابن رسول الله منصلتاً «يوم العروبة» في «خولان» إذ ركبا
تحفّه عُصَبٌ، ضاقت بها عُصَبٌ، من حولها عُصَبٌ تتلو بها عُصَبا
رجال «سعد بن سعد» و «الرَّبيعة» إذ أتوا إليه جميعاً جحفلاً لجبا
كأنه اليم إذ جاشتْ غواربُه إذا تلاطم موج البحر وارتكبا
أو كالعريض إذ التفَّتْ سحائبه وطبّق الأرض والآفاق وانسكبا
راق العيون وسُرَّ المسلمون به وساء من عاند الإسلام فاكتأبا
ها أنتم رحمة فينا لأولنا وآخِرينا، فهذا الشكر قد وجبا

❁ ❁ ❁

وللشاعر الكاتب الحسين بن علي بن القمّ المتوفّى حوالي سنة ٤٩٠هـ:

الليل يعلمُ أني لستُ أرقده فلا يغرّنك من قلبي تجلّده
فإن دمعي كصوب المزن أيسره وإن وجدي كحرّ النار أبرده
لي في هوادجكم قلب أضنّ به فسلموه وإلاّ قمت أنشده
وبان للناس ما قد كنت أكتمه فما خفى، وبدا ما كنت أجحده

إلى أن يقول:

مُشهَّر الفضْلِ إن شمس الضحى احتجبتْ عن العيون أضاء الأفق سؤدده
مات الكرام فأحْيَتْهُمْ مآثره كأن مبعث أهل الفضل مولده
لولا المخافة من أن لا تدوم له إرادة البذل أعطت نفسها يده
كأنه خاف أن ينسى السماح فما يزال منه له درس يردّده

الموقدون إذا باتوا فواصل ما ... ظلّ الطعان بأيديهم يقصده
بكل عضبٍ تخرّ الهام ساجدةً ... إذا رأته، كأن الهام تعبده

وله:

إذا تضايق عن رحلي فِنا ملك ... وَسِعْنَني أبداً من دونه الهِمَمُ
كل البلاد إذا لم تنبُ لي وطن ... وكلّ أرضٍ إذا يَمَّمْتُها أمَمُ

وله أيضاً يرثي «عزيزاً»:

لهفي لفقدك لهفاً غير منقطع ... ما كان أقرب يأسي منك من طمعي
إن تسترح فأنا المبلوّ بعدك بالْـ ... أحزان، أو تسْلُ، إني دائمُ الجزع
كيف التذاذي بدنيا لستَ ساكنها؟ ... أو اغتباطي بعيش لسْتَ فيه معي

وللشاعر خلف بن أبي الطاهر وزير جيّاش المتوفَّى سنة ٤٩٨هـ:

إذا لم تكن أرضي لعرضي معزّة ... فلستُ وإن نادت إلي أجيبها
ولو أنها كانت كروضة جنة ... من الطيب، لم يحسنْ مع الذل طيبها
وسرت إلى أرض سواها تعزني ... وإن كان لا يعوى من الجدب ذيبها

وللشاعر السلطان زكرى ابن شكيل الخولاني من قصيدة في جياش:

عُذْ إلى الاغتباق والاصطباح ... والْهَ بالقصفِ عن نصيح ولاحِ
واسقني الراح إنها تجلب الرّوح وريحانها إلى الأرواحِ
قهوة طال عمرها فهي مما ... عتَّقتها الدنان «للوضّاح»
بزلوها فامتدَّ منها بجوّ ... الليل نور أغنى عن المصباح[1]
ما يزيل الهموم مثل اصطباحٍ ... في صباح، لدى وجوه صباح
فترى الديك كالبعير، وكالأرْ ... ض السمواتِ، أو فإنك صاحي!

---

(١) بَزَل، وبزَّل: الخمر وغيرها: شق إناءها.

ليس جُرْماً، أبو حنيفة قد رخَّص فيها، فما بها من جناح[1]

وللملك الشاعر جياش المتوفى سنة **٤٩٨هـ**:

إذا كان حلم المرء عون عدوّه عليه فإن الجهل أبقى وأروحُ
وفي الصفح ضعف، والعقوبة قوّة إذا كنت تعفو عن كفور وتصفحُ

وللملك الشاعر علي بن محمد الصليحي المتوفي سنة **٤٥٩هـ**:

أنكحتُ بيض الهند سمر رماحهم فرؤوسهم عوض النثار نثارُ
وكذا العُلا لا يُسْتباح نكاحها إلا بحيث تُطلّق الأعمارُ

❋ ❋ ❋

وللشاعر عمرو بن يحيى الهيثمي على لسان علي بن محمد الصيلحي الملك رداً على الشريف شكر السليماني:

دم الأبطال في اليوم العبوس مدامي، لا شراب الخندريس
ولهوي بالنشيج إذا تلاقى الوشيج بمعرك حامي الوطيس
أحب إليَّ من نغمات عود وصادحة تغرد عيطموس
ولولا فضلٌ من مالي وجدوى معدٌ ذي الندى القمر المسوس
لكنت حليف إقتار حبيساً بداري صريع أفيون شريس
أفقْ عن عيب أجدادي ومجدي فما بأسي بمغلول الضروس
ولا بيتي «بهمدان بن زيد» بمجهول الفروع ولا القنوس
أنا بن حماتها وذرا قناها أنا بن عنابس الحرب الضروس
أنا بن سراتها الحكام فيها ذوي الأفضال مرضيّ المسيس
نما في كل أغلب «حاشدي» عَدُوٌّ للخنا، عنه شموس
بَنَوا، وأتم مفخرهم بنائي وقوّى حبل مجدهم فريسي

---

(١) أبو حنيفة إنما رخَّص في النبيذ الذي لا يسكر.

وكم ملك أسرت، وكم خميس أباد سراته قتلاً خميسي
وكم نقعٍ أثارته رِعالي فخِيْلَ الجو منه في سُدُوسي
وكم قومٍ نعشتهم وقوم طحنتهم، وحصن من مريس
بني حسَن ألا تنهون «شكراً» عن استمطاره سحب النحوس
أتأني السب عنه وقال: إني إذا أقسمت أحلف بالمجوس
إلى قسم بغير «أبي تميم» وأسرته البدور من الشموس
متى أذن الإمام بحرب شكر أتته بالردى خيلي وعيسي
بني حسن، حذار! إذا أتتكم جنود الله بالخطب الشكوس

وللشاعر القاضي العثماني:

إن من يعرف أيام الصبا صدَّ إذ أبصر شيبي وصَبَا
والتي تعرف مهري أدهماً أنكرته إذ رأته أشهبا
رب شمطاء قصدناها وقد ركد الليل وأرخى الطنبا
قالت الطارق من؟ قلت أنا وأصيحابي، فقالت مرحبا
ثم أومت نحو مصباح لها كاد يخبو سحراً أو قد خبا
رفعت في الصحن دنا خلت في جنبات البيت منها لهبا
فسقوني منه حتى صرت من سكرتي أحسب مهري أرنبا
إن من قد عابها، من بعد ما عتقت في دنهالي حقبا
يحتسيها عند ريعان الصبا ويخلّيها إذا ما اضطربا
كالتي في «رمضان» لم تصم بلهاً منها وصامت رجبا

والعثماني هو صاحب الأبيات في الملك علي بن محمد الصيلحي لما قتله سعيد بن نجاح من قصيدة:

بكرت مظلته عليه فلم ترح إلا على الملك الأجل سعيدها
ما كان أقبح وجهه في ظلها ما كان أحسن رأسه في عودها
سود الأراقم قابلت أسْد الشرى يا رحمتا لأسودها من سودها

وله:

قم فاسقني بالكأس من تلك التي ... أهل النهى في وصفها قد حاروا
واشرب ولا يلحقك خوفَ عقوبة ... فيها فربّ حسابها غفارُ
خذها، فإن حَلتْ أصبتْ، وإن تكن حرمت فمحو ذنوبها استغفارُ
لا تصرفوا عني الكبير فإنما ... في شرب كأس كبيرها إكبارُ
لو كان فيها ريبة ما كان في ... جناته منها لنا أنهارُ!

❊ ❊ ❊

وللسلطان الشاعر الخطاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحجوري المتوفى حوالي سنة ٥٣٤هـ:

مَللتُ بدار الحسّ طوال ثوائي ... وسجني وتعذيبي بها وبلائي
وجمع لطيفي بالكثيف ولزّه ... إليه لإشقائي وطول عنائي
ومالي سوى فوز المعاد إرادة ... وخلعي من الأجسام كل غشاءِ
فَعلّي بدار القدس أرجع كالذي ... وجدت به من عزّة وعُلاء
ولألآء نور واقتدار وغنية، ... ومحض جلال باهر وسناءِ
حننتُ إلى تلك المقامات، والْتَظَى ... فؤادي بحر الشوق والبرحاء
أرى الموت جسراً والأحبة خلفه ... وعابره من أسعد السعداء
وهل يكره الموتَ امرؤٌ متعلّق ... بعروةِ إخلاصٍ وحبل ولاءِ
غدا راضياً في كل أمر مسلّماً ... لمولاه دِيْناً ليس فيه يرائي
محضتُ لإخواني صريح نصيحة ... تعرّفهم أني من النصحاءِ
وأودعتها روحاً من القدس سارياً ... إلى كل داءٍ منهم بشفاء
وذلك أني قد بلوت فلم أجد ... مذاهب هذا الخلق غير هباءِ
سرابٌ كما قال الإله بقيعةٍ ... تراءى لقوم مُضْحرين ظِمَاءِ
ولا شيء إلا ما عَلقْتُم بحبله ... وعروته للْعترةِ النجباءِ
تلقوا بحس السمع والطوع أمرهم ... بما جاءكم، لو جاءكم بفناءِ

ولا تسألوا لِمْ ذاك، وارضوا وسلموا ... بغير اعتراضٍ منكم ومراءِ!
فتلك صفات المؤمنين وسِمْتُهم ... وسيرتهم نقلاً عن العلماء
ورائي لكم أن لا تخلّوا بشرطها ... إذا كنتمُ ممن يصوّب رائي
بذلت لكم نصح الأمين لأنني ... على كلّ خلصان من النصحاء
فمن شاء فليأخذ ومن شاء فليدع ... نصائح لم تبذل لأخذ كفاء
ولا طلباً للشكر من آخذٍ بها ... ولا الذكر لي أني من الفصحاء
لحبْتُ بها المطموس من سبل الهوى ... لحيران في تيه الضلالة نائي
وأيقظتُ من نوم الجهالةِ أنفساً ... إن استيقظتْ لي أنفس الجهلاءِ
عسى تنجلي منهنّ نفس صديّة ... بعقلي وتهذيبي بها وجِلائي
فيصبغ إكسيري مهيأ ذاتها ... صباغاً به تضحى من البلغاءِ
وتخلص من سجن الهيولى الذي غدت ... بظلمائها في جملة السجناءِ
ولن يدرك الحال الذي أنا واصف ... فتى ليس معدوداً من العقلاء
أريد به عقل المعارف، لم أردْ ... به عقل طبع ذا عمىً وعياء
شبيهاً بعقلٍ في البهائم همَّه ... دفاع مفرّ واجتلاب غناءِ

إلى أن يقول:

أبالِيْسُ من نسل ابن مرّة أصلهم ... تسمّوا لمن كادوه بالخلفاء
عليهم شعار المؤمنين وسمتهم ... وسيماء قوم جلّة حلماء
أضلوا بما جاءوا فَرِيقَيْ غواية ... وأدلوهم فيها بغير رشاءِ
فريقاً نحا ما قد نحوه مقلّداً ... عقول أولاك السادة الكبراءِ
وثانٍ رماهم والإمام الذي اعتزوا ... إليه من الفحشا بكلّ خفاءِ
وأصبح من يدعو إليه لديهم ... تهيماً بهم من جملة التهماءِ
تبادره الدهماء في كل مشهد ... وترميه من شتم بكل بذاءِ
حلفتُ بمولاي الذي كفروا به ... وهم مدعو نصح له وصفاءِ
لأنهم بالقتل من كل حيّة ... أحقُّ، ولا كانوا من الشهداء

ومنها في «العِترة» الطاهرة:

وأقصوا مناويهمْ ولو كان والداً ... أو ابناً وخصّوه بكل جفاء
ووالوا مواليهم بصفو محبة ... ولو أنه من أبعد البعداء

❊ ❊ ❊

وقال السلطان الخطاب ابن أبي الحفاظ أيضاً يرثي الملكة السيدة أروى بنت أحمد الصيلحية وتوفيت سنة **٥٣٢هـ**:

عليك سلام الله والصلواتُ ... ورحمته ما شاءَ والبركاتُ
وكافاك عنَّا بالذي لكِ عندنا ... إله لديه تُضعَّف الحسناتُ
أمولاتِنا يا من بباهر نورها ... تَجلينَ عن أبصارنا الظلماتِ
أُجِلُّكِ عن موتٍ بروحك نازل ... وأنت لأرواح الأنام حياةُ
بَصُرت بأمر منك ما بَصُرت به ... عيون لهم في غيِّها وسناتُ
ولاح لي السرُّ الذي حجبتهم ... عقول لهم من نوره وذوات
فقالوا مقال الجهل، غبتِ بميتة ... عليهم فما الأبناء مشتبهاتُ
وهل غاب عنا، أو يَغيبُ الذي اغتدتْ ... له رُتب في الدين منْحفَظات
أَمَا نوره سارٍ؟ أَمَا لحظاته ... بنا وهو ناءِ الدارِ متَّصلات؟
أليس لنا منه إليه محرّك ... ومنَّا وعنَّا تصدر الحركاتُ؟

❊ ❊ ❊

وكان السلطان الخطاب قَد قَتَل أخاه أحمد بن الحسن لقتله أختهما، ثم ثنَّا بقتل أخيه الشاعر سليمان لمخالفته له في المذهب. ومن القصيدة التالية نلمس عميق حزنه وقد قالها قبل أن يتمكن أولاد أخيه سليمان من قتله أخْذاً بثأر والدهما:

يا من رضيتُ مسلِّماً ... لقضائه ورضيت حكْمَهْ
وعلمت أن جميع ما ... يأتي به عدل وحِكْمَهْ
مولاي كم من نعمةٍ ... أوليتني في زيّ نِقْمَهْ

فافرجْ بمنّك عن وليِّك مسرعاً ما قد أغمَّهْ
وارحم تضرعه ونفِّسْ كربَه عنه وغمَّهْ
وانصره نصراً يَستَقيد من العِدا عاصي الأزمهْ
وأذلهْ منهم إنهمْ أعداء غدر للأئمهْ
لا يحفظون لمؤمن عهداً، ولا يرعون ذِمَّهْ
فترى الولي بهم حليف كآبة وأخا مهمهْ
تطوى محامده بهم وتشيع الأنجاس ذمَّهْ
لو يعضدون بقوة لتقاسموا دَمه ولحْمهْ
لا ينظرون له وَشِيجَ قرابة وأكيد حرمه
قد صيروا إيمانه وولاءه لله جرْمهْ
فتألَّبوا عصَباً عليهِ وأكثروا بالغيب رجمه
ورموه عن قوس العداوة طالبين بذاك ظلمهْ
متناصرين عليه يطلق كلهم بالكيد سهمَهْ
فإليك يا مولاي يدعو رافعاً يده ووهمه
متوسلاً بمن ارتضيت من الهداة المستئمَهْ

وللسلطان سليمان بن أبي الحفاظ الحجوري أخي السلطان الخطاب:

كنتم تَمَنَّوْنَ ريحاً أن يهبَّ لكم ... من النسيم ولو يومين تتصِلُ
فجاءكم مثلما عادٌ به هُبلَتْ ... من العقيم التي عاذَ بها هبلوا

وللسلطان الشاعر حاتم بن أحمد بن عمران المتوفى سنة ٥٥٦هـ:

تركتُ أناساً في غضارة عيشهم ... وأمَّنتهم من طارق الحدثان
وكنتُ لهم حصناً حصيناً، ومؤملاً ... وأصِلتُ سيفي دونهم ولسانِي
وعلَّمتهم رميَ العدوّ، فكلهم ... تعمدني دون العِدَى فرمانِي

وللشاعر ابن الهبيني شاعر الملك علي بن مهدي:

أبلغ قُرى «تعكر» ولا جُرْمَا إنّ الذي تكرهون قد دهما
وقل لجنّاتها سأبدلها سيلاً كأيام «مأرب» عَرِمَا
أيشرب الخمر في رُبَا «عدنٍ» والسمر والبيض في «الحُصيْب» ظما؟
ويُلجم الدّين في محافلها والخيل حوليّ تعلك اللّجُما؟

❀ ❀ ❀

وللشاعر الشيخ أبي بكر العبدي المتوفى سنة ٥٨٠هـ:

لي بالحجاز غرامٌ لست أدفعُه ينقاد قلبي له طوعاً ويتبعُه
يهزّني البرق مكياً تبسّمُه إذا تراءى حجازياً تطلُّعُه
ويزدهيني لقاء الوفد ألحظه من جوّه، وحديث الركب أسمعه
وفائح الريح مِسكيّاً تأرّجُه من طيب ريّاه ندياً تضوّعه
وهاتف الوُرْق في فرع الأراك به يردّد اللحن شجواً أو يرّجعُه
كلّ إليَّ حبيب من أماكنه ممكن الفضل من صدري ممنعُه
«جياده» و «الصفا» منه و «مروته» ومتكاه، وما يحويه مربعه
وأخشباهْ وواديه، «وأبطحُه» جديبُه لا أرى جدباً، ومرتَعُه
والبيت: والبيت أعلا أن احدّلهُ وصفاً، وتعظيمه عن ذاك يرفعُه

إلى أن يقول:

يشب نيران أشواقي عليل هوى إليه: ليس سوى مرآه ينفعُه
ويستمد حنيني كل منحنىءِ منه، وعامره الّذاكي وبلقعُه
تلك المواقف لا «بغداد» موقعه والكرخ مصطافه فيها ومرتعه
وهي الهوى لا رُبي «نجد» ورامته ولا العذيب وواديه وأجرعه
مستنزل الفوز والغفران مهبطُه وملتقى كل رضوان ومجمعه
أحبّه وأحب النازلين به وما تضم نواحيه وأربعه
طبعاً جبلت عليه في الغرام به وأين من طبع من يهوى تطبّعُه؟

إلى أن يقول يخاطب البرق:

قل للأحبّة عني قول من حنيتْ ... على الوفاء لهم والشوق أضلعُه؟
هل حافظ عهد ودّي من حفظت له ... على النوى عهد ودٌّ لا أضيْعه؟
أم هل تجرّعه مما تجرّعني ... في البعد كأسُ الأسى؟ أم لا تجرّعه؟
وهل يهزّ ادِّكاري قلبه طرباً ... وتستهل كدمعي فيه أدمعه؟
وإن يكن طال مرمى البين، أو قطعتْ يداه ما ليس أيدي الوصل تقطعُه
فما تغيرت عن محض الوفاء لهم ... ولا تكدِّر ورد طاب مشرعه
محل كل حبيب حيث يعلمه ... مني: وموضعه في القلب موضعه
وحبذا الركب يبدي من حديثهم ... ما يجبر القلب تعليلاً ويصدعه
وحبّذا طِيبُ أنفاس النسيم سرى ... عنهم كما فاح مسك فضّ مَودِعُه

* * *

وللشاعر أبي بكر اليافعي المتوفى سنة ٥٥٢هـ:

أستودع الله الذي ودَّعا ... ونحن للفرقة نبكي معا
أسبلَ من أجفانه أدمعاً ... لما رآني مسبلاً أدمعا
وقال لي عند وداعي لَهُ ... ما أعظم البين وما أوجعا
ما أنتَ من بعد النوى صانع؟ ... فقلت لا أقدر أن أصنعا
ما يصنَع الصبّ المعنَّى إذا ... فارق إلفاً؟ غير أن يجزعا
فارقتكم يا ساكني «يَفْرس» ... ورحت والقلب بكم مولعا
ناديت صبري يوم فارقتكم ... أجدُّ للبين وقد أزمعا
يا صبر عد، يا صبر عد، قال: لا ... لبيْك، لا لبيّك يا من دعا
والله لا أرجع يا غادراً ... ما دمتَ في الفرقة أو ترجعا
ولي فؤاد منذ فارقتكم ... ظلَّ كئيباً مُؤْلَماً مُوْجَعا
ونفس صبّ شهدت أنه ... ما نقض العهد ولا ضيَّعا
ومقلة مهما تذكرتكم ... تذرف دمعاً أربعاً أربعا

وليس لي من حيلة كلّما لَجَّتْ بِيَ الأشواق غير الدعا
أسأل من ألف ما بيننا وقدر الفرقة أن يجمعا

❊ ❊ ❊

وللشاعر الحسين بن علي بن القم أيضاً:

يقيم الرجال المؤسرون بأوضهم ويرمي النوى بالمقترين المراميا
وما تركوا أوطانهم عن ملالة ولكن حذاراً من شمات الأعاديا

❊ ❊ ❊

وللسلطان حاتم اليامي المتوفى سنة ٥٥٦هـ:

ودمتُ على ودّي له حين لم يدم وخير وداد المرءِ للمرءِ دائمهْ
وضاعت على قرب العهود عهوده وما نفعَتْ أيمانُه ولوازمُهْ
أعاتبه حيناً، وحيناً أصونه، وطوراً أباديه، وطوراً أكاتمهْ
وأرجو رجوعاً منه وهو مُصَمِّمٌ على غيّه حتى كأني ظالمهْ
وما لامني إلاّ ملوم مفنّدٌ ولا لامه إلا على النكث لائمهْ
وما أنا من إخلاصه الودّ يائساً وإن لجَّ في إغرائه من ينادمه
دليل صفاء الود للمرء بشره وشر خليل عابس الوجه واجمه
وللودَّ ما بين الأخلاء شاهد أحاديثهم عند المغيب تراجمه

❊ ❊ ❊

وللملك السيد علي بن مهدي المتوفى سنة ٥٥٤هـ:

عِنَاقُ العتاق الصافنات السوابق ألذُّ وأشهى من عناق العواتق
وسهرتنا بالليل فوق ظهورها ألذُّ إلينا من رقاد النَّمارقِ
وما العز إلا في صَهَاكل صاهل من الخيل لا في صهوتي كل ناهقِ
وفي الذابلات العاسلات من القنا وفي المشرفيات العتاق الفوالقِ
إذا ضحكت في حافتيهم سيوفنا بكين العوالي من دماء هوارقِ

وما طَلَعَتْ أسيافنا من غمودها فتغرب إلا في الكُلى والمفارقِ

❁ ❁ ❁

ولأحد شعراء ابن مهدي يمدحه:

لمن عسكر كالليل يَغْدو بدهمه ويزهو بميمون الزمان وشهمهِ
بأبلج إما جَادَلوا فمحمد بياناً، وإما جالدوا وابن عمِه

❁ ❁ ❁

وللشاعر نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة **٥٣٣هـ**:

منا التبابعة الثمانون الأولى ملكوا البسيطة سل بذلك تخبرِ
من كلِّ مرهوب اللقاء معصبٍ بالتاج، غازٍ بالجيوش مظفرِ
تعنو الوجوه لسيفِه ولرمحه بعد السجود لتاجه والمغفرِ
يا رُبَّ مفتخرٍ ولولا سعينا وقيامنا مع جَدِه لم يفخرِ
فافخر بقحطان على كل الورى فالناس من صدف وهم من جوهرِ
وخلافة الخلفاء نحن عمادها ومتى نهِمَّ بعزل والٍ نقدرِ
مثل الأمين أو الرشيد وفتكنا بهما، ومثل بن الزبير القسورِ
وبكرهنا ما كان من جُهَّالنا في قتل «عثمان» وضربة «حيدر»
وإذا غضبنا غضبة «يمنيَّة» قطرت صوارمنا بموت أحمرِ
فغدت وهاء الأرض مترعة دماً وغدت شباعاً جائعات الأنسرِ
وغدا لنا بالقهر كل قبيلة خَوَلاً بمعروف نَدِينُ ومنكرِ

❁ ❁ ❁

وللشاعر «عمارة اليمني» المتوفى شنقاً في مصر سنة **٥٦٨هـ** يرثي «الفاطميين»:

لما رأيت عراص القَصر خالية عن الأنيس، وما في الربع سادات
أيقنت أنهم من ربعهم رحلوا وخلفوني وفي قلبي حزازات

سألت أبله قلبي بالسلو وقد ... يقال للبُلْهِ في الدنيا إصابات
فقال رأي ضعيف لا يطاوعني ... كيف السلو وأهل الفضل قد ماتوا
يا رب إن كان لي في قربهم طمع ... عجل بذاك وللتسويف عادات

وله:

لو أن قلبي يوم كاظمة معي ... لملكته، وكظمت فيض الأدمعِ
قلب كفاك من الصبابة أنه ... لبى نداء الظاعنين وما دعي
ما القلب أول غادر فألومه ... هي شيمة الأيام قد خُلقت معي
ومن الظنون الفاتنات توهمي ... بعد اليقين بقاؤه في أضلعي

وله في الهجو:

إن كان يحسب أن خِسَّة أصله ... تحميه من حُمَتِي ومرَّ ذعافي
فالأسد تفترس الكلاب إذا عَدَتْ ... أطوارها، والأسد غير ضعافِ
دعني أثقل بالهجاء لجامه ... إن البغال كثيرة الأخلاف
لا تأمنن أبا الرذائل بعدها ... واحذر أمانة سارق خطّافِ
فالمرتجي عند اللئام أمانةً ... كالمرتجي ثمراً من «الصفصاف»!

❁ ❁ ❁

للشاعر عمارة بن علي اليمني أيضاً:

إذا لم يسالمك الزمان فحاربِ ... وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب
ولا تحتقرن كيد الضعيف فربما ... تموت الأفاعي من سموم العقارب
فقد هدَّ قدماً عرش بلقيس هدهد ... وأخرب فأرٌ قبل ذا سد مأرب
إذا كان رأس المال عمرك فاحترز ... عليه من الإنفاق في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك ... يكر علينا جيشه بالعجايب
وما راعني غدر الشباب لأنني ... أنست بهذا الخلق من كل صاحب
وغدر الفتى في عهده ووفائه ... وغدر المواضي في نبو المضارب

إذا كان هذا الدر معدنه فمي ... فصونوه عن تقبيل راحة واهب
رأيت رجالاً أصبحت في مأرب ... لديكم وحالي أصبحتْ في نوادب
ترى أين كانوا في مواطني اللتي ... غدوت لكم فيهن أكرم نائب؟
ليالي أتلو ذكركم في مجالس ... حديث الورى فيها بغمز الحواجبِ

❋ ❋ ❋

وللشاعر الكاتب حسن بن محمد بن النسَّاخ هذه الرسالة إلى الخليفة العباسي ببغداد «أحمد الناصر» يستنجده، بعد أنْ أمر الإمام المنصور عبدالله بن حمزة بإخراب مساجد «المطرفية» سنة **٦١١هـ (١٢١٥م)**.

السلام عليك أيتها المعالم المقدسة بالأكياس، المطهرة من الأدناس، المحلاة بأفضل لباس، المنتخبة لخلفاء بني العباس، المتأرج عرفها ونشرها، والسائر مع الأمثال السايرة ذكرها، وطن العترة الرضية، ومغرس الشجرة المباركة النبوية.

ومغنى أمير المؤمنين وداره ... وفيها عماد الملك قرَّ قرارُهُ
تخيرها المنصور قدماً فحلها ... وأوطنها من طاب حقاً نجارهُ
هي الروضة الغناء والرَّبوة التي ... تخيَّرها قدماً ففاق خيارهُ

عقود العز والتحصين، والحرم المحرم الأمين مسقط رؤوس الخلفاء الرَّاشدين، والربوة ذات القرار المعين، وعند استلامك للباب الأعظم والمعاينة لذلك الحرم، تقَبّل مواضع القدمْ، وتعَفِّر خدك بالسجود، للواحد المعبود، حين بلغك أقصى المرام، باستهلاك بدر التمام، ملك الإسلام جمال الدنيا والدين، وواسطة عقد الهاشميين، أحمد الناصر للدين أمير المؤمنين.

فيكتحل الطرف المحاسن كلها ... ويرتاح إذ نال المنى والأمانيا
خليفةٌ أذكى العالمين أرومةً ... ومن لم يدع للعدل ضداً مناويا
تشعشعَ نور الأفق من نور عدله ... فيُخجِل في الأفق الهلال اليمانيا

وبعد ذلك تحُضه على الاستعداد لإطفاء نار تأججتْ باليمن، أذكى وقودَها قائم من بني الحسَنْ، تمالى أهل اليمن على نصرتِهْ، وسارعوا إلى جماعته وجمْعتِهْ، وعقدوا له الألوية والبنود، وأطاعوا أمره كطاعة أمر المعبود، وحشدوا له الرعية والجنود، ولقد قدر علينا واستظْهَرْ، فعند ذلك أصدع بما تؤمر، فقد أعذر من أنذرْ:

وقبِّلْ ثرى أرض الخليفةِ واسجدِ   وسلم سلام العارض المترددِ
وسائل بني عم النبي محمدِ   وأنشد بملأ الشدق فيهم وغرِّدِ
أما بلغتكم دعوة المتهجد   وإيعاده فيكم يَروح ويغتدي

يسائل بني عمه الأخيار، من أهل البادية والقرار، في إعارة يوم من الإعمارْ، لِيَبْتِكَ منكم الأوتار، وينقم منكم بالثأر، وعند استيلائه على «الحرمينْ»، والتقاء أولاد البَطْنينْ، ينهض إلى «الشام» و «العراقين»، وَعِيد لا يفند واعدهْ، ومنهل لا يصَدُّ عنه وارده، هي والله إحدى الكُبرْ، التي لا تبقي ولا تذرْ، وأين منه المفر، ولا ملجأ ولا وزَرْ:

ويجري إليكم بالمغاوير ضمراً   دلاص الدروع السابريَّ ثيابها
ببيض مواضٍ لا تفلُّ غروبها   وسمْر دقاق يَطرِدْن كعابها
وزرقِ حديد كالشرار سهامها   وملحمة يحكي الجحيم التهابها
ويوم ترى أيام «صِفين» دونه   بمعترك ما إن يطير عقابها

اللهم إلا أن تنهضوا إليه جِيْلاً بعد جيل، ورعيلاً في إِثر رعيل، وتعِدُّو للجلاد السواعد الشداد، والسيوف الحداد، فعسى أن تحْمي بحماها «بغداد»، و «كوفان» و «خراسان»، وما سواها من البلدان، هيهات هيهات، لإدراك ما فات، وقد هيأ لِضرْب الدينار والدرهم دارين، وملأ بهيبته ومملكته كل قلْب وعينْ:

وساعده المقدور حتى جرت لَه   بما يشتهي أفلاكها ونجومها
ونادى أنا بن «المصطفى» وبْنُ عمهِ   «علي»، أنا ترب العُلى ونديمها

أما «أحمد» جدي، و «حيدر» والدي وإني لِلْعلياء حقاً أقيمها

بكلام يستنزل العصْم، ويزلزل الشم، أحلى من العسَل، وأمضى من البيض والأَسَلْ، وقد بَلغتْ دعوته «جيلان» و «ديلمان»، و «طنجة» و «أصفهان» فماذا بعد اشتهاره بالقيام تنتظرون، فكأني والله بما آمله فيكم يكون:

وتصهل في أكناف «دجلة» خيله وتضرب فوق الشط منها مضاربهْ
ويمسي قضيب الملك ملكاً لكفِّهِ وخاتمُه في خنصر هو صاحبهْ
ويدخل «بغدادّ» فيقتل أهلها ويفني بسلب الملك من هو سالبه
ويطلع فوق المنبر الأسمر الذي خليفتنا للأمر والنهي راكبهْ
مقالة حق إن وَنيْتم رأيتمو بداركم ما الكف بالطرس كاتبه
ومن لم يخف من غائلات عدوه فرت نحره أنيابُه ومخالبُهْ
ومن جعل التفريط والعجز دأبَه وجانب رأي الحزم أعيت مطالبُهْ
على ملك الإسلام ألف تحية إذا بلغتنا خيُله وكتائبهْ

وكان الإمام المنصور عبدالله بن حمزة قد أرسل رسالة إلى خليفة بغداد العباسي الناصر أحمد، ومنها هذه القصيدة:

يا أهل بغداد إن الله سائلكم عن ملة الدين إذ غيرتمُ فيها
أنتم عيون بني الأيام قاطبةً في النائبات، ولكن القذا فيها
قد اشتملتم على عمياء مظلمة لا يهتدي بنجوم الحق هاديها
إن الخلافة أمر هائل خطرٌ صعب مسالكها، صعب مراقيها
لو كان ما أنتم فيه على سَنَنٍ قام المريض إلى المرضى يداويها
أيلزم الحد محدود بحكم إلهِ الناس؟ أم يرشد الضلال مغويها؟
جعلتموا حجة الدعوى مطهَّمَة جردا ومطرودة تصمي نواحيها
إن الخليفة من يهدي بسنِتِه حتى تضيء به الظلما لساريها
ويقتفي سنة المختار معتمداً حتى يضم إلى الأدنى قواميها

ولا يـمـيـل إلـى لـهـوٍ ولا لـعـبٍ إلا بـسـمـر الـعـوالـي فـي مـجـاريـهـا
يُجري الشريعة مجراها الذي وضعت عـلـيـه حـتـى يـحـلّ الـدار بـانـيـهـا
خـلـيـفـة الله تـرضـي الله سـيـرتـه وتَـطْـهُـرُ الأرض طـراً مـن مـخـازيـهـا
فكيف يأخذها من علم جملتكم بـحـالِـهِ عـن طـلاب الـحـق يـغـنـيـهـا؟
والـقـوم مـنـا، ولـكـن أيـن فـاطـمـةٌ وزوجـهـا وسـلـيـلاهـا ووالـيـهـا؟
وأيـن سـيـرتـنـا الـمـشـهـور طـهـرتـهـا باسم المهيمن مجريها ومرسيها؟
نقفوا بها جدّنا «المختار» لا عوجٌ فـيـهـا ولا أمـت يـلـقـى فـي مـعـانـيـهـا

❋ ❋ ❋

لا نـعـرف الـخـمـر إلا حـيـن نـهـرقـهـا ولا الـفـواحـش إلا حـيـن نـنـفـيـهـا
إن الـخـلافـة حـكـم الله فـانـتـظـروا حـكـم الـمـهـيـمـن فـيـهـا فـهـو مـعـطـيـهـا
أيـسـتـقـلّ بـهـا مـن لا تـقـوم لَـه شـهـادة فـي حـقـيـرٍ إذ يـؤديـهـا
وكـم فـتـى سُـمِـلَـتْ عـيـنـاه قـام بـهـا وبُـتِّـكَـتْ أذن ثـانٍ فـي تـعـاطـيـهـا!
أي الإمـامـيـن أولـى بـالـقـيـام بـهـا يـا قـوم أولـهـا؟ أم ذاك ثـانـيـهـا؟
نـعـوذ بـالله مـن قـولٍ تـقـوم لـه سـوقٌ مـن الـخـزي لا تـخـبـي نـواديـهـا
خـلافـة الله ديـن الله فـانـتـقـدوا رب الـسـريـر لِـيُـعْـطَـى الـقـوس بـاريـهـا
يـحـمـيـه مـنـصـبـه الـزّاكـي الـفـرار إذا دقت من السمر في الأحشا عواليها
إن الـحـجـاب لـربّـات الـحـجـال فـلا تقبل لنفسك تلبيساً فتصميها
إن الإمـام الـذي يـبـدو لـطـالـبـه كـالـشـمـس لا يـسـتـطـيـع الـغـيـم يـخْـفـيـهـا
إذا دجت ظلمات الخطب قام لها مـشـهـراً فـتَـجـلّـى أو يُـجَـلـيـهـا
ضخم الدسيعة، محمود الشريعة لا يرضى لنحلته في الخلق تسفيها

❋ ❋ ❋

ومن شعر الإمام عبدالله بن حمزة:

لا تـخـشَ ظـلـمـة لـيـلٍ فـي سـراك مـعـي فـإن بـيـن ضـلـوعـي الـنـار تـسـتـعِـرُ
دعـنـي أصـاحِـبْ وحـوش الـدور آونـة مـن الـزّمـان فـإن الـنـاس قـد غـدروا

ومن قصيدة للداعي يحيى بن المحَسَّنِ المتوفى سنة **٦٣٦هـ**:

وعــاذلٌ لام فــي اغــتــرابــي ... كــأنــنــي قــد أتــيــتُ إدًّا
فــقــلــت مــهــلاً فــإن عَــقْــلــي ... يــهــدي إلى الرُّشــد لَــيْــسَ يُــهْــدا
ظــلــم الــقــرابــات لــم يــدعــنــي ... أوري لــهــم فــي الــخــطــوب زَنْــدا
جــهــدُت فــي نــصــحــهــم وخــافــوا ... رامــوا ضــلالاً ورمــت رشــدا
ولــم أطــع فــي الــهــوى عــذولاً ... ولــم أطــق لــلــقــضــاء ردًّا
وأنــكــرت «يــعــرب» مــرامــي ... فــلــم أجــد فــي الــزمــان بــدّا

❀ ❀ ❀

وللشاعر يحيى بن إبراهيم بن العمك المتوفى سنة **٩٦٦هـ** في «السّواد»:

أعِدْ لي حديثك يوم الكثيبِ ... وسلْ به عن فؤادي الكئيبِ
عشيةَ سوداء قد أقبلَتْ ... تُسَارقني لحظها من قريبِ
وقد أمنَتْ رصدة الكاشحين، ... وسمع الوشاة وعين الرقيبِ
تبدّت لنا من خلال البيوتِ ... تجرّرُ فضل الرداء القشيب
أرتنا النقا، والقنا مائِلاً ... قوام القضيب وردف الكثيب
مولدة من بنات الموالي ... كمثل الغزال الغريب الربيبِ
فإن لامني الناس في حبها ... فما لائمي أبداً بالمصيب
يقولون «سودا»، ولم ينصفوا ... وما ذاك لو أنصفوا بالمعيبِ
فلولا السواد وما خصَّهُ ... به الله من حُسْن سر عجيب
لما كان يسكن وسط العيون ... ولا كان يسكن وسط القلوب
ولا زيّن «الخَال» خَدَّ الفتى ... ولا حَسَّن النقش طرس الأديب
أما حجر الركن خير الحجار؟ ... أما المسك أطيب من كل طيب؟
أما شغف الناس في دهرهم ... بحمد الشباب وذم المشيب؟
ولا تَحْسُنُ العين مَرهَى الجفون، ... ولا الكف ما لم يكن بالخضيب

ولا كل عين كعين المحب ... ولا كل قلب كقلب الحبيب

❋ ❋ ❋

للشاعر محمد بن حمير المتوفى سنة **٦٥١هـ**:

ما ضرّ جيران نجد حيثما بعدوا ... لو أنهم وجدوا لي مثلما أجد
ومن أباح لأهلِ الدمنتين دمي ... ما فيه لا دية منهم ولا قود

ووفد «ابن حمير» على السلطان الشيخ «عمار الشيباني» في حصونه «بيُمَين» فأقام على باب داره ساعة من نهار فلم يؤذن له، فكتب إليه رقعة يقول فيها:

بالباب أصلحك الله امرؤ لَسِنٌ ... أَمضَّه السير والإدلاج والسَّهر
وافى إلى أرض «خولان» فصادفها ... مثل القتادة لا ظلٌّ ولا ثَمَر

فلما وقف على رقعته الشيخ عمار، وقع على ظهرها «بل كالغمامة فيها الظل والمطر» ثم أذن له وأكرمه وأقام عنده أياماً ثم انصرف، فلقيه في الطريق جماعةٌ من عبيد «عمار» فنهبوه فوقَعَ في خاطر «ابن حمير» أن عماراً هو الذي أمرهم بذلك، وذهب إلى السلطان عمرو بن علي بن رسول فأنشده في مجلس الشراب هذه القصيدة التي لم يقف السلطان الرسولي بعدها ساعة إلا وجهزَ جيشاً واستولى على حصن يمين وقتل السلطان عماراً سنة **٦٣٩هـ**.

ما شاق قلبي أحراج وأكوار ... ولا شجتني أعلام وآثار
ولا أسائل أهل النجد إن نجدوا ... ولا أسائلَ أهل الغور إن غاروا
قد يزأر الذئب إذ لا حوله أسد ... ويصهل العَيْر إن الألم يُلْفَ خَطَّار
سررِت باليمن الخضراء حين صَفَتْ ... لابن الرسول فما في تلك أكدار
وكان فيها «عضاريد» زعانفة ... فما بقي من بني البَظراء ديار
لكن بقي فرد ثؤلول تعاب به ... والناس تسهل مركوباً ولا العَار

إن قلت لم يبق سلطان سوى عمر قالوا بلى وبقي السلطان «عمار»
أو قلت لا قصر إلا قصر «دملؤة» قالوا برأسِ يَمينِ القَصر والدار
أو قلتُ ما أحسن المعشار من «جُؤةٍ» قالوا وليس إلى «ذبحان» معشار
فخذ «يميناً» ولا تقبل معاذره فالكلبُ حيث خلا بالعظم جبار
لم يتفق قط سلطانان في بلد هل يدخل الغمد بتارٌ وبتار؟
ما غبتَ إلا رمى بالعين «دملؤة» وظلَّ ينشد والأقداح دوَّار
و «ابن المجلي» يمنيه بملحمة كلاهما اتفقا طبل ومزمار
مولاي لا تحتقرنا «فابنَ ملجَم» قد عَدا «بحيدَر» والغدار غدَّار
بئس الخبيئة تحت الفرش قُمَّلة والسد شر كمين تحته الفار

واجتمع محمد بن حمير مرة بالشاعر المعري «بن العطار» في مجلس شراب مع السلطان عمرَ بن علي بن رسول فقال «ابن العطار»: يا مولانا أنا شاعرك من الديار المصرية وأراك تفضل «ابن حمير» عليَّ، فقال له السلطان عمر: «ابن حمير» حاضر القريحة سريع البديهة وأنتم يا أهل مصر تبطئون ثم التفت إلى «ابن حمير» فقال له ما تقول؟ فقال ارتجالاً:

متشعّر بعمامة معقودة لو بعْثِرَت مَلَتِ الفضاء خميرا
وأبوك «عطَّار» فما بِالُ ابنه يهدي «العنان» إلى الرجال بخورا

وهجا مرة شاعراً آخر اسمه علي بن أحمد شاعر أسد الدين ابن أخي السلطان عمر، وكانوا جميعاً بمجلس الشراب عند السلطان فقال:

أنا البحر فياض بكل غريبة أحلّي بها المنصور درّاً وجوْهرا
وما إن أبالي عن «علي بن أحمد» وعن شعره، ذقن ابن أحمد في «المسْكِ»!

فقال له السلطان: وما منعك من قافية الراء؟ قال: خوف ابن أخيك.

❊ ❊ ❊

وللشاعر القاسم ابن هُتيْملِ المتوفى حوالي سنة ٦٩٦هـ من قصيدة يمدح فيها الإمام أحمد بن الحسين:

أنا من ناظري عليك أغار ... وارعِني ما حال عنه الخمار
يا قضيباً من فضة يقطف النرجس من وجنتيْه والجلنار
عجباً منك تحت برقعك النَّا ... رُ وفيه الجنَّات والأنهار
صُنْ محياك بالنقاب وإلا ... نهبته القلوب والأبصار
من معيري قلباً صحيحاً ولو طرفة عين إن كان قلباً يعار
إنما العيش والهوى قبل أن ينجم ثدي، أو أن يدب عذار
وغرام الشباب أشهى إلى النفس وإن كان في المشيب الوقار
لا الزمان الزمان فيما عهدنا ... قديماً، ولا الديار الديار
والليالي الطوال تنحت من جسمي ما أبقيت الليالي القصار

إلى أن يقول:

لمحت مفرقي فأفزعها ليل تَمَشَّى في جانبيه نهار
لا يصدُّ الملاح عن صلة العشاق إلا القتير والإقتار
حفظه الله «أحمداً» حيثما كان وجادته ديمة مدرار
الشريف، والجوهر الجوهر، والخالص النضار النضارُ
سَيِّدٌ أُمُّهُ البتول وجدًا ... ه المثنَّى و «أحمد» المختار
و «على» الرضى أبوه وعمَّا ... ه «عقيل» و «جعفر» الطيار
نسب ما «نزار» زائدة فيه ولكن تزَاد منه «نَزار»

ومن اعتذاراته للمظفر الرسولي قوله:

أحامل أعباء الخلافة إذ وهتْ ... دعائم (عباس) وأركان (حَيْدرِ)
أقلني فلم أعثرْ وهبني لأفرخ ... كزغب القَطابين الأفاحِصِ قُصَّرِ
ولا تقف بي (عمرو بن هند) و (طرفة) ... ورأي (أنو شِروان) في (بزْرَ جمْهرِ)

ومن رقيق شعره:

ويا لائمي في نفحة حنيتُ بها ... ضلوعي على جمر الغضا المتسعرِ
أرحني فما صدري (بهضْب عمانة) ... فأسلو، ولا قلبي (صفاة المسَيْفرِ)
ومن لي ويم الدجى ليس بمشمس ... مضيء وليل الحظ ليس بمقمِر
بساقية تسعى إليَّ بأزهر ... رذوم بذي لونين أحمر أصفر

ويقول من قصيدة يصف فيها أسر (المظفر) للإمام إبراهيم بن تاج الدين سنة ٦٧٤هـ:

حفوا بسيدهم فلما أيقنوا ... بالموت طاروا عنه كل مطارِ
صبوا السياط على قوارح خيلهم ... هرباً من المهرات والأمهارِ
فكأنهم شهب البزاة تبللت ... بالغيث فانقضَّتْ إلى الأوكارِ
فنجوا و «إبراهيم» يأمر نفسه ... بالكر لا بالفر خوف العارِ
حتى إذا حَمِيَ الوطيس وأحصرتْ ... عنه السوابق أيما إحصارِ
حَملتْه مرة روحه متحصناً ... في الحصنِ لا متخفياً في الغارِ
لم يلق من يلوي عليه ولم يجد ... أحداً يقاتل من وراء جدارِ
وإذا الصقاع البيض لم تمنع بها، ... لم يمتَنعْ بصفائح الأحجارِ!
فأسرته مستبسلاً، وحفظته ... شرفاً بأفضل حوطة وجوار
وأخو الصبابة ما عليه غضاضَةٌ ... في الصبر إن لطمتْه «ذات سوار»
أحييتَهُ بالعفو ثم لقيتَه ... ببشاشة وسكينة ووقارِ
ووهبتَهُ دمه بجاه محمد، ... ورضى «علي» و «جعفر» الطيار
ولو أن غيرك يا «مظفر» صاده ... لكساه ثوبي ذلة وصغار

ومن رقائقه:

قل يا نسيم لأهل الضال والسمر ... ما صدَّ سامركم عن ذلك السمرِ؟[1]

---

(١) الضَّالُ: السدر البري.

واشرح حديث الغضا والنازلين به ... وإن نَجِلتَ بشرح الكل فاختصر
وهات من عطرات الحي ما حملت ... من مسكهن حواشي ذلك العطرِ
نشدتك الله لا وريَّتَ في خبر ... مما علمتَ، ولا موَّهتَ في خبرِ
فتحت رمزك سرٌ ما نممت به ... إلا وأنت من الواشي على حذر
يا صفقة الغبن غرتني جويرية ... فبعت قلبي منها بيعة الغَرَرِ
باتت تروعني بالبين طالبةً ... قتلي، فلم تُبقِ في قتلي ولم تذر
حورية شهدت آيات بهجتها ... ونورها أنها ليست من البشر
كأنما هي في تركيبها خُرطت ... من صورة الشمس أو من صورة القمر
جسم أرق من الخمر الشمول على ... قلبٍ قساوته أقسى من الحجرِ

ومن هذه القصيدة في مدح «المظفر الرسولي»:

لا يستريح، ولا يفضى به سفر ... من بُعد همته إلا إلى سفرِ
لو أن هيبته أو بعض هيبته ... تُلقى على الفلك الدوار لم يدرِ
إن الخلافة قد آمت وقد فنيت ... عنها ملوك بني العباس والتترِ
فانهض بقدرتها واعلم بأنك إن ... أهملتها كانت الإحدى من الكبرِ

❁ ❁ ❁

للأديب عبدالله بن جعفر حين قدوم المؤيد إلى عدن سنة ٦٩٨ هجرية:

أعلمت من قاد الجبال خيولاً ... وأفاض من لمع البرق سيولا
وأماج بحراً من دلاص سابغ ... جرّتْ أسود الغاب منه ذيولا
ومن القسي أهلة ما ينقضي ... منها الخضاب عن الخضاب نصولا
وتزاحمت سمر القنا، وتعانقت ... قرباً كما يلقي الخليل خليلا
فالغيث لا يُلْقي الطريق إلى الثرى ... والريح فيها لا تطيق دخولا
سحب سرت فيها السيوف بوارقاً ... وتجاوبت فيها الرعود صهيلا
طلعت أسنتها نجوماً في السما ... فتبادرت عنها النجوم أفولا

ومنها:

أين الفرار؟ ولا فرار وبعدهم ... من ليس يترك للفرار سبيلا
ملك إذا هاجت لوافح بأسه ... ترك العزيز من الملوك ذليلا
وافَى إلى «عدن» كمقدم جده ... سيف بن ذي يزن الكريم أصولا
بحر إلى بحر يسير بمثله ... والبحر أحقر أن يكون مثيلا
فتطايرت أمواج لُجّتِه إلى ... «عيذاب» ينذر دجلة والنيلا
والشمس تحسد تاجك المعقود ... والإكليل يحسد ذلك الإكليلا
لو يستطيع الثغر كان مقبلاً ... بالثغر منه ركابكم تقبيلا

وفي سنة ٧٠٠ هجرية نزل المؤيد إلى (سردد) فقال عبدالله بن جعفر:

لو كان يقدر أن يكون الزائرا ... لك (سردد) لمشى إليك مبادرا
منع الجماد جموده أن يعتري ... عتبات بابك وارداً أو صادرا
عجباً لحكمك في الخلائق عادلاً ... ولحكم كفك في الخزائن جائرا
ولحد سيفّك أين غاية حده ... إذ ليس يبرح في الرقاب مسافرا

***

وللسيد مطهر بن محمد بن مطهر لما تولى الملك الأفضل بن المجاهد الملك سنة ٧٦٤ هجرية يخاطب الأمير محمد بن ميكال:

لجهلك لم تخشَ الذي بأسه يُخشى ... ولم ترهبِ الأفعى ولا الحية الرقشا
وأرداك من منّاك بالملك مثلما ... تَردَّى ضحى عن ظهر ناقته الأعشى
ولجت طموم البحر وهو غطمطم ... ومن ولج التيار لاقى به (القرشا)
وفاجأك العباس منه بصولة ... فغشاك منه يا محمد ما غشى
أغرك إرخاء (المجاهد) ستره ... عليك وما لاقاك منه الذي تخشى
عفا عنك صفحاً في الظلام إذا انجلى ... بفضل وإحسان، وفي الليل إذ يغشى
وَلِيْتَ فلم تؤمن برب، ولم تخف ... غوياً، ولم تنه الفحوش عن الفحشا

فلما استوى العباس في الملك وانجلت ... دياجير للنظار في جنحها أعشى
دعانا فلبينا نداه بعصبة ... ترش الثرى من طرقها بالدِّمَا رشَّا
بها ليل من أبناء فاطمة التي ... قضى فضلها في الخلق من خلق العرشا
أتوك ببيض ضربها يقطف الكلى ... ويختطف الأشلاء، ويخترق الأحشا

***

ومن قصيدة للشاعر ابن روبك يمدح الملك الناصر الرسولي سنة ٨٢٤ هجرية:

سرد العيون، هي السيوف البيض ... تومي إلى نفسي بها فتفيض
مقل تضاعف سقمها فنفضنه ... فسرى بجسمي سقمها المنفوض
مرض الجفون أصح بين جوانحي ... وجدا فؤادي من جواه مريض
يا عاذل الولهان دعه فلومه ... من لائميه على الهوى تحريض
حببت قاتلتي إلي بعينها ... عندي وكان مرادك التبغيض
وحسبت لي عقلاً، وعقلي غائب ... معها، وروحي عندها مقبوض
إن كان (مسنوناً) فناءُ متيم ... ففناي في شرع الهوى مفروض

***

ومن قصيدة للشاعر العالم إسماعيل بن أبي بكر المقري المتوفَّى سنة ٨٣٧ هجرية:

زيادة القول تحكي النقص في العمل ... ومنطق المرء قد يرديه في الزلل
إن اللسان صغيرٌ جِرْمُهُ وله ... جرم ثقيل كما قد قيل في المثل
فكم ندمت على ما كنت قلت به ... وما ندمت على ما كنت لم أقل
وأضيق الأمر أمرٌ لم تجد سعةً ... فتى يعينك أو يهديك للسبل
عقل الفتى ليس يغنى عن مشاورة ... كعفة الخود لا تغني عن الرجل
ولا يغرنك ودٌّ من أخي أمل ... حتى تجربه في خيبة الأمل
وخير مال الفتى مالٌ يصون به ... عرضاً، وينفقه في صالح العمل

وإن فوت الذي ترجوه أهون من ... إدراكه بلئيم غير محتفِل
والق الأحبة والإخوان إن قطعوا ... حبل الوداد بحبل منك متصِل
فأعجز الناس حرٌّ ضاع من يده ... صديق وُدٍّ فلم يردْده بالحِيل
شر الورى بعيوب الناس مشتغل ... مثل الذباب يراعي موضع العلل

❊ ❊ ❊

وللإمام شرف الدين المتوفى سنة **٩٦٥هـ** قصيدة قالها عند فتحه لصعدة وزيارته لمشهد الإمام الهادي وأولها:

زرناك في زرد الحديد وفي القنا ... والمشرفية والجياد الشُّزب
وجحافل مثل الجبال تلاطمتْ ... أمواجهن بكل أصيد أغلب
من كل أبلج من ذؤابة هاشم ... وبكل أروع من سلالة يعرب

والإمام شرف الدين هو صاحب القصيدة المسماة بقصص الحق والتي مطلعها:

لكم من الحب صافيه ووافيه ... ومن هوى القلب باديه وخافيه

❊ ❊ ❊

وللسيد عبدالله بن الإمام شرف الدين المتوفى سنة **٩٩٣هـ**:

صحا القلب عن سلمى وما كاد أن يَصْحو ... وبان له في عذل عاذله النصْح
ولا غرو في أن يستبين رشاده ... وقد بان في ديجور عارضه الصبح
إذا كان رأس المال من عمري انقضى ... ضياعاً فأنّى بعده يحصل الربح

ولَه:

سقتني رضاب الثغر من در مَبْسِمٍ ... برقّتِهِ والله قد ملكت رقي
ونحن بروضٍ قد جرى الماء تحته ... فساقية تجري، وجارية تسْقي

❊ ❊ ❊

وللشاعر عبدالهادي السودي المتوفى سنة ٩٣٢هـ:

لا وقَدٌّ منك معتدل / عن غرامي فيك لم أملِ
ليس لي عطف على أحد / لا ولا ميل إلى بدلِ
بك يا سؤلي ظفرت فلم / ألتفتْ للدار والطلل

***

وللسيد صالح بن عبدالله المعروف بابن مغل المتوفى سنة ١٠٤٨هـ:

ضاع الوفاء وضاعت بعده الهمم / والدين ضاع، وضاع المجد والكرم
والجور في الناس لا تخفى معالمه / والعدل من دونه الأستار والظلم
وكل من تابع الشيطان محترم / وكل من عبدالرحمٰن مهتضم

ومن قصيدة طويلة:

للشاعر الحسن بن علي الهبل المتوفى سنة ١٠٧٩هـ عن إحدى وثلاثين عاماً لا سوى:

أترى يسلو الهوى وَلِه / عند سكان الحمى وَله
مغرم في قلبه حزن / فصَّلَ الهجران مجمله
عَظُمت أسقامه فغدا / لا يراه من تأمّلهُ
لو رأى من ظل يعذله / وَجْهَ مَنْ في الحب أنحله
قال أما فيك لا حرج / إن قضى وجداً، يحق له

وله:

يا قليل الحفظ للذممِ / أي شرع حل فيه دمي
هل لمن أتلفت مهجته / يا شقيق الروح من حكمِ

وله:

لا ذقتَ حر صبابتي / وكفيت ما ألقى بها

فالنار من أسمائها ... والموت من ألقابها

وله:

عذراً فقد حارت العقول ... فيك فلم تدر ما نقول
لو لم يكن قام للبرايا ... عليك من صنعك الدليل
ما علموا أن ثم رباً ... كل عزيز له ذليل
تفنى البرايا وأنت حيٌّ ... باقٍ، تعاليتَ، لا تزول

وللهبل أيضاً:

هات عن أهل الحما ما فعلوا ... هل أقاموا بعدنا أم رحلوا
إن يكونوا رحلوا عن ناظري ... فبأكناف فؤادي نزلوا
عمرك الله إذا ما جئتهم ... وتراءت لك تلك الكلل
قل لهم بالله عني إنني ... حافظ عهدهم، إن سألوا
أي سر في فؤادي لهم ... غير مأمون عليه الرسل؟
صف لهم حالي وجد في شرحه ... علهمْ أن يعلموا ما جهلوا!
واطِّرِحْ ذكر دمي عندهم ... ليس يُودَىٰ عندهم من قتلوا!
كم أثاروا من جوى في مهجتي ... عندما قالوا سَلا، قلت سَلوا. .
كل شيء مُتَلَقًّى منهم ... بقبول، قطعوا أم وصلوا
آه كم أُتْبِعُ زفرات الهوى ... ما لها عني لا تنفصل؟
بأبي، مَنْ إن تتثنى أورنا ... تخجل البيض وتعنو الأسَل
ويغار البدر منه إن بدا ... ويغور القمر المكتَمِل
مقلتاه سحرت لبي ولا ... يسحر الألباب إلا المُقَل
كيف كتمان صباباتي به؟ ... وبها يضرَب فيه المثل،
أترى يصرفني عن حبِّهِ ... عاذلي إن طال منه العَذَل؟
لا. . ومَنْ أخْرَسَني عن عذله ... ذاك أصل عنه لا أنتقل

ولَه:

يا قاتلَ إن عيني كم أضنُّ بها ... وليس ترضى سوى قتلي وإهلاكي
يا عين ما كان ظني فيك أن تُرْدِيْ ... بمهجتي بين سفاح وسَفاكِ
غرَزْتِ يا عين قلبي بالغرام وما ... قد كان أَغْنَاه عن هذا وأغناك
كلفته حمل أعباء الهوى فغدا ... صباً، وما كان يدري الحب لولاكِ

وله أيضاً:

يا طلعة القمر المنير ... يا قامة الغصن النضير
يا جنّة الخلد التي ... تركت فؤادي في السعيرِ
يا من يجلّ عن المشا ... به، والمماثل والنظيرِ
يا آسري في حُبّهِ ... هل من فكاكٍ للأسير؟
أودى بِعَزْم تجلّدي ... ما في لحاظك من فتورِ
يوم تكون به لديّ ... يتمّ لي فيه سروري
وأقول: يا يوم اللقا ... عُمّرتَ من يوم قصير

وله في الكسوف:

لا بدع أن يخسف بدر السما ... ذاك لمعنى قد تحققتهُ
لما بدا لي وجههُ مشبهاً ... وجه حبيبي حين فارقتهُ
ذكرت محبوبي، فمن أجله ... صعّدت أنفاسي فأحرقتهُ

وللهبل أيضاً القصيدة المشهورة التي أولها:

لو كان يعلم أنها الأحداق ... يوم النقا ما خاطر المشتاقُ
جهل الهوى حتى غدا في أسره ... والحبّ ما لأسيره إطلاقُ

وهي من (علويّاته) الروائع.

وللحسن بن علي الهبل، مُخَمِّساً أبيات الشريف محمد بن صالح الحسني:

أترى صحا، وأفاق من سكر الهوى ولوى عنان عهود سكان اللوى؟
هيهات بل أذكت هواه يد النوى وغدت يد التذكار تنشر ما انطوى
وإلى العقيق صبا وقد كان ارعوى
وبدا له من بعد ما اندمل الهوى برقٌ تألق موهناً لمعانهُ

❋ ❋ ❋

فأباح من سر الغرام مصونه وأسال من ماء العيون عيونَهُ
وأطال لوعته، وزاد حنينه آهاً له برقاً أثار شجونه
كالسيف أخلصتِ القيون متونه
يبدو كحاشية الرداء ودونه صعب الذرا متمنعاً أركانه

❋ ❋ ❋

مُذْ لاح جانَسَهُ بلفظ متفقْ شرب الدموع - وقد شرى - حتى شرِقْ
وأصابه سكر الغرام فلم يفقْ ونفى الكرى فجفونه لم تنطبقْ
وأراد يشفي قرح ناظرهِ الأرِقْ
فغدا لينظر كيف لاح فلم يُطِقْ نظراً إليه وصده سجانه
أترى الفؤاد إلى السلو يطيعه ويصح من داء الغرام رجوعه
والبرق يغشى سره فيذيعه هبه حكى ما قد روته دموعه
في الحب أين لهيبه وولوعه؟
فالنار ما اشتملتْ عليه ضلوعه والماء ما سمحتْ به أجفانه

❋ ❋ ❋

وللشاعر الصنعاني إبراهيم بن صالح الهندي المتوفى سنة ١١٠١ هجرية:

أشبِّهُ ثغره والقات فيه وقد لانت لرقته القلوبُ
لآلٍ قد نبتن على عقيقٍ وبينهما زُمُرَّدَةٌ تذوبُ

وله:

وأبيضٍ عاينته سابحاً ... في لجة للماء زرقاءِ
فقلت هذا البدر في لجة ... أم ذا خيال الشمس في الماءِ

ومن شعره:

بعيشك هذا الصادح المترنِّم ... أهاجك؟ أم برقٌ على الْخِيْفِ يبسمُ؟
ذكرت بها عيشاً كرعت نميره ... وعودك مخضرٌ وفودك أسحمُ
وروض الشباب الغض نضرٌ، وبُرْدُه ... قشيب، ونبت العارضين منمنم
تذكرت دوحاً كم جررت بفيئه ... فضافيض زهو نسجهن مسهمُ
وربعاً لذات الخير كم رقرقت به ... دموع كصوب الغيث يهمو ويسجم
تراءت به للعاشقين مَجِلَّةٌ ... تبيت بحبات القلوب تُرَسَّمُ
إذا هي ماطت عن جبينٍ لثامَها ... وحلته كم يصبو محلٌ ومحرمُ
ديار سعاد حسبك الله، إنها ... معاهد قرب هن للوصل موسم
وفي ظل هاتيك الخميلة وقفة ... بها فزت والواشون عني نوَّمُ
وباع الضحى قد مد كفاً خضيبة ... يظل لزند الورد منها تضرم
وسلت أيادي الخصب من غمد نسجها ... على المحل سيفاً سال في متنه الدم
وألقته في سجن الغدير مصفداً ... فناح عليه الطير والنهر يلطِمُ

❊ ❊ ❊

ولإبراهيم الهندي أيضاً هذه القصيدة الرائعة يستنهض بها الإمام المتوكل على الله إسماعيل وأحمد بن الحسن بعد منع الحاج اليمني عن دخول مكة سنة ١٠٨٣هـ:

أظلماً عن البيت الحرام نُذَادُ ... على مثلها الخيل العتاق تقادُ
وخسفاً يسام الهاشميون؛ إنها ... لفادحة فيها الحتوف عتادُ
فلا نامت الأجفان يا آل هاشم ... وكيف وفيهن السيوف حداد؟

ولا حملتكم من نتائج (داحِس) ... شوازب، إن لم يُسْتَشَب زنادُ
إذا لم يُصن عرض الخلافة فيكم ... فمن أين مجدٌ طارق وتلاد؟
تدافعت البيد الموامي بقومكم ... تدافع ذِلٍّ في ظماه ضمادُ
ورُدّوا حيارى خائبين بصفعة ... ينال بها ريح الردى ويقادُ
وقد شارفوا أرجاء (مكة) فانثنوا ... بفاقرة تفري الأديم وعادوا
بني القاسم (المنصور) لا تحسبونها ... بهيِّنةٍ، لا بل غنى وعناد
فعزماً فأنتم أسرة السؤدد الذي ... مبانيه فوق النيِّرات تشاد
ألستم بأهل الركن والحجر والصفًا؟ بَلى؛ وهي أوطان لكم وبلاد
فلا تتركوا الأتراك في جنباتها ... على الفيء قد ساموا القرودَ وسادوا
وصولوا صيالاً يترك البحر جذوة ... وحزماً فَمَنْ فوق الجمار رَماد!
ويا آل (قحطان)، ويا آل (حاشد) ... وآل (بكيل) آن آنَ جهادُ
يُذاد عن البيت الحرام حجيجكم ... كما ذِيْدَ عن ذئب الفلاة نقادُ
ألا أيقظوا نجل العيون من الكرى ... فليس بها إلا قذى وسهاد
إذا فاتها من أسود الركن نظرة ... فلا دار في أحداقهن سواد
قليل بأن تشرى (مِني) بمنيّة ... ليالي لقا تزهو بهنّ سعاد
وتجرع كاس الموت إن تذر (زمزم) ... وأعوزت الوراد منه ثماد

إلى أن يقول:

أتقذى عيونٌ منكم بمذلة ... وتغضى عيون حشوهن قتاد؟
ويصفو على ذا الضيم للحُر مشربٌ ... وكيف وشرب الْهُونِ منه يُراد؟
فقل لأمير المؤمنين أُمثْلَةً ... يراد بنا والمقربات جياد؟
لأية معنى هذه الخيل تُدّعى ... وبيض المواضي، والرماح صعاد؟
وفيم يجرّ الجيش؛ وهو عرمرمٌ ... لهامٌ به غصَّتْ رُبى، ووهاد
أغَايَتُهُ (يوم الغدير) لزينة ... وغاية جرد الخيل منه طِرَاد؟
فيا أيها المولى الخليفة عزقة ... فقد شاب فَوْدٌ واستطار فؤاد

فلا تَبْرِ أقلاماً سوى من لهازم لها من دماء المارقين مداد
ولا كتبٌ إلا الكتائب والظبا ولا رسلٌ إلا قنا وجياد

إلى أن يقول:

فعودوا عليهم عودة مضريّة يصاب (سليم) عندها و (مراد)
إذا أحرَمتْ بيض السيوف (بماسكة) وفاض نجيعاً (أبطح) و (جياد)
هنالِك يشفى غيْظ نفسٍ كريمةٍ وقد حان من أهل الضلال حصاد
ودونكم الحذّاء من قلب عارف لها حكم ما إن لَهُنّ نفاد
لقد أرسلت أمثالها، وترسّلتْ فواصل فيها للعداة صفاد
أصيخوا لها سمعاً، وعوا ما يقوله خطيب بليغ الواعظات جواد
سلام عليكم إن عملتم بحكمها وإلا فلا حيًّا الديار عهاد

❋ ❋ ❋

ومن شعره في (طويل):

قد أفرطتْ أعطاف من أحببته في الطول حتى جلّ عن لثم الفم
فلو ارتجى المشتاق منه قبلةً وسخا بها لرقا إليه بِسُلَّمِ

محمد بن حسين المرهبي المتوفى سنة ١١١٣ هجرية:

عوفيتَ من كلفي وفرط عنائي يا شبهَ خُوطِ البانةِ الغناءِ
أما أنا فشحوب جسمي شاهدٌ لي بالذي أخفي من البرحاء
ومدامعي تنبيك عن فرط الأسى من شب نار هواك في أحشائي
فإذا امتريت فإن أيكة حاجر تدري بواقعتي مع الورقاء
حين امتطت فنن الأراكة وانبرت في النوح تسمعها على أنحاء
فوقعتُ، لا عيني تساعدني على رمزٍ، ولا كفي على إيماءِ
حيران مسلوب الجناح، مقرح الأجفان، نضو هوى، وحلف بكاء
وعلى غياض الواديين بلابلٌ عرفت لفرط ذكائها أنبائي

كلف، به فطن الحمام، فجائز   أن يُمْتَرَى فيه لدى العقلاء؟
أعقيلةَ الحي الغيور همامه   ما بال قومك آذنوا بتنائي؟
نزلوا على نشر العقيق، وإنما   كرهوا لأجلي سرحة الروحاء
نجلوا بوجهك أن أراه يقظةً   فليمنعوني الطَّيف في الإغفاءِ
أَنَّى يلمُّ بنا الخيال ودوننا   رصد عليه لقومها الغيراء؟
يا راكباً شدنيةً مذعانةً   خرقاء تخرق مطرف البيداء
جوابة تغشى الهواجر جسرةً   تُخفي الوجا، وتُغذ في الإعياءِ
أقرر بها عين النباهة ضارباً   بخفافها في أخدع البطحاءِ
وارفع بها في صدر كل تنوفةٍ   غفلٍ عن الأعلام والخفراء
فإذا عبرت على (اللحية) ضحوةً   وشممتَ رَوْحَ مروةٍ وسخاء
ورأيت أنوار الإمامة من ذرى   ملك الزمان و «حاتم» الكرماء
فانزل بأبلج من ذؤابة (هاشم)   كاس الملا بمحامدٍ وثناء
والثم يداً فيها بحورٌ خمسة   أغنت مواقعها عن الأنواء
فهناك سر للنبوة مضمرٌ   حانت عليه خواطر العلماء
شرف الهدى يهنيك أنك سابق   فرد عن الأشباه والنظراء
ما زلت في دوح المحامد راقياً   متوقِّل الهضبات في العلياء
بالأمس في الأمرا، وأنت اليوم في العلما؛ وأنتَ غداً من الخلفاءِ

أشكو إليك فتى، وذاك أخو التقى   لكنه عمٌّ على الأبناءِ
ونوائياً بجوانحي من كربها   ما لم تسَعْه جوانح الدهناءِ
وصروف أيام أقمن قيامتي   بنَوى الخليط، وفرقة القرناء
وجفاء مولى كنت أحسب أنه   عونٌ على السرّاء والضرّاء
ثِبْتُ العزيمة في العقوق، وودّه   متنقل كتنقل الأفياء
وخلاصة الأخبار عنه أنه؛   متلوِّن كتلون الحرباء
أخذَمته نفسي النَّفيسة، باذلاً   نصحي لَه في شدَّة ورخاء
وكتبتُ عنه رسائلاً شهد الورى   بمكان شدتها على الأعداء

ومدحتهُ بقصائد زادت بها ... علياه حسْنَ صباحَة وبهاء

ولو أنه في الدَّهر سالم أهله، ... من حربه، وحنا على الفضلاء

وإلى أبي ـ وله السلامة ـ ينبغي ... سوق العتاب، فمنه أصل بلائي

مال الزمان عليَّ حتى زادني ... بجفائه غماً على غماءِ

لو كان شاتمي الصغار، وقاصدي ... بالخسفِ غير أبي رأيتَ إبائي

لكنه ـ وله الكرامة ـ من أتى ... نص النبي بحقِّه وولائي

فلأصبرنَّ ولا أقول له قلى ... إن كنت قد أربيت في الغلواء

هذا وحاصل ما أكابد أنني ... قد ذبت، غير حشاشة وذماء

ولقد وهى جلدي، وعِيْلَ تصبُّري ... ما بين حرّ هوى، وحرّ هواء

وقال معاتباً الأمير علي بن المتوكل:

أشكو فأطنب، أم أدعو فأختصر؟ ... قل لي بأيهما ترضى فأقتصر؟

أرى مقامك حيناً للعلى حرَماً ... وتارة هو للأعراض مجتزر

طوراً تبرُّ، وأطواراً تعق، وفي ... ضمن الرَّغائب من أفعالك الغِيَر

إذا رفعتْ امرءاً فوق السماك ضحىً ... جاء (العشا)، وهو فوق الترب يبتدَر

كذاك كل سرور منك يعقبه ... حزن، ونفعك مقرون به الضرر!

أشبهت دهري ربيعاً مرة، وشتاً ... أخرى، تحيرني أخلاقك الفكر!

كم نعمة لك عندي لا أطيق لها ... شكراً، تولّدْ لي في صَفْوِها كدَرٌ

وكم ـ زعيم المعاني ـ قد تجهم لي ... وجه فأصفو، وكم تجنى فأعتذرُ

في كل يوم لقلبي منك رائعة ... تكاد منها حصاة القلب تنفطر

(بالنجم) أقسم ثم (الطور) ثانية ... (للزخرف) الصرف ما جاءت به (الزمرُ)

رأوك تصبو إلى ذمي ومنقصتي ... فوسعوا القول لم يبقوا ولم يذروا

لا تحرجن بتأنيب ومعتبة ... صدري، فلست على التأنيب أقتدر

وإن مللت ثوائي في ذراك فمن ... حيث ابتدائي يكون الورد والصدر

يا عارضاً، طبَّق الدنيا بصيِّبه ... وعاقه عن تداني ساحتي القدر

أنِلْ صواعقك اللاتي تروع بها قلبي بلا مطر.. مَنْ عنده المطرُ
هذا عتاب يغير الماء رقته لكن قلبك في تكوينه (حجرُ)

ومن روائعه ما كتبه إلى الأمير علي بن المتوكل أيضاً:

أما آن أن ترقا الدموع السواجم؟ وتقصر هاتيك القلوب الهوائمُ؟
فقد سئمت زهر النجوم رعايتي وملَّت مناجاتي لهن الحمائم
لي الله، حتى البرق أعداه رقةً نحولي، واعتلَّت لجسمي النسائمُ
ومن حر ما ألقاه في مهيع الصبا غدتْ نسمات الحي وهي سمائمُ
وقد أذهبت لوني يد الشوق، واكتسى أصيل الحمى من صفوتي وهو قائم
ولولا بكائي في المعاهد سحرةً لما سُمِعَتْ للطير فيها مآتِمُ
وكم يستمد الطير من حرّ مهجتي وتمتاز من أجفان عيني الغمائم
وما الرعد إلا أنةٌ من جوانحي تنمّ بما دارته مني الحيازم
فحتَّامَ قلبي في الصبابة هائمٌ وإنسان عيني في المدامع عائمُ
خليلي، كم أخفي الهوى وتذيعه جفونٌ، مساعي الدمع فيها النّمائمُ
ولم أر مثل القلب عوناً على الهوى تشب به نار الجوى وهو كاتم
وفي كبدي من حُب أسماء جراحةٌ تعز على الآسي فيها المراهمُ
وإن شفائي ما استدار نطاقها عليه، وما ضمته منها المباسمُ
ودون لقاء «أسماء» من بأس قومها سباسب ما سارت عليها المناسمُ
ومن ذا على خوض المهالك مُسْعدي وقد قل في هذا الزمان المسالم؟

❊ ❊ ❊

أخلاي طراً، حاسدٌ ومفندٌ وقالٍ ومغتابٌ وواشٍ ولائمُ
سقى هضبات الجزع، فالشط، فاللوى فسفح النقا، سارٍ من المزن ساجم
مغانٍ قضتْ فيها الشبيبة حقها سروراً، وغصن اللهو ريّان ناعمُ
فلي بين هاتيك المضارب ظبيةٌ تبات حواليها الليوث الضراغم
من الهيف نعساء النواظر طفلةٌ لها البيض والسمر الرقاق تمائمُ

تنام، فلم يلمم بها الطيف غرةً ... بفحشٍ، ولم يحلم بها قط حالم
ترى علمت أني بها الدهر مغرم ... وأن فؤادي بالصبابة هائم
وأن لقلبي لوعة تستثيرها ... إذا هدأتْ جنح الظلام الهمائِمُ
لئن درست تلك المعالم، أو عفَتْ ... فلم تعفُ من شوقي إليها معالم
وإن زماناً قد قضتْ لي صروفه ... بفرقة هاتيك الديار لَظالمُ
وهل جاز لي أرضى عن الدهر أو أُرى ... به ضاحكاً، والفضل غضبان واجم؟
وما لي لا أشكو الزمان وقد هوت ... بأهل النهى أحقاده والسخائمُ؟
يحار إذا ما سِيْلَ لم أخصبَ الفتى ... جهولاً، ولم أكدى به وهو عالمُ؟
وما هي إلا حكمةٌ دون فهمها ... تضل مطيُّ العقل وهي روازمُ
تقاصرت الأوهام عنها كأنما ... عليها لتضليل العقول طلاسمُ
وأسلم شيء أن يقال بأنها ... حظوظٌ قضى الباري بها ومقاسمُ
ألم ترني أستنهض الجدّ عاثراً ... وأستنطق الأقدار وهي أعاجمُ
وذنبي أني في البلاغة صادحٌ ... وغيري في غُشّ الفهامةِ باغمُ
وفي الناس من يستقصر الشعر رتبةً ... وما الناس لولا الشعر إلا بهائمُ
فبي خُتمتْ رسل الفصاحة وانتهتْ ... إلى ابن «أمير المؤمنين» المكارمُ
فتًى تسعد الآمال والفضل عنده ... وتشقى القنا في كفه والدراهمُ
بمن ذا من الأجواء يوماً أقيسه ... وقد حاد عن مسعاه كعبٌ وحاتمُ
أنال الخراد البيض وهي كواعبٌ ... وأعطى عتاق الخيل وهي كرائمُ
غدا حاكماً شرق البلاد وغربها ... وآمالُنا فيما حواه حواكمُ
يجل صغير الأمر في عين غيره ... وتصغر في عينيه منه العظائم
أنيطتْ به الأحكام طِفلاً، وإنها ... تمائم مخصوصٌ بهن الأكارمُ
نديماه يوم السلم سفرٌ وعالمٌ، ... وخدناه يوم الرّوع رمحٌ وصارمُ
فرَجٌ نداه للغِنى فهو نافع ... ولُذْ بحماه آمناً فهو عاصمُ
تخيلته في الدَّستِ بدراً متوجاً ... ولكنه في السرج ليث ضُبارِمُ
رسائله السمر العوالي إلى العدا ... وكم حمدت سمر العوالي العوالمُ

إذا سار أقذى مقلة الشمس عثيراً ... ورُوِّعَتِ الجوزا به و «النعائمُ»
وسدَّ الفضاء الرحب بالخيل والقنا ... وضاقت به أنجاده والتَّهائمُ
وأدلج في ليلٍ من النقع مظلم ... كواكبه فيها الظّبا واللهازم
له كل يوم غارة تنحني بها ... أساطين من بأس العدا ودعائمُ
فتنفعل الأشياء له قبل وقتها ... وتهزَم من بُعدٍ إذا قيل قادمُ
فآراؤه تُردي أعاديه لا القنا ... وصولته تغتالهم، لا الصوارمُ
وذا حال من للَّهِ فيه عناية ... يَغذّ القضا في أمره وهو نائمُ

وقال من قصيدة جواباً عليه:

خرف الزمان وغاله ... هرم الحياة وشاب فُودُهْ
وجرت على غير الصواب ... رسومُهُ، وكذا حدودُه
شبعَتْ ثعالبه من الدنيا، ... وقد جاعَتْ أسوده
وعُدَتْ أرانبه تطول ... وطالما ذلَّتْ فهوده!

ومن جيّد شعره:

أفادني الدهر بالأيام تجربة ... حتى تبدَّلتُ معلوماً بمظْنُونِ
وقد تصفّحت أحوال الرجال فما ... وجدتُ أخطر من قرب السلاطين
لا يعجبنكَ لين العيش عندهم ... إن الخشونة أثنا ذلك اللّين
صحيح أتباعهم فيما يزاوله ... هو العليل، عليل الفكر والدينِ؛
وإن يقولوا وزير عاقل لهم ... فعدّه غير وانٍ في المجانين
وإن رأيت غنياً في جوارهم ... فعن قَريبٍ تراه في المساكين
والباسم الثغر مَسْرورٌ بقربهم ... يخال في زيْ باكي العين محزونِ
وما يفيد الرضا منهم وإن كثرتْ ... أحيانه مستردّ السخط في حين
لولا الوزارة لم تَنْكَبْ برامكة ... كانوا الأساطين في سلطان «هارونِ»
لذا تراني لا ألوي على غرضٍ ... بعد السلامة في عرضي، وفي ديني

وقد علمت وما الإسراف في خُلُقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيعنّيني تطلّبه ولو قعدتُ أتاني ليس يعنيني
ضرورة المرؤ في دنياه زائلة ببُلغَةٍ؛ دون أرزاق الدواوين
ألا ترى الصفوة الأبرار قد رفضوا ظلّ الملوك، وما ظَنُّو لِمَظْنونِ
واستبدلوا الوحش؛ طوراً في النعام وفي الأسود، وطوراً في السَّراحين
ولا تجوز على تلك العصابة أن تحيد عن طلب العالي إلى الدون

وقال يعاتب صاحب المواهب:

جشَّمتني من الجفا مضايقاً تهكّما سميتهما طرائقا
أرعيتني بنات نَعْشٍ في الدجا يا مانعي في خدّه الشقائقا
مولاي ما الذَّنبَ الذي لأجله سميتني مخادعاً منافقاً؟
وقلت ليس باطني كظاهري أُبدى التُّقى وأُخفيَ البوائقا!
والله قد أنزل في النّمام ما ترى، وسماه الكتاب فاسقا
أليس لي فيك ثناء سائرٌ داني به المخالفُ الموافقا؟
وإنّ لي في سوق «حوث» موقفاً كنت به ذلك الخطيب الفائقا
وإنني مَوْلَى الكلام داخلاً وخارجاً، وفاتقاً، وراتقا
أهملتني، حتى وددت أنني كنت لحتْفِي قَبْل ذَاك ذائقا!
نقّصتّني وكنت قبلاً كاملاً بلّدتَنِي وكنت قبلاً حاذقاً!

إلى آخرها. كما أنّ له رسالة كتبها إلى السيد الحسن بن مطهر الجرموزي تدل على مكانته في الكتابة وسعة اطلاعه وتبحّره في العلوم وهي:

مولانا السيد أبقاه الله تعالى مرشداً إلى الأقوال الشارحة، معرّفاً للحجّةِ الواضحة، مجدداً للأوضاع الحكيمة، مقرراً للقوانين النظرية، باحثاً في العلوم العقلية والنقلية، ناظراً في أنواعها التصوّرية والتصديقيّة، ملزوماً للإسعاد، معروضاً للعناية والازدياد، قابلاً للألطاف الإلهية قبول الجسم للأبعاد.

وإن من له جميل الاعتقاد فيك، وحس الاعتماد بعد الله عليك، المدلي إليك بحق الكون على حبُيك، الذي أشبه التأليف في اقتضاء صعوبة التفكيك، قد رأى الظهور في الكمون، وزهد في الحركة من الأكوان ورضي بالسكون، فالاجتماع لا ينافس عليه، والافتراق لا يحزن فيه، فهو لا يُسْتَفهم عنه بكيف، ولا يُسْأل عنه بأين، ولا يُستزار منفرداً كأنه الإضافة، لا يَتحقّق إلا بين شيئين، فلا يتجرَّد عن أعراض برّك فلا كيف له ولا كم، وتخلّى عن الجنس، والفصل، والخاصة، من معروفك فلا يُعرف بالحد ولا الرسم، ما لذكره في الخارج إلاَّ هِوَّيهْ، ولا للعناية به في نفس الأمر إلا حقيقة اعتبارية، كالجوهر الفرد موجود، لا في موضوع، والصوت المتولّد من تموّج الهواء بين قارعٍ ومقروع، أو قالع ومقلوع، كأنه فارق أهل العدل، ووافق الجبرية في إنكارِ قضية العقل، فصوَّب البخار، وما خطَّأ من أجاز الرؤية بحاسة سادسة كما قال «ضرار»، ووهّى دليل المقابلة والموانع، ودانَ بما دان الأشعري من وجوب الرؤية سمعاً بالأدله القواطع، أو رأى رأي ابن الملاحمي في قطع الصفات، وجعلها أموراً زائدة على الذات، وأنكر حقائق الأشياء كالسوفسطائية، وصَانَع العندِيَّة والعِنَادِية، وتردّد في تضليل اللاأدرية، وهجّن قول أبي هاشم في الصِفة الأخص، ونفى الأعراض عن الجسم مقالة حفص، أو نفى وجود الزمان واحْتجّ بأنه لو كان قارَّ الذَّات لزم تقدُّم بعض أجزائه على بعض تقدماً لا يتحقَّقُ إلا بزمان، فيكون للزمان زمان، أو أنه محال تأباه الأذهان، أو زعم بأن الأجسام غير متناهية ولا مرئية، وأن الوجود غير زائد على الماهية، وأن التواتر غير مفيد للعلم كما ادعت «السمُنِيَّة»، أو قرَّر طَفْرَةَ النظام، ونصر رأيه في تداخل الأجسام، وأثبت المعاني كالأشعرية، وجعل الصِّفات اغياراً لله كما ادّعت الكرامية، أو قال إن الله يَعْلَمُ بعلم لا يوصف بقدم ولا حدوث كما ظنت الكلابيّة، أو نفى ثبوت الذوات في العدم، وقال في عالمية الله تعالى قول هشام بن الحكم، ومال إلى التوقيف في الأسماء واحتج للقول بأن الاسم غير المسمى، وجنح إلى رأي جهم في الأفعال، ودان بأن الله يكلف المحال، أو تحاشى فقال بالكسب، وقال في فُسَّاق الأمة بقول جعفر بن حرب، أو صَحَّحَ ما قاله

مقاتل، من أن الفاسق لا يستحق العقاب، وأوجب قول أبي القاسم من إيجاب إعادة ما انحط بالتوبة من الثواب، وأجاز على الله اللقب، واعتقد مُعْتَقَد عبّاد في أنه لا تصح التوبة من المسبّب، قبل وقوعه بعد وقوع السبب، وقال بجواز التَّفضيل بالثواب، وأنه لا يجب على الله إعادة المثاب، وخالف الجمهور، وقال في الخلا بقول «أفلاطون» إنه البعد المنظور، وحَسَّنَ رأي الاطرافيه، وقوّى مذهب القادرية، وزعم أن الدليل لا يفيد القطع، وبرهان التمانع يتجهُ عليه المنع، وأن الكبيرة لا تخرج فاعلها عن الإيمان، وأن الجنة والنار موجودتان الآن، وأن القدرة غير صالحة للضدين، وأن الإمامة غير محصورة على البطنين، وسلب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ الأفضلية، وحثَّ على التزام طريقة البصريَّة، وزيف فيه مقالة البغدادي، وحديث الغدير، وقال في خبر المنزلة إنه معدود من المناكير، وضعَّف حديث الطائر، وقال في خبر الفسل والمنديل دليل الوضْعِ عليه ظاهر، وقَصَرَ آية التطهير في الزوجات، وأن خَبَرَ الكساء لم يثبت عن الثقات، وأن طريق الإمامة العقد والاختيار، وبيعة أبي بكر بإجماع من المهاجرين والأنصار، وأن تقديمه للصلاة إيماء إليه بالإمامة إلا الغُلاة، وأن خطأ أهل الجمل مغفور، «ومعاوية» في حَرْب «عليٍّ» معذور بل مأجور، وأنكر سم «الحَسَنْ» وقال بقول ابن العربي إن الحسين لم يُقتلْ إلا بسيف جده المؤتمن، وأجاز التوليَّ من الجائر، وصحَّح حديث «صلوا خلف كل مؤمن وفاجر».

أما والله لو قال كل هذه المقالات، واعتقد كل هذه الاعتقادات لما استحقَّ قطعاً، ولا استوجب منعاً، ولكان من الحقّ ما يُنصر عليه، ومن العناية ما يَلْفِتُ جيدَ العناية إليه، فكيف والعقيدة عقيدة العدلية، والطريْقَةُ طريقة الصالحيّة من الزيدية، قد نظَّمنَا الاعتزال، وجمعنا في النحلة أصول عَمرو بنُ عبيْد والغَزال، وهذه نفثة مقروح وأنةُ مقدوح. انتهى.

❋ ❋ ❋

وللشريفة زينب بنت محمد الشهارية المتوفاة سنة ١١١٤هـ:

شجا القلب من ذات الجناح سجوعها ... ولم تَصْطَلِ حرّ الغرام ضلوعها
وأشجت وأبكت وهي غير شجية ... وقد لذّ في جنح الظلام هجوعها
ولو أن فيها بعض ما بي لما شَدَتْ ... ولو تشتكي وجدي لسالتْ دموعها
وبات يحن الرعد من حرّ لوعتي ... وظلت عهاد المزن تبدو خشوعها
ويبتسم البرق اليماني تعجباً ... وأضحى بسوط البين ظلماً يروعها
فيا ويح نفس لم تذلْ لعزةٍ ... وليس يُراعى ذلُّها وخضوعها
تلوذ بصبرٍ كي تصون كمينها ... فآونةً يعصي، وطوراً يطيعها
أفي الحكم أن النفس تبذل ودها ... وليس يُكافي في الغرام صنيعها
إليه بطول الاشتياق تَشفَّعتْ ... فلم يُتلقَّ بالقبول شفيعها
وما سلكت يوماً سوى منهج الوفا ... وهيهات عن تلك الطريق رجوعها
حفظت له سرّ الغرام ولم أكن ... لأسرارها في الحب يوماً أذيعها
وكلفني الواشي عنه تسلياً ... وأين لقلبي سلوة يستطيعها
غرست له في روضة القلب صبوةً ... وقد ثبتت أصلاً وطالت فروعها

وهي صاحبة القصيدة المشهورة التي أولها:

عصاتكْ والقدحْ إن كنت باني ... لغزو الروم من بئر العياني

وكانت السبب في طلاقها من زوجها الأمير علي بن المتوكل على الله إسماعيل الذي كان قد كتب إلى والده قصيدة يستنهضه لما صُدَّ الحاج اليمني سنة ١٠٨٢هـ ورجع بعضهم من السعدية يقول في أولها:

لعمرك ليس يدرك بالتواني ... ولا بالعجز غايات الأماني

وقد أرادت مداعبته ولكنها كانت مداعبة ساخرة تدمغه بالهوان. كما أن لها معه مطارحات واعتذارات رائعة.

والشريفة زينب هي التي ذكرها صاحب تاج العروس فقال: وقد استظرفت أديبة عصرها زينب الحسينية المتوفية بشهارة سنة ١١١٤هـ إذ كتبت

إلى السيد موسى بن المتوكل تطلب منه القاموس:

مولاي موسى بالذي سمك السّما وبحق من في اليمّ ألقى موسى
امننْ عليَّ بِعَارَةٍ مردودةٍ واسمح بفضلك وابعث «القاموسا»

❋❋❋

للسيد الشاعر الكاتب يحيى بن إبراهيم جحاف المتوفى سنة ١١١٧هـ.

ما يقول علماء العدل، وقضاة الإحسان، وحكام الإنصاف، ومشايخ المروّة في رجلين ارتضعا لبان المحبة، ونشآ في جهاد الصحبة، واقتعدا كرسي الألفَة، وتفيئا ظلال الصداقة، وتخطَّرا في ميدان المعرفة، واقتطفا زهر كرم المعيشة، وكان يجمعهما من إخوَّة الأدب، أكثر مما يجمعهما من إخوة النسب:

وكنا كندماني جُذَيمة حقبةً من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا

فهبت لأحدهما ريح الإقبال، ولمعت له لمعة سعد، وأمطرتهُ سَحَابة خير، وظللته غُمامة حظ، ولاحظته عين رعاية، وابتسم له ثغر دهر، وبقي الثاني في ظل العفو، وروض العافية، وجنة السِتْر، وملك القناعة، وسلطان الكفاف، وعز الرضا، ورواق التسليم، يسبح من حسن الظن في غير ماء، ويطير مع طول الأمل بغير جناح، وينفخ من شدة الحرص في غير ضرم، إن التفَتَ يمنةً وجد محنةً، أو نظر يسرة رأى حسرة، أو حاول به اللحاق احتاج إلى البراقْ، أو رام النظر إليه افتقر «كزرقاء اليَمَامَةْ».

وقد كان يقسم بالله الذي وَسِعت العبادَ رحمته، وشملتهم نعمتهْ، إنه إذا أثنيت له الوسادة، ولاحظته عين السعادة، وخرج من زاوية الخمول وطلع نجمه بعد الأفول، وخفق في العالم علمه، وتعرّف في النهي والأمر لسانه وقلمه، وليبَلِّغَنه من الخيرات ما لا قلبٌ فكر فيه، ولا لسان نطق به، ولا جارحة تكلفته، ولا عين رأته، ولا أذن سمعته، ولا خطر على قلب بشر قط.

فأفتونا مأجورين، مُثابين إن شاء الله تعالى ما الذي يجب في «شريعة» المودة، ويَسنُّ في «دين» الفتوة، ويندب في «مِلةِ» الوفاء، ويباح في «فقه» العرف وما «جزاء» من أشقى من استَسْعدَ بِهْ؟ و «عقوبة» من حرَم من استَوفَد فضله؟ و «أدب» من قطع الرجاء عنه، و «نكال» من بَثّ السبب منه وما الذي ينجيه من غمرات «البغي»، ويخلصه من لهوات «القدر»، وينقِذُه من بين أنياب «الأيمان» المغلّظة، ويَتداركه من أصفاد «العهود» الوثيقة، ويكفه من سلاسل «المواثيق» الأكيدة، ويُطلِقه من أغلال «الذمم» المحكمة، ويريحه من قيود الصُحبة المتقَدّمة؟ وما «كفارات» الأيمان التي أصمت أذن الصدق، وأعمتْ بصر الحق وجدَعتْ أنف الود، وأحرجت صدر المجد، وكدّرت نفس الوفاء وفَتّتْ من عضد الكرم، وزلتْ بها قدم الثناء؟

وهل من «توبة» تعلمونها لهذا الصاحب؟ الذي عادى فيه الأقربين، ووالى فيه الأبعدين. واستبْدَل من أهل المودة البغض ومن برهم العقوق، ومن مفرهم الخذلان ومن حلاوة الأمن مرارة الخوف»؟

❊ ❊ ❊

للسيد أحمد بن أحمد الآنسي الشاعر المشهور «بالزّنمة» المتوفى سنة **١١١٩هـ**. وكان قد لحق بمكة ومدح أميرها الشريف أحمد بن غالب بقصيدة يحثه فيها على أخذ اليمن وأولها:

عُجْ بالكثيب وحيِّ الحي من كثب فثم يذهب ما بالصبّ من وَصبِ
وانزل بحيث ترى الآرام سانِحةً بين الخميسين والهندية القضب

فأحسن الشريف نزله، واجتمع هنالك بجماعة من أدباء عصره جاءوا من مصر والهند والشام ومنهم الخفاجي حفيد صاحب الريحانة، وابن معصوم، والسيد حسين عبدالقادر فاجتمعوا في منزل الشريف فقال الخفاجي، ها نحن قد اجتمعنا هذا الاجتماع وهؤلاء أدباء اليمن المشهورون وأدباء الهند والشام ومصر، فهلموا فلينظم كل واحدِ منا قصيدة نبوية ومن أحرز قصبات السبق حكمت بانحياز الأدب إلى قطره، فنظم كل واحد منهم

قصيدة فحكم الخفاجي «للزنمة» بالسبق وقد بدأها بقوله:

ألا حيّ ذاك الحي من ساكني «صنعا» فكم أحسنوا بالنازلين بهم صُنعًا
تحية صبّ صب ماء جفونه يشوّقه برق الدجا إن شرى لمعا
ويعرف من عرف النسيم رسائلاً تجرعه تذكار من سكن الجرعا
نسيم الصبا إن جزْتَ معهدَ صبوتي فثمَّ فؤاداً سلهُ أو سل به سلعا
فحيًّا الحيا من ذلك الحيّ مربعاً له في فؤادي قد أشاد الهوى ربعا
فلولاه ما أذكى البروق تسعرّى ولا امتَار كف المزن من مقلتي دمعا
ولا دَعِيتْ عني النسيم عليلة ولا ناحت الورقا، ولا أبدَعتْ سجْعا
بعيشك إن شارفت حَيَّ أحبتي فطف حوله سبعين يا عمرو لا سبعا
وَرِدْ «زمزم» الوردْ النمير حياضه وحلّق إذ قصرت في ذلك المسعى
سلامٌ على تلك الربوع فكم بها لبست الهوى لما خلعت التقى خلعا
فكلّ فتاة فرعها أصل محنتي بروحي أفدي ذلك الأصل والفرعا
تغير سناء البدر عند طلوعه بطلعتها، والثغر قد فضحَ الطلعا
ليالي أنس لسْتُ أنسى ادّكارها فيا ليتني يوماً إلى عودها أدعى
ليالي تجنى الغيد غصن شبيبتي وقد أينعت أزهارها، ودنت ينعا
وتضْرِف صرْفَ الدهر صِرْفُ مدامتي ومن نحرها أستنبط الصرف والمنعا
كأن كؤوس الراح إذ هي تنبري سِهام ترام، فالهموم لها صرعى
تصول بأرماح القدود لذي الهوى وتشرعها كيما تقيم الهوى شرعا
وتَصْلُتُ من سود الجفون صوارماً هي البيض قطعاً كلما فتكت قطعا
وميدان لهوى فيه خيل صبابتي أثرن به نقعاً، وسطْنَ به جمعا
رعى الله ذاك العصر لولا انقضاؤه لقد كان خفض العيش من طيبه رفعا
ووا أسفي إذ لا أطيل تأسفاً عليه وكم أرجو لأيامه رُجْعَى
أعلل نفسي بالأماني والمنى تعلة من لم يُجْدِ ضرّاً ولا نفعا
سأشكر ذاك الدهر ما عشت دائماً وأشكو زماناً منه أبدلنا بدعا
تنكَّر حتى صار غير معرَّفِ وأجرم حتى دون أفعاله أفعا

وكم راعني هذا الزّمان بحادثٍ | وما راع لي قلباً، ولا قد لي درعا
أدافع ريب الحادثات بكاهلي | ولو كان رضوى ما استطاع له دفعا

❊ ❊ ❊

سيعلم من عاديت أني حتفه | ويقرع سناً من ندامته قرعا
فلي قلم في رقمه سم أرقم | تراه إذا أرسلته حية تسعى
يزيد سناء الشمس بالمدح بهجةً | ويلبسها من هجوه خُطةً شنعا
ولولا احتقاري بالزمان وأهله | لألقيت ذاك الصدع من همتي صرعا
ولكن رأيت الزهد أفخر ملبس | فسيان عندي أن أقيم وأن أدعا
ومن يك في دنياه ملكاً متوجاً | يشابه في التحقيق من لبس «القُبعا»
إذا كان موت المرءِ غايةَ عيشِهِ | فلا أسفاً إن كان ساعته يُنْعى
وأشهد؛ ما شاهدت في الناس ماجداً | ولا حائزاً في الفضل وتراً ولا شفعا
قصارى بني الأيام أن يتزيّنوا | بلبسٍ، وبالتلبيس قد جبلوا طبعا
وليس أياديهم لجودٍ؛ وإنما | تعد من الأذناب إذ خلقت قذعا
رفضتُهم لما رأيت ودادهم | لمن صحبوا بغضا، ونصحهم خدعا
إليكم بني الآداب عني نصيحة | أعيدوا لها مرآى، أصيخوا لها سمعا
لقد ضاع مسكُ الشعر إذ ضاع نشره | وأصبح ذاك الدر من لفظه جزعا
وما الشعر إلا كالنسيم، وإنما | يهز النسيم الغصن لا صخرة صلعا
فلو كنت يا ذا الشعر موسى لكذبوا | بآياته لو زدت مع تسعة تسعا
فها أنا قد أصبحت يا قوم نائباً | عن الشعر بل قد صرت أصفعه صفعا
فيا طالما حَسَّنْتُ وصف مقبح | وعظمتُ من لم يَسْوِ في قدره شسْعا
وأوردت آمالي سراباً بقيعةٍ | وضَلّتْ بوادٍ لم تجد عنده زرعا
وما كنت أسترضي المجرة مورداً | لعيش ولا زهر النجوم لها مرعى
وما العزّ إلا في القناعة والتقى | فلذبهما إن رمت من ضيْقةٍ وسعا
وإن كان لا بد المديح لناظمٍ | فمدح رسول الله أحسَنه صنعا

فنوّع وجنِّسْ في امتداح محمدٍ فأوصافه لم تبق جنساً ولا نوعا
أجيبوا بني الآداب صوت بلاغتي إذا كان فيكم من يجيب إذا يُدْعى

وله يهني المهدي صاحب المواهب:

قضى القضا بالذي تهواه والقدرُ فليهنك النصر والإقبال والظفَرُ
أذكرتنا برسول الله حين غزا «بدراً» ونحوك نصر الله يبتدرُ
لقد ضممت جناح الجيش منك على منصوب عزم به الأعداء تنكسرُ
وقد سللت سيوفاً كالبروق إذا همَّت لهن الأعادي فهن تستعرُ
باكرتهم بجنود الحق يوم وغى كأنما الناس منه في الضحى حشروا
بكل أروع من أبناء حيدرةٍ في درعه أسدٌ في تاجه قمرُ
و «حاشد» و «بكيل» من إذا ارتحلوا إلى المعادين طاب الخبر والخبرُ
في كل يوم وخيل الله عاديةٌ على الْعِدَا قد براها الورد والصدرُ
شهبٌ تباري النجوم الشهب إن ركضتْ يَعنى ويعجز عن إدراكها البشرُ
أضحى العجاج على «ردمان» مرتدماً كأنما هو سحبٌ والدم المطرُ
سمر العوامل في معسالهم رَحَضَتْ دماً وكان عليهم طعمه صبرُ
أَصْلَتْهُمُ نار حرب دونها سقرٌ لواحة فهي لا تبقي ولا تذرُ
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم ـ كذلك البغي ـ لا عينٌ ولا أثرُ
فلينتظر «يافع» يوماً فإن له بيض الصوارم في الأجفان تنتظر
أولى لهم طاعة معروفة وبها فليحذروا غضباً، لو ينفع الحذرُ
يا حبّذا الناصر المقدام يوم وغى والحرب تقدح من أنفاسها الشررُ
كأنه آيةٌ لله أظهرها تحوطه محكمات الآي والسورُ
من جوهر المجد والعلياء صوَّره رب العباد، تعالى من له الصّورُ

إلى أن يقول:

لئن عصتك المواضي سابقاً فلقد أتت إليك بهذا الفتح تعتذرُ

محلك العفو فاغفر للمسيء فكم ذنبٍ لمن تاب غير الشرك يُغتفرُ
والفت إلى «الشام» بعد الشرق منعزماً فإنما بك «حزب الله» يَنتصرُ
كم عزمةٍ منك تندكُّ الجبال لها تكاد من بأسها الأَرَضُوْنَ تنفطرُ
وبطشة لم يكن في كفها شلل لدى الطعان ولا في رمحها خورُ
هذه الأسنةُ والأرماح مشرعة والجيش يزهر، والهندية البترُ
وهذه الخيل، والرايات خافتة عن طيها طالع الإقبال ينتشرُ
إلى متى لك بيت الله منتظرٌ قد ذاب شوقاً إليك الحِجْرُ والحَجَرُ؟
وما الذي تختشيه أو تحاذره وأنت بالله منصورٌ ومنتصرُ

ومن روائع شعره قصيدته التي أولها:

أعقود نظمك أم حباب الراح قد راح يجلوها خضيب الراح

وقصيدته المشهورة التي مطلعها:

ألمَّتْ تهادي والمعنّفُ قد أغفى
على حذرٍ والليل قد أسبل السجفا
بليلٍ تخال الزهر فيه أزاهرا
وقد أينعت في روضها ودنت قطفا
كأن الثريا أكؤس الراح بيننا
وقد بات بدر التمّ يدهقها صِرفا

إلخ...

❋ ❋ ❋

وللشاعر المجيد سعيد بن صالح السمحي المتوفى سنة ١١٢٢ هجرية:

فيا أيها الركب المجدون عرّسوا بها ريثما يرتاح بالغمض نائم
ولا تجهدوا العيس المراسيل بالسرى فقد أخذت منها الفلا والمخارمُ

وإنـا وإن كـنـا مـقـيـمـيـن إنـهـا ... تـسـيـر بـنـا الـدنـيـا ونـحـن نـوائـمُ
وما الكد يُغني في نصيب زيادة ... ولا ينقص التسليم ما الله قاسمُ

وله:

وإني لأهوى صون ديباجة الحيا ... وأرغب في هجر القريض وأطمعُ
وألبس من درع القناعة سابغاً ... يرد سهام الضيم عني ويدفعُ
فكم أتحسى الثمد من كل محسنٍ ... وحوض المنى منه لمثلي مترع
ولكنني والحمد لله لم أجد ... لمثلي رزقاً غير ما كنت أصنع
قريض كما الدر النضيد أصوغه ... وكالروض بالعذب النمير يُوشعُ
يطاوعني هذا القريض صناعة ... وأكثر من وافى به يتصنع

وله أيضاً:

لو كنت من أسر الهوى بمكانِ ... لرحمت كل متيم ولهانِ
فاشدد يديك على فؤادك واسترح ... مما يقاسي المستهام العاني
لا تحسبنَّ نحول جسمي خلقةً ... قد كنت ذا روح وذا جثمان
ولقد دفعت إلى الصبابة والهوى ... وبلوتُهُ في السر والإعلان
فوجدته حلو المذاق، وأنه ... مرّ على المهجات والأجفانِ
إن الثلاثين التي ناهزتها ... قد شيبتْ فَوْدِي قبل أوانِ

وله أيضاً:

اللَّهَ في مهجةٍ ذابت عليك أسىَ ... ومغرم شفَّهُ التبريح والوصبُ
فلا قربت فشمل الوصل يجمعنا ... ولا بعدت فتسعى بيننا الكتبُ

❋ ❋ ❋

وللإمام الداعي محمد بن علي الغرباني المتوفى سنة ١١٢٦ هجرية.
هذه المنظومة الاجتماعية ينتقد الأوضاع سنة ١٠٧٩ هجرية:

باسم الحكيم العدل ذي الإحسانِ　　منزِّل الكتاب، والميزانِ
لكي يقوم الناس بالإيمانِ　　والقسط، فالقسطُ عظيم الشانِ
مؤيد الأعوان والسلطان

وبعد ذا يا علماء الأمة　　يا خائضينَ أبحرَ الأدلةِ
يا من همو في الناس كالأهلّةِ　　يا من لديهم بُرْءُ كُلِّ عِلَّةِ
تُلِمُّ بالأبدانِ والأديانِ

بالله ذي النقمة والبطش اسمعوا　　وأنصتوا لما أُقُوْلُهُ، وعوا
وافتكروا فيه، ولا تضيِّعوا،　　فإن يكن حقاً فإيَّاهُ اتْبَعُوا
ولا تخافوا من سوى الديّانِ

وإن يكن ليس بقولٍ راجحِ　　ونهجه ليس بنهجٍ واضحِ
وعرُفهُ ليس بعرف نافح　　وسِفْرهُ ليس بِسِفْرٍ لائحِ
فأتوا على ذلك بالبرهانِ

من الكتاب العربيّ الحجةْ　　والسنَّة الواضحة المحجةْ
والعقل فهو فلكُ كل لُجهْ،　　كذاكَ الإِجْمَاع المنير النهجةْ
إن صحَّ عن قاصي الورى والداني

وجامع القياس للشرائطِ　　في أصلهِ وفرِعه والرابط
والحكم محروساً عن المغالط　　لا الشُّبَه الدواحض السواقط
في حفر النار عَلى الأذْقَانِ

وانبئوني إن تروا مقالي　　ليس لكم سواه من مآلِ
ما حكم من أغْضَى لِذي الفعالِ　　هل استحق بطَشَ ذي المِحالِ؟
أم مستحق منه للرضوانِ؟

هذا وما حكم الذي ينكرهُ　　غير مبالٍ إن رضوا أو كرهوا
لينصرن الله من ينصره　　أم لا؟ وهل إلى القضا مصدرُهُ
في موقف العرض على المنّانِ

ولا تُحَايِرُوا ملكاً هماماً　　ولا تُحَابُوا عالماً فهّاما

ولا تهابوا أخدماً قياماً   ولا تخافوا صارماً صمصاما

حتى تُلاقوا غاية الأماني

فالقول بالحق عليكم واجبُ   والقول بالباطل خاس واجِبُ

والحقّ أمر الله وهو غالبُ   ليس له سبحانه مغالب

ولا شبيبةٌ في العلى مداني

وإن تجيبوني جواباً مبرماً   ليس مُلعثماً ولا مجمجما

هل سيرة النبي أسمى من سما   صلى عليه ربنا وسلما

حق مبين باذخ البنيان

أم باطل، وهل على الولاة أنْ   تسيرها في الناس سراً وعلنْ؟

غير مبالين بمن حنَّ وأنْ   ورام أن يخرج منها عن سنَنْ

ما اختلفَتْ دوائر الأزمانِ؟

أو ما عليهم أن يسيروا فيهم   إلا على وفق الذي يرضيهمْ؟

أيضاً ويرضى كل من لديهمْ   من الأولى قد ركنوا إليهم

من همج الولاة والأعوانِ؟

وما به لمِلْكِهمْ دوامُ   حتّى مَا لا يهضم أو يضام؟

ولا يناويه فتى همامُ   وعزَّة تعنوا له الأيام

وإن يكن مصادم القرآن

كمثل إعطاء القوي المكثرِ   وترك إعطاء الفقِير المقترِ

وخفض ذي الرفع الكريم الأخطرِ   ورفع ذي الخفض المهين الأحقرِ

والعَزْف في الغَواني والمغاني

والمكس في أسواق كل بلده   من عدنِ إلى ورآ، صعْدهْ

و «الشحر» أو أدنى خليج «جدَهْ»   لبائع ومشترِ ذي شِدَّه

وميسر وضاربِ وجاني

فما يمرّ غالباً بها أحدّ   ولو فقيراً قد أذابه الكبد

وشبَّ ما بين ضلوعه الكمَدْ   مسافرٌ لقوت أهل وولدْ

في سدّ فاقاتٍ وفكّ عاني

سوا أتى بالعَيْرِ أو بالعِيرِ إلا جُبي للشَّاةِ والبعيرِ
والتافه اليسير والكثيرِ والتاجر الحقير والخطيرِ
لا فرق بين «التبن» والعُقْيانِ

كذاك أخذ عدّة على النعم من بقراتٍ ونياق وغَنَم
غير الذي قد فرض الله الحكَمْ جاريةً على قوانين الحِكَم
لا بزيادةٍ ولا نقصانِ

ومثلما يفعله نجل الحَسَنْ في «اليمن الأسفل» من أرض اليمنْ
من حيلٍ للمالِ سراً وَعَلَنْ كثيرةٍ تجري على غير سنَنْ
لا حقَّ ما قوتي بلا أثمانِ

كفرقة «القُروش» و «الموازين والصوم والصلاة والدواوينْ
والخيل، والقُدُومْ و «الأتاوين» وغيرها مما تُكِلُّ الرَاوِينْ
بلا دليلٍ، وبلا بيانِ

فما بِطَاقَةٌ عليه تعرض فيها نفاعةٌ لذنبٍ يُفْرَضُ
جاء بها واشٍ إليه يرفض من جنده أو غيره يحرّض
بها على النائي أو المداني

إلا تَلَقَّاها بوجهٍ ضاحك وحطها مَغْهُ على الأرَائِكِ،
وخصَّها باسمه المبارك مشرفاً لها على الألائِكِ
كأنها من مُنْزَلِ الرحمٰنِ

ثَمَّةَ يعطيها من الأجنادِ كم من لئيمٍ شرس القيادِ
ليس به عطف على العبادِ همته الفساد في البلادِ
من راجلي الجندِ أو الفرسانِ

فإن أنيلها وحيزت بيدِهْ ورصده محسوبةٌ من رصدِهْ
سار بها من يومه أو من غدِهْ مُمْتَلِئًا من تيهِهِ وحرَدِهْ
يميس للنخوة كالسكرانِ

لا يرحم الباكِيَّ منه إن بكا ولا يُصيخ لكلام من شَكا
ولو يكون «كالجنيد» في الزَّكا ما رفع لرأس له عن مُتكا
ولا وقاه عامل الأغْوانِ

ولو ثوى في بابه سنينا ينشده ذا القوة المتينا
مشفعاً بِالنَهدِ الأنينَا معفّراً خديه والجبينا
ما حُطَّ مِنْها عَنهُ دِرْهَمانِ

إلى أن يقول:

إن قلتُ إنَّ دراهم كفريّهْ لأنهم عصابةً جبريّه
فهي إذاً في الحكم خيبريّهْ لفتحها بالسطوةِ القهريه
والحرب والعِزَّاب والطعانِ..!

قلت؛ فلا يخلو إذاً من أحكام وإن يكونوا مثل أهل الأصنامْ؟
والكافرين مِحْربِينْ الإسلامْ فحكمهم ضرب الرقاب والهامْ
وحصدهم بالسيف والسنانِ
فلْيَلزَمُوا زيّاً من الصغار مميزاً لهم كما الزنّار
ويُمْنَعُوا مقابِرَ الأبرار

إلى آخر القصيدة.

* * *

وقصيدته التي أرسلها إلى سيف الإسلام أحمد بن الحسن بن القاسم ومن وصل معه من آل القاسم والجنود إلى «برط» لمطاردته وإلقاء القبض عليه سنة ١٠٨١هـ فلم يتم لهم ذلك وهي أكثر من مئة وخمسة وعشرين بيتاً وأولها.

ألا أيها الرجل المدلجُ ونور الضحى في الدجا مولج

ومنها:

جنودكم من جميعِ القرى إلى رَجُلٍ واحدٍ تُزعجُ
وليس له ثروة لا ولا خلا الله أوسٌ ولا خزرجُ
وما قال إني «إمامٌ» ولا الإمامة عنكم لها مخرجُ
ولكنه قال: إن كان ما ذكرت هو المنهج الأوهجُ
فحيَّ إليهِ إذا شئتمُ وإلا فما شئتم فانهجوا
فما بالكم حَرِجين الصدور والأمرُ ما منه مستخرج؟
أخوفاً على الملك جهلاً فما لما الله فاتحه مرتج؟
وعما قريب ترون الرَّدى بساحاتكم مَرِحاً يهزجُ؟
بجندٍ ترى الأرْضَ مغتصةً به والهواء عَمٌّ مُرهج
ببيض المواضي وسمر القنا وكُمْتٍ مُطهَّمةٍ تَمْعجُ
إليكم ذَوابِلها أسرَعتْ بأيدي فوارس قد دُجِّجُوا
فتسقيكم من زجاجاته شراباً مرارتهُ تبْعَجُ

❀ ❀ ❀

للشاعر القاضي علي بن محمد العنسي المتوفى سنة ١١٣٩هـ:

ذنب الجفا عند ذنب البين مغتفر فليس من ودعوا عادوا وإن هجروا
يا من أذاب البكا طرفي لفقدهم وغاض دمعي، فلا عينٌ ولا أثرُ
لهفى للذَّة أفراحٍ لكم سَلفتْ فإنما هي في طرف المنى حورُ
إن زان شهبُ الليالي حُسْنَ بهجتها فما لدهم الليالي بعدها غررُ
قمنا على بانة الوادي نودعهم وقد دعا البين، والأفراح تبتدرُ
وفي الركائب من لو لاح مبسمه تحت الذوائب قلنا الليل والقمرُ
معربد الجفن إلا أن فاتره له انتصارٌ علينا وهو منكَسر
رام الغزال بأن يحكيه ملتفتاً ثكلت لفتك. أين الدل والخفرُ؟
وحاول الغصن ميلاً مثل قامته ففاته فهو في الأوراق مستترُ

مفنّدِي فيه لا والله ما جهلت ... حشاك جذوة وجدي فهي تستعِرُ
قِسْتَ الشجيَّ بخالي القلب عاطله ... ما هكذا خُلِق الإنسان والحجرُ؟

❊ ❊ ❊

وللشاعر العنسي أيضاً:

يا سميري وللفتوة قومٌ ... خُلِقُوا من سلالة الانسجامِ
بطراز «الرفاء» بتشبيب «مهيار» بلطف «البها» بطبع «السلامي»
قم؛ فعرّج بنا على مرقص الشعر، وفتش بنا طريق الغرام
«كعيون المها» و «يا ظبْيَة البان» «ألا فاسقني» «أدر يا غلامي»
وأرحني عن الكلام الذي يشمخُ أنفاً بالبأس والإقدام
«كلبسنا الحديد» ثم اعتقلنا ... ألفاً من مثقفٍ فوق لام
ومن الناسك المشمر كُميْهِ كنظم الفقيه في الأحكام
ثم دعني من الصعود إلى رِضْوَى ... وأعني به وعور الكلام
«كقفا نبك» أو «أقيموا بني أمي» وتلك الصخور فوق الأكام
مالنا والبكا على رسم دارٍ ... خلّ هذا «لعروة بن حزام»؟
ما ترى رقة النسيم وقد هبتْ كشكوى متيمٍ مستهام
ورياض برزن كالغيد حتى ... أنها ما خلت من النمام
وكأن الوسمي صبّ شكى البين إليها بلوعة وغرام
وعلا بالرعود منه نحيبٌ ... عن حشا بالبروق ذات اضطرام
وكأنّ الزهور حين تغطتْ ... عند ذاك النحيب بالأكمامِ
خجلتْ والشقيق فيها خدودٌ ... صبغت بالحياء فهي دوامي
فبحسْنِ الرياض، بل بودادي ... لك يا منيتي على الأيام
لا تقل اطلعت سماء الدياجي ... شفقاً عند روضنا البسام
غير أن المرّيخ غارَ من الورد فأغرى به نجوم الظلام
فاستعار الذراع كف الثريا ... واجتناه من تحت كِمِّ الغمام

وقال وهو في «العدَينِ» يتشوق إلى «صنعاء»:

يا ربة الصوت المثير شجوني ... إيه: فذا الصوت الذي يضنيني
طوقت عنقك والبنان خَضَّبْتِها ... وزعمتِ أنك في الجوى تحكيني
بالله كفي عن محالك واقصري ... ودعي الجوى لفؤادي المحزون
لم تألفي إلفاً، ولم تتشوقي ... أرضاً، ولم تبكي لفقد ظعين!
أما أنا؛ فإذا احننت تشوقاً ... فإلى «أزال» تشوّقي وحنيني
يا ساكني مغنى «أزال» وعيشكم ... ما البعد عنكم ساعة يرضيني
لكن غلبت وخانني المقدور إذ ... قوّى النوى بالنصر والتمكين
ما سلّ برقكم صوارم لمعه ... إلا وأغمدهنّ بين جفوني
يا برق ما السر الذي تأتي به ... جنح الدجى لفؤادي المفتون
إني أراك تشير من بُعْدٍ إلى ... قلبي فيفهم غامض التبيين
هل حملوك إليه سراً؛ قلهُ لي ... فلقد تركتَ السر عند أمين؟
والقلب مني بضعةٌ؛ لا ينبغي ... أن يطوي الأسرارَ قلبي دوني
يا عمرو حتى القلب خان، فلا تطل ... عجباً لأحبابي إذا خانوني!
يا من يظن بأنني أنساهم ... لِم إذْ جَهلتَ عملتَ بالمظنونِ؟
أنسى هواهم، وهو ديني في الهوى ... فالدمع دمعي والعيون عيوني
يا ساكني مغنى «أزال» أزلتم ... سلوان قلبِ ذي شجاً وشجون
وسلبتم نومي فجرتم إذ به ... قد كان طيف خيالكم يُشْفيني
ردّوا عليّ حبالتي وهي الكرى ... لتصيدَ طيفكم البخيل جفوني
أنسيتم ما قد لقيتُ من الهوى ... فيكم وما قويتْ يدي بمعيني
أما وهذي القاسيات قلوبكم ... فعليّ أن أصف الصفا باللين
ونحلت حتى قال لي صحبي وقد ... داروا على شخصي فما وجدوني:
بالله يا هذا أصرتَ مُطَلسماً ... بَيّنْ، وأبدل شكنا بيقينِ؟
فأجبتهم أما وطِلْسمِيَ الفنَا ... هيهات أن تقضوا على تكويني!
قالوا نرى ذا الصبَّ ملّ حياته ... ما زال ذا همّ شبيه جُنون

صدقوا وهل يرجو الحياة وقد ... درى بمصارع «العذري» و «المجنونِ»
إني أرى قلبي إليهم طائراً ... فرحاً عسى ذا باللقا المظنون
إن صح ذا فعليّ أن أدعوك يا ... قلبي إذاً بالطائر الميمون

وللشاعر علي محمد العنسي رسالة سماها «الروض الأقحواني في الشعير الزهواني» وهي:

مولاي حامي حمى الدين، وحافظ بيضة المسلمين، خلّد الله إقباله، وضاعف جلاله، حولتم للملوك بعشرين قدحاً على الفقيه «الزِّهواني» الذي لا تقبض الحوالة منه إلا بالأماني، فسلم للملوك منها أربعة أقداح شعير، كان قد سها عنها خازن «الإمام صلاح الدين» في ذلك العصر، فتركه في زاوية من زوايا القصر، ثمَّ مرَّت عليه الأعوام والدهور، في خلافة ولده «المنصور»، ثم تخالفت عليه يا مولاي العناصر، في دولة «محمد بن الناصر»، ثم خَلِقَ منه الجسم والإهاب، في أيام «السلطان عامر بن عبدالوهاب»، ثم عافتهُ خيل المجاهدين، في دولة الإمام المتوكل «يحيى شرف الدين»، ثم غمره التراب إلى كعب الشراك، لما استولت على اليمن «علوج الأتراك»، ثم لاحت أنوار الدولة القاسمية التي لبس الدهر بها شبابه، وزان جبينه بأشرف عصابه، وقد صار ذلك «الشعير» دفيناً تحت ترابه، وقد ذهب لبه لطول المدة فلم يبق غير إهابه، ثم تعاقَبَتْ على المخزن، أيدي الخزّان، ولكنهم لم يبلغوا في التحري والتفتيش ما بلغه هذا الرجل النصيح، ذو الطبع المرضي والخلق الشحيح، فإنه لفرط الأمانة لم يترك التلفت على الزوايا، ولا أهمل المثل السائر كم في الزوايا من الخبايا، فعثر في بعض لفتاته، على تلك الزاوية التي اشتد ظلامها، وخفيت أعلامها، فرأى شيئاً مجموعاً، وتلاً مرفوعاً، فنكته بمقصّ الدواه، لينظر ما وراه، فلاحت له منه شعيره، تغير شعوره، أشرق لأجلها في حبوره، وتصحيف سروره، فأمر بإثارة ذلك الكنز المدفون، والدفين المخزون، ثم عيَّر، فحصل منه أربعة أقداح، فجاءت وفق الاقتراح، واتفق لسوء الحظ حضور رسول

الغرير، حال بُعثَ من مرقده آدم ذلك الشعير، فكيل له في الغرائر على غره، وقيل له خذها واحذر العود بعد هذه المره، ثم تحمل الحمالون ذلك البلاء المكند، والرزق «الزهواني» المنكد، ولعلهم مرّوا به على ديار بني عذره، فاستعار نحول «قيس بن ذريح»، وخفة عقل «مجنون بني عامر»، ورقة شعر «يزيد بن الدمينه» القائل:

ألا يا صبا نجدٍ متى هجت من نجدِ فقد زادني مسراك وجداً على وجدي

وفي أثناء رجوعه من ديار «بني عذره» عرج بقبر «جحْظَه» البرمكي، فاستنشده شيئاً من أشعاره، ليكون أحد رواة أخباره، فأنشد:

.ورقّ الجوُّ حتى قيل هذا عتاب بين جحظة والزمان

فتواجد من الرقة حتى خرج من الوجود، ولحق بالشيء المفقود، ووصل في تلك الساعة التي لحق فيها بالعدم، وما بالعهد من قدم، وسكب غرائره، فلم أدرك إلا ما عنّ به من التراب، فارتبت في حامله، فتلا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾، وكنت قبل تفريغه قد سألت حامله ما هذا المتواري الملعون، والجرم المستنكر غير المعروف؟

قلت ما هذا الذي واريتمو فبقلبي من تواريه استعارهْ!
قيل طيف، قلت طيفٌ يقظةً؟ قيل وهْمٌ، قلتُ وَهْمٌ في غرارهْ؟
قيل قيس بن ذريحٍ قد أتى قلت بالشام فمن أدنى مزارَه؟
قيل: ذا شعرُ «البها» خذ لطفهُ قلت ذا قد كان زرعاً في مغارهَ!
قال لي حامله أعيَيْتنا وبلينا بفقيهٍ من «شهارَهْ»
خُذهُ تاريخاً قديماً واستفدْ منه علماً واسعاً حلو العباره
واطلب المولى طعاماً غيره فهو لا يرضى بأن تلقى خساره
قلت هذا الرأي واللّهِ، ولو جاء من غيرك أعطاكَ الوزاره!

❋ ❋ ❋

ومن روائعه قوله:

لا ذاب من نار وجدي عنبر الغسق ولا سقى مدمعي ريحانة الفلقِ
إن كنت شجعتُ قلبي يوم روعني فيك النوى، ورماني فيك بالفرقِ
فلم نحن، فلم يُنْدِ الجنون، فلم نجزع، فلم نمس نهب الشوقِ والقلقِ
يا من وهبتَ ولا منٌ عليه لهُ سلو قلبي فقلبي دائم الحرقِ
آهًا عليك، وأشواقاً إليك، ويا فداً لعينيك، ما أبقيت من رمقِ
مالي وللبين؟ أبكاني عليك دماً فرحت يا بدر أبكي فيك بالشفقِ
أين التلاقي وأيام العذَيب، وما أعني به غير ثغرِ منكَ متسق؟
وها أنا اليوم؛ يا من حلى قامته «لا يستقر على حالٍ من الفلق»
طويل آناء ليل غير مبلجٍ قصيرُ أهداب جفنِ غير منطبق
عانٍ ضريرٌ دُجَائِي، قد أضل عصى الجوزا، وحاول أن يمشي، فلم يطق!
قلب؛ إيان لم تذُب وجداً إذا ذكرت على العقيق ليالي عيشنا الأنقِ
فأذهب وخل ضلوعي، وامض حيث تشا والله لا قلتُ، وَاقلبي وَواحرقي
ويا كرى مقلتي هذا الخيال جفا فما وقوفك؟ ما مثواك في حدقي؟
دع جفن عيني يناجي في الدجا قمري وارقد هنيئاً، فإني دائم الأرق

❊ ❊ ❊

وللشاعر الصوفي السيد حسين بن علي أحمد الإمام القاسم المتوفى سنة ١١٤٩هـ:

آه كم أطوي على الضيم جناحي وأداري في الهوى قالٍ ولاحي
ولكم ألقى بوجه باسم معشراً ما اندملت منهم جراحي
ولكم ألوي على الجرد يداً برةً ما ألفت غير السماح
وبرغم المجد أن ألقى العِدَا واحداً، من غير ضرب وكفاح
وبرغم المجد أن أسقيهم ساعة من أكؤس الهم صواحي
وبرغم المجد أجفو جيرة حجبوا عني بأطراف الرماح

نزحوا شخصاً وهم طي الحشا وخفوا آذاناً، وهم مِلْءُ النواحي
مزجوني بهواهم مثلما تُمزج الصهباء بالماء القراحِ
لم يريحوني من البعد على أنهم روحي وريحاني وراحي
إن تكن يا صاح من خمر الهوى بهم صاح، فإني غير صاحِ
أنا سكران هواهم دائماً فاغتباقي بهواهم واصطباحي
وإذا راح إلى الراح امرؤ فإلى راح الهوى منهم مراحي
لا تعرج بسواهم أبداً واطِّرِحْ غيرهم مثل اطِّرَاحِي
ففساد الخلق من أجلهمُ ورشادي كان منهم وصلاحي

وقال يخاطب بعض أولاد عمه من آل القاسم:

بني عمنا صيرتمُ الظلم عادة على غير تدبير، عدمناكم معا
أسود على نهب المساكين جرأةً ثعالب إن لاقيتم السمر شُرعا؟
جبلتم على نهب الرعايا تجرؤاً فلم يجدوا منكم سوى الله مفزعا
فمن أجل هذا فرّق الله شملكم وبدَّد منكم كُلَّ ما قد تجمعا

ولهُ:

ما زال ذكرك في الظلام سميري فابعد وشطُّ، فأنت طي ضميري
سفري إليك مدى الزمان، وخاطري في كل آونة إليك سفيري

وللشاعر شعبان سليم المتوفى سنة **١١٤٩هـ**:

يا أسرة الحب إن عز التخلص من أسر الغرام وذقتم في الهوى الهونا
قيلُوا بنا عند من بعنا بِحُبِّهِمْ قلوبنا، فعساهم أن يقيلُونا!

وله في «الحمامة»:

شكوت إلى الحمامَةِ حين غَنَّتْ ضني جسدي وأشجاني وشوقي
فرّقتْ لي وقالت مثل هذا وحقك ليس يدخل تحت «طوقي»

وله:

لنا مَلِكٌ متى يدعوه عَنا ذوو الحاجات في عسر يجيب
مليك ليس يستره حجاب ولكن عنه تحجبنا الذنوب

وله أيضاً:

يا برق، أية لاعج وولوع هيجت بين جوانحي وضلوعي
أذكرتني بالليل ومضك موهناً شق الجيوب بموقف التوديع
حيث التقى الجمعان وانتهب الهوى ألبابنا، وأَسَلْتُ ماء دموعي
لم أنسَ إذ جرّوا المطيَّ وفوضوا الأطناب بين مشيِّع ومشيَّع
ولكل ملتهب الجوانح بالأسى كبد لها بالبَيْن أي صدوعِ
بانوا فقمت على الربوع تعللاً أبكي وهل يجدي بكاءُ ربوع
ودُعِيتُ من شغفي الخليع وإنما قد كنت لولا الحب غير خليعِ
وبمهجتي فيهم بديع محاسنٍ يزهو بخد في الجمال بديع
يا عاذلي قصِّرْ ملامك، إنني لحديث لومك فيه غير مطيع
لا أنتهي وأبيك عن شرع الهوى إنَّ انتهائي فيه عين شروعي
ولئن وهمت سلو مثلي في الهوى فلقد رميتَ الحب بالتضليعِ
حاشا لمثلي أن يفيق صبابةً أو أن يرى لنداه غير سميعِ
خلقي كما شاء الغرام تكوَّنتْ وقضاه فيها ليس بالمدفوعِ
فإذا منادي الحب نادى معلناً لبيت صوت ندِائه بجميعي

❋ ❋ ❋

للسيد الإمام هاشم بن يحيى الشامي المتوفى سنة ١١٥٨هـ:

لم أبكِ من ألم الفراق ولا شجى قلب المعنَّى بلبلٌ بسجوعهِ
لكنه وعد الخيال بزورةٍ طرفي فرش طريقه بدموعهِ

وله:

بـروحـي نـرجـسـيّ الـطـرف أحـوى ... يـلـذّ لأجـلـه فـي الـحـب هـتْـكـي
يــشـكُّ بــرمــح قــامــتـه قــلــوبــاً ... غَـدَت فـي أسـره مـن غـيـر شـكِ

وله:

لأ تـنـدبـنْ زمـنـاً مـضـى ... أبـداً ولا دهـراً تـقـادم
فـالـدهـر يـومٌ واحـدٌ ... والـنـاس مـن حـوّى وآدم

وله:

مـا قـلـت إلا الـحـق يـا مـعـنِّـفـي ... صـدقـت؛ إن الـحـب لا يـلـيـق بـي؛
فـهـل تـرى عـنـدك لـي مـن حـيـلـةٍ ... لأخـذ روحـي مـن يـدي مـعـذبـي

وله:

قـلـبـي قـد ذاب فـلا تـحـسـبـوا ... مـحـمـرٌّ دمـعـي فـيـض أحـداقـي
فـهـو دم الـقـلـب ولـكـنـهـا ... قـد صـعّـدتـهـا نـار أشـواقـي

وله:

قل لـلـذي نـال الـريـاسة وهـو من رُتب الـخـسَـاسَـةِ في الـحـضـيـض الأوضـع
عـزّ الـريـاسـة إن أتـتـكَ فـإنـهـا (هـبـطـت إلـيـك مـن الـمـحـل الأرفـع)

وله:

قد قـلـت لـمـا قـال عـنـي مـنـكـراً ... مـا بـي لـفـرط هـواه مـن تـبـريـح
قـلـبـي عـلـيـه شـاهـدٌ بـخـفـوقـه ... فـأجـاب كـيـف شـهـادة الـمـجـروح

❋ ❋ ❋

وقال مكاتباً السيد يوسف بن يحيى صاحب نسمة السحر سنة ١١١١هـ:

عن البان حدثني وعن ساكني البان ... فإن أهيل البان روحي وريحاني
ولا تشْقِني إلا سلافة ذكرهم ... فذكراهم كاسي وخمري، وندماني
ولولاهم، ما شاقني صوتُ ساجعٍ ... ولا هاج بالتغريد قلبي، وأشجاني
ولا شام برق الغور جفني وأمطر ... الدموع على خدي، ولا برق نعمان
ولا ملت لاستنشاق طيب نسيمهِ ... لمهجة مشتاق وفكرة ولهان
ولا قلت سقياً للعقيق فإنّها ... معاهد أحبابي، وأنسي وأوطاني
ولولاهمُ ما بتّ في الحب طاوياً ... حشاي وقد ذَابتْ على حرّ نيراني
ولا عَبثَتْ أيدي الغرام بجسمي النّحيل فأضحى فيه سري كإعلاني
ولا استوطن التسهيد أجفان مقلتي ... ففرّق ما بين المنام وأعياني
ولا كدَّرت صفوى ملامة عاذلٍ ... يروح ويغدُو في الملام بأفنانِ
أعاذل إن اللوم لوم متيّم ... قريح الأماقي ذاهل اللب حيران
أصم عن العذّال حتى كأنه ... إذا لِيْمَ لم تخلق له قط أذنانِ
رأى حبهم فرضاً عليه مؤكداً ... كمدح ضياء الدين، فالْكلّ فرضان

وله:

أما وهداكم وهو أصلٌ مقرّرُ ... ومنهل ودٍ فيّ لا يتكدَّرُ
لقد نمَّق الواشون قولاً ففرقوا ... به شملنا وهو المحال المزوّر
يقولون إني ما ذكرت عهودكم ... نعم صدقوا: ما كنت أنسى فأذكرُ
أينساكم صب حليف جوى بكم ... سوى ذكركم في باله ليس يخطرُ
يعانق قامات الغصون تَولُّهاً ... ويلثم أذيال الصبا، حين يعبر
إذا بارق الجرعاء لاح لطرفه ... فأجفانه مثل السحائب تمطرُ
معاذ الهوى ما في فؤادي سواكم ... له منزلٌ أضحى يُشَادُ ويعمرُ
وفي زفراتي، والسقام، وعبرتي ... دليلٌ على ما أدّعيه محرَّرُ
أَحِبَّتنا جودوا بوصل قوله ... بكم، أو بقلبٍ في المحبة يصبرُ
أبى الحب أني لم أزل ذاكراً لكم ... وعهدي لديكم دائماً ليس يذكر

أيا جنّة الخلد التي طيّ مهجتي لهجرانها نار الجحيم تسعَّرُ
ليَهْنَكَ أني تحت أمرك واقفٌ على مهجتي ينهى هواك ويأمرُ
وذات شجى أودى بها حادث الهوى يميل بها غُصنٌ من البان أخضرُ
من الورق إلا أن أزرق لونها يخالطه لون الأصيل المصفرُ
شجت مهجة في الحب لم تخل في شجى فما هي إلا لوعةٌ تتكرّر
على أنها ناحت ولم تذر دمعة وبت ودمعي دونها يتحدر
وكم مدمع للحب من غير شاهدٍ وما حكمه في الحب إلا مزوّرُ

ومن روائعه المشهورة قوله:

رُدّ لطرفي، في الهوى رقادي وفك قلبي من يد البعادِ
وجد بوصل الصبّ؛ فالفراق قد فرقَّ بين الجفن والسُّهادِ
وشب ما بين ضلوعي والحشى نار جوى قد أحرقت فؤادي
واستمطر الأجفان وبل أدمع غدت به كأنها الغوادي
تجري على الخد كأن ناظري أزعجه في طلب الرقاد
يا بِفُؤادي وبروحي هاجراً ما لأسير الهجر منه فادي
يفديه قلبي، منَّ بالوصال، أو ضنَّ به وزاد في التمادي
لا نلتُ من لقياه مأمولي إذا مَّلكت كفي غيره قيادي
ولا رقتْ مدامعي في وَجْنَةٍ وفارقت نواظري سهادي

❊ ❊ ❊

وعاذلٍ لي عن هواه لم يزل يهيم في عذلي بكل وادي
حاول إرشاد فؤادي في الهوى ضل فأضحى فيه غير هادي

وله:

ليس مأمولاً وِصَالُكْ إنما أبغي خياليكْ
إنك البدر، فمن أين لمثلي أن ينالكْ

حَسْبُ قلبي، أن يقول الناس قلبي في الهوى لكْ
بعد سكناك فؤادي أنا لا أشكو مِطَالكْ

❊ ❊ ❊

للسيد الشاعر عبدالله بن صلاح العادل المتوفى سنة ١١٦٥هـ:

إلى أحد الرؤساء وكان قد أرسل إلى الشاعر «ذُرَةً» لا يُنْتَفع بها:

سلا، هل الصَّب بعد النازحين سلا ... أم هل بغير هواهم عنهمُ اشتغلا؟
هيهات يَسْلو محب عن هوى رشأٍ ... من أجله طلق السلوان واعتزلا
مهفهف خَنِثٌ، في ثغره شنبٌ ... قد أخجل الظبيَ جيداً، والمها مقلا
اغن ملَّكْتُهُ روحي وملَّكني ... روح الغرام به، هذا بذا بدلا
وغاب عني وروحي في يديه فما ... أدرى أأسْلَمَه من بعد أم قتلا؟
فهذه الروح في جسمي محبته ... فإن أمتُ فاعلموا حبي قد انتقلا
لو أنصف العاذل المهْدِي ملامته ... في حبه واستبان الرشد، ما عَذَلا
أعارَني سُقم جفنيه، وحيَّرني ... ما بين أهل الهوى في حُبّه مثلا
مُمَنّع الوَصْل حسبي أن أكون به ... مغْرى تزاحمني في حُبه النُّبَلا
كأنما الوصل منه «للضياء» صِلة ... قد أشبهت طيف ليل زار وارتحلا
ياحبذا «ذرةٌ» وافتْ وقد عدَمتْ ... من لبها فاعتراها الطيش والخيَلا
فكلما سنحت ريح لها رقَصَتْ ... وشببت فيك أمَّا في سواك فلا
دنوتُ منها فنادي مَلكُ وقزتها ... هي المنازل فاضرب ودونها الكللا
فقلتُ مهلاً أعاذ الله منزلنا ... من رؤيةِ الجن في ساحاته نزُلا
فاسترجَعَتْ ثم قالت وهي باكية ... أحيا وأيسر ما لاقيت ما قتلا
ذكرتها كيف أضحى لونها، فتلتْ ... ومن نعمره، ثم استجمعتْ خجلا
فقلت كم حقب عُمَرت في «حُقَب» ... قالت أصخ، ودع التفصيل والجملا
سكنت دهراً بدارٍ كان ساكنها «دَارا» وداريت أهل الأعصر الأولا
حتى أتيت إلى سوح أقام به ... كريم قوم تحلّى بالندى فحلا

وكنت أسنى عطاءٍ من مواهبه ... أتت إليك وتأتي المكرمات على
لولا مفارقة الأحباب ما وجدت ... لها المنايا إلى أرواحِنا سبلا

وله وقد أسهره البعوض والبرغوث:

وكم ليلةٍ طار نومي بها ... ومالي سوى صبحها مخلصُ
يبيت سميري بها «نامِسٌ» ... وبرغوثها في الأنا يخرصُ
وقد شربا من حُمَيّا دمي ... فهذا يغني وذا يَرْقُصُ
فيا رب: جارك من بلدةٍ ... عِزيز الْقَريض بها يَرْخصُ
فلا مطرب عرفوا حقّه ... من الشعر يوماً، ولا مُرْقِص
ولا ما البراعة في مطلعٍ ... ولا ما به يحسنُ المخلص

❊ ❊ ❊

للسيد الإمام محمد بن إسحاق المتوفى ١٦٧هـ في روضة صنعاء:

أيا بارق الجرعا هل الجزع ممطور؟ ... وهل بالغواني ذلك الرَّبْع معمور؟
وهل ذلك الروض النضير نضارةً ... بعين الرضا من ساكني السفح منظور؟
وهل كِسَيتْ فيه الغصون قطيفةً ... مُطرَّزة خضراء أزهارها نورُ؟
وهل نثرت فيه السماء لألئاً ... إذا ما استحالت فيه فهي أزاهيرُ؟
أزاهير تغدو بعد حين كأنها ... دراهم في أغصانه ودنانيرُ
فللَّه ذاك الروض كم عَبَرَتْ به ... نسيم الصبا في طيّها المسك منشورُ
يكبر من يأتيه حتى طيوره ... لها فيه تهليل كثير وتكبير
إذا رقصتْ أغصانه فحمامه ... مزامير في أرجائه وطنابير
سقاه الحيا طول المدى فهو جنة ... لان الحسان اللاعبات به حورُ
كواكب لا يفترن عن حرب عاشقٍ ... بتدبير رأي فيه للصبّ تدمير
يجهزن جيشاً لا انكسار لحزبه ... وما هي إلا لحظ عين وتفتير
وهيفاء أما اللحظ منها ففاتك ... وأما أريج الثغر منها فكافور

إذا ابتسمتْ أو كلمتْ مغرماً يُرى — من الدر منظومٌ بفيها ومنثور
يحافظ فصناها على حبه لها — ويا ليتَ مغناها على ذاك مشكور
شكوى لها هجري وقلت لها متى — بطيب التداني منك يسعد مهجور؟
أسرتِ منامي بعد إطلاق أدمعي — وكم في الهوى يشكو طليقٌ ومأسور
على كل حالٍ أنت عندي حبيبة — وعذرك مقبول وذنبك مغفور

وله وهو بالسجن بقصر صنعاء:

حُبستُ عن أهل وصحبي وعن — فوائد العلم التي تجتني
وسار دمعي سائلاً مطلقاً — يا ليتني دمعي ودمعي أنا!

وله أيضاً:

سرى طيفها ليلاً إلى السجن مشفقاً — وقد كان قدماً لا يُقِرُّ بإشفاقِ
فما راعه إلا القيود التي رأى — عليَّ وقد قامتْ لحربي على ساقِ
فقلت له هونْ عليك فإنها — خلاخل مجدٍ، لا سلاسل فُسَّاقِ
وقف لي قليلاً دمت يا «طيف» طائفاً — بأحسن مني فكِّ القيود والحلاقي

❊ ❊ ❊

في محرم سنة ١١٤١هـ أرسل المنصور حسين إلى شهارة بكتاب يتضمن تأمين السيد العالم محمد بن إسماعيل الأمير، حيث كان مهاجراً بها مناصرة للسيد محمد بن إسحاق وإخوته؛ وأشهد المنصور حسين على كتاب «الأمان» حكام الشريعة، ولما بلغ الشاعر السيد حسن بن إسحاق ذلك وهو سجين بقصر «صنعا» كتب إلى السيد محمد الأمير «مورّياً»:

لا تركنن إلى أمان الغيد — فأمانها والله غير مفيدِ
وحذار ثم حذار منها إنها — جبلت على أن لا تفي بعهود
فلكم قتيل من سيوف لحاظها — ولكم أسير موثق بقيودِ
لا يخدعنك لين منطقها، ولا — قسم يحفّ بأحرف التأكيدِ

وكذاك إن قبلت شفاعة شافعٍ رأتِ الوفاء لذاك غير سديدِ
وضمانة الوجه المنير عن الزّنا سفةٌ أعيذك بعد لطم خدود
وكذاك إن كتبت أنامل كفها خطَّ الأمان مؤكداً بشهودِ
لا تأمننّ فكم رأيت مُؤمَّناً غدرت به، والغدر شأن الغيدِ
فاقبل عَدَاك الحبّ نُصْحَ مجرّب قتلته بيضٌ بالعيون السود
والبعد عن سفح الغواني نغمةٌ عظمى، بها يختصّ كل سعيدِ

❁ ❁ ❁

للسيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير المتوفى سنة **١١٨٢هـ** عند أن قبل تولي القضاء على صنعاء شيخه العلامة ناصر بن الحسين المحبشي سنة **١١٦٩** فكتب شاعرنا إليه:

ذبحت نفسك لكن لا بسكينِ كما رويناه عن طه ويسين
ذبحت نفسك والستُّون قد وردت عليك، ماذا تُرَجِّي بعد ستين؟
ذبحت نفسك يا لهفي عليك، وقد كنا نعدّك للتقوى وللدِّينِ
أيّ الثلاثة تغدو في غداة غدٍ إذ يجمع الله أهل الدين والدُّوْنِ
فواحدٌ في جنان الخلد مسكنه واثنان في النار دار الخزي والهونِ!
يأتي القيامة قد غلّت يداه، فكن يوم التغابن فيها غير مغبونِ
فإن يكن عادلاً فُكَّتْ، وإن يكن الأخرى ففي النار من أقران «قارونِ»

فإن تقل أكرهونا، كان ذا كذباً فنحن نعرف أحوال السلاطينِ
وإن تقل، حاجةٌ مَسَّتْ فَرُبَّتَمَا فأين صبرك من حينٍ إلى حين؟
والله وصَّى به في الذكر في سورٍ كم في «الحواميم» منه «والطواسِين»
قد شد خير الورى في بطنه حجراً ولو أراد أتاه كل مخزونِ
ما مات والله جوعاً عالِمٌ أبداً سل التواريخ عنه في الدواوينِ
ليس «القضا» مكْسباً للرزق نعرفه كما عرفناه في أهل الدَّكاكين
إلا لمن للرشا كفاه قد بُسطتْ بسط اللصوص شباكاً للثعابين

سَلِ الهدى والغِنَى ممَّن خزائنُهُ ... سبحانه بين حرف الكاف والنونِ
وحيث قد صرت مذبوحاً فخذ نُبَذاً ... للنصح ما بين تخشينٍ وتليينِ
إيَّاكَ إياك كتّاباً تخالُهُمُ ... إنساً، وهم مثل إخوان الشياطينِ
واحذر حِجَاباً وحُجَّاباً إلى خدم ... فهَمُّهُمْ أكل أموال المساكين
وجانب الرشوة الملعون قابضُها ... نصحاً فسحْقاً لأصحاب الملاعينِ
وفي الرُّشاء خفيّات، ويعلمها ... من كان ذا همةٍ في الحفظ للدين

إلى آخر القصيدة.

وللإمام السيد محمد بن إسماعيل الأمير وأرسلها إلى المنصور حسين إلى صنعاء وكان الشاعر مهاجراً في شهاره:

هل في القلوب بيوم الحشر إذعان؟ ... وهل بما قاله الرحمٰن إيمانُ؟
وهل علمتم بأن الله سائلكم ... عما قريب فللأعمال ديَّانُ؟
يا ساكني السفح من (صنعاء) هل سفحتْ لكم على ما جرى في الدين أجفان؟
عن اللحية هل وافاكمُ خبرٌ ... تفيض منه من الأعيان أعيانُ؟
تجمَّعتْ نحوها من كل طائفة ... طوائفٌ حاشدٌ منها و (سفيان)
و (ذو حسين) وقاضيها وقائدها ... (درب الصفا) و (قشفون) و (جثمان)
أسماء شرّ! وأفعال مقبَّحةٌ ... طوائف ما لهم يُمنٌ و (أيمان)
فما يخافون من يوم المعاد، ولا ... عليهم لذوي السلطان سلطانُ
فكم أخافوا وما خافوا، وكم نهبوا ... وأخربوا فلهم الأرض نيران
في دولة (الملك المنصور) كم هلكت ... بنادرٌ ومخاليفٌ وبلدانُ
في الشرق والغرب منها والتهائم بل ... والبحر قد خافهم في البحر حيتانُ
لا تنس (قعطبة) إن كنت ذاكرها ... فقد أباح حماها قبل (قحطان)
كذا المعاقل من (دمت) ومن (جبن) ... (ولحج) طاف بها للحرب طوفانَ
والبندر البندر المشهور من (عدن) ... سارت بأخبارِ (يام) فيه آذانُ
كم من عزيزٍ أذلُّوه وكم جحفوا ... مالاً، وكم سُبيتْ خَودٌ وصبيان

ودع (حفاشاً) و (موراً) و (الضحي) ولا
تذكر (حبوراً) وما لم يحص إنسانُ

فالنظم يعجز عن حصرٍ لما دخلتْ
من المواطن في أخبار قد كانوا

فيا بني القاسم المنصور قد سَلَبَتْ
عليكم الملك أعراب وبدوان

لم يبق من مجدكم إلا القصور لكم
بها جَوارٍ وديباج وعقيانُ

أو المزامير تتلى كل آونةٍ
كأنهن - وحاشا الذكر - قرآنُ

أو الثياب على الأبدان صار لكم
في كل حين على الأبدان ألوان

بمال كل ضعيفٍ من رَعِيَّتِكم
فما يقام لكم في العدل ميزان

فلا تخاف العدا شراً لخيلكم
كأنها غنمٌ والقوم رعيانُ

ولا يخافون إن طالت رماحكم
كأنها بيد الصبيان قضبانُ

ما يُرهب السيف في بطن الجراب ولو
جرى على متنه درٌ وعقيانُ

ما هكذا كان آباء لكم سلفوا
شيدت بهم من ربوع الحق أركانُ

فطالعوا سيرة المنصور جدكم
سقى ثراه من الوسمي هتَّانُ

ما كان إلا جهاد الترك همته
وما له مثلكم خيلٌ وفرسانُ

ما كان منزله إلا معاركهم
وما له غير ظلِّ الرمح ديوانُ

كانت لسطوته الأتراك في رهَجٍ
وخاف من داره منهم خراسانُ

إلى أن يقول:

والآن صرتم عِداً في ذات بينكم
كل له قطعةٌ، قفرٌ وعمرانُ

وكلكم قد رقى في ظلم قطعته
مراقياً ما رقاها قبل خوَّانُ

فما الإمام ملامٌ في رعيته
بل الجميع سواء فيه أعوانُ

فقدموا العدل والإنصاف في أمم
قد طال منكم لهم ظلمٌ وعدوانُ

ثم أصلحوا بعد هذا ذات بينكم
واستنصحوا، وانصحوا من خِيْنَ أو خانوا

تضحوا يداً فرعاياكم مفرقة
أيدي سبأ ما لهم في الأرض أوطانُ

إذا اجتمعتم على نصر الإمام فما
يقوى عليكم من الأحياء إنسانُ

إلى آخر القصيدة التي نشرت في الناس باسم السيد يحيى محمد

الحوثي الذي كان في هجرة (حوث) ملجأ للمظلومين وسوط عذاب على المعتدين ومسموعاً مطاعاً حتى توفي سنة **١١٥٢** هجرية، وقد كان للقصيدة آثارها لدى الناس وأجاب عليها السيد الحسين بن عبدالقادر القاسمي المتوفى سنة **١١٩٨** هجرية بقصيدة أولها:

يا ناصح القوم قد أبلغتهم حججاً ... فما وعتها من المنصوح آذانُ
لأنهم شغلوا عنها بزخرفةٍ ... حوت أعاجيبها دورٌ وحيطانُ
مات الذين إليهم سُقْتَ موعظةً ... والتابعون لهم دانوا كما دانوا

ومما كتبه السيد يحيى بن محمد الحوثي إلى المنصور حسين في بعض تلك الحوادث وكان المنصور حسين قد أرسل كتاباً إلى جميع البلدان اليمنية يبشرهم بانهزام قبائل (يام) بعد أن نهبوا (بيت الفقيه) سنة **١١٤٢** هجرية:

(إن كتابكم أعلن بما لا يقتضيه الحال والمقام، وإن لكل مقام مقالاً، ولكل مقال حالاً، يعرف ذلك من نظر في علم البلاغة، وإن لم يكن من أهل الكمال دع عنك من صال في ميدان ذلك العلم وجال، والحال يقتضي أن يؤتى بكتاب حادث عظيم وخطب جسيم، وكتاب تعزية بما حصل على المسلمين، والضعفاء والمساكين، وما لا قوة من الظلمة الضالين، ثم تأنسوا بما آسانا به القرآن وبما وصّانا به رسول الرحمٰن، وكيف لا وهذه مصيبة في الإسلام، وحادث جلل على الأنام، وقد سُبِيَتْ كذا وكذا امرأة، وكذا وكذا ولد، وأهلكت النفوس المحترمات، وغصبت الأموال المملوكات، واستبيحت الفروج المحرمات، وصار المسلمون خولاً، وأموالهم دولاً، ونساؤهم كالإماء تباع وتشرى، فخليق بالمسلمين أن يبكوا دماً لا ماءاً).

إلى أن يقول:

«فهذا المقال هو الذي يقتضيه الحال لا ما استعرتموه من الأبيات المصرّعة، والفِقَر المسجعة، والألفاظ المرصعة، فهذه البضاعة لا تنفق إلا عند غير أهل هذه الصناعة من الجهلة والأغمار لا عند الناظرين بعين الاعتبار، من ذوي البصائر والأبصار، دع عنك المهرة الشطار، وما ذكرتموه

ونمقتموه من الواقع الذي ملأ بمسرته الأسماع، هو خلاف الواقع الشائع، فخلاصته وحقيقته:

إن هذه الفرقة الطاغية، والفئة الباغية، لما خرجت من بلادها، وآلتها القبائل (الحاشدية) الباغية ومضت معها في جهتها، وسارت هي وهم على المؤمنين، والضعفاء والمساكين، إلى أن بلغوا بلاد (كوكبان) و (حفاش) و (ملحان) فقتلوا في قرية واحدة نحو ثمانية عشر رجلاً وإحدى عشر امرأة، ونهبوا البلدة بأجمعها، إلا أن بعض الحاضرين من (حاشد) توجه في رد النساء وبعض النهب، ثم تقدم بقية (يام) الأشرار إلى (بيت الفقيه) فنهبوه وجميع ما حوله من البلدان لم تسلم إلا (القلعة)، وبعض شيء من البيوت ممن لهم منعة فحصر المنهوب بنحو عشرين (لَكّاً)، وصار ذلك المحل أطلالاً بالية، ومنازل خالية، ثم عادوا ووصلوا إلى محل يقال له (الحمرة)، فتلقتهم أهل البلاد، وأهل (زليل) ثم ثارت بعد ذلك قبائل (بكيل) فتقاتلت هي و (يام) كما تتقاتل الكلاب على (الميتة) وأخذت هذه جانباً وهذه جانباً، بعد سقوط القتلى من الجانبين ومن القبيلتين، وانكسرت (حاشد) من (حفاش) و (ملحان) كسرة ربانية، وهزيمة سلطانية، وخذيلة إلهية، قلّب عليهم الأحجار شرذمة من أهل البلاد، واستولوا على جميع ما أخذه منهم أهل البغي والفساد، وتركوا جميع ما بأيديهم حتى بغلة (الأحمر) والحمار، وصارت حاشد (شَغَرْ بَغَرْ) ثم وصل (ابن الأحمر) وقبض ما استولى عليه أهل البلاد وأرسل به إليكم ومقصده يَتِمُّ من بقي من المسلمين ويفعل كما فعل إخوانه أهل البغي والعناد.

وأما الطائفة الشامية اليامية، فاستولت على أنفس الأشياء عندها وحملته إلى محلاتها وبلادها، ثم طلعت (بكيل) إلى حضرتكم إلى (صنعاء) وفتحوا فيما نهبوه وغصبوه البيع والشراء، وتصرفوا فيه تصرف المالك في ملكه، والسيد في عبده ورقه، لا يمنعهم في ذلك مانع، ولا يدفعهم عنه دافع، ثم أرسلوا بما لم يبيعوه إلى بلادهم، فوصل إلى بني (صريم) من (حاشد) فنهبوه وتقسموه.

فهذه حقيقة الحال وخلاصته، فكيف يقال لهذه بشرى؟ أو يقال لها ذكرى؟ أو ترفع لها قدراً؟ كلا والله إنها مصيبة من أعظم المصائب، وثلمة في الإسلام من أعظم المثالب، ومنقصة على المسلمين، وفضيحة إلى يوم الدين.

وما ذكرتموه من أن المجاهدين الثابتين فعلوا وفعلوا؟ فمن ذكرتم لا يستحق اسم (المجاهد الشهيد) وأنه قد حدَّ لنا نبينا ﷺ حين سئل من هو؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا**»، وهؤلاء إنما قتالهم على حطام الدنيا، وكان يجب عليكم الدفع عن رعيتكم من الضعفاء، قبل أن تنهشهم الكلاب والذئاب، وقبل أن يصلوا بلاد «حُفَاش» و «مِلْحَان»، ولو كسرتم تلك الفئة الباغية قبل أن يصلوا إلى المسلمين لعددنا ذلك نعمةً جسيمة، وبشارةً عظيمة ولكأنكم فتحتم «القِسْطَنْطينيّة» وفلسطين، ولو كان جندكم من أهل الحق كما ذكرتم لردوا ما نهبوه إلى أهله، ولما بقوا في «الحَيْمَة» و «حراز» محرّزين أنفسهم من سقوط السماء، أو كأنهم حافظون لها، وهي لا تقع على الأرض إلا بإذن الله.

نعم قد كتبنا إليكم كتباً من جهة المصالحة «لحاشد» و «بكيل» و «يافع» فأجبتم علينا بجواب مغالطة، تركتم ما ذكرناه لكم من المصالحة لأنكم لو فعلتم ذلك لما نَهِبَتْ «يافع» «قعطبة» وأدخلت النسوة بلادها، وكذلك «يام» الطغام مثلها، ثم ضربتم البشارات بانكسارها، ومن أنْفَل ثم رجع لم يسم ذلك انكساراً، ولم يكن فعله عاراً، والسبب فيما حصل أنكم حُظِيْتُمْ بوزراء سُوءٍ كل واحد منهم عن الدين عاطل، وديدنهم أكل أموال الناس بالباطل، ولا يصلون إلى ذلك إلا بفتح هذه المهالك، ولم يراقبوا شديد بطش المالك، فبعضهم يقف فوق سجادته، بعض يومه وليلته، وتلك شبكةٌ لأموال المسلمين، وبعضهم يخبط خبط عشواء كحاطب ليلٍ في ظلماء، لا يَنْظر في الأمور بعين الحقيقة، ويهم بأنه من أهل الطريقة، وكلُّهم يَتبع ما يهوى، كلما قيل له هذا كذا، قال بلى: هذا يَصْلح، هذا من أحسن ما يكون. فهؤلاء يجب عليكم افتقادهم والنظر في حالهم، فعزلهم من أهم

الأشياء، وكذلك يجب عليكم الدفع عن المسلمين بما أمكن، إما بقتال العدو أو المصالحة كما كان عليه من قبلكم.

وكذلك النظر في المحبوسين، فإن تحميلهم القيود الثقيلة المهلكة أو المثْخِنَة مما لا يجوزُ، وكذلك غيرهم من المستضعفين، ولم يكن لأئمة أهل البيت ذلك، وإنما كانت قيودهم بأقفال تفتح للصلاة، وكانوا في زمن أعظم من هذا كزمن الهادي عليه السلام وكان في زمنه «علي بن الفضل» الخبيث.

وانظروا في سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام كأولاد الهادي الذي تَنَحّى بعضهم عن الإمامة بسبب «رُمان» غصَبَهَا بعض أصحابه.

اللهم اشهد أنا قد بلغنا ما يجب علينا، وإن لم يكن عندنا ملكة في أسلوب الكلام فإنما أردنا إظهار الحق، وإبلاغ النُّصح وحسبنا الله وكفى ونعم الوكيل انتهى.

❊ ❊ ❊

وللشاعر السيد محمد بن هاشم الشامي المتوفى سنة ١٢٠٧هـ:

تَرَقبْ بعد ذا الرَّتجِ انفتاحاً ... فمن قطعَ الظلامَ رأى الصباحَا
وكم متجرِّع في السير مرّاً ... مشوباً آجناً بلغَ القراحَا
ورُبَّ كرهيةٍ ساءتْ فسرَّتْ ... مساءتها فأعقبتِ انْشِراحا
وخيرٌ مِنْ هنا تخشى القضاةُ ... عناءَ تَرتجى منهُ انفتَاحا
فتركيب الدهور على اختلافٍ ... وما دامتْ؛ غدواً أو رواحا
وحال المرء كالمرآة يحكي ... تقلّبَها، اغتماماً وارتياحا
وكلٌّ يحْسَبُ الأشياء مما ... يُعانيه؛ كئيباً أو مراحا
إذا مدح الحمامُ يقول غنّى المنعَّمُ، والشجيُّ يقولُ ناحا
وإن برقٌ أنار يقولُ هذا افترارٌ، إن يُقلْ ذاك اقتداحا
وقطر المزن شبَّهَهُ دموعاً ... حليفُ شجى، ومُنْتَجع سماحا

وقال الشهب حائرة أناسٌ … وقال الآخرون مَضَت جماحا
وجمع الفرقدين يقال وصلٌ … كما قد قيل للشكوى استراحا
وقال الفجر قاطع لذَّةٍ من … لَهَا، ومسهَّدٌ فرجُ ألاحا
وقيل الغصن لما مال، قَدٌّ … تَثنَّى، أو يُقال حكى التياحا
وقضى الصبح والآصال نوحاً … فتى، وفتى غبوقاً واصطباحا
وميزان الزَّمان بكفَّتيهِ … ترى جدَّ العجائب والمزاحا
يقرب هازلاً، ويزيح جداً … وكم عكس المقرَّب والمزاحا
وكم يأسو بوزنٍ راجح من … يوفي من يزين لَهُ جراحا
وكم دار الزمان فراح يَسْقي … بكأسَيْهِ الورى صاباً وراحا
وكم أعطى فتى من بعد سلبٍ … وكم سلب العطيَّة إذ أتاحا
وكم سهم يُريش، ورب طير … لَه قَد بَاتَ يَسْلبَهُ الجناحا
وكم قد أخرس المنطيق يوماً … وأعطى الخرسَ ألسنةً فصاحا
وكم رَقَّى إلى العلياء ندباً … وآخر من شواهقها أطاحا
وكم من حكمةٍ خفيت علينا … وأخرى وجهُها الوضاح لاحا
وكم أمر نُشاهده فساداً … وعَينُ فسادِه كانَ الصَّلاحا
وكم ضاق الفتى بالخطب ذرعاً … وطي مضيقه لقيَ الفسَاحَا
وذخرتك الدعاء لدى الرزايا … فسُلّ إذا غدَتْ منه السلاحا
فكم سُلت له يوماً لسانٌ … فَفُلَّتْ من كتائبها صفاحا
ومن رُوْحِ فلا تيأس فعَمَّا … قريبٍ يُزْمِعُ الكربُ الرواحا
ويسعد ورق سعدك في غُصُونٍ … من الإقبال بالبُشرى صداحا

وقال في المشيب:

قيل، إن المشيب يقصر بالمرء … دواعيه عن دواعي الشبابِ
والتذاذِ بمشتهى النفس … والطرف وبالاجتماع بالأحبابِ
وأرى ذا المشيب أكمل إدرا … كاً، وعقلاً، لموجبات التصابي

ومـواري الأتـراب فـي وحشـة التَّـفريـقِ أدعـى لـوصل بـاقـي الـصِـحّـاب
غـيـر أنّ الـرضـى بـمـا تـحـدث الأقـدار أولـى مـن نـيـلـهـا بـعـتـاب

❋ ❋ ❋

وللسيد عبدالله بن حسين الشامي المتوفى سنة (أوائل القرن الثالث عشر) يرثي «هرّةً» له اسمها «وردغان» باللغة العرفية «الصنعانية» وبطريقة الشعر «الحُمْيِني»:

يـقُـولْ عـبـدالله مـنَ الامْـتِـحـانْ — أنْ يـفـرِّقَ الـمـضـنـى أَلِـيـفِـه
قـدْ صـد إلـفـى بـعـد قـطـع الـزّمـانْ — لُـقْـيَـا عـلـى خـيـره نـظـيـفـةْ
وكـمَّـلـتْ لـي وحـشـتـي «وردغـان» — الـدمّـهْ» الـبـيـضـا الـتـحـيـفِـهْ
مـاتَـتْ وعَـاد كـانـت حـيـاةَ الـمـكـانْ — تـتـفـقـدّهْ مـثـل الـوصـيـفـه
بـكـل سـاحـي ضـامـنـه لـي ضـمـان — ولا تـسـهَّـل فـي وظـيـفـه
فـيـهـا شـجـاعـة، كـلّ «دمـه» جـبـان — مـنـهـا، وسـطـوتـهـا مـخـيـفـه
مَـعَـا شـطـاره مـا تـقـول بـهـلـوان — مـا مـثـلـهـا هـرّة خـفـيـفـه
تـنِط فـي الـجـوّ تـخْـطَـفْ الـشَّـيـمـرانْ — تـبـقـى إذا مَـذرا وَكِـيـفـهْ
وإنْ أوكَـسَـتْ بـالـفـار تـجْـنَـنْ جـنـانْ — وتـقْـتـلـهْ قَـتْـلـهْ عـنـيـفِـهْ
تَـعـدّ مِـخْـلـبْ مـثـل حـدّ الـسـنـان — يـتـركْ بُـطَـونْ الـفـارْ لِـيـفـهْ
وتـخـرجـه فـي الـحـال مـن حـيـث كـان — وكـم خـصـال فـيـهـا شـريـفـه
تِـحْـرسْ لـنـا «الـزّنـبـيـل» نـحـطّـهْ مَـلانْ — «شـرِكـه»، وهـي مـنـهـا عـفـيـفِـهْ
فـيـهـا إبـاءة نـفـس تـنـظـر عـيـان — مـا تـقـرب الأشـيـاء الـكـثـيـفـه
تـعـرِفْ «ريّـات» «الـبَـوْيـنـات» الـسَّـمَـان — وتـعـرف الـشـاةْ الـضَّـعـيـفِـه
وحـاصـلـه، كـل الـصـفـات الـحـسـان — فـيـهـا، عَـلـى دِمّـةْ لـطـيـفـةْ
مـا مـثـلـهـا فـي الـلـطـف فـي كـوكـبـان — فـي الـرَّفـع رُتـبـتـهـا مـنـيـفـةْ
شـأسـكـبْ عـلـيـهـا دمـع مـثـل الـجـمـان — وآنـوخ مـن فـقْـد الـظـريـفـه
وأثـنـي عـنـان الـمـدح فـي كـل آن — نـحـو الـذي يـرعـى حَـلـيـفـهْ

صديق صادق في الثوب يُستَعَان ... من لِهْ نظام تِسْمَعْ طِفيفه
«عز الهدى» الشاعر فصيح اللسَان ... من لِلأدب سَنْبَدْ عَطيفهْ
لبسْ من أثواب البديع طَيْلَسَانْ ... وناب عن «مولى السِقيفِهْ»[1]
«أبوهْ أبا»، لوْ زِدْ قرى في البَيَانْ ... ما كان نِلْقى أين نِظيْفهْ
كان شا يُقَعْ للمشكلات ترجمان ... يِفَنقْل الأشْيَاء الرَّهيفهْ
وأزكا التحيّهْ ما ينوّق أتان ... أو بَوَّحتْ بُقرى ضعيفِهْ

❊ ❊ ❊

وللسيد عبدالله قصيدة «حُمينية» مشهورة عارضها الكثير من شعراء عصره، وقد وجهها إلى ناظر أوقاف «صنعاء» في زمنه الشيخ عبدالله بن محي الدين العراسي وفيها نَقْدٌ بديع، وخيال لطيف ومنها:

قال مسجد «الصياد» صِرتْ مهجور ... مسدود من كل الجهات بالدوزْ
مفتوح لي «القبلي» وفج الاشْمُورْ ... وباب «يشوّخْ» ريح بيت «زايدْ»

❊ ❊ ❊

في الصَّيفْ قد حَلّ الوُقُوف، صَوْحى ... كل المساجدْ يسْمَعَيْن نَوْحى
وإنْ به مصلى جَا يردّ روحي ... ساعه، ويحلفْ قَط مَا يعَاوِدْ
أشتى سراجْ من عصر، أمر لازِمْ ... وإلا سمِعت النَّطْح في الدعايم
وأبسَرْت عاثرْ في الظلام وقايمْ ... ما تدْعَسْ إلا فوق راس ساجد

❊ ❊ ❊

«برد المطاهير» قد طلع مِنَ البيْر ... من يسْمع الأصواتْ قالْ هنا، كيْزْ
كانون فيها لا يزال: تقْريرْ ... فكيف من أنكر، مقال بادرْ

❊ ❊ ❊

---

(١) يقصد «الخفنجي».

وذا فِراشي قد طحس ونَطَّعْ   وسَارْ فيه قسْوهْ وبَرْدْ يفْجَعْ
لَوْ يَبْدِلوه حتّى بَلقْ وصورَعْ   أحسنْ من التُّهْمهْ وهو مَشادِدْ

❊ ❊ ❊

ما قدْ غوَوْا لي في الزمان بِحُصْرِهْ   وأصْل شكْلي مِقْترَن بحُمْرهْ
كم لي إلى «صوْح القُضَاة» نظره   فالكون معمور، والكلام واحدْ
عَسَاه يسمح لي ولو بفَرْده   فلي من الفرش الجديد مِدَه
إن شي شهامة هايِلهْ ونَجْدِهْ   فكم تُرَجّى للْكريمْ عوايد

❊ ❊ ❊

فحين سمع «قارِشْ» برُمَّة الخوْضْ   أقبَلْ مِترَّسْ بالسبيلْ والحوضْ
وقال نخرج فوق جربة الروضْ   إن كنت للأمر القديم معاود

❊ ❊ ❊

ما قد جرى لك نصف ما جرى لي   ولا خَطرْ ذاك «البساط» ببالي
إن عاد معك باقي «بساط» بالي   فأنا معي «حِصرْه» كما تشاهِدْ

❊ ❊ ❊

لا تِكثِر التكْديد يا مغفل   واقنعْ بما عندك وما تحصَّلْ
ولا تري نفسك شبيه «حنظلْ»   فإن حنظل طالِعْه مساعِدْ
وانظر إلى مسجد «معيض» عندك   ومسجد «البهمه» تراه ندّكْ
فلا تعرّض للفضول وحدَكْ   إن كنت مثلي في الزّمانْ زاهِدْ

❊ ❊ ❊

فقوس «الصيّاد» وشل راسِهْ   واظهرْ شواهدْ فِيْ حِلَّتِهْ وباسِهْ
وقد تغيَّر للكلام حواسهْ   وحَشَّرْ اكمامهْ إلى السَّواعدْ

❊ ❊ ❊

خَرَجْ إلى باب «الحكيم» ورقرقْ ... وقـال إذّى قـصـرتـك وإلـحـق
وقـاسـم «الـسَـمَّـان» زَعـقْ وأرْبـقْ ... من ذا معـاً جاري خرج يـجـاهـدْ

❊ ❊ ❊

والـتـفـتْ الأقـوامْ إلـى شـرارهْ ... يـغْـتـدُّوا ألـفـيْـن مـن بـنـي زغـارِهْ
واقبلْ لهم مسجد «عَصُرْ» بغاره ... رجال محْكُومين، على القواعدْ
فَـقَـلَّـهُ «الـصـيَّـاد» رَزَحـت ظـهـري ... صحيتُ لي صاحبْ فشدْ أزري
قال، الجواري يا صديق تجري ... قلبي يحبِّك والقلوب شواهِدْ

❊ ❊ ❊

قال «النزْيلي» ما مَعَ الجماعَهْ ... وما سبب ذا الهرْجْ والصكاعهْ؟
بالله عليكم خلّوا الخضاعه ... يا مسجد الصياد، لك أمّ قالِدْ

❊ ❊ ❊

ما قد معك يا شِقْبْ والتحْمّاسْ ... تجلبْ إلى فوقي جميَعةَ الناسْ
أو قد مِرادَك كَيَّتَيْنْ في الرّاسْ ... وبعدها شَرْبهْ، وسَمَنْ جامدْ

❊ ❊ ❊

فَـقَـلَّـهُ «الـصـيـاد» لا تِـبـرْبِـرْ ... ما أنت من أهل الثبوت في الشرْ
أسكتْ من التنبال لك أمّ قرقرْ ... قد ثارت الفتنةْ وأنت راقدْ

❊ ❊ ❊

وأقبل أبو شمله بزَوب هايلْ ... معه يجي خَمْسينْ من القبايلْ
أقبل منكف يسحب الشَلايل ... وقال من ذا يكشِفْ الشَّدايدْ

❊ ❊ ❊

العزم يا «صياد» لا نوقَّفْ ... لأن «قادش» قَدْ حمِي ونكَّفْ
الحزم عند النايبات يكفْكفْ ... لا يحسبوكَ حُرمه من القواعدْ

فسارت القُومَانْ نحو عَدّلْ ويفعلوا فوق الجراف محفِلْ
فناس يقوّيها وناس يكسّلْ ناسْ يشتي الهزّه، وناس يسادِدْ

❋ ❋ ❋

فحين سمع «قارش» معرّة الجيشْ رَجمْ بصوحه واستفزّه الطيشْ
وقال مسكين أشيش حالتهْ إيش؟ لا بد ما يُشْفَى من الحواسدْ

❋ ❋ ❋

وأرسل إلى «عَدّل» رسول في الحال وقال بادرْ لي بألف رجّال
وألف مفرسْ ناهيات من العال ولا تبورْد، فالرسول قاصدْ

❋ ❋ ❋

وأقبلَ «السَّعدي» على مرادِه بألف رجّال من عرب وسادِهْ
يسيْر سيْر النُسْك والعباده لأن أصله من قديم عابدْ

❋ ❋ ❋

وحين دَرا بالأمر قام قايمْ وحزوق الأبواب والدعايمْ
واقبل طريق الحاضرين يداكمْ وقال مالك يا ذليل قاعدْ؟

❋ ❋ ❋

وأقبل، «الصياد» بالعساكرْ والحرب قايمْ والعُجاج ثايرْ
وفي الشمال باب، واليمين عابر وفي قُلَيبه للقتال واقد

❋ ❋ ❋

وكانت الهدهْ قبال عَدّلْ كلَّيْنْ يِحَرِّضْ عسكرهْ ويحملْ
وأبصرتْ «قارشْ» قد رجم بمجدلْ فودّفتْ في القوم مثل راعدْ

❋ ❋ ❋

ورَاجَمَ «الصيادْ» رَجْم هايل بالباب واللالِهْ صلىَ القبايل

لولا أن «قارش» كان قليل مشايلْ كِسـرْ لـه الأبـوابْ والـمراوذْ

❋ ❋ ❋

فقال «حنظلْ» ما الكلام يا اخْوَانْ هـذي الـعـداوه كـلـهـا تِـجِـنّـانْ

فـخـبـرونـي مـا جرى وما كـان؟ فـلـيـس مـثـلـي لـلـكـلام نـاقـدْ

❋ ❋ ❋

هـذي الـوقـائـع كـلـهـا عـلامـهْ فما دِريتْ هـو سُخف أو رَحامهْ؟

ظـنـيـتْ أو قـد قـامـتْ الـقـيـامـهْ وأنـا مـعـاكـم فـي مـقـام والِـدْ

❋ ❋ ❋

فأبصرتْ «قارش» قد سِكت وقوفعْ ودمـع عـيـنـيـه سـالـت أرْبَـعْ ارْبَـعْ

وأقـبـلَ «الـصـيـاد» وهـو بِـيـزَمـعْ وقـال كـن بـيـن الـجـمـيـع شـاهـدْ

❋ ❋ ❋

أنـا شـكـيـت الـيـوم ضـعـف حـالـي ومـا مـن الأهـوال قـد جـرى لـي

فـقـام هـذا يـنـتـصـبْ قُـبـالـي وكـل حـال لا زال لـي مـعـانـدْ

❋ ❋ ❋

فـالـتَـفَـتْ «حَـنـظـل» وقـال «لـقـارِشْ» مـاذا بـدا لـك لـلْـقـبـيـح تـنـاقِـشْ

هـذا طَـلـب مـن عـامـلـك مـفـارِشْ أو هـو طـلـب زوجـين فـراش وفـاردْ؟

❋ ❋ ❋

وأربـعْ حـصـيـر والـجـصْ لا زيـاده هـذا إذا لاَحـت لـه الـسـعـادهْ

مـقـصـدْ مـن الـفـضـلـهْ بـغـيـر عـادهْ مـا حَـد لـفـقـرهْ فـي الأنـام جـاحـدْ

ولـو فِـعـل تـعـريـف مـعـي وسـوّدْ وإلاً تـوسـط بـالـفـقـيـه «مـحـمَّـدْ»

لـكـان يُـقـع لِـهْ مـقـصـده وأزيـدْ فـعـامـل الأوقـاف لـي مـسـاعِـدْ

❋ ❋ ❋

فالشيخ فِعْلَ الخير ما يُفوتِهْ   أبوه محي الدين لا مميتهْ
قد شاع عند العالمين صِيتِهْ   يِحِبّ فعل الخير والمقاصدْ

❋ ❋ ❋

وأنت يا «قارش» فغير معقول   مسجد مضيَّع ما عليك معمولْ
ومن توضى فيك يصير محمولْ   ويخمدوه يومين في المراقِدْ

❋ ❋ ❋

وقد يَقعْ لك فردتين وحصرِهْ   بغير مضرابه ونذف قصْرِهْ
وإنما أصلك عديم فكْرِهْ   عقلك منقّصْ، والمزاج فاسِدْ

❋ ❋ ❋

فقال «قارش» لا عدمت مثلك   من أين لي معقول مثل عقلك؟
ما زلت أذكر في الأنام فعلكْ   وكمْ وكمْ للشيخ من محامِدْ

❋ ❋ ❋

كم قد فرش مسجد نتيفْ مثلي   وكم تفقَّد دَامِرات قبْلي
لَكَنْ ما قد ذكَرْ مِنَ اجْلِي   وإلا فمن مثله كريم ماجدْ؟

❋ ❋ ❋

وأزكى صلاتي والسَّلام سرمدْ   تغشى المشفَّع في الملا محمدْ
والآل ما طير الغصونْ غرَّد   وما بدت في أفقها الفراقدْ

❋ ❋ ❋

وللشاعر إسماعيل بن عبدالله الطلّ المتوفى سنة **١٢٢٤هـ**:

سِحْرٌ بأعيان الظبا أعياني   يقضي لقلبِ الصبّ بالخفقان
لا جُهدَ لي، فأنا الرقيق فؤاده   بأُسُود ذاك الحيِّ والغزلان
بعثوا الطيوف إلى مشوق هائمِ   كَلِفِ الجوانحِ ساهر الأجفان

منعوا العيون من الهجوع وغادروا بين الضلوع ودائع الأشجان
رَشَأٌ عصيت عواذلي وأطعته وأطاع فيَّ عواذلي وعصاني
وثنٌ أطوف به حنيفاً مسلماً كالجاهلي يطوف بالأوثان

وله:

كم بين أكناف العُذَيْب وحاجرِ منا صريعُ نواظرٍ ومحاجرِ
أنسيْنهُ ذنب الهوى، وشغلنه بالوجد عن ذمّ الشباب الغادرِ
أسهرتَ يا وسنَ الجفون جفونه ورقدتَ عن ليل الكئيب الساهرِ
قلبي ملكتَ فهل له من معتقٍ؟ ودمي سفكت فهل له من ثائرِ؟
ما لي وللسمر الدّقاق تركتني بقديم صبوتها حديث الشاعرِ؟
من كل مائسة بُلِيْتُ بقدها وقوامها، وعدمت أجر الصابر
أسفي بذات الخال ليس بمنقضٍ هو أولٌ ما إنْ له من آخرِ
لولا الأسى لجنيتُ وردة خدها سحراً على كأس العتاب الدائر
يا عاذلي وأخا الصبابة ربما يشكو إلى غير الشقيق العاذرِ
قد كنت ترحم لو مررتَ بخاطري فوقفت في رسم السّلُوّ الداثرِ
جهلاً يلوم على السقام ولم يذق وجد المشوق، ولا حنين الذاكر
يبكي على جسمي السَّقيم ولو درى كان البكاء على فؤادي الطائرِ

❊ ❊ ❊

للشاعر الكاتب علي بن صالح العماري المتوفى سنة **١٢١٣هـ**.

إلى الإمام المهدي عباس:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، ونحمده تعالى وإن نطق القلم بالتشبيب، وكَنَّى عن الغرض البعيد بالقريب، فقصده مناسبة القصد لا النَّسيب، فلهذا صرَخَ بالاستهلال، وصرّح بالخفي فقال:

أَجُرْمٌ ما يقال له عِثَارُ وذنبٌ لا يكون له اغتفارُ؟

وهل يستوجب التعذيب طَرَفٌ | جرى منه انهمالٌ وانهمارُ؟
وقلبٌ لا يفيق عن التّصابي | ولا ينهاه ضُعفٌ وانكسارُ،
به ظبيٌ له الجوزاء قُرْطٌ | مليحٌ، والهلال له سوارُ
له مالي، بلا مَنٍّ، وروحي، | ولي منه الملالةُ والنفارُ

جرح فؤادي بأسياف العيون، وضَعَّفَ قلبي بسهام الجفون، ولما صحّ له عن القلب حديث الهوى، ورَوتْ له الجفون على الطرف مراسيل النوى، وعلم الدهر أن قلبي موثق في يديه، وموصول دمعي موقوفٌ عليه، علّلَ بالجفا ذلك الوصال فقال عنه بلسان الحال.

سقى دهراً نعِمْنا فيه عيشا | وأياماً لياليها قصارُ
ومرّ كأنه أضغاث نومٍ | فما عندي لماضيه ادكار

أنساني معرفة تنكير الزمن، لما نصبت ظروفه على الحال خِيامُ المحن، ولمّا ولع بخفض عيش المرفوع، أهملت كلام العاذل الموضوع، وصرفته عن الإغراء فهو الممنوع، وقلت مبيناً ما كفاه من اتباع العذل عن المتبوع، وأغناه عن المثنى من الملام والمجموع:

أعاذل قد كفاك العذل دهرٌ | وقام بما جناه الاغترارُ
تلوم فتًى أصابته الرزايا | وفارقه الشباب المستعارُ
أبعد «الخمس والعشرين» يصبو | لعمر أبيك هذا الاغترارُ؟

ذهب عنه تصريف الهوى ومعناه، وانقلبت عينهُ غيناً فتغير بناه، جرّد الوقار زيادته بتخفيفه، وأسقط الزمان تعديه بتضعيفه، وغيّر أصوله بالتصغير من أصله، حتى أنساني بذكر صحيحه ولفيفه ومعتله:

ولم أنس التي قامَتْ لعزمي | تودّعني، وأدمعها غزارُ
تخوّفني نوى عرضتْ وطالت | وتخشى أن يكون، فلا مزارُ
تقول وقد أجد البين: مهلاً | بنفسك لا يشق بك البدارُ

ولم تكسب يداك سوى ثناءٍ فليس عليك مهما كنتَ عارُ
وما لطَّختَ عرضكَ بالدنايا ولا دارت على فيك العقارُ
سواءٌ والإقامة منك عزمٌ وسيان، الخفاء والاشتهارُ
ومن شرُفتْ له نفسٌ وعرضٌ فأنّى كانَ؛ كان له افتخارُ

تكلمت بمنطق غير ممنوع، تساوى به المحمول والموضوع، وما أقربها إلى القياس بالمحال، وما أبعدها عن الوهم بالخيال، أيُظنَّ الفصل يغني عن العرض العام، أو يخال لجنس يعين الحد على التمام؟، فقلت لما قصدَتْ الخلو بالجمع، وساوت بين الشرط والمنع.

دعيني لا أبالكِ إن قصدي إلى باب الكريم هو الفخارُ
أيرضى بالهوان فؤاد حرٍ يعز عليه للضَّيم اصطبارَ
وما دار الأحبة لي بدارٍ إذا ما نالني فيها احتقار
فبالأحباب أحبابٌ، وداري هي الدنيا، وبالجيران جارُ
وكل الناس أخوالي، وتُربِي لهم تُربٌ، وكل الأرض دارُ

إذا اتحدت معانيهم في الظاهر، وزالت الغرابة بخلوص التنافر، وكان الأب آدم والأم حواء، فقد اقتضى الحال تطابق الأهواء، بَعُدَ عن جِبِلَّتِهِمْ من شرَّفه خالقه بالمجاز إلى الحقيقة العقلية، وأنشأ اختراعه من أسلوب تعذّر فيه الأخبار عنه بالصفات البشرية، فلذا لذْتُ به من نوائب الزمن وقلتُ مصرحاً باستذكار ما جنته المحنْ:

معاذ المجد والعلياء أني أضام ولي إلى المهدي ائتمارُ
منيع الجار لو يشكي هلالٌ عليه النقش فارقه السرارُ
ولو وافاه ليلٌ خائفاً من هجوم الصبح ما طلع النهارُ
مليك هذّب الأيام حتى خضت سطواته الصم الحجارُ
وطير في بقاع الأرض قسراً عداه، فكل قلب مستطارُ
ولولا سطوةٌ لِلَّيثِ تُخشى لزاحمه على الغاب الحمارُ

كـريـم لا يـشـوب عـطـاه مَـنٌّ حـلـيـم لا يـخـف لـه وقـارُ
إذا لـمـسَـتْ يـداه لـعـقـد جـودٍ يَـبـيـسَ الـعـودِ عـادلـهُ اخـضـرار
وإن لـمـسَـتْ يـداه بـيـوم فـتـك نـصـال الـسـيـف كـان لـه احـمـرارُ

إلى أن يقول:

أمـيـر الـمـؤمـنـيـن فـداك عـبـدٌ أنـاخـت عـنـده الـنـوب الـكـبـارُ
رمـاه الـدهـر مـحـتـالاً بـقـوسٍ مـن الـحـدثـان أسـهـمـه الـبـوار
أيـنـسـفـنـي الـزمـان ولـي انـتـمـاء إلـيـك، ولـي بـخـدْمـتـك انـتـصـارُ؟
إذا مـا كـنـتَ والأيـام عـونـاً عـلـيّ، وجـورهـا، فـلـك الـخـيـارُ؛
فـأمَـا أن أقـيـم بـضـنـك عـيـشٍ وثـوبـاي الـمـذلـة والـصـغـارُ
وأمـا أن أقـيـم بـشـوب عـزٍّ خـلـتْ عـنـه الـمـضـرة والـضـرارُ

عبد رفعته على يقين الابتداء، وخفضته على توهم الاعتداء، رق لهُ الحاسد، ورثى له الشامت، وكادت أن تتحرك رحمةً له النجوم الثوابتْ، نصبت بربعه خيام المصائب، وركضت في ميدانه خيول النوائب، وهل يفزع الخائف إلى غير حضرتك؟ أو يعز الذليل بغير سدتك؟

وأنـت أحـق مـن يـرعـى ذمـامـاً ومـن تُـحـمـى بـحـضـرتـه الـذمـارُ
نـعـم مـن ذا الـذي مـا حـاز نـقـصـاً ومـن أغـنـاه عـن قـدرٍ حـذارُ؟
ألـيـس الـمـرؤ مـن مـاء وطـيـنٍ وقـد نـقـص الـهـلال الـمـسـتـنـارُ؟
إذا مـا لـم تـخـنـك يـد وعـيـنٌ ولا قـلـب فـقـد خـفّ الـقـطـار

كيف تخونه يده أو قلبه، من مُلىءَ من قرنه إلى قدمه من حبه، تبّتْ يدٌ مدت إلى ما لم يشتهيه، وعميت عين لحظت ما لا يرتضيه، وخرست لسان فاهت بغير المدح فيه:

أمـيـر الـمـؤمـنـيـن فـأي ذنـبٍ أتـيـت وكـان لـي فـيـه اخـتـيـارُ؟
لـقـد كـثـرَّت حـسـادي فـجـازوا عـلـى حُـسـاد آدم حـيـن جـاروا

وقد ألبست من علياك فخرا ... ومجداً لا يُباع ولا يُعارُ
ولم يكسبني الإقلال ذلاً ... وأنّى ذا؟ وجودك لي عقارُ

ما أَكْأَبَنِي غير سخطك، ولا أهمني سوى عتبك، وأن العفو ثمرة الذنوب والخطأ، وكمال الإحسان التجاوز عن الاعتداء:

أمير المؤمنين أطلت سخطاً ... ومثلي من يقال له العثارُ
لسخطك لا أقيم بأرض عزٍّ ... وإن عزّت فلي عنها نفارُ
وإني إن نَأَوْتُ فغير ناءٍ ... بودك وهو لي أبداً شعارُ
وما سافرت في الآفاق إلا ... ومن جدواك عيشي والدثارُ
يقيمُ الظن عندك والأماني ... وإن شطّت بي النوق العشارُ
مقامك كعبتي، وحماك ركني، ... ولي حجٌ ببابك واعتمارُ
أطوف به وأرمي كل يوم ... جمار الهم، إن رمي الجمارُ
أمير المؤمنين إليك وافت ... تهادى والمديح لها شنارُ
مودعةٌ وما التوديع فيها ... قلاءٌ، أو ملالٌ، أو نفارُ
وهذا إن تعذّر مدّ كفٍّ ... لتوديعي، وداعٌ واختصارُ

وللعماري أيضاً:

إن سلا حُبُهُمْ فهم عرّفوهُ ... كيف يسلو الهوى، وقد علموه
علموه طباعهم فتناسى ... من قديم العهود ما قد نسوه
وأصاخوا لِما رَوَاه الأعادي ... من حديث الجفا، وما زوّره
كذبوا والذي له يخشع الصوت ... بيوم الجزآ، وتَعْنُو الوجوهُ
ما عدوت الوفا، ولا كان مني ... قط أمرٌ من الذي زعموه
غير أني أقول حسبهم الله ... تعالى، وحسب ما نمّقوهُ
وإذا قلت للأحبة قلبي ... قد تسلّى الهوى، فهم يعرفوه
وبرغمي أقول قلبي تسلّى ... وهو يأبى السلو، لو قطعوهُ

بَرَّحَ الكتُم ما على الشَّمس سترٌ		أنا مضني بهم مُعَنًّى، ولوْهُ
هم حياتي، وهم أحبّاي، إن هم		حفظوا عهدهم، وإن ضيَّعوُه
بأبي منهم الذي سكن		السحر رناهُ، وخمرة الدنّ فوه
رشأ كالهلال، والشمس، والغُصْن،		وظبي النقا إذا شبَّهوهُ
لو رآه «يعقوب» ما شك فيه		أنه «يوسف» الذي غيبوهُ
يستحي الْغُصنُ والغزال إذا ما		قيل للغصن والغزال أخوه
أشبه الشمس والهلال فقلنا		أمه الشمس والهلال أبوه
ومُحَيّاه والجبين على ذا		شهدا، والأنام لو شاهدوه
وجميع الحسان تدري يقينا		أن ملك الجمال والحسن، هُو هُو

وهو صاحب القصيدة المشهورة التي مطلعها:

ثمل الغصن بالصبا حين فاحا		فهو يهتز نشوة وارتياحا

والتي منها هذا البيت:

وإذا رامت الذبابة للشَّمْسِ		غطاءاً مدّت عليها جناحا

ومن شعره مقتبساً الآية:

قد سترتَ العبد في الدنيا ولم		تهتك السّتْرَ الذي أسْبَلْتَهُ
فَقِهِ اللَّهمَّ في الحشر. فمن		«تُدخل النارَ فقد أخزيْتَهُ»

للشاعر العالم أحمد بن حسين المفتي المتوفى سنة **١٢٩٤هـ**:

لشذا تحرّك من شذاه ما سكنْ		فصبا لعهد صِباً، وحنّ إلى سكنْ
وبدا له ذكر المعاهد من ربا		أرض «الحُصَيْبْ» وملعب الظبى الأغن
فبكى وغنّى بالديار مشبّباً		وبأهله شغفاً، ومَن يَعْشقْ يغنْ
يا دار أطرابي، وأحبابي، وأصحابي، وأترابي، وسربي والختن
يا مربع الغزلان، والأغصان، والأفنان، والألحان، والغيد الفتن

يا دار معترك الشبيبة والصبا بالبيض والسمر الموردة الوجن
يا شعب ذاك الشعب باكرك الحيا وسقاك يا زمن التلاقي من زمن
سقياً لعهدك مربعاً وظبائك الأتراب لي وطراً، وقربك لي وطن
لا تعجبن إذا بكيت وشاقني برق وفارقني اصطباري والوسنْ

❋ ❋ ❋

ولما أمر المتوكل محمد بن يحيى بن المنصور بقتل الشيخ أحمد بن صالح ثوابه من أكابر مشايخ برط، قال القاضي أحمد بن لطف الباري الزبيري المتوفى سنة ١٢٨٦هـ:

رفع الحقُّ شامخات قبابه وتحلَّتْ قشوره عن لبابهْ
ومحا الله آية الجور لمَّا زال عن شمسه كثيف سحابه
وهَوَى البغيُ بعد طول تماديه صريعاً وانزاح لَمْعُ سرابهْ
وانجلى عِثير الضلالة لمَّا شهر الملك سيفه من قرابه
وقضى الله أمره في ذوي الزّيغ وأمضى عقابهُ في «ثوابهْ»
يا لها فتكة بها انتعش الدين وطالت بها عمود نصابه
فتكة هاشمية لم تدع قط لمستعتبِ مساغ عتابهْ
ذكرتنا بالمصطفى حين روّى لأبيّ بالرمح كأس مصابهْ
وبفعل «الوصي» في زُمَر البغي «كعمرو» و «مرحب» وصحابه
فتكات تشابهت وفروعٌ قد زكى أصل روحها المتشابهْ
وذرارٍ من بعضها كان بعضٌ وكذا الشبل مشبه ليث غابِهْ
شفت المؤمنين من ألم الغيظ، وأصلتْ خدن الشقا بالتهابهْ
وتولى الشيطان في كل نادٍ صارخاً معلناً بشق ثيابهْ
قُلعت عينه فأصبح أعمى يتلظى حزناً لسوء اكتئابه
قائلاً: أين نصر «طاغوتي» اليوم وقد غاب عنه رأس كلابِهْ
كان عندي بمنزل الولد البرّ سريعاً إن رمت ردَّ جوابهْ؟

كـان لـي عـدّة وقـرّة عـيـنٍ　　قد كفاني في الشرّ جل شعابهْ
من لقتل النفوس، والنهب، والهتك، وقطع السبيل بعد ذهابه؟
من لنكث العهود، والختل، والخدع، وللعَيْب بعد موت غرابه؟
من لنصب الجذون[1]، والبيض، والسود، ومن للمضنا ودحْن صوابه؟
نكس الجذن رأسه بعد مثوا　　ه، ومهواه في شنيع مآبه
وبكته «بنادق النطح» لمَّا　　نطحتْهُ المنون نحو عذابِهْ
وأنارَتْ جوانب الدين لمَّا　　كان من نعيه سَواد إهابِهْ
ثلةٌ في جوانب البغي أوهَتْ　　جانبيه، وآذنت بخَرَابِهْ
فالنجاة النجاة يا آل «غيلان» فقد غصّ كأسكم بشرابِهْ
وتناهيتُمُ وعند التناهي　　ينكص المنتهى على أعقابِه
والحذار الحذار من وثبة الليث فلوذوا إليه قبل اقترابه

❊ ❊ ❊

وللسيد الشاعر محمد بن أحمد بن إبراهيم الشامي المتوفى سنة **١٣٣٧هـ** في وقعة «شهارة» من قصيدة طويلة مشهورة أولها:

ومخبرة بالصدق، والصدق مقبول　　وقائلة: والحق والنصر موصولُ
ألا هاكُمُ أخبار من في شهارةٍ　　أسود الشرى والأكرمين البهاليلُ
فلِلَّه «خولان الطيال» فإنهمْ　　سهام لها في العاصفات أفاعيلُ
ولله در «الحارثية» في الوغى　　عليهم من المجد الأثيل سرابيلُ
وللمجد في «الأهنوم» مأوى ومسرحٌ　　وكم فيهم بالعز والمجد مشمولُ
ولما التقى الجمعان «باب شهارةٍ»　　ولله تكبيرٌ هناك وتهليل
أثير دخان الحرب حتى كأنه　　سحاب لها فيهم وبَال وتنكيل

---

(١) نصب الجذون، والبيض والسود، والمضنا، ودحن الصواب، وبنادق النطح من قوانين مشايخ الطاغوت في اليمن.

وله القصيدة المشهورة التي منها هذا البيت في «البندق»:

مطالعها منا «صدور» وإنما ... مغاربها فيهم جبين ومقتلُ

وقال في تشبيه القات في «فم المليح»:

لما بدا أدعج العينين مبتسماً ... كأنه البدر يجلو ظلمة الغسقِ
والقات في فمه «فيرُوزجٌ» وشفا ... ة الثغر ياقوتةٌ، والوجه كالفلقِ
فقلت من عجب هذا بمبسمه ... «فيروزج الصُّبح أم ياقوته الشفق»؟

وللسيد الشاعر محمد بن عبدالرحمٰن كوكبان المتوفى سنة **١٣٦٣هـ**:

ما دواء الهموم غير الراحِ ... فاسقنيها بأكبر الأقداحِ
خندريساً تنفي بغاة همومي ... عن فؤادي بعسكر الأفراح
ونسيم الصبا إلى القلب قد أهدت سحيراً نوافجَ الأفواح
هاتها يا نديم صرفاً فإني ... غير راضٍ لمزجها بقراح
هاتها كالعقيق لوناً ومثل المسك عرفاً، والْهَجْ بها يا صاحِ
ادهق الكاس لي رحيقاً حلالاً ... ما علينا في شربها من جناح

❊ ❊ ❊

ومن إنشاد القاضي الشاعر العالم الراوية أحمد الحضراني المولود سنة **١٣١٠هـ ـ ١٨٩٣م** من الشعر القبلي «الحميني»:

قالْ (بن خولان) يا حَمام ... الدّوز بالله اسجعينْ
شلّيْنْ بأصوات المعاني، والمغاني، والعبيْنْ
وغطرفِين بأصْواتِكن ... من بعد تخطيط اليدين
ودْنِيْنْ واغرفِين ... من صافي الماء، واشربين
وانتينْ ضمان الله ... وبين الناس بَين
غَنّينْ لِغلمةْ طنَّبتْ ... في راس حصن (الظبيتَينْ)
أهل (الطيال) الشامخة ... قومِ تقاضي كلّ دَين

قــوم لــك الله، قــد قــضــتْ في نـصـف كـيـلـةْ كـيـلـتـيـنْ
يـوم انـكـف الـمـصـري عـلـيـهـم مـن جـمـيـع الـفـيـلـقـيـنْ
(دهـمـي) و (نـهـمـي) و (الـحـدا) و (حـارثـي) و (الأبـرقـيـنْ)
كـم تـرقـم الأقـلام، كـم تـلـك الـكـواكـبُ يـكـتـبـيـنْ
أمـا بـلادي مـن بـغـا هـا صـفـع وجـهـه بـالـيـديـن
هـذا الـنـكـفْ عـنـد الـطـرفْ أمـا الـوسـطْ أيـن أنـتْ ويـنْ؟
مـا يـطـعـمَ الـحـالـي سـوى مـن ذاق حـنـظـلْ مـرتـيـنْ
والـكـلـب طـنّـب فـي الـدخـول حـتـى وقـف فـي جِـرْبـتـيـنْ
وظـلّـت أخـشـام الـبـنـادق والـمـدافـع يـرجـفـيـنْ
وظـلّ دخـان الـمـبـردخ كـالـسـحـاب إذا انـتـشـيـنْ
ودار عـزرائـيـل واسـقـى كـل عـاطـش حِـفْـنـتـيـنْ
مـسـكـيـن عـقـلـهْ مـن يـقـولْ إن الـكـواكـب يـنـزلـيـن
مـسـكـيـن عـقـلـهْ، مـن يـقـول إنْ شـى نـمـارِهْ يـحـلـبْـيـن
وإنـمـا عَـاداتِـهـن يـتـزَنـجـرَيـنْ أو يـقـتْـلـيـن

ومن قصيدة من إنشاده أيضاً:

يابن يحيى أقمْ في العُلى واستقمْ سيفك المنتقم، ما برح يلتقمْ
يـا دوي مـن سقـمْ، مـا وجـدنـاك إلا كـثـعـبـانِ
أنت يابو هشومْ، يا مجلي الهموم، أنت نجم النجومْ أنت بحر العلوم،
من مقامك يقوم، حدّ مدحك عن الصبّ ينهاني
كم قتل من علوج، وعلا من سروج، وغزا من بروج، ما يهاب الخروجْ
والـمقـاتيل عـوج، وقِـياس الـعـدَا (قـوس عِـلاّنِ)
وإليـه رجـال، فـي الـوغـى ذو مـجـال، بـرزوا لـلـقـتـال، أخـذوا بـالـنـصـالْ
وأرادوا الـوصـال، وتـجـافـوْا عـن الـفـايـت الـفـانـي
يـا حـمـاة الـحـمـى، لا رُمـي مَـن رَمـى، فـي فـؤادي ظـمـا مـا يـرويّـه، مـا

غـيــر سـفــك الــدمــا ومـعـارك حـروب وأثـخـانِ

يا فحول الرجال، اثبتوا للقتال، يا حميد الفعال، قل لحزب الضلال،

أبـشـروا بـالـنـكـال، أنـصـف الله مـن آل هـامـانِ

سحر فرعون بطل، وحزامِه نطل، قَدْيَدِهْ في العطل، مطله من مَطل،

وبَــطـــش بـــه بــطـــل رِكِّبِهْ فوق ظهر السخيمان

الفرَق تفترِق، والرصاص تخترِق، والوغى تحترِق، والرجال تسْترِق

ما لطرفي أَرِقْ؟ بارق الحرب إن لاح أشجاني

❊ ❊ ❊

وللقاضي عبدالرحمٰن بن يحيى الإرياني المولود سنة **١٣٣٢هـ** **(١٩١٤م)** يمدح الإمام أحمد بن يحيى حميد الدين ويعرّض بدعاة التجديد والدستور:

حَذِّقْ تجدها هنا العلياء ماثلةً يكبو على جانبيها كلُّ مهاق

هنا الزعامة فازت بابن نَجْدَتِهَا فحاطها بيدي حزم وإشفاقِ

هنا الإمامة والسلطان قد قُرِنا في كَفِّ أقدر فتَّاقٍ ورتَّاقِ

هنا الجلال، هنا العرفان قد جُمعا هنا منابع إحسانٍ وإغداقِ

هنا الكمال، هنا الإيمان بينهما قد أشرق الملك يزهو أي إشراقِ

هنا ترى كل ما ترضاه من شيم قد كوَّن الله منها خير سبّاقِ

ناهيك من (عبقري) لا نديد لهُ في سابقين وحُضارٍ ولُحَّاقِ

أخلاقه نبويات مقدسةٌ وفعله لزكاها خير مصداقِ

زعامة الدين والدنيا قد اجتمعا فيها وطيب أفاعيل، وأعراق

حسبي وحسب بني قومي به ملكاً يسوسنا بهدى دين وأخلاقِ

شريعة الله، والقرآن شرعته وهديه هدى إصلاحٍ وإعتاقِ

ماذا نريد؟ وهذا العدل منتشرٌ والحكم فينا لشرع الواحد الباقي

شرعٌ مقننهُ الرحمٰن واضحةٌ أعلامُه بارئاً من كل إغلاقِ

قالوا الحضارة تدعو أن نجافِيَهُ ... كيلا يُقالَ لنا لستم بِسُبَّاقِ
نصوصه عقباتٌ في مناهجنا ... تدور ما بين تقييد وإطلاق
وبعض أحكامه ليست موائمةً ... لها وكم فيه من غُلّ وميثاقِ
تحول بين بني الدنيا وما طلبوا ... للعيش من مُتع فيها وأرزاقِ
قلنا كذبتم فشرع الله خالِدةٌ ... أحكامُهُ صالحٌ لِلْمَجْمَعِ الراقي
هيهات ما بين تشريع الحكيم لنا ... وبين تشريع ضُلال ومُرّاقِ
يحكمون هواهم في مصايرنا ... ويعبثون بأعراض وأعناقِ
والفرق بين الذي نقفُو وما اتبعوا كالفرق ما بين مخلوق وخلّاق

مولاي فافخر على كل الملوك بها ... واصلح بها كل نعّاق ونهّاقِ
فإنك اليوم دون الكل حارسها ... من أن تمدَّ إليها كف محّاقِ

❋ ❋ ❋

ولشاعر اليمن الأكبر القاضي محمد محمود الزبيري المقتول سنة **١٣٨٤هـ (١٩٦٤م)** عن ثمانية وأربعين عاماً:

أطلق سراح ضميرك المسجون ... وابعث دفين شعورك المحزونِ
واعط الخيال جناحه فلطالما ... حمل القيود بجنبه الموهونِ
الله ألبسهُ خفيف رياشه ... فَعَلامَ تلبسه حديد قيونِ
وهب الفضاء له يطير به، فما ... أقسى الذي يلقيه في سجّينِ
ودع اليراع يذيع في خطراتهِ ... ما ينطوي من سره المكنونِ
قد عاش دهراً صامتاً إلاّ صدى ... من همس دمع أو شجيٍّ أنينِ
وأقام مغموراً يخبىء عقله ... حذراً به من دهره المجنونِ
والحرب حاطمة القوى كم وطئت ... من شامخ طيِّ السحاب مصونِ
فرضت على الناس السكوت ليسمعوا ... ما ألِّفتَ من نغمة ولحونِ
فتطامنوا تحت الخطوب وأنصتوا ... لِرحًى تدك الراسيات طحونِ

فالبارجات بلجها عريانة ثكلى كثكل الغانيات الغين

والذر قد نسخت قوى الدنيا سوى صوت الضعيف ودمعة المسكين

أتراهموا جمعوا الأنام إلى (فرانسِسْكو) لوضع خرافة ومجونِ

أخذوا سلاح الذر في يُسراهم وتناولوا الْمُثُلَ العلى بيمينِ

إنا نرى فيمن تشاءَم فيهم نزوات أوهامٍ ورجم ظنونِ

عادت حضارتنا كما بدأت إلى حكم الضميرِ العادل المأمونِ

وإذا أبينا حكمه فسينتهي هذا الصراع بصيحة وسكونِ

يا بنت (محمود) بحسبك إنما جادت بك الأقدار بعد قرونِ

قد كنت في رحم الليالي مأرباً صعباً كنبع في الصخور كمينِ

هل تكشفين لنا الطريق فإننا عفنا عناء الحَدْسِ والتخمين؟

إنَّا عطاش للحقيقة نفحص الدنيا فلا نلقى سوى غسلين

أنضاء أسفار صعاب، لم نجد لطليحنا من منقذ ومعين

في غمرة الظلمات نسمع صيحة الليث الهصور، ونبأة التنين

نطأ الثرى هوناً لنكتم خطونا عن سمع واش أو عيون كمين

وتنوشنا الأشواك لا نأسى لها مما بنا من ريبة وظنون

والجرح من شوك الطريق سلامة لك إن نجت بك من خِطار عرينِ

في لجة الأفكار يسبح خاطري وتَّرنَ أوتاري بها ولحوني

صفحاتها أوطان عقلي إن نبا وطني، وحرم منطقي وفنوني

❊ ❊ ❊

وللشاعر إبراهيم بن أحمد الحضراني المولود سنة ١٣٣٨هـ (١٩٢٠):

الله قد صاغكِ من طينةٍ كسائر الناس ولا أكثرُ!

فحدثيني يا منى خاطري من خلق الحسن الذي يبهَرُ؟

من جعل الألحاظ فتاكةً والثغر من صيّره يُسْكِرُ؟
من خلق الفتنة غيري أنا أنا، أنا، خالقك الأكبر؟
لولاي، ما أفترَّتْ زهور الرُّبا ولا شدا نايٌّ، ولا مزهَرُ
ولا عَلَتْ خدّيك إشراقةٌ يُسبحُ الله لها عَبقَرُ
ما جسمك الرقراق لولا أنا ما سحره، ما طرفك الأحورُ؟

❀ ❀ ❀

إن تسأليني: كيف صورتني وأنت لا تقوى ولا تقدرُ؟
أنتِ لعمري أعرف الناس بي ما أحدٌ مثلك بي أخبر
ورعشة الوجنة عند اللقا تشهدُ لي، والطرف إذ يُكْسَرُ
خلقتُ هذا الحسن من خافقٍ مضنى، وطرف في الدجى يَسْهَر
خلقتهُ من همسات المنى من كل ما أهوى، وما أكبرُ
من ومضات النور عند الدَّجى والليل من حولي يَعْكوكرُ
أوّاه من قلبٍ يقاسي الجوى في كل يوم جرحهُ ينغَرُ
أشكوك؟ لا أدري، ألستُ الذي بكفه قد صُنِعَ الخنجَرُ؟

❀ ❀ ❀

وللشاعر السيد عبدالوهاب بن محمد الشامي المولود سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٧):

كفاك يا ميّ تعذيباً وهجرانا إليك عني فلست اليوم ولهانا
سَلا فؤادي فلا ذكراك تلهبُه ولا هواك عظيمٌ مثلما كانا
ما كان ضرّك لو راعيت عاطفتي وصنتِ حُباً وإخلاصاً، وتِحْنَانا
يا قلب، يا أيها الخفّاق، أي جوى قد كدت تقتلُه صبراً وكتمانا؟
من حقّك اليوم أن تذري الدموع، وأن تبكي دياراً وأحباباً وإخوانا
فارقتهم مظلم الآمال مكتئباً واجتزتُ من بينهم هولاً ونيرانا

تكاد تحترق الأحشاء من جزع — عليهمُ أن يلاقوا الموت غضبانا
ويحيى، أيلهب في أكبادهم ظمأً — ودونهم أنا وحدي لست ظمآنا؟
أتنعِقُ البوم والغربان بينهم — وأستطيب زغاريداً وألحانا؟
كلاّ، فلن أقبل الدنيا ورونقها — ولن أصادف بعد اليوم سلوانا
هيهات أبسم للدنيا وهم عُبُسٌ — هيهات أستقبل الأيام فرحانا
كم تحت هذا الدُّجى من أدمع، ولكمْ — يخفي الظلام تباريحاً وأشجانا
لو يعلم الليل ما يطويه لارتعَدَتْ — أكنافهُ ولطارَ الليل فرقانا
والصبحُ مهما يكن صبحاً فرونقهُ — مَخلَوْلِكٌ لو تأملناه إمعانا
هذي مظاهره تبدو لنا علناً — وحسبنا أن نرى الأرزاء إعلانا
يا عالم الظلم والطغيان، لا سلمتْ — كفاك، حسبك قد أسرفت طغيانا
أما سئمت من الأشلاء تدفنها — أما مَللْتَ تحانيطاً وأكفانا

❀ ❀ ❀

يا ويح سُمّار بهتانٍ وقد ضَعُفُوا — يا ويحهم إن أرادوا اليوم بهتانا
هبْتُ أنصرهم، والناس غاضبةٌ — تسطو عليهم زرافاتٍ ووحدانا
وتترك اللحم منهم دون جلدِته — طعم الكلاب انتقامات وعدوانا
واليوم يعجبهم شتمي ويطربهم — قول الخسيس، فلا كانوا ولا كانا
وضعتُ كفيّ على كفٍّ ملوثةٍ — فيها الجراثيم أصنافاً وألوانا

❀ ❀ ❀

ولمؤلف هذا الكتاب السيد أحمد بن محمد الشامي المولود سنة **١٣٤٢هـ (١٩٢٤م)** ونختتم به هذا الفصل الأخير:

ضيّعت في تلك الديار فؤادي — ونسيتُ أُنسِي عندها ورقادي
حيث الشباب تفتَّحتْ أكمامهُ — والحسن تاه بغُصْنِهِ المياد
حيث الهوى يزهو مناظر فتنةٍ — ونجوم آمال وزهر ودادِ

حيث الصبابةُ، لا ينام شجيُّها - إن لم يَنلْ - إلا على ميعادِ

❋❋❋

الحُبَّ مِثلي ما عَنَا لجلالِهِ وجمالِهِ أحد من العُبَّادِ
أفنيتُ كل العمر في محرابه أشدو بما أدري من الأورادِ

❋❋❋

عن قيس عن لُبْنَى، عن المجنو ن عن ليلى عن ابن ربيعة وعهادِ
عن كل من قتل الهوى ببكائه وقضَى شهيد الشوق والأوعادِ
قلبان يختصمان في قلبي، وللقلبين قد أسلمت كل قيادي
هذا له ما يشتهي من رغبتي ولذاك ما يهواه من إسعادي
والحرب أعرف كيف أذكي نارها ومتى أجَمْجِمُ جمرها برمادِ
قالوا أنانيٌّ، فقلت، كرامَةٌ أنا ليث غابتها وشيخ الوادي
أصبحتُ لا أخشى محاذير العدا بل شرَّ من أكرمتُ مِنْ حسادي
لي كل يوم وقفة أنسى بها نفسي، لأذكر أمتي وبلادي
ركنوا إلى الأوغاد، وامتهنوا بهم حرمات أهل الفضل والأمجاد
مردوا على الطغيان، واستخذتْ له منهم طبائع خسةٍ وفسادِ
وتمسكوا بحباله، وتعصبوا لضلاله بوقاحةٍ وعنادِ
فتقطَّعتْ أسبابه وتصرَّعوا في وثبة للثار والأحقاد
من لقمة المسكين لم يَنْفعْهمُ المال الذي ذخروه للأولاد
قل للأولى انتقموا ولم يتورَّعوا أسْرفتمُ، والله بالمرصاد

❋❋❋

شط المزار، فلا الديار ولا الأولى كانوا مُنى الزوّار والروّاد
وتعطلتْ أكواب عُشّاق الطِّلَى وتغيَّب الساقي، وأقوى النادي
والروض جَفَّ غديره، والزهر مات عبيره، والطيِّر أخرس صادي!

هل عودة تُرْجى؟ فيحتفل الثرى   بتخطر الملاك والأسياد؟
وإلامَ يبقى الخوف من فقر، ومن   سجن، ومن شَنَّاقة الجلاد؟
وإلامَ يبقى عيش كل مهذب   متكدّراً ويطيبْ للأوغاد؟
وإلامَ يَبْقى ذلكَ «الفِرْعَون» في الوادي يبيح محرّمات الوادي؟

خَاتمة

وبَعْدُ:

فهَذا كتابٌ قديم جديد، وهو خلاصة جهدٍ شاق، وبحث مضنٍ استمرَّ خمسة عشر عاماً تنقيباً، وتحقيقاً، وتأليفاً.

وليس هذا الكتاب إلا فاتحة كتب أخرى ننوي بعون الله مواصلة الجهد في إبداعها ونشرها عن تاريخ اليمن وأدبها وأدبائها، وشعرها وشعرائها، وعلومها، وطوائفها، وثوراتها، ودعاة الإصلاح فيها، خدمة للغة والدين والتاريخ، وقياماً بالواجب نحو شعب عريق كان ـ ولا يزال ـ مصدراً للخيرات، ومَسْرحاً للبطولات، ومنبعاً للعلم والشعر والأدب.

وأملي عظيم أن هذا الكتاب سَيشق طريقه إلى حيث قصدت؛ فيجد مكانه بين مراجع وأصول الأدب العربي، ويسد ذلك الفراغ الذي طالما أحس به الأساتذة كلما حاولوا أن يذكروا لتلامذتهم شيئاً عن أدب اليمن، ويتلاشى ذلك التوقُ الذي طالما أقلق طلاب العلم، وعشاق الأدب كلما تطلعوا إلى معرفة شيء عن اليمن.

ثم... ثم قد يكون رائداً لأدباء شباب اليمن الذين بدأوا بلهفة واندفاع، يلهجون بآثار وطنهم، ويشيدون بآداب (يمنهم)، فيجنبهم المزالق والارتكاس والشذوذ، ويُرشدهم إلى معالم الطريق، ويبصِّرهم بمواطن الكنوز والأسرار، والله ولي التوفيق.

لندن:

١ صفر ١٣٨٥هـ ـ ١ يونيو ١٩٦٥م

أحمد الشامي

فهرس أعلام أدباء اليمن

«حسب ورود أسمائهم في الكتاب»

الاسم	الصفحة
الحسن بن أحمد الهمداني	١٢
ابن مفرّغ الحميري	١٦
قحطان بن هود	١٧
حمير، أسعد تُبّع	١٨
أسعد الكامل	١٨
ذورعين	٢٠
خنافر الحميري	٥١
عيسى الترخمي	٦٤
عمرو بن معد يكرب	٦٩
عمرو بن براقة	٧١
مالك بن حريم	٧٢
مالك بن الحارث	٧٤
كبشة بنت معد يكرب	٧٥
عمرو بن يزيد بن عبدالله	٧٥
الحارث الخولاني	٧٥
وضّاح الصنعاني	٧٦
أعشى همدان	٧٦

الاسم	الصفحة
أبو قبان التجيبي	٨١
أبو مصعب البلوي	٨١
يحيى الخولاني	٨٣، ٨٤
المعلّى الطّائي	٨٣
طاهر القيسي	٨٤
ذو جدن الحميري	٨٦
عدي بن الرقاع	٩٣
حكيم بن عياش الكلبي	٩٤
النجاشي الشاعر اليماني	٩٥
بشر بن ربيعة	٩٧
نشوان الحميري	١١١، ١١٢
مسلم بن العليف	١١٤
علي بن سليمان الأسلمي	١١٥
عمرو بن براقة، مالك بن حريم، عمرو بن يزيد العوفي، عمرو بن يزيد المغرق، امرؤ القيس، القمقام بن البياهل، مالك بن كعب، أبو رهم، حارثة بن سراقة، ابن قرط البلوى، قيس بن سيار، عمرو بن رباءة، سيف بن عمر الوهبي، مالك بن ملالة، علقمة بن مالك، الأسفع بن الأوبر، مالك بن عمرو الزبيدي، يزيد بن ثمامة	١٢٢
عمرو بن معد يكرب، قيس بن المكشوح، الأشتر النخعي، عمرو بن يزيد السعدي، عمرو بن يزيد الغالبي، فروة بن مسيك، خنافر بن التوأم، وهب بن منبه، الحارث بن سمي الهمداني، أعشى همدان، وضّاح اليمن، علقمة بن ذي جدن	١٢٢ ـ ١٢٣
إبراهيم الأنباري، أبو العلكم المرّاني، عبدالرزاق الصنعاني، عبدالملك الذماري، موسى بن طارق، أبو السمط، بشر البلوى، بكر بن مرداس، أبو الهول الحميري، مطرف بن مازن، يعلى بن عمرو، الحارث بن عمرو، ابن السلماني، محمد بن أبان، عبدالملك الحارثي، أحمد بن يزيد القشيبي	١٢٣

الاسم	الصفحة
عبدالخالق بن أبي الطلح، عبدالله بن عباد، الغطريف بن الضحاك، أبو نصر الحفيصي، أبو بكر بن أحمد، ابن أفنونه، ابن أحمد بن عيسى بن مناذر، موطل الصنعاي، عبدالله بن رازم الحارثي	١٢٤
الحسن الهمداني، الإمام الهادي، ابن أبي البلس، أحمد بن عبدالله بن عباد، محمد بن إبراهيم، إبراهيم الحوالي، إبراهيم بن الجدوية، التبع بن عبدالله، زيد بن أبي العباس	١٢٣ ـ ١٢٤
المفضل الجندي، المغيرة العدني، البوسي، التقوي، القاسم بن محمد الجمحي، محمد بن القاسم، القاسم العياني	١٢٥
عمرو الهيثمي، عبدالله بن يعلى، ابن القم، عبدالله اللعقي، عمران الهمداني، أبو بكر العبدي، عمارة اليمني، محمد الماربي، علي بن حمزة، الملك جياش، العثماني، الغرنوق، ابن مكرمان، السلطان حاتم، يحيى بن محمد الحسيني، السلطان الخطاب، السلطان سليمان، سالم بن عمران، حاتم الصنعاني، عبدالله بن محمد الصنعاني	١٢٦
عيسى الربعي، إسماعيل الربعي، أحمد التهامي، الحسن بن أبي عقامة، أبو بكر اليافعي، الحسن بن أبي عباد، يحيى بن أبي الخير، يحيى بن أبي أحمد، عبدالنبي بن مهدي، محمد بن عبدالله الحميري، نشوان بن سعيد الحميري .	١٢٦
حاتم بن أسعد، ابن النسّاخ، ابن الأحمر، ابن هتيمل، عبدالله بن جعفر، ابن دعاس، علوان بن بشر، مدرك ابن حاتم، عبدالقادر السودي، الحافظ الديبع، العماد الشيزي، ابن منقذ، محمد بن حمير، أحمد بن المنصور، إسماعيل المقري أخو كندة، علي بن يحيى العنسي، يوسف العنسي، العفيف عبدالله بن جعفر، علي بن أحمد المشرقي، يحيى بن المحسن، عبدالله بن حمزة، أحمد بن سعيد، الحسن بن بدر الدين، الهادي بن إبراهيم الوزير، محمد بن إبراهيم الوزير	١٢٨
موسى بهران، محمد بن يحيى بهران، محمد الحوالي، عبدالرحمٰن النزيلي، يحيى العامري، شهاب بن أحمد، الفرادي، الجيني، التحازي، الحبيشي، عيسى بن لطف الله، الشريفة زينب، سعيد بن صالح، اليافعي، الناخوذة، عبدالله بن شرف الدين، محمد بن عبدالله البرعي، الغرباني	١٣٠

الاسم	الصفحة
صلاح المويدي، الهندي شعبان سليم، الهبل، الأمير، إسماعيل بن صلاح، الجلال، المقبلي، الشوكاني، علي محمد العنسي عبدالرحمٰن البهكلي، محمد بن إسحاق، عبدالله الوزير هاشم الشامي، محمد الشامي أبو الرجال، المرهبي، العصامي، العماري، أبو طالب، عبدالقادر بن أحمد، الأبي، الزنمة، العادل، الجراح	١٣٠
ابن شاجر، عبدالرحمٰن الآنسي، عبدالله الشامي، الخفنجي، يحيى جحاف، محسن عبدالكريم، المفتي	١٣٠
أحمد بن لطف الباري الزبيري، محمد بن عبدالكريم، محمد زبادة قاسم العزي، عبدالوهاب الشماحي، يحيى الإرياني، عبدالله العيزري، يحيى بن الهادي، أحمد منصور، الدعيس، محمد كوكبان، الإمام أحمد، محمد حميد الدين، محمد الحجري، أحمد الحضراني، علي عقبات العرشي، محمد الشامي، عبدالكريم مطهر، أحمد الوريث، أحمد المطاع، عبدالله العزب، حامد المحضار، عبدالرحمٰن بن عبيدالله، أحمد السالمي، نعمان القدسي، أحمد نعمان، محمد محمود الزبيري، زيد الموشكي، حسين الويسي، عبدالكريم الأمير، محمد عاموه، إبراهيم الحضراني، أحمد محمد الشامي، إبراهيم الوزير، زيد بن علي الوزير، قاسم بن علي الوزير، عبدالعزيز نصر، عبدالله البردوني	١٣٢
قيسبة بن كلثوم	١٥٩
ناصر أحمد الفقيه	١٦٢
علي ناصر القردعي، أحمد ناصر القردعي، عبدالولي الذهب، محمد صالح جميزة، عبد ربه الحميقاني، أحمد الحضراني، ناجي علي الغادر، ناصر أحمد الفقيه، محمد الصوفي	١٦٣
محمد بن حسين الكوكباني، عيسى بن لطف الله، محمد بن عبدالله شرف الدين	١٦٩
أحمد بن فليتة عبدالله المزّاح، عبدالرحمٰن العلوي، عبدالرحمٰن الآنسي ...	١٧٠
عبدالرحمٰن الآنسي	١٧٤
علي المؤيد، إسماعيل الجرافي	١٧٨

الاسم	الصفحة
عبدالله القشنشلي، الخفنجي، القاره، الفسيل، شغدر، القرواني أبو طالب، الشامي	١٧٩، ١٨٠
المشرعي، العنسي	١٨١
علي بن زايد	١٨١، ١٨٢
جابر بن عمر البهراني	١٨٦
محمد بن أباني	١٩٩
بلقيس ملكة سبأ، عمرة بنت زيد	٢٠٨
سلامة ابنة إبراهيم، أسماء بنت شهاب، أروى الصليحية، فاطمة بنت المرتضى، صفية بنت المرتضى، فاطمة بنت علي، دهماء بنت يحيى المرتضى، فاطمة بنت المهدي، بدرة بنت محمد، فاطمة الحسينية، فاطمة بنت الحسن	٢٠٨، ٢٠٩
فاطمة الحمزية، زينب الشهارية، غزال المقدشية	٢٠٩
أحمد المروني، علي العنسي، علي حمود الديلمي، أحمد سلامة، أحمد البراق	٢١٣
محمد أحمد الشامي	٢١٤
مالك بن حريم	٢١٥
كثير بن الصلت، يعلى بن سعد	٢١٥
سيف بن معاوية	٢١٦
جمال بن عبد	٢١٦
يزيد بن ثمامة	٢١٧
مالك بن ملالة، علقمة بن مالك، سليما بن عمرو	٢١٧
الشاعرة المرهبية، بكر بن مرداس	٢١٨
ابن السلماني	٢١٩
محمد بن أبان، العوسجي	٢١٩
بشر البلوي	٢٢٠
عبدالخالق الشهابي	٢٢١
عبدالله بن عباد	٢٢٩

الاسم	الصفحة
أحمد بن عباد	٢٣١
الإمام الهادي	٢٣٤
ابن الجدويه	٢٣٧
الهمداني	٢٣٨
إبراهيم بن محمد	٢٣٨
ابن القم	٢٣٩
خلف بن أبي الطاهر، السلطان زكرى	٢٤٠
الملك جياش	٢٤١
الملك علي الصليحي، عمرو الهيثمي	٢٤١
القاضي العثماني	٢٤٢
السلطان الخطاب الحجوري	٢٤٣
السلطان سليمان الحجوري، السلطان حاتم	٢٤٦
الهبيني	٢٤٦
أبو بكر العيدي	٢٤٧
اليافعي	٢٤٨
علي بن مهدي	٢٤٩
نشوان الحميري	٢٥٠
عمارة اليمني	٢٥٠
ابن النساخ	٢٥٢
عبدالله بن حمزة	٢٥٤
يحيى بن المحسن، يحيى بن العمك	٢٥٦
محمد بن جمير	٢٥٧
ابن هتيمل	٢٥٩
عبدالله بن جعفر	٢٦١
مطهر بن محمد	٢٦٢
ابن روبك	٢٦٣
إسماعيل المقري	٢٦٣

الاسم	الصفحة
الإمام شرف الدين، عبدالله بن شرف الدين	٢٦٤
السودي، ابن مغل	٢٦٥
الحسن بن علي الهبل	٢٦٥
إبراهيم الهندي	٢٦٨
محمد المرهبي	٢٧١
الشرريفة زينب الشهارية	٢٧٩
يحيى جحاف	٢٨١
أحمد الزنمة	٢٨٢
سعيد السمحي	٢٨٦
محمد بن علي الغرباني	٢٨٧
علي بن محمد العنسي	٢٩٢
حسين بن علي	٢٩٧
شعبان سليم	٢٩٨
هاشم بن يحيى الشامي	٢٩٩
عبدالله العادل	٣٠٣
محمد بن إسحاق	٣٠٤
حسن بن إسحاق	٣٠٥
محمد بن إسماعيل الأمير	٣٠٦
حسين بن عبدالقادر	٣٠٩
يحيى بن محمد الحوثي	٣٠٩
محمد بن هاشم الشامي	٣١٢
عبدالله بن حسين الشامي	٣١٤
إسماعيل الطلّ	٣٢٠
علي بن صالح العماري	٣٢١
أحمد بن حسين المفتي	٣٢٦
أحمد الزبيري	٣٢٧
محمد بن أحمد الشامي	٣٢٨

الاسم	الصفحة
محمد بن عبدالرحمٰن كوكبان	٣٢٩
أحمد الحضراني	٣٢٩
عبدالرحمٰن الإرياني	٣٣١
محمد محمود الزبيري	٣٣٢
إبراهيم الحضراني	٣٣٣
عبدالوهاب الشامي	٣٣٤
أحمد بن محمد الشامي	٣٣٥

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
آية من الذكر الحكيم	٥
المقدّمة	٧
حضارة اليمن	١١
مع علماء التاريخ	٢٢
اللّغة	٣٤
الشعر والشعراء	٥٩
عصبية العِرق ومعركة القحطانية والعدنانية	٩٢
الدَّوامغ	١١٤
موجز تاريخي	١٢١
أدب المهاجرين	١٣٣
خصائص الشعر اليمني والنقد الذّاتي	١٣٨
المسند	١٤٥
الكتابة وأصل الخط العربي	١٥٦
الأدب الشعبي	١٦١
الزّامل	١٦٢
القصيد	١٦٣
الغناوي	١٦٦
الشعر الحميني	١٦٨
مع ستة شعراء	١٨٣

الموضوع	الصفحة
(١) عمرو بن زيد (المغرق الأكبر)	١٨٣
(٢) عمرو بن زيد الغالبي	١٨٥
(٣) عمرو بن يزيد السعدي	١٩٠
(٤) عمرو بن زيد العوفي	١٩٢
(٥) أحمد بن يزيد القشيبي (الكبير)	١٩٧
(٦) ابن يزيد القشيبي (الثاني)	٢٠٢
شهيرات النساء	٢٠٨
العصر الحديث	٢١٠
الصحافة	٢١٢
الإذاعة	٢١٤
شواهد	٢١٤
خاتمة	٣٣٨
فهرس أعلام أدباء اليمن	٣٣٩
فهرس الموضوعات	٣٤٧